

د. رمسيس عوض

أبرز ضحايا مجازم القذافي

جائيلو - سافونارولا - برونو





# أبرز ضحايا محاكم التفتيش جاليليو - سافونارولا - برونو

د. رمسيس عوض



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٥

# الألف كتاب الثاني

نافذة على الثقافة العالمية

المشرف العام

أ.د. سمير سرحان

رئيس التحرير

أ.د. محمد عناني

مدير التحرير

عزت عبد العزيز

الإشراف الفني

وتصميم الغلاف

محسنة عطية

سكرتير التحرير

هند فاروق

تصحيح

محمد حسن

بدر شفيق



## الفهرس

### ولكنها تدور

#### (جاليليو جاليلى)

الموضوع	الصفحة
تصدير .....	١١
الفصل الأول	
حياته فى بيزا .....	١٣
الفصل الثانى	
جاليليو يحاضر فى جامعة بادوا .....	٢٠
الفصل الثالث	
صراع جاليليو مع أتباع أرسطو .....	٣٠
الفصل الرابع	
نذر الخطر تتجمع حول جاليليو .....	٤٩
الفصل الخامس	
حياة جاليليو فى الفترة من ١٦١٧ حتى المحاكمة عام ١٩٣٣ .....	٧٦
الفصل السادس	
إصدار الحكم وتراجع المتهم عن آرائه. ....	١٢٣
الفصل السابع	
جاليليو فى أيامه الأخيرة .....	١٣٦
الفصل الثامن	
رد الاعتبار إلى جاليليو .....	١٥٢

## الموت شتقاً فحرقاً

(جيرولامو سافونارولا)

طفولة وحيدة حزينة والطريق إلى الرهبنة (ص ١٦٥) - أحوال فلورنسا في زمن سافونارولا (ص ١٧٢) - أول إقامة لسافونارولا في توسكاني ورحلاته إلى لومباردي وعودته إلى فلورنسا (ص ١٧٥) - فلسفة سافونارولا (ص ١٨٢) - كتيبات سافونارولا عن الدين المسيحي وتفسير الأناجيل (ص ١٨٦) - سافونارولا يعظ أهل فلورنسا ويحض على كراهية حاكمها لورنزو «الرائع» (ص ١٨٨) - موت لورنزو دي مديسيس والبابا إنوسنت الثامن ورحلة سافونارولا إلى بولونيا والإصلاحات التي تمت في الدير (ص ١٩٢) - سافونارولا يواصل الوعظ في فلورنسا (ص ١٩٩) - الغزو الفرنسي لإيطاليا عام ١٤٩٤ (ص ٢٠٢) - الفرنسيون يطردون عائلة المديسيس الحاكمة من فلورنسا وسافونارولا يزور معسكرات الجيش الفرنسي (ص ٢٠٥) - ثورة بيزا ودخول ملك فرنسا شارل الثامن فلورنسا وجلاؤه عنها (ص ٢٠٩) - حالة فلورنسا بعد جلاء القوات الفرنسية عنها واقتراح سافونارولا بإقامة شكل جديد للحكم (ص ٢١٤) - رجوع ملك فرنسا إلى بلاده وأنصار بييرو دي مديسيس يساعدونه على محاولة العودة إلى فلورنسا (ص ٢٢٢) - البابا يستدعي سافونارولا إلى روما ويمنعه من الوعظ وسافونارولا يرفض تعيينه كاردينالاً (ص ٢٢٦) - سافونارولا يعود إلى التبشير (ص ٢٣٤) - أخطار جديدة أحاقت بفلورنسا والراهب سافونارولا (ص ٢٣٩) - تعيين فرانسكو فالوري مسؤولاً عن إقرار العدل ودفاع سافونارولا عن الشعر (ص ٢٤٤) - موعظة سافونارولا عن النبي حزقيال وفشل فلورنسا في الاحتفاظ براهبهم سافونارولا (ص ٢٤٨) اندلاع أعمال الشغب في فلورنسا وصدور الأمر البابوي بحرمان



سافونارولا الكنسى وانحسار الأوبئة (ص ٢٥٢) . سافونارولا يعود إلى الوعظ والبابا يعود إلى التهديد (٢٥٩) . منع سافونارولا من التبشير والبابا يستمر فى تهديداته (ص ٢٦٥) . الكثيرون من أهل فلورنسا يتخلون عن سافونارولا (ص ٢٧٠) . الزج بسافونارولا فى السجن (ص ٢٧٥) . التحقيق مع سافونارولا وعجز المحققين عن إثبات أنه مذنب (٢٨١) . توسيع نطاق المحاكمات وسافونارولا يؤلف كتابه الأخير فى حبسه الانفرادى (ص ٢٨٦) . النهاية : العودة إلى تعذيب سافونارولا وتقديمه للمحاكمة للمرة الثالثة وتنفيذ حكم الإعدام فيه رغم براءته (ص ٢٩٠) .

## الموت حرقاً

(جيوردانو برونو)

مقدمة (ص ٣٠١) - سيرة حياته ومؤلفاته ونهايته المأساوية (ص ٣١٦) - زيارة برونو الأولى إلى باريس (ص ٣٢٥) - كتابات برونو الباكرة (ص ٣٣٢) - مؤلفات برونو المنشورة في لندن في عصر الملكة إليزابيث الأولى (ص ٣٣٤) - عن السبب والمبدأ والواحد (٣٣٩) - الكون اللانهائي وعوالمه (ص ٣٤١) - كتاب طرد الوحش المنتصر الذي اقترحه جوف وحققه المجلس وأماط ميركيوري اللثام عنه ورواه صوفيا وسمعه صولينو ودونه النولاني (ص ٣٤٥) - جمعية الخيول السرية مثل بيغاسوس مع إضافة حمار سيلين (٣٤٩) - جموح العشق (ص ٣٥١) - الكتب الجديدة التي أصدرها برونو أثناء زيارته الثانية لباريس (ص ٣٥٤) - الأعمال التي ألفها برونو ونشرها في مدينة ويتتبرج الألمانية (ص ٣٥٦) - برونو في كل من براغ وهلمستدت (ص ٣٥٨) - برونو في فرانكفورت وزيوريخ (ص ٣٦٢) - كتب برونو الأخيرة وقصيدته المنظومة باللغة اللاتينية (ص ٣٦٦) - عن اللامحدود (ص ٣٧٠) - ترتيب الصور والإشارات والأفكار (ص ٣٧٢) - عودة برونو إلى البندقية وبادوا (ص ٣٧٤) - خاتمة (ص ٣٨١) - كتب وأبحاث أخرى للمؤلف (ص ٣٨٥).



ولكنها تدور

جاليليو جاليلي

(١٥٦٤ - ١٦٤٢)





## تصدير

كلنا نعرف الرواية التي تقول، إن جاليليو الذى أضناه السقم والمرض بعد أن أرغمته الكنيسة الكاثوليكية فى شيخوخته على إنكار اعتقاده بأن الأرض تدور حول الشمس دورة كل أربع وعشرين ساعة، خرج من قاعة المحكمة منكسراً ذليلاً ومنسحقاً أمام قوى الجهل والظلام وهو يتمتم أثناء انصرافه «ولكنها تدور». ورغم أنه لا يوجد دليل وثائقي ينص على صحة هذه الرواية، فلا ريب أنها تعبر أصدق تعبير عن حالة الهوان والإحباط التي كابدها، كما تعبر عن تشبثه المستميت بحقائق العلم الذى فشل الاضطهاد والتتكيل الرهيب فى القضاء عليه. ولهذا آثرت أن أختار عبارة «ولكنها تدور» عنواناً لكتاى، حتى وإن كانت هذه العبارة ضرباً من الأساطير.

د. رمسيس عوض





## الفصل الأول

### حياته في بيزا

ولد عالمنا جاليليو جاليلي Galileo Galilei في مدينة بيزا الإيطالية عام ١٩٦٤، في نفس السنة التي توفي فيها الفنان الإيطالي المعروف مايكلانجلو، وفي نفس العام الذي ولد فيه الشاعر المسرحي الإنجليزي وليم شكسبير. وهو ينحدر من عائلة فلورنسية عريقة المحتد، تقلد أربعة عشر من أفرادها في مناسبات متعددة أرفع المناصب في جمهورية فلورنسا في الفترة بين عامي ١٣٤٣ و ١٥٢٨. وكان لجاليليو جد أكبر اسمه توماسو Tommaso. كما كان لتوماسو حفيد سماه جاليلي. وذاعت شهرة هذا الحفيد حتى أضحى طبيباً يشار إليه بالبنان تم تعيينه عام ١٤٢٨ أستاذاً في مدرسة الطب بجامعة فلورنسا. وقد وقع على هذا الطبيب الاختيار مرتين: إحداهما في عام ١٤٣٠ والأخرى عام ١٤٤٥؛ لينضم إلى الهيئة الحاكمة في جمهورية فلورنسا ثم أصبح في عام ١٤٤٥ قاضى القضاة فيها. وأحيط في حياته ومماته بأعظم آيات التكريم والتقدير فتم دفنه في أرض كنيسة سانتا كروتشى بفلورنسا، حيث أقام له ابنه شاهداً على قبره يحمل الكلمات التالية: هنا يرقد السيد جاليليو الجاليلي المعروف سابقاً بسليل عائلة البنايوتى. وكان في حياته يشغل وظيفة رئيس قسم الفلسفة والطب، وكذلك قاضى القضاة في الجمهورية التي أحبها حباً رائعاً. وقد قام ابنه بنيديتو Benedetto بتخليد ذكرى والده الطاهر الورع بإقامة هذا الشاهد فوق مثواه الأخير.

كان والد عالمنا جاليليو الذى يدور هذا الكتاب حوله موسيقاراً رقيق الحال يدعى فنسنزيو Vincenzo يحترف العزف على القيثارة ويهوى العلوم الرياضية. ورغم ضيق

ذات يده، فقد كان يتمتع بثراء عقلى وفكرى موفور وبالقدرة على إجراء البحوث فى مجال الموسيقى التى درسها على يد زالينو، ولكن جنوحه إلى الاستقلال فى رأى جملة ينتقد أستاذه والأفكار الموسيقية التقليدية والمتوارثة. فهو يقول: «يبدو لى أن هؤلاء الذين يؤكدون آراءهم اعتماداً ببساطة على الآراء الموروثة دون أن يقدموا أية حجج لإثبات معتقداتهم يتصرفون على نحو مضحك للغاية، فأنا على العكس من ذلك أرغب فى السماح لى بحرية البحث والاستقصاء وحرية الإجابة عن التساؤلات دون تأليه أو تمجيد، كشأن جميع الذين يخلصون فى البحث عن الحقيقة».

تزوج فنسنزيو من جيوليا أمانتى وأنجب منها ثلاثة ذكور أكبرهم عالمنا الكبير جاليليو وشقيقاه مايكلانجلو وبنيديتو الذى مات فى طفولته، كما أنجب منها أربع بنات، هن: فيرچينيا (التي عُرفت باسم سيلست Celeste)، وأنا التى لا يعرف الدارسون عنها شيئاً، وليفيا التى لا نعرف عنها الكثير، ولينا التى لا نعرف عنها غير النزر اليسير. قلنا إن جاليليو ولد فى بيزا عام ١٥٦٤، وإذا شئنا الدقة جاءت ولادته فى الخامس عشر من شهر فبراير فى العام المذكور. وفى بيزا تلقى عالمنا تعليمه الأولى، كما أن والده فنسنزيو ساعده فى تعلم اللغتين الإغريقية واللاتينية اللتين كان يجيدهما. وفى نحو الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره، التحق اليافع جاليليو بدير فالمبروزا بالقرب من فلورنسا، حيث توفر على دراسة الآداب والعلوم الإنسانية. وترك تعليمه الباكر للكلاسيكيات اليونانية واللاتينية بصماته الواضحة على أسلوبه اللاحق فى الكتابة، حيث إن هذا الأسلوب تميز بالأناقة والحدة الجارحة، وفى دير فالمبروزا تولى أحد الرهبان تعليمه المنطق. ودفعته الحياة بين رهبان الدير إلى الانجذاب نحو الدين. ولكن والده صرفه عن الاستغراق فى الدين لما توسمه فى ابنه من نبوغ، وانتهاز فرصة إصابة ولده بمرض رمدي لإخراجه من الدير. والجدير بالذكر أن الشاعر الإنجليزي الكبير جون ميلتون زار فالمبروزا أثناء إقامته فى فلورنسا فى خريف ١٦٣٨ وربيع ١٦٣٩. وفى صدر حياته أظهر جاليليو مهارة فائقة فى فن الرسم لدرجة أنه عندما تقدم به العمر قال لأصدقائه، إنه لولا ظروفه لاختار أن يصبح رساماً. وبسبب شدة شغفه بفن الرسم سعى بعض الرسامين لأخذ رأيه فيما يرسمونه من لوحات. واعتاد الرسام كيجولى Cigoli، على وجه الخصوص القول بأنه يدين بالفضل لجاليليو الذى تعلم منه الاهتمام «بالتطور» ولما أسدى إليه من نصح وقدم له من تشجيع. ولم يقتصر اهتمام جاليليو على فن الرسم بل امتد إلى تذوق الشعر؛ وعلى الأخص شعر

دانتي وأريوستو Ariosto وتاسو Tasso. وبسبب ما أظهره جاليليو في شبابه من مواهب متعددة، توسم له أبوه مستقبلاً علمياً زاهراً واختار له دراسة الطب وصرفه عن الاشتغال بالموسيقى وعلم الرياضيات بسبب قلة العائد منهما. ولهذا ألحقه والده في ٥ سبتمبر ١٥٨١، وهو في السابعة عشرة والنصف لدراسة الطب في جامعة بيزا. ولأن أهله غادروا بيزا وعادوا إلى فلورنسا أقام جاليليو في منزل أحد أقربائه. وفي بيزا تلقى جاليليو دروسه في الفلسفة والطب على يد واحد من جهابذة الطب وعلم النبات اسمه أندريا كاسالينو Casalpino، الذي شغل منصب أستاذ كرسى علم الطب في جامعة بيزا في الفترة من عام ١٥٦٧ حتى ١٥٩٢.

يقول فيفياني تلميذ جاليليو ومريده وأول من سطر سيرة حياته إن أساتذته للفلسفة لم يكونوا راضين البتة عن أدائه؛ بسبب رفضه قبول أية نظريات أو أفكار على علتها دون تمحيض أو تدليل. ومعنى هذا أن جاليليو في هذا الشأن حذا حذو والده لدرجة أن أساتذته وأقرانه الطلبة لقبوه «المشاكس». وبطبيعة الحال لم يرض أساتذته عن تشككه في صحة آراء أرسطو وأفلاطون والقديس توماس الأكويني. وخلق بنا أن تنوء بتمتع عالمنا بدقة الملاحظة منذ وقت باكر. فقد لاحظ الانتظام في حركة شمعدان كاتدرائية بيزا، الأمر الذي أوحى له باختراع بندول الساعة. والغريب أن جاليليو الذي أولى الفيزياء في بفاعته عظيم اهتمامه، ظل حتى التاسعة عشرة من عمره لا يعرف غير النزر اليسير عن علم الرياضيات التي شاعت الظروف أن يستسيغها في شتاء وربيع عام ١٥٨٢ / ١٥٨٣، عندما جاء إلى بلاط مملكة توسكانيا كعادته للإقامة في بيزا وبرفقته أستاذ رياضيات نابيه يدعى أوستيليو ريكي Ostilio Ricci بتكليف من الدوق لتدريس الرياضيات لبعض أفراد حاشيته. وتصادف أن كان ريكي صديقاً لعائلة جاليليو أثناء وجودها في فلورنسا. ولهذا كان من الطبيعي أن تتوثق عرى الصداقة بينه وبين جاليليو. وفي يوم من الأيام سمعه جاليليو وهو يشرح داخل إحدى الغرف نظريات إقليدس إلى نفر من حاشية الدوق فاسترق جاليليو السمع إلى شرحه، وهو يختفى وراء الباب فاستحوذ الشرح على لبه وغمره شعور جديد بالانتشاء، مما جعله يكثر التنصت على شروح ريكي. وراقت له الرياضيات بشدة فقرر التبحر فيها، وفي نفس الوقت شعر بالنفور من دراسة الطب. وأخيراً استجمع جاليليو شجاعته، واعترف لريكي بما كان يفعل ورجاه أن يعلمه المزيد من هذا العلم الحبيب إلى قلبه، فأجابه ريكي بكل سرور إلى طلبه.



وعندما أخبر ريكى والد جاليليو بولع ابنه بتعلم نظريات إقليدس وعزوفه عن دراسة الطب وأساطينه أمثال أبوقراط وجالين، سعى الأب جاهداً لإثاء ولده عن دراسة الرياضيات التي اعتبرها مهنة تورث الفقر لصاحبها. ولكن جاليليو استمر في تعلم الرياضيات متجاهلاً اعتراض أبيه عليها، فاضطر الأب إلى الرضوخ والاستسلام لرغبة ابنه. وساعده على هذا الاستسلام ضيق ذات يده وكثرة عياله وعدم تمكنه من الاستمرار في الإنفاق على تعليم ولده بالجامعة. وفي نهاية عامه الثالث في الجامعة (١٥٨٤)، رفع الأب التماساً إلى سعادة الدوق العظيم فرديناند الأول؛ كي يمنح ابنه إحدى المنح الأربعين المجانية المخصصة للطلبة الفقراء، ولكن مشاكسات الابن مع أساتذته في الجامعة جعلتهم يرفضون إعطاءه هذه المنحة. وهكذا اضطر عالمنا إلى قطع دراسته الجامعية والعودة في صيف ١٥٨٥ إلى أسرته في فلورنسا بدون الحصول على شهادة الدكتوراه. ولكن حبه للرياضيات والفيزياء جعله يواصل دراستهما تحت إرشاد صديق العائلة أوستيليو ريكى، وبعد أن أتم جاليليو دراسة نظريات إقليدس انتقل إلى دراسة نظريات أرشميدس في علم الميكانيكا. وفي عام ١٥٨٦، تمكن جاليليو من اختراع الميزان الهيدروستاتيكي؛ لاستخدامه في معرفة الوزن الدقيق لأي معدن في أي مزيج يتكون من معدنين. وقد نشرت أبحاثه في هذا الموضوع في عام ١٦٤٤، أي بعد عامين من وفاته. وبسبب هذا الاختراع وأمثاله درج مما صوره على تلقيبه بأرشميدس زمانه. وفي تلك الفترة المبكرة من حياته توثقت عرى الصداقة بينه وبين راعيه ومشجعه الماركيز جويدو بالدو من بيزاريو Guildo baldo del Monte، وبدأ نجم جاليليو يسطع في سماء إيطاليا عندما قام هذا الماركيز بتزكيته كعالم نابِه لدى فرديناندو الأول دوق توسكانيا العظيم.

وعلى الرغم من بزوغ نجمه فقد شعر والده بالإحباط، حيث كان يأمل أن يضطلع ابنه بعمل يدرّ عليه وعلى الأسرة دخلاً موفوراً يقيها من عثاها. وآلم جاليليو ما كابده عائلته من شظف العيش، فسعى إلى زيادة دخله عن طريق إعطاء بعض الدروس الخصوصية للطلبة في فلورنسا ومدينة سيينا المجاورة لها في مجال الرياضيات والميكانيكا، ولكنه كان يتطلع إلى شغل وظيفة مدرس في إحدى الجامعات الإيطالية. وفي منتصف عام ١٥٨٧، أصبحت وظيفة تدريس الرياضيات في جامعة بولونيا شاغرة. وحاول جاليليو شغل هذه الوظيفة دون جدوى، فقد فاز بها رجل غيره اسمه جيوفاني أنتونيو ماجيني Giovanni Antonio Magini الذي تظاهر بصداقة جاليليو، في حين أضمر له المَوجدة والبغضاء.

وفى أواخر عام ١٥٨٧، قام جاليليو لأول مرة بزيارة روما؛ حيث تعرف إلى الراهب كريستوفورو عالم الرياضيات المعروف، الذى يرجع إليه الفضل فى إصلاح التقويم عام ١٥٨٢. وفى عام ١٥٨٨، توفى مولينى الأستاذ بجامعة بادوا، ولكنه فشل فى أن يحل محله. ثم خلت إحدى وظائف التدريس فى جامعة بيزا التى كان قد تلقى فيها تعليمه. ولكن الفشل كان حليفه. أيضاً أخفق جاليليو فى الحصول على وظيفة تدريس الرياضيات فى جامعة فلورنسا. ومعنى ذلك أنه فشل نحو أربع مرات متتالية فى التعيين كمدرس فى الجامعة. فقد لفظته جامعات بولونيا وروما وبادوا وبيزا وفلورنسا. غير أن الحظ ابتسم له أخيراً، حين تمكن فى شهر يوليو عام ١٥٨٩ من شغل وظيفة أستاذ الرياضيات بجامعة بيزا بمساعدة الماركيز جويدو بالدو وأخيه الكاردينال فرانسيسكو ماريا دى مونت، وعندما عينته جامعة بيزا لم يكن عمره يتجاوز الخامسة والعشرين والنصف، وكان العائد من وظيفته الجامعية ضئيلاً.

شغل جاليليو وظيفة التدريس فى بيزا فى الفترة من عام ١٥٨٩ حتى ١٥٩٢؛ حيث واصل دراساته الهندسية والفيزيائية بكل جد واجتهاد، وهناك توفّر على دراسة مركز الجاذبية ووصل فيها إلى نتائج أثارت إعجاب راعيه الماركيز دل مونت. وفى بيزا اكتشف المنحنى الهندسى المعروف بالدويرى Cycloid وحاول حل مشكلة التربيع Quadrature، وكذلك أولى دراسة حركة الأجسام جل اهتمامه، الأمر الذى جعله يعيد النظر من جديد فى أفكار أرسطو فى مجال الميكانيكا ويضعها موضع الاختبار. وإحفاً للحق يجدر بنا أن نقول، إن الرسام المعروف ليوناردو دافنشى (١٤٥٢ - ١٥١٩) سبق جاليليو فى التعبير عن شكه فى صحة الفكر الأرسطاطاليسى فى مجال الميكانيكا، ولكن نقد دافنشى لأرسطو ظل حبيس الأدراج على عكس تشكك جاليليو فى صحة الميكانيكا الأرسطاطاليسية، الذى ذاع وانتشر حتى أصبح ثورة عارمة ضد المنهج الأرسطاطاليسى برمته. ولا غرو، فقد درج عصر النهضة، وهو العصر الذى عاش فيه جاليليو على إعادة النظر فى كل الموروثات سواء كانت فى ميدان العلم أو الدين. واستعان جاليليو بالتجربة لإقناع الآخرين بصحة نقده لأرسطو.

قام جاليليو فى مبحثه المكتوب عام ١٥٩٠ بعنوان: «عن حركة الجاذبية De Motu Gravium» بوضع أسس علم الديناميكا، وظل هذا البحث قيد المخطوطات لا يرى طريقة إلى النشر حتى مرور قرنين على وفاته. غير أنه ضمّن فيما بعد هذه

الأسس في عمله الضخم الهام الصادر عام ١٦٢٨ بعنوان: «حوار بين أهم نظامين عالميين» (Dialogue Concerning The Two Chief World Systems) (\*).

وهذان النظامان العالميان هما بطبيعة الحال النظرية البطلمية ونظرية كوبرنيكوس في الكون. ومن منصة التدريس في قاعة المحاضرات تصدى جاليليو بعنف وقوة للفكر الأرستاطاليسي الخاطئ، معتمداً على التجربة وليس على الأفكار المسبقة. وفي تجاربه المعروفة في مجال الحركة التي تدحض نظرية أرسطو اعتلى جاليليو برج بيزا المائل ليلقى بجسمين مختلفين في الثقل وزن أحدهما عشرة أرطال، ووزن الآخر رطل واحد ليكتشف أن الجسمين يسقطان على الأرض في نفس الوقت تقريباً، وأن الاختلاف في وقت سقوطهما يرجع إلى ما يجده الجسمان الساقطان من مقاومة الهواء لهما، وذلك على النقيض من نظرية أرسطو التي تقول، إن الجسم الأكثر ثقلًا يسقط على الأرض بسرعة أكبر من الجسم الأخف. غير أن أعضاء هيئة التدريس الذين تجمعوا أسفل برج بيزا لمشاهدة التجربة، والذين تبناوا نظرية أرسطو دون إعمال فكر رفضوا الاقتناع بنتيجة ما شاهدوه من تجربة وجأهروا ببغضائهم لجاليليو، وظلوا يرددون نظرية أرسطو المعلم الأول التي تقول: إن الجسم ذا الأرطال العشرة يستغرق في سقوطه على الأرض عُشر الزمن الذي يستغرقه الجسم ذو الرطل الواحد. ولم يقتنع بتجربة جاليليو سوى أستاذ فلسفة يدعى جاكوبو مازوني.

ولم يكتف زملاء جاليليو في جامعة بيزا بإظهار العداوة له، بل قاطعوه وما انفك يضايقونه حتى أصبح من العسير عليه الاستمرار في عمله، وزاد من عسر موقفه أن مدير ميناء ليجهورن واسمه المهندس جيوفاني دي مديسيس اخترع آلة ضخمة لاستخدامها ككراكة لرفع الأثقال. وقدم هذا المهندس نموذجاً للكراكة للدوق العظيم لإقناعه بجداوها، ولكن الدوق كلف جاليليو بفحص الآلة وكتابة تقرير عنها، وقرر جاليليو أن الكراكة عديمة الفائدة، وهو ما تأكد عندما وضعت هذه الآلة موضع الاختبار. واغتاز المهندس الذي صمم الآلة من جاليليو فكاد له وحرص الطلبة ضده، فكانوا يستقبلون محاضراته بالضجيج وهمسات الاستنكار. وعندما تبين لجاليليو أن استمراره في عمله بجامعة بيزا أصبح مستحيلاً قدم استقالته قبل أن تنتهي مدة تعاقدته معها بثلاثة أعوام، ثم عاد مرة أخرى إلى فلورنسا، في منتصف عام ١٥٩٢

(\*) يعرف هذا الكتاب أحياناً باسم «حول أنظمة العالم الكبرى».

تقريبًا. وزاد الطينة بلة أن الجامعة كانت تخصص من راتبه الضئيل أجر المحاضرات التي يتغيب عنها، حتى لو كان تغيبه راجعًا لأسباب قهرية مثل فيضان نهر الأرنو الذي حال دون وصوله إلى مقر عمله، أو مرض أمه واضطراره إلى أن يعودها. وعبئًا شكًا جاليليو من هذا الإجراء التعسفي، فقد أبت الجامعة قبول عذره وخصمت عُشر راتبه السنوي. ويبدو على أية حال أنه كان يفكر في ترك العمل في جامعة بيزا؛ لأنه في أوائل عام ١٥٩٠ طلب من راعيه الماركيز دل مونت مساعدته في شغل وظيفة أستاذ كرسى الرياضيات في جامعة بادوا والتي خلت في ٢ يناير ١٥٨٨ بموت شاغلها موليني، ولكن بادوا رفضت تعيينه فيها.

والجدير بالذكر أن جاليليو كان ذواقًا للأدب قراءة وتأليفًا، وينتمى معظم إنتاجه الأدبي إلى تلك المرحلة من حياته. ففي عام ١٥٩٠ كتب مسرحية هزلية سخر فيها من تعليمات الجامعة إلى أساتذتها بضرورة لبس الأرواب الجامعية أثناء إلقاء المحاضرات والسير في الشوارع وزيارة الأصدقاء، الأمر الذي زاد من غضب الدوائر الأكاديمية عليه. فضلًا عن أنه انتقد انتقادًا لاذعًا القصيدة التي ألفها الشاعر تاسو بعنوان: «تسليم أورشليم». ويقال إنه كان يحفظ عن ظهر قلب القصيدة التي نظمها أريوستو بعنوان: «أورلاندو الغاضب» وعبر عن شدة إعجابه بها. ويقدر مقالاته في الهجوم على الشاعر تاسو أعلى من شأن أريوستو وقرظه إلى عنان السماء. وإلى جانب ذلك، وضع جاليليو الخطوط العريضة لمسرحية نثرية من تأليفه. وتوثقت علاقته بالشاعر أنتونيو مالatesti الذي كان صديقًا لجون ميلتون. وترك جاليليو وراءه عددًا من قصائد الشعر المعروفة باسم السونيئات، منها سوناتة عن التليسكوب أهداها إلى الدوق العظيم. وأيضًا اكتشف البروفيسور فافارو ثلاث سوناتات أخرى من نظمته.

وفي ٢ يوليو عام ١٥٩١، مات فتنسنزيو والد جاليليو فتفاقت أحوال عائلته المالية، فأصبح العائل الوحيد لأمه وأخيه مايكلانجلو الموسيقار المتعطّل، وأخته ليفيا ولينا.



## الفصل الثانى

### جاليليو يحاضر فى جامعة بادوا

شغل جاليليو وظيفة أستاذ كرسى الرياضيات فى جامعة بادوا فى الفترة من عام ١٥٩٢ حتى ١٦١٠، وهى الوظيفة التى سبق أن فشل فى الحصول عليها. كرر جاليليو طلبه من الماركيز دى مونت أن يتوسط له لدى معارفه من المسئولين فى جامعة بادوا. وحزّم جاليليو متاعه متوجّهاً إلى البندقية فى طريقه إلى بادوا؛ حيث استقبله العالم بنيلى - وهو صديق الماركيز دى مونت - بحفاوة بالغة وأعطاه عددًا من خطابات التوصية، الأمر الذى أدى إلى وقوع اختيار جامعة بادوا عليه رغم وجود منافس حاقّد عليه هو جيوفانى ماجنينى Giovanni Magnini. تعاقد جاليليو مع جامعة بادوا للعمل بها كمحاضر لمدة أربعة أعوام مقابل راتب سنوى لا بأس به قدره ١٨٠ فلورينه. ونجحت جامعة بادوا فى اجتذاب الطلبة من كل أرجاء أوروبا إليها، مما وفر لجاليليو فرصة زيادة دخله بإعطاء الدروس الخصوصية. وعلى عكس جامعة بيزا أمهله جامعة بادوا فسحة من الوقت لترتيب أموره فى فلورنسا. وكذلك أعطته هذه الجامعة الوقت الكافى لإعداد خطبة يلقيها بمناسبة تسلمه العمل فى ٧ ديسمبر ١٥٩٢، وهو خطاب ترك أبلغ الأثر فى نفوس المستمعين بسبب عمقه وبلاغته وأناقة أسلوبه. ونزل جاليليو بعض الوقت ضيفاً على بنيلى الذى قيل إنه امتلك مكتبة تضم ثمانين ألف مجلد. ولم يدُر بخلده، وهو يسير فى شوارع بادوا ويتجول فى طرقاتها إن هذه المدينة سوف تقيم له يوماً ما تمثالاً تخليداً لذكراه واعترافاً بفضله.

وفى أثناء عمله فى بادوا أنتج جاليليو منذ السنوات الأولى عددًا كبيراً من البحوث النافعة لطلبته، وهى بحوث تتناول العمارة العسكرية وبناء الحصون والميكانيكا

والمجال Sphere وباقي متوازي الأضلاع Gnomonics. ولم تطبع هذه البحوث ولكنها انتشرت بين الطلبة في هيئة مخطوطات. ومن الأسف أن كثيراً منها اندثر. ومن المؤسف أيضاً أن بعض هذه الأبحاث وقعت في أيدي قلة من أصحاب الضمائر الميتة فقاموا بنشرها بعد نسبتها إلى أنفسهم.

كتب جاليليو مبحثه عن الميكانيكا Delle Scienza Meccanica في عام ١٥٩٤، وتناول فيه الرافعة ومخرطة البكرات واللولب والسرعة وقوانين الأجسام الساقطة. ويبدو أنه اضطر. بسبب رغبته في إرضاء رؤسائه في الجامعة. إلى تدريس نظرية بطلميوس الفلكية رغم عدم اقتناعه بصحتها، ورغم اقتناعه الشديد بنظرية كوبرنيكوس المنادية بدوران الأرض حول الشمس. ويتضح هذا في أول خطاب أرسله جاليليو إلى الفلكي الكبير كبلر Kepler، حيث يعترف باقتناعه بنظرية كوبرنيكوس، كما يشيد باقتناع هذا العالم بها. غير أن جاليليو يعترف في خطابه إلى كبلر بأنه لا يجرؤ على الجهر بنظرية كوبرنيكوس التي تناصبها الكنيسة العداء. يقول جاليليو في هذا الشأن: «لقد توصلت إلى مُحاجَّات وتقنيات كثيرة تهدم الآراء المعارضة لنظرية كوبرنيكوس، ولكني لم أجرؤ على نشرها خوفاً من أن ألقى نفس المصير الذي لقيه الرائد كوبرنيكوس الذي رغم علو شأنه وخلود اسمه بين عدد قليل من الناس، فإن أعداداً لا نهائية منهم (تتكون من الحشالة الغافلة) تسخر منه وتقابله بصيحات الاستهزاء. ولو كان هناك كثيرون أمثالك لتجاسرت وأذعت خواطري، وحيث إن الأمر ليس كذلك فسوف أستغرق وقتاً في التدبر والتفكير في هذا الموضوع».

وفي صيف عام ١٥٩٣، ألمت بجاليليو نزلة برد شديدة كادت أن تودي بحياته رغم قوة بنيانه. ورغم شفائه فإن آثار هذا المرض لازمت طيلة حياته، الأمر الذي جعله من وقت لآخر يعاني من الإرهاق والآلام الجسمانية ومن النزف والأرق وفقدان الشهية.. ولفت جاليليو بنبوغه الهندسي أنظار الدولة فأسندت إليه بعض المهام الهندسية والأعمال الإنشائية واختراع الآلات، مثل اختراع آلة صغيرة ذات قوة عالية يحركها حصان واحد لرفع الماء وتدفعه في عدة قنوات. وسجلت مدينة البندقية هذا الاختراع باسمه لمدة عشرين عاماً تبدأ في ١٥ سبتمبر ١٥٩٤. ووُضعت آلة رفع المياه هذه تحت الاختبار في حديقة قصر كونتاريني في البندقية فأثبتت كفاءتها.

وفي عام ١٥٩٦/١٥٩٧، اخترع جاليليو فرجاراً هندسياً وعسكرياً أثبت فائدته الكبيرة، الأمر الذي جعل العديد من البلاد الأوروبية تطلب إمدادها به. ولهذا قرر أن

يقيم ورشة في بيته لتصنيعه. ولكن شائيه لم يتركوه في راحة فادعوا أنهم الأصحاب الحقيقيون لهذا الاختراع، وأنه لا يعدو أن يكون سارقاً لاختراعهم، وكان بالداسار كابرا Baldassare Capra على رأس هؤلاء الأدعياء. وأمام هذه الادعاءات الباطلة اضطر جاليليو لإثبات ملكيته لهذا الاختراع منذ عام ١٥٩٧ أمام جمع محتشد من أساتذة جامعة بادوا، وهو ما أيدته شهادات ساجريدو وجياكومو بادوفير ومازولينى وجياكو ألفيس كارنارو والراهب باولو ساربي Paolo Sarpi، الذى أرسل خطاباً من البندقية بتاريخ ٢٠ أبريل ١٦٠٧ يؤكد فيه بطلان هذه الافتراءات، وأنه سبق لجاليليو منذ عشرة أعوام إطلاعه على اختراعه في حديقة بادوا وأنه فيما بعد أهداه نسخة من هذا الاختراع لا يزال يحتفظ بها.

وأمام هذا البرهان الدامغ على زيف ادعاء كابرا قررت جامعة بادوا في ٤ مايو ١٦٠٧ بالإجماع أن جاليليو هو صاحب الاختراع الحقيقي، واعتبرت أن الاتهام إهانة لجاليليو وجميع أعضاء هيئة التدريس بالجامعة الذين كان كابرا واحداً منهم. وطلبت الجامعة من كابرا تسليمها جميع نسخ البحث المتبقية التى نسب فيها الاختراع إلى نفسه، وأمرت باتخاذ كافة الإجراءات القانونية ضد طابعه وناشره معاً. وفيما بعد نشر جاليليو مبحثاً مفصلاً تناول فيه ادعاء زميله كابرا الزائف بعنوان: «دفاع ضد وشاية وادعاء بالداسار كابرا». ويرجع سبب وشاية زميله به إلى الغيرة المهنية، فقد ساءه أن يرى غريمه يحقق نجاحاً ساحقاً كمحاضر في جامعة بادوا.

ومن الواضح من الكتاب الذى نشره جاليليو عام ١٦٢٢ بعنوان: «المجرب» - IL Sag-giatore أن كابرا انتحل البحث من طالب ألماني التحق بجامعة بادوا اسمه سيمون ماير الذى ادعى أيضاً بأن جاليليو سرق منه بعض الاكتشافات الفلكية. وحين أدرك هذا الطالب الألماني أن أمره وأمر أستاذه كابرا قد انكشف قرر مغادرة إيطاليا على جناح السرعة تاركاً هذه الفضيحة الأكاديمية ينوء بها كابرا وحده.

وفي سبتمبر ١٥٩٨، انتهت مدة تعاقد جاليليو الأولى مع جامعة بادوا التابعة لجمهورية البندقية، ولكن مجلس شيوخ البندقية تردد في تجديد العقد رغم اعترافه بكفاءة جاليليو. حتى لا تضطر الجامعة إلى زيادة راتبه كما تقضى بذلك لوائح التجديد. وعملاً بنصيحة بعض أصدقائه أمثال بنيللى وساجريدو، تقدم جاليليو في منتصف عام ١٥٩٩ بطلب إلى جامعة بادوا لتجديد التعاقد معه أسوة بما فعلته جامعة

بولونيا مع زميله ماجنيني الذي تقاضى راتباً يفوق راتب جاليليو بكثير. ويبدو أن المساجلات بين الجامعة وجاليليو استغرقت وقتاً طويلاً، وأثارت لجاً كبيراً لدرجة أن الدوج كونتاريني راعى الجامعة تضاييق ضيقاً شديداً فصاح قائلاً: «إذا كان الراتب الذي يتقاضاه جاليليو لا يعجبه فبإمكانه الاستقالة من وظيفته». وأضاف الدوج أن البروفيسور موليتي لم يتقاض أكثر من ثلاثمائة فلورينة، وأنه من المفهوم أن أساتذة الجامعة يزيدون دخلهم عن طريق إعطاء الدروس الخصوصية.

وفي نهاية المطاف تم تجديد التعاقد معه يوم ٢٨ أكتوبر ١٥٩٩ لمدة ستة أعوام أخرى تبدأ بأثر رجعي في ٢٧ سبتمبر ١٥٩٨ براتب قدره ٣٢٠ فلورينة، مع التنبيه عليه - من خلال صديقه ساجريدو - بعدم المطالبة بأية زيادة في الراتب؛ حيث إن مجلس شيوخ البندقية لا يرغب في أن يتحول تجديد تعيينه إلى سابقة.

وبسبب شهرته العريضة التي طبقت آفاق البلاد الأوروبية جاء الطلبة الأجانب زرافات ووحداناً للدراسة على يديه، ومن بينهم الأرشيديوق فيردناند الذي صار فيما بعد إمبراطور ألمانيا، كما تلقى محاضراته أمراء الألزاس ومانتوا وجوستاف أمير السويد. وأغلب الظن أن العالم البريطاني وليم هارفي مكتشف الدورة الدموية تتلمذ على يديه عندما التحق بجامعة بادوا في الفترة من ١٥٩٨ حتى ١٦٠٢. ومع تحسن ظروفه المالية ترك جاليليو منزله المتواضع ليسكن في بيت فسيح حوَّله إلى بيت طلبة يعيش فيه طلبته الخصوصيون الطليان والأجانب، وبلغ عدد الطلبة القاطنين معه تحت سقف واحد والذين أشرف على إمدادهم بالطعام وضرورات الحياة عشرين طالباً. وفي عام ١٦٠٢، اشترى حديقة ضمها إلى هذا البيت اهتم بزراعة الكروم والفاكهة فيها. وفي هذه الحديقة الغناء كان يعزف عزفاً بديعاً على الفيتارة، ويتناقش مع طلبته في شتى الموضوعات الخفيفة والعميقة على حد سواء، مثل إعداد البذور الصالحة والفائدة الغذائية في النباتات وصنع الخمور من الكروم، وكان طلبته الذين يستمعون إليه بانبهار يحيطونه بكل مظاهر الود لا فرق بين الطليان والفرنسيين والإنجليز والألمان. وكان المقابل المادي الذي تقاضاه من طلبته يكاد لا يكفي لتغطية نفقات إقامتهم الكاملة. ومن خلال هذه العلاقة توطدت عُرى الصداقة بينه وبين العديد من الدارسين والنبلاء، وهي علاقة استمرت مدى الحياة مثل علاقته الوطيدة ببنيللي والراهب باولو ساري، وبالكثيرين من أترابهم. وانتهاز بنيللي فرصة معرفته وتراسله مع

تايكو براهي عالم الرياضيات والفلك الدانماركي المعروف؛ ليوصيه خيرًا بجاليليو واصفًا إياه بأنه «إنسان يجدر بالمرء أن يصادقه». ومن ثم أرسل تايكو إليه خطابًا بتاريخ ٤ مايو ١٦٠٠، ولكن العلاقة بين العالمين الإيطالي والدانماركي لم تدم؛ حيث إن المنية وافت تايكو في براغ في ١٣ أكتوبر ١٦٠١.

وبالإضافة إلى وليم هارفي تتلمذ عدد من البريطانيين على يدي جاليليو، مثل ريتشارد ديلاوي التلميذ الوفي الذي أقام معه تحت سقف واحد في بيت الطلبة. وفيما بعد تتلمذ على يديه طالبان اسكتلنديان، هما: جون وودزبورن وتوماس سيجيت اللذان أظهرًا شديد الولاء والإخلاص له.

ونحو عام ١٦٠٢، اخترع جاليليو مقياسًا هوائيًا للحرارة، وكان اختراعًا أشبه بالبارومتر منه إلى الثيرمومتر. وفي عام ١٦١٣، قام صديقه ساجريو بتطويره وتقسيمه إلى مائة درجة. ثم جاء ليوبولدو دي مديسيس فأدخل المزيد من التعديلات عليه حتى أصبح ثيرمومترًا بالمعنى الشائع في يومنا الراهن. وكعادة ذلك الزمان ادعى قراصنة الفكر نسبة هذا الاختراع إلى أنفسهم.

وفي عام ١٦٠٤، لفت نظر علماء الفلك ظهور نجم جديد ساطع في مجرة سيرينتاريوس Serpentarius كان الفلكي ميستيلين أول من رصده. ويبدو أن جاليليو لاحظ وجود هذا النجم المتألق بعد ذلك بوقت قصير، وثار العلماء في تفسير ظهور هذا النجم الوضاء وتضاربت تفسيراتهم. وظل جاليليو يراقب بدقة هذا النجم لمدة ١٨ شهرًا قرر بعدها في أوائل يناير ١٦٠٥ أن يشرح تفسيره لظهور هذا النجم لطلبته. قال جاليليو: إن هذا النجم ليس شهابًا أو مذنبًا كما أنه ليس جسمًا سرمدًا في قدمه؛ ولكنه نجم جديد سوف ينتهي به الأمر إلى الاختفاء. وعلى العكس من عالمي الفلك الكبيرين تايكو براهي وكبلر اللذين فسرا ظهور النجوم الجديدة والمذنبات بأنها تجمعات مؤقتة للأبخرة الكونية التي تملأ الفراغ، نسبها جاليليو إلى وجود انبعاثات أرضية في منتهى الوهن على مسافة هائلة من الأرض تعكس أشعة الشمس.

لم يرق هذا التفسير في عين المدرسين من أتباع أرسطو الذين آمنوا بكمال السماء وديمومتها على حالها دون أن يطرأ عليها أي تغيير أو تبديل، ومن ثم فهي في نظرهم لا تعرف النمو والاضمحلال؛ ولهذا عارضوا القول بظهور نجوم جديدة في الكون. وكان ظهور هذا النجم سببًا في تغيير آراء جاليليو، فقبل ظهوره درج على



تدريس نظريات كل من أرسطو وبطلميوس في الفلك، وهى نظريات تتادى بمركزية الأرض في الكون وثباتها في مكانها ودوران الشمس حول الأرض. واحتدم الجدل العنيف بين جاليليو وأساتذة جامعة بادوا حول تفسير ظهور النجم الجديد، وعندئذ قرر جاليليو التعبير بكل وضوح وصراحة عن تشككه في صحة النظريات الفلكية القديمة التى نادى بها أرسطر وبطلميوس، وانبرى للدفاع بقوة عن نظرية كوبرنيكوس المنادية بمركزية الشمس ودوران الأرض حولها. وفى هذه الملاحاة تصدى أنتونيو دا مونتيو لكيانو لدحض آراء جاليليو الذى استقبل محاجات غريمه بالزراية والاحتقار. وأثمرت هذه الملاحاة بحثاً مكتوباً بلهجة أهل بادوا سطره جاليليو ونفر من طلبته.

وفى عام ١٦٠٤، انتهى عقد العمل الذى أبرمته جامعة بادوا مع جاليليو فطلب منها تجديد العقد وزيادة الأجر فأحجمت الجامعة عن ذلك كماداتها. وفى عام ١٦٠٥، كان جاليليو يتولى تدريس كوزيمو Cosimo ابن الدوق العظيم، وتوسط هذا التلميذ لدى السفير التوسكانى فى البندقية حتى نجح فى تجديد تعيينه أستاذاً بجامعة بادوا لمدة ثلاثة أعوام أخرى براتب أكبر يصل إلى ٥٢٠ فلورينة، وصدر قرار تعيينه بالجامعة لثالث مرة فى ٥ أغسطس ١٦٠٦، وأقبل عليه المستمعون من كل حذب وصوب. وعند إلقاء جاليليو لمحاضراته كانت أوسع قاعات الجامعة، وهى قاعة أولا ماجا التى تسع ألف شخص غير كافية لاحتواء الحضور، الأمر الذى اضطره أحياناً إلى إلقاء محاضراته فى الهواء الطلق.

وأثناء وجوده فى بادوا توفّر جاليليو على دراسة مبحث ألفه الباحث الإنجليزى الدكتور وليم جلبرت كواششستر بعنوان: «عن المغناطيس» واتسمت محاجات هذا المبحث بتجاوز آراء أتباع المدرسة الأرسطاطاليسية. فضلاً عن أنه اشتمل على تجارب عن الكهرومغناطيسية، ومن قبل كان أرسطو وبليني Pliny يعرضان قدرة حجر المغناطيس Loadstone على جذب الأجسام نحوه. فضلاً عن أن الصينيين الأقدمين عرفوا قطبية المغناطيس باتجاهى الشمال والجنوب، وأيضاً كانت البوصلة معروفة قبل جاليليو. وحالت اهتمامات جاليليو الفلكية دون تقدم بحوثه فى مجال القوة المغناطيسية. وعبر جاليليو فيما بعد عام ١٦٣٢ عن بالغ إعجابه بقول وليم جلبرت إن الأرض فى جاذبيتها للقمر تشبه حجر مغناطيس هائل الحجم.

والطريف أن الدوق العظيم كوزيمو اعتبر جاليليو أعظم عالم رياضيات فى كل المسكونة، فى حين أن زوجة كوزيمو اعتبرته واحداً من كبار المنجمين. والجدير

بالذكر أن فالورنسا أظهرت منذ وقت باكر اهتماماً عظيماً بالتتجيم وقراءة الطالع، وكان التجيم في خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر مادة تدرس في الجامعات الإيطالية؛ وعلى الأخص جامعتي بادوا وروما. حتى الطبقات المتعلمة آنذاك آمنت بالتتجيم. ويبدو أن جاليليو تولى تدريسه عن غير اقتناع.

قلنا إن جاليليو في فترة وجوده في بادوا مر بضائقة مالية بعد وفاة والده. فقد أصبح المائل الوحيد لأمه وأختيه وأخيه حتى شب عن الطوق. وكان همه الأكبر ينحصر في إيجاد الدوطة (المهر) اللازمة لتزويج أختيه. وعلى الرغم من أن أخاه الموسيقار الذي سعى إلى توظيفه وعد بالمساعدة في نفقات تزويجهما فإنه تغلى عنهما تماماً وأظهر جشوداً ونكراناً أثارا استياء جاليليو الشديد، كما يتضح لنا من خطاب التوبيخ الذي أرسله جاليليو إلى أخيه ميكلانجلو في ٢٠ نوفمبر ١٦٠١. وبسبب عجزه عن الوفاء بمبلغ الدوطة الذي وعد به أحد زوجي أختيه كاد جاليليو أن يتعرض للسجن. أرسل جاليليو أربعة خطابات لحث ميكلانجلو على تأدية واجبه نحو أسرته، ولكن «سيئات» فقد تهرب أخوه من المسؤولية الأمر الذي دفع جاليليو إلى تعنيفه، وقاطع جاليليو أخاه لفترة، ولأن قلبه لم يطاوعه فعادت المياه إلى مجاريها بينه وبين أخيه عام ١٦١٠، وازدادت الطينة بلة؛ لأن الموسيقار المبدع ميكلانجلو لم يتورع عن الاستدانة منه حتى بعد أن أصبح له دخل.

وفي عام ١٥٩٩، صادفت سيدة من البندقية اسمها مارينا جامبا هوى في نفسه فعاشرها وأنجب منها بنتين، هما: فيرجينيا المولودة في ١٣ أغسطس ١٦٠٠، وليثا المولودة في ١٨ أغسطس ١٦٠١، بالإضافة إلى ابن اسمه علي اسم والده فينسنزيو والمولود في ٢١ أغسطس ١٦٠٦. علماً بأنه أنجب ابنته فيرجينيا دون زواج.

عُود إلى اختراع التليسكوب فنذكر أنه جاء وليد الصدفة في هولندا في أوائل أكتوبر ١٦٠٨، فقد لاحظ صبي يعمل في محل نظارات هناك يملكه هانز ليبيرهي، وهو يعيش بالعدسات أنه يمكنه بوضع عدستين في وضع معين أن يرى الأشياء مكبرة ومسة لوبة، وعندما جرب صاحب المحل هذا الأمر استيقن من صحته، ففكر في استغلال هذا الاكتشاف في صنع لعبة أطفال للتكبير عرضها للبيع في فاترينة محله، وقد عيادف مرور الماركيز سبينولا على المحل فرأى اللعبة فدخل لتجربتها ثم قام بشرائها، ثم أعطاها فيما بعد للأمير موريس ناسو الذي فكر في الاستفادة من فكرة

هذه اللعبة في مجال الاستطلاعات العسكرية. وتثبت بعض الوثائق التي اكتشفت مؤخراً أن ليبرهي صاحب الاختراع طلب من مجلس الدولة الهولندية أن يمنحه وحده براءة الاختراع وحق صنع وبيع أدوات بصرية لتكبير الأشياء البعيدة. ورغم أن مجلس الدولة رفض أن يخصصه براءة الاختراع؛ حيث إن سره ذاع وانتشر، فإن الحكومة الهولندية تماقت معه على توريد عدد من هذه المكبرات عن بعد نظير مكافأة مالية قدرها تسعمائة فلورينة بحيث يستطيع استخدامها استعمال عينيه الاثنتين وليس عيناً واحدة عند النظر خلالها. وتقدم جيمس متيوس بالتماس لاحق بعد مرور خمسة عشر يوماً على طلب ليبرهي ينسب فيه إلى نفسه هذا الاختراع، ولكن نظارته المكبرة للأشياء البعيدة لم تصل في درجة إتقانها إلى نظارات ليبرهي. ثم ما لبث أن ظهر منافس ثالث لليبرهي هو صاحب محل نظارات اسمه زاكارياس جانسن، الذي تمكن في عام ١٥٩٠ من اختراع الميكروسكوب ثم تولى تطويره ليصبح تليسكوباً على قدر لا بأس به من الكفاءة. ولعلنا نذكر أن فكرة التليسكوب خطرت لجاليليو نحو منتصف يونيو عام ١٦٠٩، وأنه ما أنفك يطوره ويدخل التحسينات عليه حتى استطاع في أوائل يناير ١٦١٠ إنتاج خامس تليسكوب من صنعه يتميز بالقوة لدرجة أنه قرّب الأشياء البعيدة أكثر من ثلاثين مرة وكبّرها نحو ألف مرة، وهو التليسكوب الذي اكتشف به جاليليو مجاهل السماء.

كانت العدسات التي قام جاليليو بتصنيعها تفوق في كفاءتها جميع العدسات التي حاولت البلاد الأوروبية المختلفة صنع مثيلاتها، الأمر الذي جعلها تقبل على شراء عدساته. وقد كتب إليه دانييل أنتونيني في بروكسل في أبريل عام ١٦١١ يشكو من أن العدسات التي قامت هولندا بإنتاجها لا تستطيع التكبير أكثر من خمس مرات. حتى باريس وأمستردام والبندقية عجزت حتى عام ١٦٣٤ عن صنع تليسكوب بنفس درجة إتقان تليسكوب جاليليو.

صنع جاليليو أكثر من مائة تليسكوب في النصف الأول من عام ١٦١٠ قام بتوزيعها كهدايا مرفق بها مبحثه «رسول من النجوم» على أمراء وعلماء كل من إيطاليا وفرنسا وهولندا وألمانيا. وبطبيعة الحال احتفى أعزّاه وأحباؤه بأكثر التليسكوبات كفاءة، مثل دوق بافاريا والكاردينال ديل مونت ودوق أورينيوي، ولكن شريف كولوني أنحى عليه باللائمة؛ لأنه لا يذكر في مبحثه كيفية صنع التليسكوب وطلب منه إمالة اللثام عن هذا السر، واعدأ إياه بمكافأة مالية كبيرة.

وعندما تسلم البلاط الفرنسي تليسكوب جاليليو أثارت هذه الآلة عظيم اهتمام الملكة ماري دي مديسيس، ومن فرط لهفتها لرؤية القمر من خلال التليسكوب لم تستطع الانتظار حتى يثبتوه على النافذة المفتوحة، فركعت على ركبتيهما على أرضية الحجرة وسط ذهول حاشيتها والعامل الإيطالي المرافق للتليسكوب.

أثار التليسكوب دهشة جميع الطليان بلا استثناء على اختلاف طبقاتهم فأقيمت له الاحتفالات وتتنى به الشغراء. وذات مرة عندما رأى المتسكعون في الميادين جاليليو حاملاً تليسكوبه أعلى برج كنيسة القديس مرقس انتزعوه منه؛ ليروا بأنفسهم العجب العجائب ثم أعطوه لأصدقائهم للفرجة.

والجدير بالذكر أن جاليليو في مبحثه «رسول من النجوم» لم يدافع عن نظرية كوبرنيكوس بشكل مباشر وصريح، بل عبر عن إيمانه بها دون أدنى مواربة في محاضراته وأحاديثه. ويذكر كبلر في رسالته إلى جاليليو التي ظهرت على هيئة مبحث نشره في براغ، أنه استشاط غضباً من مارتن هوركي لإنكاره صحة اكتشاف جاليليو لأربعة توابع حول المشتري وقرّعه تقريباً شديداً لدرجة أن هوركي طلب الصفح من كبلر الذي اشترط للعفو عنه الإيمان برأى جاليليو القائل بوجود أربعة توابع للمشتري.

ضاق جاليليو ذرعاً بأعبائه الوظيفية في جامعة بادوا ومن إضاعة وقته في إعطاء الدروس الخصوصية، فقرر الاعتزال حتى يتمكن من التفرغ الكامل لأبحاثه. وعاد إلى بلده فلورنسا؛ حيث عينه الدوق العظيم في ١٢ يوليو ١٦١٠ فيلسوف القصر الملكي وعالم الرياضيات فيه، ولكنه لم يذق طعم الراحة في بلده فلورنسا بسبب الفيرة والحسد من نبوغه. وكان صديقه ساجريدو Sagredo حزيناً عندما حذره من المشاكل والمضايقات التي تنتظره في البلاط الملكي بفلورنسا. وفي غضون أقل من شهر واحد على وصوله هناك اكتشف أن كوكب الزهراء - شأنه في هذا شأن القمر - يتخذ شكل الهلال؛ وذهب جاليليو إلى أن كثيراً من الأجرام السماوية ليست مضيئة في حد ذاتها ولكنها تضيء عندما تنعكس أشعة الشمس عليها، وهكذا استنتج أن هذه الكواكب تدور حول الشمس، وهي حقيقة سبق لفيثاغورث وكوبرنيكوس وكبلر استنتاجها.

والجدير بالذكر أن جاليليو تعلم من تجارب الحياة أن يكتفم نتائج أبحاثه وكشوفه

العلمية خوفاً من سطو الآخرين عليها، وكان يبلغ أصدقاءه بها في شكل شفرات يرسلها إليهم بدت أحياناً طلاسماً لا سبيل إلى فكها، ولكن كبلر تمكن من حل الشفرة التي أرسلها جاليليو إليه بخصوص توابع المشتري الأربعة.

وسوف نتوقف عند هذا الحد؛ لنروى في فصل مستقل قصة احتدام الصراع بين جاليليو ومناوئيه من أتباع أرسطو قبل مواصلة الحديث عن مسيرة حياته والنكبات التي اعترضتها.

## الفصل الثالث

### صراع جاليليو مع أتباع أرسطو

فى مارس ١٦١٠، أعلن جاليليو من البندقية للعالم فى مبحثه «رسول من النجوم» بعنوان: Sidereus Nuncius (The Starry Messenger) عن اكتشاف التليسكوب الذى أشار إليه فيما بعد قائلاً: «هذا الكون الذى قمت بتكبيره مائة، بل ألف مرة عما كان الحكماء فى العصور الماضية يعتقدون». وكان جاليليو فى الخامسة والأربعين من عمره عندما اخترع التليسكوب الذى وفر له المجد والشهرة والثروة معاً. وعندما فحص جاليليو الأجرام السماوية بتليسكوب، اقتنع بشكل نهائى وقاطع بأن عالم الفلك كوبرنيكوس كان على حق عندما اعتبر الأرض كوكباً من الكواكب، وليست مركز الكون. وعلى أية حال، لم تكن هذه الفكرة جديدة عليه لأنه توصل إليها أثناء عمله فى مجال الميكانيكا والبحث عن القوانين التى تحكم حركة القذائف وسقوط الأجسام، وكذلك باستخدام التليسكوب فى مشاهدة القمر والنجوم والسدم والكواكب الأربعة التى تدور بسرعة فى فلك المشتري على مساحات وفترات مختلفة. ولأنه أول من اكتشف هذه الكواكب الدائرة فى فلك المشتري، فقد قرر تسميتها بنجوم عائلة المديسيس الحاكمة Medicean Stars. وترامى إلى مسامع جاليليو - كما أسلفنا - أن صانعاً لعدسات النظارات فى فلاندرز يدعى هانز ليبپهى Hans Lippephey اكتشف أن تركيب العدسات المقعرة والمحدبة معاً من شأنه أن يجعل الأجسام البعيدة تبدو قريبة، وأن هذا الصانع أنشأ بالفعل تليسكوباً عرضه فى الأسواق كلعبة أطفال يلهون بها، وأبلغ أحد الأصدقاء جاليليو أنه شاهد بنفسه هذه اللعبة فى باريس وقام بوصفها له. وفى



مبحثه «رسول من النجوم» وصف جاليليو الخطوات التي اتخذها لتنفيذ هذه الفكرة، فقام بتركيب عدسة مقعرة على عدسة محدبة استطاع بهما أن يرى الأجسام أقرب بثلاث مرات وأكبر من حجمها بتسع مرات. واستطرد جاليليو قائلاً إنه كرر التجربة، ونجح في صنع تليسكوب أكثر دقة يكبر الأشياء أكثر من ستين مرة، وظل لا يدخر جهداً حتى تمكن من صنع تليسكوب يكبر الأشياء نحو ألف مرة ويقربها أكثر من ثلاثين مرة. ويقول باقى إن جاليليو استطاع بعبقريته تحويل لعبة الأطفال إلى أداة نافعة لاكتساب العلم والمعرفة. وكان، في بادئ الأمر يسمى هذا الاختراع نظارة التجسس ولكنه أطلق عليه اسم تليسكوب فيما بعد. وفي البندقية دعا أصدقاءه للصعود أعلى كنيسة القديس مرقس، فاعتراهم الدهول وهم ينظرون من خلال هذه الأعجوبة.

وأبدى جاليليو استعداداه لإهداء نسخة مجانية من نظارة التجسس إلى حاكم البلاد، شارحاً له: «نحن نستطيع اكتشاف سفن الأعداء قبل أن يكتشفوا سفننا بأكثر من ساعتين. والجدير بالذكر أنه في ٧ مايو ١٦١٠، أى بعد مرور شهرين من نشر رسالته عن النجوم، كتب جاليليو خطاباً مطولاً إلى صديقه المخلص بيليساريو فينتا Vinta سكرتير دولة فلورنسا تحدث فيه عن مشروعاته العظيمة التي يطمح في إنجازها بعد أن يتخلى عن التدريس في جامعة بادوا، كما عبر عن رغبته في خدمة حاكم البلاد الدوق العظيم. قال جاليليو في خطابه: «لدى خطط وابتكارات كثيرة أشد ما تكون إثارة للإعجاب لا يمكن تنفيذها إلا بمساعدة الأمراء؛ لأنهم وحدهم هم الذين يشنون الحروب ويبنون القلاع ويدافعون عنها... وفي الأساس، فإن المؤلفات التي أنوى الانتهاء منها هي (نظام العالم وتكوينه) Constitution of the World، وهو مشروع ضخمة مضمم بالفلسفة والفلك والهندسة، ثم ثلاثة كتب عن الحركة وهي علم جديد تماماً».

وهذه هي المرة الأولى التي يذكر فيها جاليليو مشروعه البحثي صراحة بعد أن كان يشير إليه تلميحاً. ويهدف هذا المشروع إلى إثبات نظرية كوبرنيكوس في ضوء الاكتشافات الجديدة في علمي الفلك والفيزياء، بعد أن توفر على دراستهما على مدى عقدين من الزمان.

وفي نهاية عام ١٦٠٩، أى قبل ظهور البحث المشار إليه في عام ١٦١٠، صوب جاليليو تليسكوبه في ليلة قارصة إلى القمر، وهو على شكل هلال كاد أن يكتمل فلاحظ

وجود بقع على سطح القمر لم يرها أحد من قبله على حد تعبيره، ومن هذه البقع توصل إلى اقتناع بأن سطح القمر ليس أملس أو كامل الاستدارة كما كان قدامى الفلاسفة يعتقدون، بل هو سطح غير مستو، وخشن وملئ بالوهاد والمرتفعات وأقرب ما يكون إلى سطح الأرض التي تغطيها سلاسل الجبال والوديان السحيقة. وقدر ارتفاع جبال القمر بأربعة أميال، وهو قريب من تقدير الفلكيين المحدثين. وعلى عكس الاعتقاد السائد وعد جاليليو أنه سوف يثبت عن طريق عدد هائل من المحاجات في كتابه القادم The System of The World أن جسم الأرض المتعرج يفوق القمر في روعته، وأنه ليس مستودعاً لأوساخ الكون وقاذوراته كما كان يعتقد. وعن طريق رصده للقمر استطاع جاليليو القضاء على النظرية القديمة التي تقول إن عناصر تكوين القمر تختلف عن عناصر تكوين الأرض، فعناصر الأرض الأربعة التي تقنى وتُستحدث هي: الهواء والنار والماء والتراب، في حين أن القمر والأجرام السماوية الأخرى تتكون من مادة الأثير، وهي مادة لا تقنى ولا تستحدث. وحطم جاليليو المعتقدات الفلسفية والعلمية المتوارثة حين أكد أن الأجرام السماوية تتكون من عناصر الأرض نفسها.

ورسم جاليليو في مبحثه «رسالة من النجوم» رسماً بيانياً لتجمعين موجودين في مجرتين سماويتين، هما نجم الجوزاء Orion، والثريا Pleides واكتشف على مقربة منهما ثمانين نجماً لم يرها بشر من قبل. رأى جاليليو أن مجرة الثريا لا تتكون من سبعة نجوم، بل من أربعين نجماً. والجدير بالذكر أن التليسكوبات الحديثة والأكثر تطوراً اكتشفت وجود عدة مئات من هذه الأجرام. وأيضاً اكتشف جاليليو أن مجرة درب التبانة تتكون من مجموعة لا حصر لها من النجوم تتجمع في شكل عنقودي الكثير منها كبير الحجم نوعاً وشديد اللمعان، بينما النجوم الصغيرة في هذه المجرة لا تحصى ولا تُعد.

كان يوم السابع من يناير ١٦١٠ يوماً مشهوداً في اكتشافات جاليليو الفلكية، ففي هذا اليوم استخدم أكثر تليسكوباته إتقاناً ليلاحظ - بجانب كوكب المشتري - وجود ثلاثة نجوم صغيرة شديدة اللمعان اثنان منها شرق المشتري، والثالث في غربه. وأثار حب استطلاعهم بعض الشيء أنه رأى أن هذه النجوم الثلاثة تظهر على خط مستقيم تماماً، بالتوازي مع مدار الشمس الظاهري بين البروج، ولكنه لم يعر الأمر عظيم اهتمامه. غير أنه لم ينس النجوم الثلاثة المشار إليها، فقد لاحظ أن وضعها يتغير

بعيـث تصـبح جمـيـعاً علـى خط مستقيم إلى الغرب من المشتري، وأنها تقترب من بعضها البعض، وكذلك صارت على مسافات متساوية من بعضها البعض؛ الأمر الذي أثار بالغ اهتمامه وحب استطلاعـه. وبدأ جاليليو يشك في صحة حسابات جميع الفلكيين القدامى القائمة على الاعتقاد بأن المشتري يتحرك في اتجاه الغرب من النجوم الثابتة في مكانها. ورأى أنه من الجائز أنه يتحرك شرقاً متجاوزاً النجوم الثلاثة التي سبق أن رصدها، ولكنه لم يتمكن من استجلاء الأمر يوم ٩ يناير ١٦١٠ بسبب الغيوم التي لبـدت السماء، وفي الليلة التالية التي توافقت ١٠ يناير ١٦١٠ أصبح الجو صافياً فرأى اثنين فقط من النجوم الثلاثة في شرق كوكب المشتري. يقول جاليليو في هذا الشأن إنه أقتنع بأن التغيرات التي لاحظها لا ترجع إلى تحرك كوكب المشتري، ولكن إلى تحرك النجوم التي وضعها تحت المراقبة.

وبمرور الوقت اكتشف جاليليو أن النجوم الصغيرة تتحرك حول كوكب المشتري. وفي ١٣ يناير ١٦١٠، اكتشف جاليليو نجماً جديداً رابعاً حول كوكب المشتري واحد منها على الشمال، والنجوم الثلاثة الأخرى إلى الغرب.

أرسل جاليليو نسخة من كتابه «رسالة من النجوم» إلى الفلكي الرياضي كبلر، الذي دفعه الإعجاب به إلى حد العمل على إعادة نشره في مدينة فرانكفورت عام ١٦١٠، أي في نفس العام الذي ظهر فيه الكتاب في إيطاليا.

وتعارضت اكتشافات جاليليو مع آراء الأقدمين وأتباع أرسطو على وجه الخصوص فلم يألوا جهداً في مهاجمته. وتضايق جاليليو من هذا الهجوم فكتب إلى أعز تلاميذه الراهب البنيديكتي الشاب بنيديتو كاستيللي Benedetto Castelli، يشكو من الهجوم عليه رغم سطوع الشواهد والأدلة التي يقدمها. ومما زاد من ضيقه أن واحداً من أقرب أصدقائه وهو رجل وضع المقام يُدعى سيزار كريمونيني Cesare Cremonini يشغل وظيفة أستاذ كرسي الفلسفة بجامعة بادوا تصدى له بالنقد الشديد من منظور أرسطاطاليسي، رافضاً أفكاره بوجود أربعة كواكب تدور حول المشتري. وشن عليه هجوماً مماثلاً علماء كل من البندقية وتوسكانيا. وتأججت غيرة منافسه في علم الرياضيات ماجنيني، الأستاذ بجامعة بولونيا فأنكر وجود أربعة كواكب تدور حول المشتري. واقتداء بأستاذه ماجنيني قام أحد تلاميذه الشبان، واسمه هوركي، بنشر كتاب قاذع ضد جاليليو مما جعل كبلر يتصدى للدفاع عن جاليليو.

وعبر كبلر عن تأييده لنظرية جاليليو في كتاب ألفه بعنوان: «مبحث عن رسالة من النجوم»، وسارع جاليليو بإرسال خطاب إلى بيليساريو فينتا سكرتير الدولة في عهد الأمير كوزيمو الثاني الذي كان جاليليو قد أهداه نسخة من تليسكوبه، وطلب من صديقه فينتا وسمو الأمير وضع كوكب المشتري لمدة ثلاثة أيام متتالية تحت المراقبة؛ حتى يتأكدا بنفسيهما من وجود كواكب تدور حول المشتري.

وذكر جاليليو للأمير أنه سمى توابع المشتري باسم عائلته تكريماً لأسرة المديسيس الحاكمة؛ وأضاف جاليليو في خطابه إلى الأمير أن إعطاء الدروس الخاصة وإدارته شئون بيت الطلبة يضيع وقته ويحول دون تفرغه الكامل للبحث العلمي. وأعرب عن رغبته في التخلي عن هذه الأعمال بالمعطلة حتى يتفرغ للمنجزات العلمية، ومنها تأليف عدة كتب تتناول الحركة والميكانيكا والديناميكا كما أسلفنا. وطلب من الأمير مساعدته على التخفيف من أعبائه المهنية والوظيفية بتعيينه في البلاط كفيلسوف وعالم رياضيات.

واستجاب القدر لطموحاته؛ فعينه دوق توسكانيا العظيم كبير الفلاسفة والرياضيين في بلاطه. وأيضاً في تلك الفترة من حياته قامت جامعة بيزا بتعيينه كبير علماء الرياضيات فيها دون أن تلزمه بالسكن أو التدريس فيها.

كان لجاليليو صديق حميم في البندقية سبقت الإشارة إليه يدعى ساجريدو دعتة مهامه الدبلوماسية إلى الرحيل عن البندقية التي أحبها من سويداء قلبه، ولما عاد ساجريدو إليها اجتاحه الحزن الشديد لأن جاليليو كان قد غادرها. خشي ساجريدو على صديقه من غدر ودسائس بلاط الملوك والأمراء ضده، فتصححه بالابتعاد عن أجوائه الموبوءة، وكذلك نبهه إلى الخطر المحدق به المتمثل في أعدائه من طائفة الرهبان الجيزويت.

غير أن الباحث الكبير ستيلمان دريك Stillman Drake المتخصص في جاليليو يرى أن ساجريدو بالغ في تقدير عداوة الرهبان الجيزويت لجاليليو في تلك الفترة بالذات، مضيفاً أنهم ناصبوه العداوة بعد مرور عدة أيام.

وقبل رحيله عن بادوا اكتشف جاليليو النجم المعروف باسم زحل. ورغم أن التليسكوب لم يساعده على معرفة معالم زحل على وجه الدقة فإنه استنتج في عام ١٦١٤ أنه بعد الانقلاب الشمسي الشتوي يمكن للمراقب أن يرى توابع هذا النجم،



الأمر الذي يتفق مع نظرية كوبرنيكوس ويدل على صحتها .

ومن المؤسف أن صحة جاليليو اعتلت على نحو ينذر بالبشر المستطير عقب عودته إلى فلورنسا؛ وخاصة لأنه كان قد أصيب بالتهاب المفاصل في فترة إقامته في بادوا، حيث منعه اعتلال صحته من النوم والراحة لمدة ثلاثة أشهر. وفي ١٢ ديسمبر عام ١٦١٠، أعلن جاليليو أن زحل يمر بوجوه وأطوار شبيهة بوجوه القمر تبدأ على هيئة منجل، وتنتهي بقرص كامل الاستدارة ثم بالعكس، مما يدل على أن هذا الكوكب يدور حول الشمس، وهو الأمر الذي عجز كوبرنيكوس نفسه عن اكتشافه؛ بسبب رصده لحركة النجوم بالعين المجردة. وأثبت اكتشاف جاليليو بشكل قاطع بطلان نظرية بطليموس القائلة بأن الأرض ثابتة في مكانها وتقع في مركز الكون.

ولعلنا نذكر أن جاليليو زار روما في عام ١٥٨٧ وهو في الثالثة والعشرين من عمره، يحدوه الأمل في شغل وظيفة أستاذ كرسى الرياضيات في جامعة بولونيا، ولكن منافسه جيوفاني أنتونيو ماجيني فاز بها، ورغم فوزه فإنه لم ينس كراهيته الشديدة لجاليليو. وإذا كان جاليليو في روما قد خسر صداقة ماجيني فإنه كسب صداقة عالم رياضيات ألماني عظيم الشأن اسمه كريستوفر كلافيوس، الذي كان يشغل وظيفة أستاذ الرياضيات في كلية الجيزويت الرومانية التي أنشأها القديس سانت إجناتيوس لويولا St. Egnatius Loyola عام ١٥٥٢. وكما ذكرنا، ترجع شهر كلافيوس إلى إصلاح التقويم في عهد البابا جريجوري الثالث عشر، ورغم أن كلافيوس عارض نظرية كوبرنيكوس التي ناصرها جاليليو فإن الصداقة بين العالمين دامت حتى وفاة هذا الراهب الجيزويتي في عام ١٦١٢.

وفي ديسمبر عام ١٦١٠، قام كلافيوس بإبلاغ صديقه جاليليو أن زملاءه في الكلية الرومانية تحققوا من صدق اكتشافاته الفلكية عن طريق استخدام تليسكوب متطور ودقيق صنعه بادر بليو. وأضاف أن جاليليو هو صاحب الفضل الحقيقي في هذه الاكتشافات، ومن ثم فهو يستحق الثناء. وزاد من قيمة هذا الثناء أنه جاء في وقت عصيب تعرض فيه جاليليو لأشرس الهجمات من جانب أتباع أرسطو، لدرجة أن فيلسوفًا بارزًا في بيزا اسمه جيوليو ليبري Guilio Libri رفض دعوة جاليليو للنظر إلى الأجرام السماوية من خلال تليسكوبه بحجة أن المعلم الأول أرسطو الذي لا يأتيه الباطل من خلف أو قدام لم يقل شيئًا عن وجود أية توابع في فلك المشتري، ومن ثم



فإن هذه التوابع ليست سوى وهم. وعندما توفي جيوليو لييري عام ١٦١٠ قال جاليليو بنوع من الفكاهة الجهمة، إنه يأمل أن يرى معارضه جيوليو توابع المشتري أثناء صعود روحه إلى بارئها. أما أكثر المعارضين له عنادًا وتشبثًا برأيه، فهو رجل من خارج الجامعة يدعى لودفيكو ديل كولمبي Ludovico delle Colombe، الذي نشر كتابًا حط فيه من شأن جاليليو. وتكمن خطورة هذا الهجوم في استناده إلى الكتاب المقدس لدحض النظريات الجديدة التي تذهب إلى دوران الأرض والكواكب الأخرى حول الشمس، مثيرًا بذلك حفيظة الكنيسة والإكليروس. والجدير بالذكر أن صديقه كلافيوس قبيل وفاته في سن السادسة والسبعين تغلغ عن معارضته لأفكار جاليليو الفلكية وأعلن إيمانه بها.

كان للتليسكوب كما أسلفنا أثره في تغيير أفكار الناس عن الأجرام السماوية، فمن طريقه أثبت جاليليو أن القمر له نفس التركيب الطبيعي والجيولوجي للأرض، وبذلك اختفت الفروق التي كانت تميز السماء عن الأرض، وعن طريقه أيضًا استطاع أن يكتشف أطوار الزهرة. وكان من الطبيعي أن يثير باكتشافاته ضجة كبرى، ففي عام ١٦١٠ كتب جاليليو إلى كبلر يقول إنه ينتظر بقلق رأى كبلر في اكتشافاته الفلكية. وسرعان ما تلقى جاليليو رأى كبلر في هذه الاكتشافات. قال كبلر: «يجب على أن أخبرك بما حدث بالأمس. فقد حضر في عريته إلى باب بيتي صديقي البارون واكهر فون واتشنيفيلز وأخذ يصيح في اضطراب في داخل عريته: (هل هذا صحيح؟ هل حقًا صحيح أنه (أي جاليليو) وجد أجرامًا سماوية تدور حول النجوم؟)» وأكد كبلر للبارون أن الخبر صحيح. عندئذ فقط خطا البارون عتبة دار كبلر، وانفجرت أساريره لأن هذا الكشف الفلكي ينطوي على إثبات لصحة أفكار جيوردانو برونو Bruno الخاصة بلا نهائية الكون وتعدد العوالم فيه.

غير أن جاليليو، كما ذكرنا، كان يعبر عن اقتصاره بنظرية كوبرنيكوس على استحياء. يقول جاليليو في رسالته إلى كبلر التي ترجع إلى عام ١٥٩٧: «لقد اقتصرت بصحة نظريات كوبرنيكوس منذ عدة أعوام خلت، واكتشفت من خلالها أسباب الكثير من النتائج الطبيعية التي لا سبيل مطلقًا إلى تفسيرها في ضوء النظريات الراهنة. لقد دونت كثيرًا من الأسباب والتقنيات بشأن هذا الموضوع، ولكني لم أجرو حتى الآن على الجهر بها خوفًا من أن يلحق بي نفس الأذى الذي لحق بكوبرنيكوس، معلمنا الذي

حظى بالشهرة والخلود في نظر قلة من الناس، والعار والشنار والاستهزاء في نظر الجماهير المريضة. ولو كان هناك كثير من أمثالك لتجرات وأذعت أفكارى. ولكنى سوف أكتمها في صدري؛ لأنه لا يوجد كثيرون مثلك.

ويعتبر فرانسيسكو سيزي Sizi واحداً من أبرز الذين ناصبوا جاليليو العداء، فقد نشر عام ١٦١٠ هجوماً شديد الوطأة على التليسكوب لا يختلف كثيراً عن الهجوم الذى شنّه الدكتور سلوب Slop على اكتشافاته الفلكية، والرأى عند سلوب أن العدسات التى استخدمها جاليليو لا تعدو أن تكون خداعاً بصرياً. ومن الواضح أن الدكتور سلوب تأثر بأفكار بيكو ديلو ميراندولا. غير أن المبحث الذى نشره سيزي بخصوص اكتشافات جاليليو الفلكية أقل سوءاً من تشفى لودفيكو ديل كولومبي فيه واستعداد الكنيسة عليه كما سبق أن ذكرنا، ولكن جاليليو ما لبث أن تخلص عن سلبيته وإيثاره للسلامة عندما استيقن من صحة استنتاجاته الفلكية والرياضية، وشجعه كبلر على الكلام. كتب كبلر إليه يقول:

«كنت فقط أتمنى - حيث إنك تتمتع بنفاذ البصيرة - أن تختار طريقاً آخر. إنك تتصحننا عن طريق قدوتك الشخصية وبأسلوب مغلف بالفطنة والكياسة بالتراجع أمام الجهل العام، وبعدم تعريض أنفسنا للخطر وبالإحجام عن التصدى فى نزق للهجمات الضارية التى يشنها السفهاء على أهل العلم (وأنت فى هذا تحذو حذو أفلاطون وفيثاغورث رائدينا الحقيقيين). ولكن بعد أن جاد زماننا بالعمل الضخم أولاً على يدى كوبرنيكوس، ثم على أيدي كثير من علماء الرياضيات البارزين وبعد أن تأكد لنا أن الأرض تدور، وليس فى هذا أى جديد، أليس من الأفضل أن نتجه نحو هدفنا كى نحققه الآن عن طريق الجهود المشتركة بعد أن اتضحت الصورة وعلت الأصوات القوية فنخرس أصوات السوقة العاجزين فى واقع الأمر عن تدبير المحاجات وفهمها بعناية كبيرة؟ وهكذا قد نتمكن ربما بطرق ذكية من تعريف هؤلاء الفوغاء بالحقيقة، وأنت بما تسوق من محاجات يمكنك فى الوقت نفسه أن تساعد رفاقك الذين تحملوا كثيراً من الأحكام الظالمة؛ لأنهم سوف يستمدون العزاء من اتفاقك معهم فى الرأى، أو يستمدون الحماية من نفوذك القوى. وليس الطليان وحدهم هم الذين يرفضون الإيمان بأن الأرض تدور بهم حتى وإن كانوا لا يشعرون بذلك؛ ولكن الألمان أيضاً يُحجمون عن الإيمان بهذه الفكرة. ورغم ذلك فهناك طرق يمكنها أن تحميها من هذه الصعاب.

«تشجع يا جاليليو وجاهر برأيك. وإذا لم يجانبني الصواب فإن عدداً قليلاً من

علماء الرياضيات في أوروبا سوف يخالفونك في الرأي؛ لأن الحقيقة أشد ما تكون سطوعاً. وإذا كانت إيطاليا تبدو مكاناً غير مناسب لنشر مؤلفاتك، وإذا كنت تتوقع المتاعب في بلادك فربما توفر لك ألمانيا (\*) هذه الحرية».

هذا بالتحديد ما قرر جاليليو أن يفعله، وهو في فلورنسا بعد أن اطمأن إلى ذبوع أفكاره بين قطاع عريض من الناس، ولكنه تلمذ أن يتجنب مخاطبة أساتذة الجامعات، وأن يعبر عن أفكاره باللغة الإيطالية كي يصل إلى الجمهور العريض من القراء الأذكياء. ومع أن امتناعه عن استخدام اللغة اللاتينية في مخاطبة قرائه حرّمه من فرص انتشار أفكاره بين علماء أوروبا قاطبة (حيث إن اللاتينية كانت اللغة الرسمية المستخدمة في الجامعات الأوروبية)، فإنه أثر أن يقنع الأذكياء من بنى جلدته بصحة أفكاره قبل إقناع الآخرين بها. وشرح السبب الذي دعاه إلى ذلك في خطاب أرسله في مايو ١٦١٢ إلى باولو جوالدو، جاء فيه أن هناك كثيراً من الأذكياء بين الناس العاديين ممن يحجمون عن قراءة المجلدات؛ لأنها مؤلفة باللغة اللاتينية».

وقد سبق لكوبيرنيكوس أن عبر عن رأي مماثل منذ سبعين عاماً مضت في مبحثه الفلكي الذي أهداه إلى البابا. قال كوبيرنيكوس إن الكثيرين من ذوي الذكاء المحدود يقبلون على دراسة الفلسفة؛ لأنها تدرّ عليهم دخلاً موفوراً في حين أنهم يحجمون عن دراسة العلوم لأنها لا تعود عليهم بالنفع المادي، وضرب كوبيرنيكوس مثلاً على ذلك بكاتب لاهوتي شهير يدعى لاكتانيوس لا يفقه شيئاً في علم الرياضيات، ويقول أشياء سخيفة وخاطئة عن الأرض ويسخر سخرية لازعة من الذين ينادون بكرويتها.

لقد توقع كل من كوبيرنيكوس وجاليليو مقاومة شديدة ضد أفكارهما ليس من جانب السلطات الكنسية وحسب، ولكن من جانب أدعياء العلم والأكاديميين الزائفين الذين لهم مصلحة في استمرار الأفكار القديمة الخاطئة. غير أن هناك فرقاً بين توجهات الرجلين، فقد كان كوبيرنيكوس حريصاً على نشر أفكاره بين رجال العلم دون غيرهم، فهو يقول: «يجب أن يقتصر البحث في الرياضيات على علماء الرياضيات». رأى كوبيرنيكوس ضرورة مخاطبة العقل المجرد، في حين أن الوضع بالنسبة لجاليليو كان مختلفاً؛ فقد رأى أن استخدام تليسكوبه القادو على تكبير الأشياء، قمين بإقناع ذوي الأبواب بصحة نظريته. ومعنى هذا أنه اعتمد على الإبصار في معرفة الحقائق

(\*) كانت ألمانيا تدين بالمذهب البروتستانتي.



الفلكية، في حين أن كوبرنيكوس اعتمد على العقل في استجلائها.

لقد اتهم بعض الدارسين جاليليو بالسفى إلى إقناع الجماهير المريضة بصحة نظريته، ولكنه لا ينبغي أخذ مثل هذا الاتهام على عواهنه حيث إنه كان يدرك تمام الإدراك أن السواد الأعظم من الناس مجموعة من الأغنام، وأن الذين منحهم الله القدرة على الفهم والتفكير مجرد أقلية. كما كان يدرك أن الدهماء لا تستجيب لنداء العقل، بل تستجيب لنداء المناطقة الجامحة التي يستطيع الوعاظ والديماجوجيون اللعب بها. غير أن جاليليو آمن في الوقت نفسه بأن الطبيعة تمنح جانباً من الناس العاديين القدرة على التفكير المستقل. هذه الفئة الأخيرة هي التي كان جاليليو يطمح إلى التواصل معها، ولا يعرفه أحد على وجه اليقين ما إذا كان قد نجح أو أخفق في ذلك. ونحن حتى يومنا الراهن لا نزال نجد من يرمى جاليليو بالتهور والنزق وأنه أخطأ خطأ جسيماً عندما ألف أبحاثه باللغة الإيطالية التي يقرأها عامة الناس، في حين أنه كان يتمين عليه أن يتوخى الحرص والحصافة ويؤلف كتبه باللغة اللاتينية التي لا يفهمها غير الدارسين والعلماء، ثم ينتظر حتى يرى مدى استجابتهم لأفكاره. ولكن إحقاقاً للحق لا بد أن نعترف أن هؤلاء الأكاديميين أو كثيرًا منهم على أقل تقدير ناصبوه العداوة منذ البداية، ولم يكتفوا بذلك بل سموا إلى تأليب بعض اللاهوتيين ضده.

ويبدو أن الأمل كان يحدوه إلى توصيل أفكاره إلى الطبقة الحاكمة والأمراء والأشراف ورجال الأعمال في إيطاليا، الأمر الذي أعطى الفرصة لأعدائه من صفار الأساتذة في الجامعات الإيطالية أن ينقضوا عليه وينهشوا لحمه.

وجد جاليليو في الكتاب والفنانين والمستيريين والأذكىاء من الناس العاديين أنصاراً له. ويُعتبر الرسام لودوفيكو كيجولي Cigoli واحداً من أخلص مريديه ممن ساندوه ضد شائثيه في روما، وفي عام ١٦١١ كتب هذا murid معبراً عن فرحته بوصول كتابات الفلكي الألماني المعروف كبلر إلى روما؛ لأنها تتضمن تأييداً ومؤازرة لجاليليو. وأيضاً أنحنى كيجولي باللائمة على الرياضي والفلكي الجيزويتى الثقة الأب كلافيوس؛ لأنه (فيما مضى) رفض ما ذهب إليه جاليليو من وجود جبال ومرتفعات فوق سطح القمر.

والجدير بالذكر، أن جاليليو انصرف منذ عام ١٦١١ فصاعداً إلى نشر النبذات

والكتيبات والخطابات والحوارات والتعليقات لشرح أفكاره. وتلخص أمله في السعى إلى إقناع الفلكيين الجيزويت في روما، الذين يمثلون الفاتيكان، بصحة نظريته عن الأجرام السماوية. وسرعان ما دعاه هذا الأمل إلى مغادرة فلورنسا؛ ليذهب إلى روما في نهاية شتاء عام ١٦١١.

وفي بادئ الأمر نجح جاليليو في اكتساب بعض المسئولين في روما إلى جانبه، فقد بادر بالكتابة إلى أحد حواريه، وهو صديقه فيليبو سالفياتي Salviati الذي جعله الشخصية المحورية في كتابه «حوار» ليقول لصديقه: «إن عظام الكرادلة والأمراء في روما رحبوا به وأحسنوا وفادته، وعبروا عن رغبتهم في رؤية الأشياء التي قمت بملاحظتها». وأيضاً كتب بييرو ديني Dini إلى كوسييجو ساسيتي يقول، إن جاليليو ما انفك يقنع غير المصدقين بنظريته الواحد تلو الآخر وإنه يفرى المتشككين في مصداقية وجود توابع تدور في فلك المشتري، وذلك بالنظر من خلال تليسكوبه كي يشاهدوا هذه التوابع السيارة بأنفسهم.

ويستطرد بييرو ديني قائلاً، إن الكاردينال بيلارمين Bellarmine سأل الرهبان الجيزويت عن رأيهم في جاليليو فأرسلوا إلى خطاباً يثنون فيه عليه عاطر الثناء، ويذكرون أن عرى الصداقة الوثيقة تربطهم به. وليس أدل على جودة علاقته بالكنيسة الرومانية في مبدأ الأمر من أن البابا بولس الخامس (١٦٠٥ - ١٦٢١) - رغم تحفظه واحترازه - استقبله في المقر البابوي علماً بأن الشك أخذ يساور بعض الفلكيين الجيزويت مثل كلافيوس وجرينبرجر في صحة الفلك البطلميوسى الذى جاء كل من كوبرنيكوس وجاليليو لإثبات خطئه. وفي البداية كما أسلفنا أحجم الأب كلافيوس عن تصديق جاليليو وسخر منه. غير أنه ما لبث أن غير موقفه عندما استخدم أكثر تليسكوبات جاليليو تطوراً، وأدى اقتناع كلافيوس بصحة نظرية جاليليو إلى ضم جاليليو إلى أكاديمية دي لينسى dei Lincei، فضلاً عن اكتساب صداقة الأمير فرديكو سيسى Cesi الذى شمل برعايته عدداً من أهل العلم. وقد زاد من ازدهار هذه الأكاديمية ما اتسمت به الجامعات آنذاك من احتقار للمناهج الدراسية السليمة، ومقاومة هذه الجامعات لأية معارف جديدة. ويقول لنا سيسى إن الهدف المشترك لهذه الأكاديمية تمثل في نبذ أساليب التفكير الأرسطاطاليسى التقليدية وتبنى الفلسفة الأفلاطونية عوضاً عنها، وتشجيع الخيال العلمى على الابتكار والتجديد. وكان اهتمام



أعضاء أكاديمية دي لينسي الذين فضلوا أفلاطون على أرسطو ينطوي على المفارقة؛ نظراً لأن أفلاطون عزف عن دراسة الطبيعة في حين أقدم أرسطو عليها. والجدير بالذكر، أن الأمير فردريكو سيسى كان يزود عن جاليليو وينصحه ويشد من أزره في وقت الشدائد.

كان جاليليو آنذاك مشغولاً بتحديد الفترات التي تستغرقها توابع المشتري في الدوران حوله، وهو الشيء الذي فشل الفلكيون الجيزويت في الكشف عنه. وسعى سيسى ما وسعه السعى إلى استغلال وجود الجبال والمرتفعات فوق سطح القمر؛ ليثبت بطلان الفكرة القديمة القائلة بأن نجوم السماء كاملة الاستدارة ومستوية في سطوحها مثل الماسات المتألثة. حتى الذين استطاع سيسى إقناعهم بصحة نظرية جاليليو عن الأجرام السماوية كانوا يخشون مسايرة النتائج المترتبة على مثل هذا الاقتناع. ولهذا السبب كتب باولو جوالدو في مايو ١٦١٢ رسالة إلى جاليليو، جاء فيها ما يلي: «بالنسبة لدوران الأرض، فإنني حتى يومنا الراهن لا أجد فيلسوفاً أو فلكياً على استعداد للموافقة على رأي فخامتكم - ناهيك عن موقف فقهاء اللاهوت منه - لهذا أرجوكم أن تفكر ملياً قبل أن تنشر أفكارك وتؤكددها؛ حيث إن هناك كثيراً من الموضوعات التي يمكن طرحها على بساط البحث والنقاش، والتي لن يكون من الحكمة تأكيدها».

ولكن هذا التحذير لم يحل دون استمرار جاليليو في المناداة بصحة أفكاره، فقد اكتشف وجود بقع في الشمس تشكل جزءاً منها، وليست أجساماً سوداء تدور حولها كما كان الأب شاينر يزعم.

وفي عام ١٦١٣، نشر جاليليو بعد عودته إلى فلورنسا «رسائل حول البقع الشمسية» تحت رعاية أكاديمية دي لينسي، وهي تطابق نظرية كوبرنيكوس جملة وتفصيلاً، ثم أعقبها برسالة بعنوان: «زحل والزهرة» نشرها في الأول من ديسمبر ١٦١٣ ليكمل بها منظومة كوبرنيكوس الفلكية. والجدير بالذكر، أنه قبيل نشر هذه الرسالة بثلاثة أسابيع هاجم رجال الإكليروس جاليليو بصراحة لأول مرة، وكان أول من هاجمته من الإكليروس الراهب لوريني Lorini الدومينيكاني أستاذ التاريخ الكنسي في جامعة فلورنسا.

كان جاليليو يعتزم السفر إلى روما عام ١٦١٠ للترويج لأفكاره واكتشافاته من جهة

ولرؤية صديقه ونصيره الراهب كلافيوس، ولكن مرضه اضطره إلى تأجيل سفره حتى مارس ١٦١١. كان هدفه الأساسي من زيارة روما هو الدفاع عن صحة نظرية كوبرنيكوس، وتحرير الكرسي البابوي وجميع الكرادلة من التبعية الذليلة للمذهبيين الأرستقراطيين والبطلانيوس. وبسبب غيرة الحاسدين منه ووشاية الواشين به سرت إشاعة أن فلورنسا طردته من أراضيها بسبب نجاح عالم الرياضيات الغريب الأطوار فرانسيسكو سيزي Sizi في دحض حاجاته التي أوردها في مبحثه «رسول من النجوم»، ولكن جاليليو استطاع أن يتصدى لهذه الحملات المفرضة ضده بنشر خطابات التوضيح التي سطرها الدوق العظيم كوزيمو إلى سفير توسكانيا والكاردينال ديل مونت. وصل جاليليو إلى روما في ٢٩ مارس ١٦١١ وأثلج صدره ما رآه من زراية العالم كلافيوس وأقرانه بهجوم سيزي عليه، الأمر الذي حفزه في أول أبريل من العام المذكور أن يكتب إلى بليساريو فينتا سكرتير الدولة في توسكانيا، مؤكداً أن آباء الكنيسة الذين التقى بهم كانوا مقتنعين اقتناعاً كاملاً بأن الكواكب التي اكتشفها، وأطلق عليها عائلة المديسيس حقيقة لا مرأ فيها مضيئاً أنه سعيد؛ لأنه وجد أن هؤلاء الآباء بعد قضائهم شهوراً في مراقبة هذه التوابع توصلوا إلى نفس نتائجه.

واستقبلته روما استقبالاً حافلاً يبشر بكل خير، فقد رحب به رجال الكنيسة وأكرموا وفادته لدرجة أن البابا بولس الخامس أمضى معه ساعة كاملة في مقابلة خاصة، وعبر عن نواياه الطيبة له واعداء إياه بأن هذه النوايا لن تتغير. وفي روما ألحقه صديقه كلافيوس بأكاديمية دي لينسي على نحو ما أسلفنا، وهي أكاديمية اشتهرت بتحررها من قيود المذهب الأرستقراطي على عكس المؤسسات والجامعات التقليدية التي ظلت خاضعة لنفوذ أرسطو.

وفي روما، أقام الأمير سيسى (وهو غير سيزي الذي ناصبه العداء) والكاردينال فارنيس المآدب تكريماً له، وفي هذه الاحتمالات تقابل جاليليو مع عليا القوم من المدعويين، أمثال الكاردينال روبرت بيلارمين Robert Bellarmine، الذي - كما سوف نرى - لعب دوراً مصيرياً في حياته، وانتهاز جاليليو هذه الفرصة فدعا عليا القوم من الضيوف أن يستخدموا تليسكوبه لرؤية أقمار المشتري وتوابعه التي تدور حوله، ونجح عالمنا في إثارة اهتمام الكاردينال بيلارمين إلى أقصى حد. ويتضح لنا اهتمام بيلارمين العظيم باكتشافاته الفلكية من الخطاب الذي أرسله هذا الراهب في ١٩

أبريل ١٦١١ إلى الأب كلافيوس وزملائه أعضاء الكلية الرومانية. وفيما يلي نصه:

«حضرات الآباء المبجلين،

إننى أعرف أن حضراتكم قد سمعتم بأمر هذه الاكتشافات الفلكية الجديدة التى استطاع عالم رياضى كبير (يقصد جاليليو) أن يتوصل لها عن طريق استخدام آلة تعرف بمنظار التجسس أو الأنبوب البصرى (يعنى التليسكوب). وأنا بنفسى رأيت عن طريق استخدام المنظار نفسه بعضاً من الأشياء الرائعة للغاية فى كوكب القمر والزهرة، وسوف أكون ممتناً لكم لو تكرمتم على بالإفادة بكل أمانة عن رأيكم فى الموضوعات التالية:

١ - هل أنتم تؤكدون القول بوجود العديد من الأجرام السماوية الثابتة التى لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة؛ وخاصة إذا كنتم تعتبرون درب التبانة والسدم مجموعة من النجوم الصغيرة للغاية؟

٢ - هل صحيح أن زحل ليس نجماً بسيطاً، بل ثلاثة نجوم متلاصقة؟

٣ - هل صحيح أن الزهراء يتبدل ويتغير وأنه يكبر ويصغر مثلما يفعل القمر؟

٤ - هل صحيح أن سطح القمر غير أملس وغير مستو؟

٥ - هل صحيح أن أربعة كواكب متحركة تدور حول المشتري، وأن حركة كل منها تختلف عن بعضها البعض وإن كانت جميعها شديدة السرعة؟

إننى أتلهف على الحصول على بعض المعلومات المحددة عن هذه الأمور؛ لأننى أسمع آراء متضاربة بشأنها. وحيث إن حضراتكم مهرة فى علم الرياضيات، فإنه بإمكانكم إخبارى ببسر ما إذا كانت هذه الاكتشافات الجديدة مبنية على أساس، أو أنها مجرد وهم. ويمكنكم إذا شئتم الإجابة عن أسئلتى على نفس الخطاب.

أخوكم فى المسيح

روبرت كاردينال بيلارمين.

وجاءت الإجابات عن الأسئلة على نفس الخطاب وبنفس الترتيب الذى وردت به.

وفيما يلي نص هذه الإجابات:

١ - صحيح أن التليسكوب يكشف وجود عدد هائل من النجوم فى سدم السرطان

ومجموعة الكواكب المعروفة باسم الثريا، ولكنه ليس من المؤكد أن درب التبانة يتكون تمامًا من نجوم صغيرة. ويبدو الاحتمال الأكبر أن بعض أجزاء درب التبانة أكثر كثافة واستمرارية رغم أنه لا سبيل إلى إنكار وجود عدد كبير من النجوم الصغيرة. وفي الواقع، يمكننا مما نراه في سدم السرطان من نجوم الثريا أن نستنتج وجود أعداد هائلة من النجوم لا يمكن تمييزها بسبب ضآلة حجمها.

٢ - لاحظنا أن شكل زحل ليس باستدارة المشتري والمريخ، بل إن زحل بيضويّ رغم أننا لم نر هذين النجمين من الجوانب المنفصلة عن المركز على نحو يمكننا من الجزم بأنهما نجمان منفصلان.

٣ - صحيح تمامًا أن كوكب الزهراء يصفر ويكبر مثلما يفعل القمر، وفي أثناء وضعه تحت المراقبة في المساء وعلى هيئة توشك على الاكتمال لاحظنا أن حجمه يصفر بالتدريج في جانبه المضيء والمواجه للشمس على الدوام. كما أنه في نفس الوقت على شكل هلال. وعندما يظهر هذا الكوكب في الصباح بعد اقترانه بالشمس وجدنا أنه ذو شكل قرني Horned. واستمرت هذه الإضاءة في الزيادة بينما صغر قطر الكوكب بالتدريج.

٤ - وبخصوص القمر، لا يمكن إنكار عدم الانتظام الكبير وعدم التساوي في سطحه. ولكن الأب كلافيرس يرى أن هذه التواءات مجرد شيء ظاهري سببه أن كتلة القمر ليست بنفس الدرجة من الكثافة، ولكنها تتكون من أجزاء بعضها أكثر كثافة من البعض الآخر وأنها مجرد بقع عادية يمكن للمرء أن يراها بعينه المجردة. غير أن بعض الناس يرون أن سطح القمر غير مستو بالفعل، ولكنه لا يوجد دليل كاف، حول هذه النقطة حتى الآن يوفر لنا إجابة شافية.

٥ - أما بالنسبة للمشتري فهناك أربعة كواكب يمكن رؤيتها، وهي تدور حوله بسرعة فائقة وأحيانًا تتحرك جميع هذه الكواكب الأربعة إلى الشرق وأحيانًا إلى الغرب في حين أن بعضها أحيانًا يتحرك في اتجاه، بينما يتحرك البعض الآخر في الاتجاه الآخر على خط يكاد أن يكون مستقيمًا. هذه الأجرام لا يمكن أن تكون نجومًا ثابتة؛ لأن حركتها تختلف عن حركة النجوم الثابتة كما أنها تفوقها في سرعتها. زد على ذلك أن المسافة بين بعضها البعض، وبين المشتري تختلف بصفة مستمرة.



هذا كل ما لدينا للإجابة عن استفسارات جنابكم. ونحن في الختام نرفع إليكم احتراماتنا المفعمة ونبتهل إلى الله أن يمنحك أقصى قدر من السعادة». ويحمل هذا الرد توقعات كريستوفر كلافيوس والأب كريستوفر جرينبرجر والأب البلجيكي أودو فان مايلكوت وجون بول لمبو، وقام هؤلاء الموقعون بعقد مؤتمر عام لتكريم جاليليو دُعى إليه الكرادلة والأمراء والعلماء ورجال الفكر والأدب والباحثون على اختلاف تخصصاتهم. وفي هذا الحفل وقف الأب فان مايلكوت ليشيد باكتشافاته وإنجازاته، وأمام هذا الفوز العظيم شعر أتباع أرسطو بالهزيمة والانكسار. وقال مايلكوت لأحد أصدقائه متحدياً الفلك الأرسطاطاليسي: «لقد أثبتنا بكل وضوح وجلاء أن كوكب الزهراء يدور حول الشمس» وطار العلماء والباحثون في روما فرحاً بجاليليو؛ فكتب الكاردينال ديل مونت إلى دوق توسكانيا العظيم قائلاً: «إن جاليليو يستحق التخليد».

غير أن الكرادلة الثمانية أعضاء المجمع المقدس، ومن بينهم بيلارمين، أظهروا شيئاً من التحفظ وأخذوا يتساءلون ما إذا كان اسمه سبق أن ورد في التحقيقات التي أجرتها محاكم التفتيش بأي شكل من الأشكال؟

وبعد انتهائه من زيارة روما عاد جاليليو إلى فلورنسا؛ حيث اصطدم مع أتباع أرسطو حول بعض مسائل الفيزياء رغم أنه استطاع أن يقنع علماء طائفة الجيزويت بخطأ آراء أرسطو في ديمومة السماء على حالها دون أن يطرأ عليها أي تغيير أو تبديل وخطأ الإيمان بأن الأجرام السماوية أقراص من الكريستال، فذكر أنه في الحفلة التي أقامها الدوق العظيم للعلماء وعلية القوم دار الحديث بينهم عن السبب الذي يجعل الثلج يطفو على سطح الماء. يقول أرسطو في هذا الشأن، إن الأجسام تطفو أو تنغمس في الماء بسبب أشكالها، ولكن جاليليو الذي آمن بنظرية أرشميدس في طفو الأجسام قرر أن الأجسام تطفو؛ لأن وزنها يقل عن حجم الماء الذي تزيحه هذه الأجسام. والجدير بالذكر، أن هذه الحفلة حضرها اثنان من الكرادلة أحدهما يدعى مافيو بابريني Maffeo Babarini الذي أيد تفسير جاليليو للأجسام الطافية ضد أتباع أرسطو من الحضور. ولهذا كان من الطبيعي أن تتوطد علاقة جاليليو بهذا الكاردينال المستتير، الذي انتخب بعد مضي عشرين عاماً بابا روما إيربان الثامن جلاب كل المصائب على جاليليو المسكين. وقد عبر الدوق العظيم كوزيمو عن عظيم إعجابه بمحاجات جاليليو أستاذ الرياضيات في تدريس حاشيته.



سطر جاليليو عام ١٦١٢ مبحثًا باللغة الإيطالية نشره تحت عنوان: «مبحث عن الأشياء الطافية أو المتحركة على سطح الماء». وأرسل جاليليو نسخة من بحثه إلى الكاردينال بيلارمين الذى أرسل إليه الرسالة التالية:

«السيد النابه،

«تسلّمت خطابك والبحث المرافق له عن الأجسام التى تتحرك أو تبقى طافية فى مكانها على سطح الماء. وسوف أستمع كثيرًا بقراءته لتأكدى أنه عمل جدير بمؤلف عظيم مثلك، وبينما أشكر من صميم قلبى على لطف شمائلك التى دفعتك إلى إرساله لى فإنى أحمل لك نفس المودة التى أظهرتها نحوى، وسوف ترى من جانبى استمرارًا لهذه المودة طالما كانت لدى فرصة لتقديم أية خدمة إليك. مع عظيم احتراماتى والصلاة لله كى يمنحك كل يَمَنه وبركاته».

وفى البداية كان الكاردينال روبرت بيلارمين عند وعده، كما سوف نرى، حين واجه جاليليو المشاكل مع محاكم التفتيش فى روما بعد انقضاء ثلاثة أعوام. ولا غرو، فقد كان بيلارمين يبجل نبوغ جاليليو وعبقريته وعمق إيمانه بالمذهب الكاثوليكي. ورغم أن بيلارمين نشأ وترعرع فى أحضان الفكر الأرسطاطاليسى القائل بأن القمر والأجرام السماوية الأخرى التى تتجاوزها تتحرك فى دوائر باستمرار وتتكون من عناصر جوهرية لا تقنى ولا تستحدث، فإنه لم يكن مقتنعًا به.

اتسم جاليليو فى ردوده على منتقديه بالحدة والسخرية اللاذعة، وهو أسلوب لم يرق فى عيني بيلارمين، وكان معارضه لودفيكو ديل كولمبى أحد الذين تعرضوا لأسلوبه الجارح اللاذع.

وبعد الأجسام الطافية أولى جاليليو اهتمامه بالبقع الشمسية التى توفر على دراستها كثيرون غيره. وكان أستاذ الرياضيات الجيزوتى كريستوفر تشاينر بجامعة إنجولستدت أحد الدارسين للبقع الشمسية، ولكن استنتاجاته بشأنها جانبها الصواب. وأرسل تشاينر مجموعة من الخطابات إلى صديقه الثرى ويسلر شرح فيها آراءه الخاطئة بشأن البقع الشمسية. وفى الحال، قام ويسلر بنشر خطابات تشاينر وأرسل نسخًا منها إلى جاليليو لأخذ رأيه فيها. كان تشاينر من أتباع أرسطو الذى آمن بأن الشمس والأجرام السماوية لا تتعرض للتبديل أو التغيير، وفسر تشاينر البقع الشمسية بأنها عناقيد من النجوم الصغيرة التى تحيط بالشمس، فى حين أن جاليليو ذهب إلى

أنها ليست نجومًا وإلى أنها قريبة من سطح البقع الشمسية التي رأى أنها تدور على محورها مثلما تدور الأرض، كما أنه فسر البقع الشمسية بأنها بحيرات أو فجوات في جسم الشمس.

والجدير بالذكر، أن أكاديمية دي لينسي نشرت في عام ١٦١٢ مبحثًا مكتوبًا باللغة الإيطالية يناصر فكرة جاليليو الخاصة بدوران الأرض حول الشمس تحت سمع وبصر البابا وكرادته. وأكد جاليليو أن مركزية الشمس ليست افتراضًا، بل حقيقة فيزيائية سوف يعترف بها العالم كله إن أجلاً أو عاجلاً. ولا شك أن نشر هذا البحث باللغة الإيطالية ساعد على ذيوعه وانتشاره وإقبال القراء عليه. والرأي عند البعض أن جاليليو تسرع في الجهر بأفكاره الفلكية الثورية؛ حيث إن باولو جوالدو والكاردينال بيلارمين نصحاء بالتريث وتوخي الحذر، ولكنه رفض الإصغاء إليهما وإلى غيرهما من المشفقين عليه.

ألف جاليليو كما أشرنا كتابًا عن الهيدروستاتيكا نفدت منه طبعتان عام ١٦١٢، وفيه امتدح نظريات أرشميدس؛ لأنها تقوم على التجربة. والجدير بالذكر، أن ألبرت أينشتين وصف جاليليو بأنه أبو الفيزياء الحديثة، والرأي عند ستيلمان دريك إنه لم ير ثمة تعارض أو تناقض بين الفكر الرياضي المجرد، وبين إجراء التجارب على أرض الواقع، وفكرته عن علاقة الرياضيات بالفيزياء تختلف عن أفكار أفلاطون وأرسطو، فأفلاطون أعلى من شأن الرياضيات المجردة واعتبرها العلم الوحيد الذي يُعتد به.

ويرى أفلاطون أنه إذا حدث تعارض بين المعرفة الفيزيائية والمعرفة الرياضية، فإن الميب يكمن في الأشياء الفيزيائية، وليس في الرياضيات لأن هذه الأشياء الفيزيائية تفتقر إلى كمال الرياضيات. أما أرسطو، فقد عاب على الرياضيات إهمالها الكامل للأشياء الفيزيائية، ولكن أفلاطون وأرسطو كانا على أية حال يدركان أن الأفكار الرياضية المجردة تتناقض مع العالم المادي الملموس، وعلى العكس منهما تبه جاليليو إلى فائدة الرياضيات في دراسة الفيزياء، وأن الرياضيات لا تتعارض مع التجربة. وفيما بعد سار ديكارت ونيوتن على نهج جاليليو الذي مزج بين الرياضيات والفيزياء.

قلنا فيما سبق إن الراهب كاستيللي تتلمذ على يدي جاليليو، وكان من أقرب المقربين إليه. وقرب نهاية عام ١٦١٢، قام الدوق العظيم كوزين وزوجته الدوقة

العظيمة كريستينا بدعوته على الإفطار مع عدد آخر من عائلة المديسيس الحاكمة. وتجاذب الحاضرون أطراف الحديث فقال أستاذ فلسفة يدين بالمذهب الأفلاطوني، إن جاليليو... الذى لم يكن حاضراً - ارتكب خطأ حين نادى بدوران الأرض؛ لأن ذلك يتعارض مع ما جاء فى الكتاب المقدس. وبعد انتهاء الإفطار طلبت كريستينا من كاستيللى البقاء وسألته كراهب يفقه اللاهوت أن يعلق على ما جاء فى الكتاب المقدس، من أن يشوع أمر الشمس بالتوقف ففعلت. وبعد أن أجاب كاستيللى عن كل أسئلة الدوقة العظيمة قال لها إنه لا بد من أخذ المسائل العلمية فى سياقها، ولا نأخذ فقرات الكتاب المقدس بالمعنى الحرفى.

وأرسل كاستيللى إلى جاليليو المقيم فى فلورنسا آنذاك خطاباً مطولاً يخبره بما حدث، فرد عليه جاليليو برسالة بعنوان: «خطاب إلى كاستيللى» عبر فيه عن موافقته التامة على كل ما جاء على لسان كاستيللى، وكان هذا أول خطاب يسطره جاليليو يعالج فيه حرية البحث العلمى، وعدم زج اللاهوتيين بأنفسهم فى الأمور العلمية المستندة إلى المشاهدة والتجربة. وأكد جاليليو فى خطابه أنه ليس ثمة تعارض بين العلم والكتاب المقدس الذى كثيراً ما استخدم لغة استعارية حتى يسهل على البسطاء والناس العاديين فهمها.

## الفصل الرابع

### نذر الخطر تتجمع حول جاليليو

(١٦١٢ - ١٦١٧)

بدأت نذر الخطر تتجمع حول جاليليو نحو عام ١٦١٢، وأخذت تشتد نحو عام ١٦١٣ ثم اتضحت على نحو لا ريب فيه عام ١٦١٦، وهو العام الذي استدعته فيه روما للاستفسار منه عن بعض الأمور. ورغم وثوقه من قدرته على إقناع الكنيسة بصحة آرائه فإنه لم يكن غافلاً عن الخطر الذي يتهدد به، وهو ما يتضح من الخطاب الذي أرسله إلى الأمير سيسى في ١٢ مايو ١٦١٢، قائلاً له: «يساورني الشك في أن الاكتشاف الجديد (البُقْع الشمسية) يؤذن بموتى، كما سبق لاكتشافاتي الخاصة بالقمر والأجرام السماوية التي سميتها باسم عائلة المديسيس، وكذلك اكتشافاتي عن زحل والزهراء أن أنذرت بموتى، وإنى أتوقع الآن أن أرى أتباع أرسطو يبذلون جهوداً جهيدة للتدليل على أن الأجرام السماوية ثابتة في مكانها». وحقيقة الأمر أن الرهبان الجيزويت تضافروا مع أتباع أرسطو لتحطيمه، كما سوف نرى.

وأمام الهجوم عليه التمس جاليليو النصيح والمشورة لدى الكاردينال كونتى Conti، الذى كتب إليه في يوليو ١٦١٢ يقول: «إن ما ورد في الكتاب المقدس يتعارض أكثر من أنه يتفق مع مبدأ أرسطو الخاص بثبات الأجرام السماوية؛ ولكن التعارض واضح في حالة مذهب فيثاغورث القائل بدوران الأرض». ومن الواضح في آراء كونتى أنه لم يجد مانعاً في الإقرار بحدوث حركة مطردة في السماء، ولكن من الواضح أيضاً من هذه الآراء أن فكرة دوران الأجرام السماوية لا تتفق مع ما جاء في الكتاب المقدس. ولكن

كونتى ما لبث أن تحفظ فى أقواله، فأضاف أن مثل هذا التفسير لا يمكن اللجوء إليه إلا فى حالة الضرورة، وبدأت له كلمات كونتى وكأنها بصيص من الأمل يداعب طموحه العلمى، حيث إنه شعر أن باستطاعته أن يصل إلى هذه الضرورة فى غضون عدد قليل من السنوات. وشجعت صلاته الوثيقة ببعض كرادلة روما أن يتجاهل النقد الذى وجهته إليه أسقفية فلورنسا.

ولعلنا نذكر أن جامعة بيزا التى بدأ حياته بالتدريس فيها عارضت آراءه وحظرت تعليمها. ومن هذا المنطلق حذر تلميذه ومريده كاستيللى أستاذ علم الرياضيات بها فى ٦ نوفمبر عام ١٦١٢ من تدريس الطلبة إن الأرض تدور دورتين: دورة يومية حول محورها، ودورة أخرى حول الشمس. بل إنه حذر من مجرد القول بأنه من المحتمل أنها تدور. والحقيقة، أن أعداء جاليليو نجحوا فى نصب الشرك له حتى يتورط فى النقاش فى أمور اللاهوت والدين، بدلاً من الاقتصار على النقاش العلمى والفيزيائى. وهذا واضح فى خطابه الشهير الذى أرسله إلى كاستيللى فى ٢١ ديسمبر ١٦١٢.

قلنا إن أول رجل كنيسة هاجم نظرية جاليليو هو الراهب لورينى الذى اعتلى منبر الكنيسة عام ١٦١٣ ليقول إن نظرية كوبرنيكوس - الذى أخطأ فى نطق اسمه وسماء إبيرنيكوس - تتعارض مع تعاليم الكتاب المقدس.

وأيضاً كان جاليليو بسبب شدة وثوقه بنفسه غافلاً عن أمر فى منتهى الخطورة، وهو أن الكاردينال بيلارمين كبير اللاهوتيين فى الكنيسة الرومانية كان يضعه تحت المراقبة الدقيقة، فقد ترامت إليه فى روما أخبار جاليليو. ونظر بيلارمين إلى السماء من خلال التليسكوب، ولم تخف عليه الملاحاة التى تارت حول نظرية كوبرنيكوس الفلكية التى تعتبر الشمس (وليس الأرض) مركز المجموعة الكوكبية، وترى أن الأرض غير ثابتة بل تدور. كان بيلارمين من النوع المحافظ الذى لا يرحب بالتجديد، فقد سبق له منذ ستة عشر عاماً أن اتخذ قراره المروع الذى أفضى إلى الحكم على الفيلسوف المارق جيوردانو برونو بالحرق حياً، وانزعج الكاردينال بيلارمين؛ لأن نفس آراء فيثاغورث الفلكية المنادية بدوران الأرض، والتى آمن بها برونو قد أخذت تطل برأسها من جديد.

سبق أن أشرنا إلى أن الكاردينال بيلارمين، رغم رقة حاشيته، كان يراقب جاليليو عن كثب منذ ٢٤ أبريل ١٦١١، فقد سعى جاهداً لسبر غوره وتكوين فكرة عنه. ويكشف



الأرشيف السرى الخاص باجتماعات المكتب المقدس أن بيلازمين أورد فى ١٧ مايو من نفس العام فقرة صغيرة من جدول الأعمال مفادها «دعنا نر ما إذا كانت هناك أية إشارة إلى جاليليو فى إجراءات محاكمة الدكتور سيزار كريمونينى» ولكن هذا لم يفض إلى شىء! لأن كريمونينى لم يُقدم قسط إلى المحاكمة. غير أن هذه الإشارة العابرة تدل على أن بيلازمين كان يتربص بغريمه الدوائر، ويقف له بالمرصاد. والجدير بالذكر، أن كريمونينى المؤمن بالمذهب الأرسطاطاليسى تشاجر مع جاليليو ورفض النظر إلى الأجرام السماوية خلال تليسكوبه. وبعد مرور شهور قلائل، أسر الكاردينال بيلازمين إلى السفير التوسكانى منذراً: «مهما كان الاحترام الذى نكنه نحو الدوق العظيم، فلا بد من محاسبته لو أنه استضاف جاليليو لمدة أطول».

تضاربت النصائح التى أسداها الأصدقاء إلى جاليليو: فهناك من نصحه بالاستمرار فى اكتشافاته دون التورط فى مناقشة أصل الكون وماهيته، كما نصحه آخرون بتقديم أدلة وبراهين مقنعة بخصوص الأجرام السماوية من شأنها استقطاب الفلكيين الجزويت إلى جانبه. وفى الشهر الأخير من حياته، بدأ إيمان الراهب كلافيوس بالفلك البطلمى القديم (الذى يرى أن الأرض هى مركز الكواكب الأخرى) يتزعزع. ولم يجد جاليليو صعوبة فى إقناع كل من جرينبرجر وفان مايلكوت ولمبو بصحة نظريته. وفى سجنه فى نابولى كتب إليه الأب كامبانيلا يقول:

«إن كل فلاسفة العالم يتعلمون القانون من كتاباتك. والحقيقة، أنه يستحيل على الإنسان أن يتفلسف دون وجود نظام كونى أكيد كهذا النظام الذى نتوقعه منك.. ومن ثم تسليح بإتقان الرياضيات إتقاناً كاملاً. وانبد لوجه الله من أجل هذا كل ما يشغلك عنها وفكر فقط فى الرياضيات. فأنت لا تعرف ما إذا كنت ستموت أو تحيا غداً».

ولكن يبدو أن جاليليو رغم رغبته فى الاصطدام بالأفكار التقليدية لم يكن آنذاك على استعداد لهذا. كان جاليليو يدرك أن نظرية كوبرنيكوس، تنهض على أساس بصرى وحركى، وتتقرر صياغتها إلى إطار فلسفة طبيعية متكاملة.

فضلاً عن أنه أدرك أن كبلر - رغم إقدامه وشجاعته وقدرته على النضال - لا يمكن أن يكون عوناً قوياً له؛ لأنه ألمانى بروتستانتى لا تروق أفكاره للكاتوليك الرومان. شعر جاليليو بحاجة الماسة إلى إقامة بناء فلسفى يمكن لنظرياته الرياضية أن ترتكز عليه؛ ولهذا انصرف بكليته إلى دراسة الفلسفة لعدة سنوات لدرجة أنه قال، إن الفترة التى

أمضاها في دراسة الرياضيات لا تعدو أن تكون شهوياً، في حين أن دراسته للفلسفة امتدت لأعوام وأعوام. وبالإضافة إلى ذلك، لم يتمكن جاليليو من تنظيم أفكاره في علم الديناميكا إلا عام ١٦٣٨ عندما نشر كتابه «الخطاب» Discorsi. ورغم ذلك، فقد كان يدرك أنه يستطيع في النهاية أن يبرهن على أن حركة الأجرام السماوية تتبع نفس قوانين الحركة التي تتبعها الأرض، وإن هذه القوانين رياضية في كلتا الحالتين؛ لأن كتاب الطبيعة تمت صياغته في شكل معادلات رياضية. وعندما استطاع جاليليو أن يفض أختام السماء المستغلقة، أصبح من السهل عليه أن يثبت أنه لا يوجد أي فرق بين السماء والأرض، وأن الأرض في السماء كما أن السماء في الأرض.

كان جاليليو يحذق الجدل الهادئ وقادراً على الإقناع فيه، فعندما قال له الأمير سيسى إنه سوف يكون سعيداً بالاقتراع بنظرية كوبرنيكوس الفلكية لولا أن هذه النظرية يشوبها القول باختلاف المركز (eccentric)، وكذلك وجود دوائر صغيرة يدور مركزها على محيط الدوائر الكبرى (epicycles)، بادر جاليليو بالرد عليه قائلاً: «ينبغي علينا ألا نرغب في أن تساير الطبيعة ما يبدو لنا أنه أفضل نظام وأحسن ترتيب، بل يجب على عقولنا أن تتواءم مع أعمال الطبيعة، لأن هذه الأعمال بالتأكيد أشد ما تكون كمالاً وإثارة للإعجاب».

وجاليليو لم يهاجم الفلك البطلمي وحسب، بل هاجم أيضاً الفلك المماثل له الذي وضعه تيكو براهي Tycho Brahe، والذي نادى بدوران الشمس حول الأرض الثابتة في مكانها، ولسنا نبالغ إذا قلنا إن زرايته بنظرية تيكو الفلكية كانت أشد وأنكى من زرايته بالنظرية البطلمية، ويتضح لنا هذا من الكتاب الذي سطره بعنوان: «حوار Dialogue»، والذي سوف نشير إليه فيما بعد.

ويرجع الفضل إلى جاليليو في ازدهار عصر النهضة الأوروبية، فهو من أبرز زعماء هذا العصر، ولم تقتصر جاذبيته على العلماء المتخصصين فقط بل امتدت إلى الناس العاديين، شأنه في ذلك شأن ليوناردو دافنشي. وشعر المدرسيون أن نجاح جاليليو يمثل خطراً داهماً عليهم، فلا غرو إذا رأيناهم يتضافرون ضده ويتآمرون عليه. وحيث إنه كان يعيش في حماية الدوق العظيم، فقد سعموا إلى إيفار صدر زوجته الدوقة كريستينا لورين ضده. وفي مقدمة الذين ناصبوه العداء بوسجاجليا وكروشيو وديلسي في مدينة بيزا والفلكي ماجيني في بولونيا وجرازا ورئيس أساقفة فلورنسا وعدد من

الرهبان الدومينيكان في إيطاليا، ولكن لورينى وكاسيني Caccini وكولمبى Colombe كانوا أخطر المتآمرين عليه طرّاً.

أدرك جاليليو أن أعداءه يتربصون به الدوائر، ومن ثمّ توخى الحرص فى كل مجادلاته. ويتضح لنا حرصه فى خطابه المؤرخ فى ١٣ ديسمبر ١٦١٢ بعنوان: «رسالة إلى كاستيللى». يقول جاليليو فى هذا الخطاب، إن الكتاب المقدس ينطوى على حقيقة مطلقة، ولكنه فى نفس الوقت يستخدم لغة استعارية فى كثير من الأحيان، مثلما يتحدث عن يد الله وخيمة السماء، وهذا ما ينبغى على المسيحى أن يراعيه عند قراءته؛ حتى لا تتعارض حقيقته المطلقة مع لغته الاستعارية. ومن ثم، فليس هناك ما يضطر الكتاب المقدس إلى مساندة بعض الفلاسفة ممن يجانبهم الصواب ضد بعضهم البعض». ويتساءل جاليليو قائلاً: «من ذا الذى يضع حدوداً للعقل البشرى؟ ومن ذا الذى يجرؤ على التأكيد بأننا نعرف كل شيء؟ ولهذا، فمن الأفضل ألا نكبل معتقداتنا المتعلقة بالخلاص أو ترسيخ الايمان بأية تفسيرات رسمية ليست هناك أية حاجة إليها». ويستطرد جاليليو قائلاً إن الإنجيل يعالج الظواهر الطبيعية بطريقة عابرة وعلى هيئة إشارات، حتى نتذكر أن الإنجيل لا يُعنى بمعالجة هذه الظواهر، بل يعنى بالحديث عن الروح. ويحذر جاليليو المتدينين من قراءة الكتاب المقدس قراءة حرفية، مثل القول بأن يوشع أوقف حركة الشمس.

وبحديثه عن لغة الكتاب المقدس الاستعارية أعطى جاليليو مناوئيه فرصة ذهبية للهجوم عليه، فقد أعلنوا أنه يهاجم سلطة الكتاب المقدس ويُقحم نفسه فى المسائل اللاهوتية، ولهذا طالب أسقف فييزول بالزج بكوبرنيكوس فى السجن دون أن يدري أن كوبرنيكوس قد مات منذ أمد طويل. وأيضاً انتهز الأب توماس كاسيني الراهب الدومينيكانى هذه الفرصة لإشاعة الفضائح والأراجيف. وفى ٢٠ ديسمبر عام ١٦١٤، ألقى موعظة فى كنيسة سانتا ماريا نوفيلاً بعنوان: «يا أهل الجليل، لماذا تقفون محمليين فى السماء؟»، وأضاف أن علم الرياضيات رجس من عمل الشيطان ونادى بنفى علماء الرياضيات من كل الدول المسيحية قائلاً: «إن القول بدوران الأرض أقرب ما يكون إلى الهرطقة».

ويرجع السبب فى هذا إلى أن الرياضيات آنذاك اقترنت فى أذهان عامة الناس بقراءة الطالع. وبعد انقضاء سبعة عشر عاماً عاد بعض أعداء جاليليو فى روما إلى

توجيه هذه التهمة إليه، فقد أُشيع عنه أنه تتبأ بموت البابا. ورغم أنه اتضح أن هذه الإشاعة باطلة وليس لها أى أساس من الصحة فقد نجحت فى إثارة اهتمام السلطة الكنسية بالموضوع، نظرًا لشدة حساسية السلطة لرواج الشائعات أيًا كان مغزاها، ويبدو أن لودوفيكو ديل كولومبى كان العقل المدبر وراء رسم الخطة للوقية بين جاليليو والكنيسة. والجدير بالذكر، أن جاليليو كان فى البداية يحظى بمكانة عالية لدى الكرسي البابوى وكاردينالات روما. وسرت فى مدينة فلورنسا شائعة قراءة جاليليو للغيب سريان النار فى الهشيم، الأمر الذى جعل الأب مارافى رئيس طائفة الرهبان الدومنيكان يعتذر له عن دور الرهبان فى نشر الإشاعة. قال هذا الأب، إنه يعتذر عن الحماقات والسخافات التى يرتكبها آلاف الرهبان. ورغم هذا الاعتذار، فقد بدا الانزعاج واضحًا على جاليليو الذى بدأ يتأكد من أن القيادة الدينية فى روما لم تعد متعاطفة معه، وزاد من انزعاجه معرفته بالعلاقة الوثيقة التى تربط الرهبان الدومنيكان بمحاكم التفتيش، وخطر له أن يكتب إلى روما طالبًا منها تصحيح هذا الوضع. غير أن الأمير سيسى وصديقه القديم بييرو دىنى رئيس أساقفة فيرمو نصحاه بتجاهل هذا الموضوع حتى لا يعطى فرصة لشائنيه أن يثيروا اللفظ حوله، وخاصة لأن معظم المفكرين والفلاسفة فى روما كانوا من المشائين الذين يقتفون أثر أرسطو ويترسمون خطاه. وشعر جاليليو أن أعداءه سوف يتحينون هذه الفرصة للوقية به. لهذا أثر التزام الصمت. وتلخصت الخطوة التالية التى فكر فيها أعداؤه فى توريطة فى الاشتراك فى ملاحاة لاهوتية تكون بمثابة الشرارة التى تندلع منها الشائعات والأراجيف.

وانتهز عدوه لورينى هذه الفرصة لتهيج الخواطر ضده وتلطيح سمعته، فما إن حصل على نسخة من رسالة جاليليو إلى كاستيللى، حتى سارع بإرسالها فى ١٨ فبراير عام ١٦١٥ عن طريق الكاردينال سفوندراتى إلى المسئولين فى محاكم التفتيش. قال لورينى عن أتباع جاليليو دون أن يذكر جاليليو بالاسم: «إن كل رهبان كنيسة القديس مرقس المعروفين بورعهم وتقواهم يتشككون فى نوايا رسالة جاليليو إلى كاستيللى؛ لأن هذه الرسالة تؤكد أن لغة الكتاب المقدس لا تعنى ما تقول، وأن الكتاب المقدس لا يصلح لأن يكون أساسًا لبحث الظواهر الطبيعية ومناقشتها، وأن صلاحيته ينبغى أن تقتصر على نطاق الدين فقط فلا تتعداها إلى ما هو خارج هذا النطاق وأن البراهين الفلسفية والفلكية أكثر مصداقية من كلام الله». وهو يفسر الآيات التى تقول إن يشوع

أمر الشمس بالتوقف بأنها لا تعنى أن الشمس هي التي توقفت، بل تعنى أن يشوع أمر بالتوقف ذلك الغلاف الخارجى الذى يدور حول الأرض كل ٢٤ ساعة. وأضاف لورينى أن مثل هذه التفسيرات للكتاب المقدس تتعارض مع تفسيرات آباء الكنيسة العظام، مما ينم عن عدم توفيرهم وعدم توفير القديس توماس الأكوينى، كما تعنى أن جاليليو وأتباعه يدوسون بأقدامهم فلسفة أرسطو التى كانت أعظم عون لللاهوت المدرسى. وطلب لورينى من المسئولين عن محاكم التفتيش التدخل لوضع الأمور فى نصابها وإصلاح ما أفسده جاليليو وأتباعه. ثم يختتم لورينى شكواه بقوله، إنه شخصياً يعتبر أتباع جاليليو مسيحيين صالحين ومنتظمين؛ ولكن شيئاً من الزهو والخيلاء قد لعب برؤوسهم، مضيفاً أن الدافع وراء شكواه هو شدة غيخته على المقدسات الدينية. والحقيقة، أن لورينى كان فى قرارة قلبه يعتبرهم أرواحاً هالكة لا تستحق الرثاء أو الرحمة، فضلاً عن أنه نسب إلى جاليليو أقوالاً لم يسطرها قلمه قط. فقد قال جاليليو فى رسالته: «توجد فى الكتاب المقدس كلمات إذا أخذت بمعناها الحرفى تبدو وكأنها تجافى الحقيقة»؛ ولكن سوء طوية لورينى جعله يغير هذه الكلمات إلى «توجد فى الكتاب المقدس كلمات زائفة بالمعنى الحرفى لها». وأيضاً وردت فى خطاب جاليليو العبارة التالية: «إن الكتاب المقدس لا يمتنع عن أن يلقي بظلاله على العقائد الدينية الأكثر حيوية بأن ينسب إلى الله خصائص أبعد ما تكون عن جوهره، بل تتعارض معه»؛ ولكن سوء نية لورينى جعله يغير عبارة «يلقى بظلاله» إلى (يزيف). ورغم استياء المسئولين فى محاكم التفتيش من كلمتى «زائفة» و«يزيف»، إلا أنهم لم يروا فى رسالة جاليليو ضلالاً أو انحرافاً عن صحيح الدين. وهكذا أخفق لورينى فى إيفار صدر محكمة التفتيش ضد جاليليو.

ورغم ذلك، فقد بدأت السلطات الدينية تنبه إلى كتابات جاليليو وتضع عينها عليها، وفى ٢٦ فبراير أصدر المكتب المقدس تعليماته إلى رئيس أساقفة بيزا والمحقق فى محاكم تفتيشها، بالحصول على نسخة موهورة من رسالة جاليليو إلى كاستيللى بطريقة لبقة وغير محسوسة. بعدئذ بدأ رئيس أساقفة بيزا يهتم فجأة بهذا الخطاب وعبر عن رغبته فى الاطلاع عليه، الأمر الذى أثلج صدر كاستيللى المرسل إليه. غير أن الشك أخذ يساور المرسل منه جاليليو، الذى أثر توخى الحكمة والحذر والتزام الصمت عندما طلب إليه كاستيللى نسخة موقعة من الرسالة؛ ولكنه اضطر أمام إلحاف كاستيللى أن يرسل إليه نسخة غير موقعة منها، طالباً منه عدم التصرف



فيها أو إعطائها لأحد، وقام كاستيللي بتلاوتها على مسامع رئيس أساقفة بيزا الذي ادعى أنه يكتفى بهذه التلاوة الشفوية.

وانقضى شيء من الوقت قبل أن تسنح للمحققين في محاكم التفتيش فرصة مواتية، فقد سافر كاسيني إلى روما حيث سارع بالاتصال بالمكتب المقدس عن طريق أحد أعضائه، وهو الكاردينال أراكولي. وفي الاجتماع الذي عقده المكتب المقدس في ١٩ مارس ١٦١٥، أمر هذا المكتب بالتحقيق مع الأب توماس كاسيني الذي اتهمه الكاردينال أراكولي بمعرفته الوثيقة بأخطاء جاليليو. ثم قام المكتب المقدس في اليوم التالي باستدعاء كاسيني لأخذ أقواله، فاعترف بأن مدينة فلورنسا أصبحت مليئة بأتباع جاليليو، الذي يوعز لهم بتبادل الأحاديث المغلوطة والمخالفة لصحيح الدين، مثل القول بأن وجود الله مجرد صدفة، وأن الله كائن يحس ويشعر ويضحك ويتخبط في البكاء وأن المعجزات التي يأتي بها القديسون ليست بمعجزات حقيقية. وذهب كاسيني إلى أن مثل هذه الأقوال المارقة ليست بالغريبة على مؤلف «خطابات حول البقع الشمسية» وهي خطابات مليئة بالافكار اللعينة ينتمي صاحبها إلى أكاديمية لينسي السيئة السمعة، كما أنه صديق حميم لساربي Sarpi الملعون الذي يتبادل الرسائل مع علماء الرياضيات الألمان. وأضاف كاسيني، أن الأب لوريني وراهبًا جيزويتيًا آخر أخبراه بأن محاكم التفتيش كادت أن تلقى القبض عليه أثناء وجوده في روما عام ١٦١١، كما أشار إلى أن الأب لوريني لديه المزيد من المعلومات عن هذا الرجل الضال، وإلى أنه يستطيع إطلاعهم على نص الخطاب الذي كان جاليليو قد أرسله إلى كاستيللي. وعندما أخذ المحققون يدققون في تحقیقاتهم مع كاسيني بدأ يُظهر حرصًا وتحفظًا واضحين، رغم أنه أكد إيمان جاليليو بنظرية كوبرنيكوس الفلكية. قال كاسيني، إنه سمع آراء جاليليو الملحدة عن طريق الأب إكسيمنيس الذي قال إنه سمع بها من شاب يدعى «أتافانتى» على ما يذكر، وهو واحد من أتباع جاليليو والمدافعين عن نظرياته. واستطرد الشاهد كاسيني ليقول لمحكمة التفتيش، إنه موقن من، أن جاليليو نادى بأمرين: أولهما أن الأرض تدور، وثانيهما أن الشمس ثابتة.

واستغرق المحققون بعض الوقت لمعرفة مكان وجود الأب الإسباني إكسيمنيس، حيث إنه كان على سفر. وحينما استدعوه لاستجوابه في ١٣ نوفمبر ١٦١٥ كان حافيًا في كل ردوده. اعترف إكسيمنيس أنه يعرف قسيسًا في أبرشية اسمه جيانوزو أتافانتى

يتفوه بأشياء فظيعة ومروعة تعلمها من جاليليو نفسه أو من أحد مريديه. قال أتاڤانتى إن الله موجود بالصدفة، وإن المادة ليست لها أية صفات مستمرة. واستطرد إكسيمينيس قائلاً إنه سمع أتاڤانتى يقول إن المعجزات المنسوبة إلى القديسين ليست معجزات حقيقية، وأنه ما انفك يكرر هذا القول عدة مرات أثناء صعوده وهبوطه درج دير سانتا ماريا نوفيلا. وأردف إكسيمينيس أن أتاڤانتى كان يردد أفكار جاليليو ولا تعبر عن آرائه الشخصية.

وبطبيعة الحال استدعى أتاڤانتى فى اليوم التالى للإدلاء بشهادة عما هو منسوب إليه، فأجاب عن أسئلة المحققين بكل ثقة. وقال إنه كان يتجادل مع الأب إكسيمينيس حول بعض الموضوعات مثل المطلقات فى أعمال القديس توماس الأكوينى فتتجست عليهما شخص من حجرة مجاورة. وما إن ذكر أتاڤانتى مسألة دوران الأرض حتى هرب هذا الشخص خارجاً، وهو يصيح إن هذا القول هرطقة وأنه سوف يلقي موعظة يدحض فيها هذه النظرية. ولم ينكر أتاڤانتى معرفته بجاليليو واعترف بأنه قابله مرات قليلة، وأنهما تحدثا حول بعض الأمور الفلسفية، مثل دوران الأرض وثبات الشمس فى مكانها. وعندما سئل أتاڤانتى عن آراء جاليليو اللاهوتية، رد قائلاً بأنه يعتقد أنه كاثوليكي لا غبار عليه ولولا ذلك لما اصطفاه الدوق العظيم وقربه إليه، وعندما سئل ما إذا كان يعرف كاسينى (الذى وشى بجاليليو)، أكد أنه لا يعرف أى شيء عنه. والغريب أن جاليليو لم يكن يدري أن كاسينى هو المتآمر عليه، كما أن محكمة التفتيش لم تخبره أن هذا الرجل هو الذى دس له لدى المكتب المقدس. والغريب أيضاً أن كاسينى المنافق زار جاليليو فى روما بعد انقضاء بضعة شهور للتعبير عن وده وصداقته، ولكن جاليليو لم ينخدع برياء هذا الرجل. ويتضح لنا من كتابات جاليليو أنه فهم عدوه كاسينى على حقيقته.

تحدث جاليليو عن هذه الزيارة فقال، إن كاسينى مكث معه أكثر من أربع ساعات تظاهر فيها بالانكسار والتواضع، نافياً أن تكون له أية علاقة بالشكوى المقدمة ضد جاليليو الذى استطاع بنفاذ بصيرته أن يكتشف جهله وامتلاء صدره بالحقد والضعف وخلوه من الشفقة. كان جاليليو رجلاً حنكته الأيام، ولهذا أدرك أن شيئاً ما قد بدأ يتحرك ضده. ونصحه سيسى أن ينحنى للماصفة حتى تهدأ، ولكن جاليليو رأى رأياً آخر يتمثل فى البحث عن وسطاء يشفعون له لدى السلطات الكنسية. فكتب مرتين فى

فبراير ١٦١٥ ثم في ٢٣ مارس إلى صديقه ديني Dini، كي يقوم بتوصيل خطاباته إلى أيدي علماء الرياضات والجبروت والكاردينال بيلارمين، وكذلك إن أمكن إلى البابا نفسه. وأرسل جاليليو هذه المرة إلى شفعاثة نسخة صحيحة وموثقة من مبحثه «خطاب إلى كاستيلي». وادتذر جاليليو لشفعاثة عن السرعة التي سطر بها هذا الخطاب، وطلب إعطاءه المزيد من الوقت لتتقبحه وصياغته في قالب فلسفي. وفكر في نصيحة ديني له بأن يتعلل بأن مركزية الشمس (وليس الأرض حسب الفلكي البطلمي) هي مجرد افتراض رياضي. وكان الهدف من وراء ذلك تهدئة خواطر علماء الرياضيات الراضين لنظرية كوبرنيكوس الذي اعتبر مركزية الشمس حقيقة فيزيقية، كما اعتبر طامة كبرى أن تحاول الكنيسة فصل الفيزياء عن الرياضيات وتفرض على العقل البشري الأخذ بحرفية الكتاب المقدس.

وبالنظر إلى أن الكاردينال بيلارمين ذهب في نقاشه مع ديني إلى أن مزامير داود تثبت حركة الشمس وأنه، يجب أن يعرف رأى جاليليو في هذا الموضوع، فقد وجد جاليليو نفسه مرغماً على مواجهة بيلارمين على الصعيد اللاهوتي، وصاغ جاليليو رده على بيلارمين في مذكرة رفعها إلى السلطات الكنسية في روما، قائلاً إنه يثق في حكمها وحكمتها وفي حقها في سحق أفكاره إذا رأت أنها خاطئة، حيث إنه يدرك أن الكنيسة معصومة من الخطأ ولا يأتيها الباطل من خلف أو قدام.

ورغم أن أنسيان طواه في طياته، فقد كان الأب روبرتو بيلارمين ذائع الصيت في أيامه. فضلاً عن أنه لعب دوراً بارزاً في الأزمة التي تعرض لها جاليليو بسبب انتقاد نفر من صغار اللاهوتيين له. وتتميز شخصية بيلارمين بروح قتالية عالية، فقد وقف بالمرصاد في وجه مجلس شيوخ البندقية وأتباع لوثر وكالفن وغيرهم، ممن اعتبرهم مارقين على صحيح الدين. وقد عُرف هذا المقاتل العنيد بشدة دفاعه عن الكرسي البابوي باعتباره أعلى سلطة في الكنيسة الكاثوليكية في جميع أنحاء أوروبا.. وقد عرض الأديب الإنجليزي المعروف الدكتور صامويل جونسون وجهة نظر بيلارمين في النظام البابوي قائلاً: «يتمتع البابا بالسلطان على الأرض والسما، وجميع الأمراء عبيد له ومن حقه إذا شاء أن يقوم بإلغاء القوانين التي يستتونها. وأيضاً من حقه أن يعزل الملوك إذا اقتضت مصلحة الكنيسة ذلك.. فالبابا إله على الأرض. والشك في سلطانه هو شك في سلطان الله».

ولم يكن هذا رأى بيلازميين وحده بل كان رأى جميع الجيزويت، وهو رأى أثار استياء الملك جيمس الأول والملكة إليزابيث الأولى فى إنجلترا الراضة لمبدأ أحقية البابا فى عزل الملوك والأمراء وطردهم من الكنيسة.

كان جاليليو يضع الكثير من أمله فى طيبة قلب الراهب بيلازميين، الذى عرف عنه الاهتمام بعلم الفلك وتوقيع علمائه. والجدير بالذكر، أن بيلازميين ألقى فى عام ١٥٦٤ محاضرات فى فلورنسا عن الأفلاك. وقد أبدى هذا الرجل إعراضاً عن نظرية كوبرنيكوس؛ لأنه اعتبر مسألة ثبات الأرض شيئاً بديهياً ومفروغاً منه. ورغم ذلك، فقد رأى أنه بإمكان جاليليو أن يجد مخرجاً من أزمتة إذا هو تحفظ وقال إن نظريته الفلكية لا تعدو أن تكون افتراضاً. وعلى الرغم من تفاؤل أحباء جاليليو فى روما، فإن جاليليو نفسه شعر بدنو الخطر منه، رغم سعى أصدقائه إلى إدخال الطمأنينة فى قلبه، إلى جانب سعيهم الحثيث إلى إثبات سلامة عقيدته الدينية. وأراد جاليليو أن يدفع الخطر عن نفسه فكتب خطاباً إلى الدوقة العظيمة يزود فيه عن ذاته، قائلاً إن إيمانه بصحة نظرية كوبرنيكوس لا يتعارض البتة مع إيمانه بالدين المسيحى. وذهب جاليليو إلى ضرورة فهم نظرية كوبرنيكوس قبل انتقادها، وإلى أنه من غير المعقول أن تسمح الكنيسة لكوبرنيكوس بنشر نظريته ثم ترفضها فى الوقت ذاته.

وقد أولى ياولو أنتونيو فوسكارينى من مدينة نابولى - وهو راهب حسن السمعة - نظرية كوبرنيكوس اهتمامه الكبير. ويدل ما كتبه عنها أنه هضمها وفهمها على حقيقتها، حيث إنه ذكر فى خطاب أرسله إلى رئيسه فى الدير أن جاليليو عالم رائد، واقترح أن الألوان قد آن لاعتبار مركزية الشمس بين الكواكب حقيقة، كما اقترح ضرورة التوفيق بين هذه النظرية الفلكية الجديدة وبين الآيات الخاصة بتكوين الكون الواردة فى الكتاب المقدس، وحتى يثبت فوسكارينى للكاردينال بيلازميين أنه راهب يطيع رؤساءه طلب من هذا الكاردينال التعليق على رأيه. ورد عليه بيلازميين بخطاب جاء فيه أنه يمتدح فوسكارينى، لأنه يعتبر نظرية كوبرنيكوس مجرد افتراض وليس حقيقة واقعة، ولكنه أضاف أنه من الخطر اعتبار الشمس مركز الكون وأنها تدور فقط على محورها دون أن تتحرك من الشرق إلى الغرب، حيث إن هذه النظرية من شأنها أن تثير غضب جميع الفلاسفة واللاهوتيين الكاثوليك المدرسين، فضلاً عن أن من شأنها أن تضر بالعتيدة المسيحية وتعارض مع الكتاب المقدس.

وينتقل بيلارمين إلى قرارات مجمع ترنت حول تفسير الكتاب المقدس فيقول، إن تفسيرات الآباء والشرح المحدثين لسفر التكوين والمزامير وغيرهما من الأسفار توضح أن الشمس تدور حول الأرض بسرعة هائلة وأن الأرض في مركز الكون وإنها ثابتة في مكانها. ثم يستطرد بيلارمين قائلاً، إنه إذا كان هناك برهان على أن الشمس تحتل مركز الكون وأنها لا تدور حول الأرض (حيث إن الأرض هي التي تدور حول الشمس)، فعلينا توخي الحصافة ومراعاة الحجى والحرص في شرح آيات الكتاب المقدس القائلة بغير ذلك، كما أنه ينبغي علينا الاعتراف بعجزنا من فهم هذه الآيات. وأضاف بيلارمين عدم اقتناعه بوجود مثل هذا البرهان. وتتم طريقة رفض بيلارمين لنظرية كوبرنيكوس على عدم دراسته الوافية لها، ويبدو أنه اكتفى بقراءة مقدمة مبحث كوبرنيكوس الفلكي في مركزية الشمس دون أن يرمى صاحب هذا المبحث بالغفلة مثلما فعل مارتن لوثر مؤسس المذهب البروتستانتي، والجدير بالذكر أن بيلارمين لم يجد غضاضة في نظرية كوبرنيكوس؛ لأنه جاء في مقدمتها أنها مجرد افتراض رياضي وليس بالضرورة وصفاً لحقيقة السماوات. ولم يكن معروفًا آنذاك أن الذي سطر المقدمة لم يكن كوبرنيكوس نفسه، بل القسيس البروتستانتي أوسياندر الذي أراد بها ألا ينفر المتدينون التقليديون من النظرية الكوبرنيكية، ولكن عالم الفلك الألماني كبلر قد هاجم هذه المقدمة وقال إن مغفلاً كتبها من أجل أن يستخدمها المغفلون الآخرون. ولو أن بيلارمين التفت جيداً إلى الإهداء الذي سطره كوبرنيكوس إلى البابا بولس الثالث لتبته إلى أن هذا الفلكي تحدث عن احتمالات سوء الفهم والخلط بين الكتاب المقدس والعلم. ولعل بيلارمين معذور في عدم تبته إلى عواقب الأخذ بنظرية كوبرنيكوس السلبية على الدين المسيحي، فقد كان رجلاً مسناً معتلاً الصحة يمضى وقته في الصلاة وطلب المغفرة ولا يفكر في الفلسفة الطبيعية، بل في تأليف مبحث ديني بعنوان: «نعي على الإمامة أو فائدة ذرف الدموع».

ومن ناحيته، شعر جاليليو بالحبل يلتف حول رقبته فكتب إلى ديني صديقه يقول، إنه لم يكن يرغب مطلقاً في الخوض في المسائل الخاصة بالعقيدة والكتاب المقدس، وعبر فيما يشبه اليأس والقنوط عن رغبته في إيجاد أسلوب يتجنب به الاصطدام مع آيات الكتاب المقدس. ثم تساءل: «ولكن كيف يتسنى لي أن أفعل هذا إذا أرتعمت على إغلاق فمي... وإذا أظهر المشاءون من أتباع أرسطو الذين يتعين إقناعهم عجزهم عن فهم أبسط وأسهل الأسباب؟». وليس من شك أن هذه الشكوى من جانب جاليليو



تتضمن إدانة لموقف بيلارمين نفسه، ولكن صديقه ديني أراد ألا تتور حفيظة بيلارمين ضد جاليليو فأبقى بنص الخطاب في أدراج مكتبه. وألح جاليليو (الذي لم يفقد الأمل تمامًا) على ديني أن يطرق مرة أخرى أبواب الرهبان الجيزويت، فاستطرد في خطابه إلى صديقه ديني: «لازلت أظن أنني إذا حضرت (يقصد إلى روما) وشرحت أسبابي بنفسى، فسوف أحصل على بعض النتائج»، ولهذا قرر وبحوثه خطابات توصية قوية من الدوق العظيم السفر إلى روما في ٢ ديسمبر ١٦١٥ للدفاع عن نفسه.

قام وزير دولة فلورنسا بإبلاغ سفيرها في روما بيير جويكيارديني بقرب وصول جاليليو إليها، وتوقع سفير فلورنسا أن يواجه جاليليو المتاعب هناك، فكتب في رده إلى فلورنسا يقول: «لست أعرف ما إذا كان قد غير نظرياته أم لا.. ولكنى أعرف أن بعض الرهبان التابعين لدير القدس دومينيك وأعضاء المكتب المقدس وآخرين لا يحملون له الود. وليست روما المكان المناسب للتناقش حول القمر، كما أنه بوجه خاص ليس الوقت المناسب لاستحداث أية أفكار جديدة». ورغم ذلك أعد السفير الفلورنسى لجاليليو مكانًا للإقامة في حدائق السفارة يرافقه سكرتير وخادم خصوصى وبغل صغير.

ولم يلتفت وجود جاليليو في روما الأنظار إليه بسبب انشغالها بالنهضة المعمارية الكبيرة التي اضطلع بها البابا سكستوس الخامس (١٥٨٥ - ١٥٩٠)، والتي غيرت ملامح مباني وأحياء وشوارع روما بالكامل، وبالفعل لم يكن الكرسي البابوى في روما يحفل بالأفكار الجديدة، وخاصة لأن البابا بولس الخامس (١٦٠٥ - ١٦٢١) كان من النوع المتصلب في عقيدته الدينية والذي يرحب بتوفير فرص عمل جديدة للعمال أكثر من ترحيبه بأفكار الباحثين والدارسين الجديدة.

ولكن انصراف الانتباه عنه لم يفت في عضده، ففي ٨ يناير ١٦١٦ كتب إلى وزير الدولة في فلورنسا يقول: «لقد اكتشفت يومًا بعد يوم مدى جودة الفكرة التي دفعتني إلى الحضور إلى هنا، حيث إنهم نصبوا لى شراكًا كثيرة لدرجة أنه لم يكن في مقدورى إنقاذ نفسى منها لو أنني تأخرت عن الحضور». وتتضح لنا طبيعة هذه الشراك من نوعية الاتهامات التي وجهها كاسيني إليه بغية إظهاره بمظهر المجدف على الدين المسيحى ومبادئه المقدسة. وفوجئ شانتوّه بحسن استقبال الدوائر الرسمية له، ولم يرتح لهم بال حين رأوه يصل حاملاً أقوى التوصيات من حاكم فلورنسا. ويتضح لنا من

الخطابات التي أرسلها جاليليو إلى فلورنسا أنه أراد تجنب أصدقائه وأنصاره الأذى. وبدلاً من توسيط أصدقائه كما كان يفكر، أثر تدوين شروحه وإيضاحاته المؤيدة لوجهة نظره على الورق، وطلب من خالصائه تسليمها إلى الشخصيات الكنسية البارزة التي كان يود مقابلتها إذا أمكن. وقد علمته التجارب أن المسؤولين يفضلون قراءة المذكرات المكتوبة على المواجهة الشخصية حتى يتفادوا أى حرج، ويأخذوا راحتهم فى رفض ما يشاءون من الأفكار التي لا تروق لهم. وقد شهد كوبرنيجو بقدرة جاليليو على المجادلة والانتصار بحجته القوية على معارضيه وإظهارهم بمظهر يثير الضحك، ورغم حُججه القوية وقدرته الفائقة على الإقناع فقد وجد جاليليو نفسه وحيداً فى خضم المعركة، غير أن حاكم فلورنسا الدوق العظيم لم يخذله.

ويبدو أن حماس جاليليو الشديد فى إقناع خصومه بصحة نظرياته هو الذى جلب عليه الكثير من المتاعب والمشاكل التي كان حجمها سيقل، لو أنه لم يستفز خصومه بحماسة المتأجج والمتقد لصحة أفكاره. ومع ذلك، فقد سعى الكاردينال أورسينى إلى الوقوف بجانبه لدى البابا الذى سارع باستدعاء بيلازمين للتشاور معه، وبعد أن استمر الاثنان فى التشاور لفترة وجيزة أصدر قرارهما بأن أفكار جاليليو خاطئة ومهرطقة. فضلاً عن أنهما قررا أن الصواب بجانب كوبرنيكوس، وطالبا بتصحيح نظرياته حتى لا يفرضوا الحظر على نظريته.

لم يكن الباعث وراء استدعاء جاليليو إلى روما عام ١٦١٦ يرمى إلى إدانته، ولكن إلى شد أذنه كما نقول باللغة العربية العامية، ومع ذلك فقد أدى هذا الاستدعاء إلى اتخاذ عدد من القرارات الراضية لنظرية كوبرنيكوس.

فقد انتهى المكتب المقدس فى ٢٣ فبراير ١٦١٦ إلى قرار يقضى برفض نظرية كوبرنيكوس وما يترتب عليها من عواقب فلسفية ولاهوتية، وأحال المكتب المقدس الأمر إلى مجمع إعداد فهرس الكتب المحظورة فأصدر مرسوماً يمنع تداول الكتب التي تُحَبِّذ نظرية كوبرنيكوس. ولهذا السبب توجه جاليليو، كما أسلفنا، إلى روما لإقناع المسؤولين هناك بصحة أفكاره. وفى ٢٦ فبراير ١٦١٦، قام المكتب المقدس باستدعائه إلى مقر روبرت بيلازمين الكاردينال فى محاكم التفتيش.

يحتفظ مجمع المكتب المقدس بالوثائق الخاصة بمحاكمة جاليليو فى أرشيف ينقسم إلى ملفين مختلفين، أحدهما يضم قرارات المجمع العام المنوط به الاجتماع ثلاث مرات أسبوعياً لمراقبة أعمال محاكم التفتيش الإيطالية.

وكان البابا يحضر هذه الاجتماعات مرة واحدة يوم الخميس من كل أسبوع. وكانت هذه الاجتماعات تعقد في أحد القصور البابوية في روما. وكانت مهمة المقيم «أو المُثَمِّن» assessor، وهو أقدم العاملين في المكتب المقدس، أن يسجل ما يتخذ في هذه الاجتماعات من قرارات، ثم يتولى الكاتب تحريرها ونسخها وجمعها وترتيبها زمنياً في مجلدات تحمل عنوان: «قرارات»، أو «مراسيم». وقد وجد الباحثون في هذه المجلدات القرارات المتعلقة بشأن نظرية كوبرنيكوس إلى جانب «حوار» جاليليو وبعض الموضوعات العلمية الأخرى المتصلة بأمور العقيدة والدين. وأيضاً احتفظت محاكم التفتيش في حوزتها بمجلدات من نوع آخر تحمل عنوان: «الفهرس»، تتضمن سجلات الإجراءات القانونية التي اتخذتها هذه المحاكم، مثل استجواب المتهمين والشهود والعدول عن المروق والأحكام الصادرة، وهذا النوع الأخير من الملفات يحمل عنوان: «محاكمات». وحتى يومنا الراهن يحمل الملف الخاص بمحاكمة جاليليو أمام محاكم التفتيش نفس الرقم القديم وهو ١١٨١.

وظلت هذه الوثائق حتى عام ١٩٨٠ محفوظة في الأرشيف السري لمحاكم التفتيش في روما، ولكن قوات نابليون التي غزت إيطاليا استولت على هذه الوثائق وقامت بنقلها إلى باريس، ثم أعيدت إلى الكرسي البابوي في عهد الملك الفرنسي لويس فيليب. وعلى الرغم من ذلك، فقد استشعر الدارسون الفرنسيون بأهمية المجلد رقم ١١٨١ الخاص بمحاكمة جاليليو، الأمر الذي حفزهم إلى التفكير في ترجمته ونشره بالفرنسية. وفي عام ١٨٤٣ على وجه التحديد، عاد المجلد ١١٨١ من باريس إلى روما وسط شائعات بعزم الكرسي البابوي على نشر الوثائق حتى يتسنى للباحثين الاطلاع عليها. وحين اندلعت الثورة في فرنسا عام ١٨٤٨، حضر باحث فرنسي في المعارف الإيطالية يدعى سلفستر جيراردى إلى سراى المكتب المقدس بروما ليكتشف عدم وجود المجلد رقم ١١٨١، حيث إن البابا نفسه كان يحتفظ به في مكتبته الخاصة. وهناك ظل المجلد المشار إليه حتى أودعه البابا بيوس التاسع (١٨٤٦ - ١٨٧٨) قبل فراره في أرشيفات الفاتيكان، وبقي المجلد هناك حتى قام أنتونيو فافارو Favaro بإصدار مجلد يحتوى جميع أعمال جاليليو. وحتى قبل أن يفعل فافارو ذلك سمح الكرسي البابوي - الذي أراد أن ينفي عن محكمة التفتيش تهمة تعذيب جاليليو - لعدد من الباحثين الفرنسيين واليطاليين والألمان بالاطلاع على جزء من مادة المجلد.

على أية حال، كان سيلفسترو جيراردى أول من نسخ الوثائق الخاصة بملف جاليليو، مما ساعد أنتونيو فافاور على فرزها وتمحصيلها واستبعاد ما يثير الشك منها. وأثار المؤرخ إميل فول ويل نقطة شائكة عندما اقترح أن إحدى وثائق المجلد ١١٨١ مزورة، الأمر الذى أثار المزيد من الشكوك حوله صحة بقية وثائق الملف، لدرجة أن البعض ذهب إلى أن محاكمة جاليليو ليست سوى محاكمة قامت محاكم التفتيش بتزويرها من أولها إلى آخرها.

ولكن فافاورو لم ير داعياً للشك فى صحة المجلد برمته. وهو يعترف بما تعرض له المجلد من تغيير وتعديل على يد محاكم التفتيش. ويذكر فافاور أن المجلد ١١٨١ تعرض للفتح بمعرفة محاكم التفتيش حتى قبل عام ١٨١٠، إذ يبدو أنها قامت بفتح الملف الأول وإعادة النظر فيه عام ١٦١٦، أى أثناء محاكمة جاليليو الأولى، فضلاً عن دمج الملفين الأول والثانى فى المجلد ١١٨١. وبعد وفاة جاليليو تعرضت الملفات للفتح مرة أخرى، عندما فكر البعض فى إحياء ذكراه وإعادة طبع حوار، ويؤكد فافاورو الاختلاف الذى طرأ على أسلوب المحققين فى تدوين القرارات. كما أن فافاورو اشتكى من عدم ترتيب بعض الوثائق ترتيباً زمنياً، بالإضافة إلى ضياع بعضها من الملف الأسمى. وأهم هذه الوثائق الضائعة وثيقتان: إحداهما خاصة بالحكم الصادر ضد جاليليو، والثانية خاصة بتراجعته عن أقواله، ويرجع ضياع بعض الوثائق إلى كثرة تنقل أرشيفات محاكم التفتيش من مكان إلى آخر، ومن المحتمل أن بعض هذه الوثائق تعرضت للتدمير. وقد لاحظ الباحثون وجود بعض الثغرات فى هذه الوثائق فسعوا إلى ملئها حتى تتضح الصورة بقدر الإمكان، وتسببت هذه الثغرات فى خلق صعوبات، فى تفسير الوثائق.

يجدر بالذكر أن الأحداث التى وقعت لجاليليو عام ١٦١٦ مدونة فى ست وثائق مهمة تعالج موقف الكنيسة الكاثوليكية الرسمى من نظرية كوبرنيكوس وتداعيات هذا الموقف على قضية جاليليو. وترجع المجموعة الأولى من الوثائق إلى ٢٤ فبراير ١٦١٦ و ٥ مارس ١٦١٦ و ١٥ مايو ١٦٢٠، أما المجموعة الثانية من هذه الوثائق فترجع إلى ٢٥ فبراير ١٦١٦ و ٢٦ فبراير ١٦١٦ و ٣ مارس ١٦١٦. ويلقى الخطاب الذى سطره الكاردينال بيلارمين الخاص بمشكلة تفسير الكتاب فى ضوء نظرية كوبرنيكوس مزيداً من الضوء على وضع جاليليو، كما أن بيلارمين سلم رسالة إلى جاليليو بعد تحذير ١٦١٦ دون تبليغ زملائه فى مجمع المكتب المقدس بأمرها.

اجتمع مستشارو المكتب المقدس وأصدروا في يوم ٢٤ فبراير ١٦١٦ قرارهم بشأن نظرية كوبرنيكوس الفلكية، فيما يلي نصه:

«قام المكتب المقدس في روما يوم ٢٤ فبراير ١٦١٦ بفحص هذه النظرية بحضور اللاهوتيين الآباء الموقعين أدناه، وتمت دراسة وتمحيص الفكرتين التاليتين: أولاً: أن الشمس مركز الكون وثابتة في مكانها.

القرار: أقر الجميع بأن هذه الفكرة سخيفة ومضحكة في مجال الفلسفة ومهرطقة من الناحية الشكلية، حيث إنها تتناقض بوضوح في كثير من المواضع مع ما جاء في الكتاب المقدس وفقاً للمعنى الحرفي للكلمات، ووفقاً لتفسيرات ومفاهيم آباء الكنيسة وفقهاء اللاهوت.

ثانياً: الأرض ليست مركز الكون وليست ثابتة؛ ولكنها تدور حول نفسها بوجه عام كما تدور مرة كل يوم.

القرار: أقر الجميع بأن هذه الفكرة على أقل تقدير فكرة خاطئة من ناحية العقيدة. الموقعون أدناه:

بتروس لومباردوس رئيس أساقفة أرياج،

الراهب هياسنتوس بترونيوس رئيس القصر الرسولي المقدس،

الراهب رفائيل ريهوز أستاذ اللاهوت والراعي العام لطائفة الدومينيكان،

الراهب مايكل أنجلو سيجيزي أستاذ اللاهوت المقدس وقوميسار المكتب المقدس،

الراهب هيبيرونيموس دي كاساليماجوري مستشار المكتب المقدس،

الراهب توماس دي ليموس،

الراهب جريجوريوس نانينيوس،

بنيديكتوس جوستيانوس جمعية يسوع المسيح،

الأب رفائيل راستيليوس كاتب حاصل على دكتوراه اللاهوت،



الأب ميشيل من نابولي التابع لمجمع الكاسين،

الراهب إياكوبوس مساعد قوميسار المكتب المقدس.

ومن الواضح أن هذه اللجنة أثرت أن تتجاهل الجانب الرياضى فى نظرية كوبرنيكوس، وخاصة الجانب الذى يردد بعض محاجّات بطلميوس الرياضية؛ مما يدل على أن رفض هذه اللجنة لأفكار كوبرنيكوس لم يكن كاملاً.

مرسوم الفهرس الصادر فى ٥ مارس ١٦١٦

يُخلَق بنا أن نقول، إن المكتب المقدس لم ينشر تقرير اللجنة الآتفة الذكر لجاليليو؛ ولكنه ترك مهمة النشر إلى مجمع الفهارس الذى أصدر فى ٥ مارس ١٦١٦ حظراً على بعض المؤلفات. وفيما يلى نص هذا الحظر: «وحتى لا يتسرب هذا الرأى الذى يتعارض مع الحقيقة الكاثوليكية، قرر المجمع تعليق كتاب نيكولاوس كوبرنيكوس «عن دوران الأجرام السماوية»، وكتاب «أيوب» الذى ألفه ديجو دي زونيغا حتى يتم تصحيح أخطائهما». فى حين أن المجمع فرض الحظر الكامل على الكتاب الذى ألفه الأب باولو أنتونيو فوسكارينى التابع لطائفة الرهبان الكارمىلايت، إلى جانب حظر جميع الكتب الأخرى التى تتضمن أفكاراً مماثلة. ويتضح مما تقدم أن الحظر المفروض على كتاب كوبرنيكوس عن دوران الأفلاك السماوية لم يكن كاملاً.

ومن الأهمية بمكان أن نعلم أن الكنيسة الكاثوليكية، فى واقع الأمر، اكتفت بتعليق الكتاب الذى حاول فيه ديجو دي زونيغا أن يشرح آيات سفر أيوب فى ضوء نظرية كوبرنيكوس، فى حين أنها أدانت إدانة مطلقة الكتاب الذى ألفه الراهب فوسكارينى التابع لطائفة الكارمىلايت الذى حاول التنسيق الكامل والمواءمة المنتظمة بين العقيدة المسيحية وبين فكرة ثبات الشمس وحركة الأرض، الأمر الذى يدل على أن الكنيسة كانت - إلى حد ما - تسمح بتداول أفكار كوبرنيكوس الفلكية، غير أن حدود هذا السماح لم تكن واضحة.

تصحيحات فى كتاب كوبرنيكوس «عن دوران الأفلاك السماوية»، (١٥ مايو ١٦٢٠)

قلنا إن مجمع الفهارس المنعقد فى عام ١٦١٦ سمح بتداول الأفكار التى يتضمنها كتاب كوبرنيكوس «عن دوران الأفلاك السماوية» على نحو غير واضح؛ ولكن هذا المجمع أصدر فى عام ١٦٢٠ مرسوماً آخر سعى فيه إلى ترسيم حدود السماح بتداول أفكار الكتاب على نحو واضح ودقيق، مثلما يتجلى لنا فى الفقرة التالية:

«رغم أن آباء مجمع الفهارس المقدس أنحوا باللائمة على كتاب «دوران الأفلاك السماوية» لنيكولاولوس كوبرنيكوس (وهو فلكي ومنجّم محترم) وطالبوا بفرض الحظر الكامل عليه؛ لأن صاحبه لا يشك في مبادئ حركة الكرة الأرضية المقيمة من وجهة نظر الكتاب المقدس وتفسيره الحقيقي والكاثوليكي (وهو الشيء الذي لا يجوز السماح به عند أي شخص مسيحي)؛ ولكنه يفهم هذه المبادئ على أنها حقيقية تمامًا ولا يتعامل معها باعتبارها افتراضًا. ولكن بالنظر إلى أن هذا الكتاب يحتوي على أشياء كثيرة شديدة النفع والفائدة للمجتمع، فقد ارتضى مجمع الفهارس أن يصدر قرارًا بالإجماع يسمح بطبع كتابات كوبرنيكوس كما كان مسموحًا بطبعها بالفعل، ولكن بعد إدخال بعض التصويبات والتتقيحات، وذلك في المواضع التي يؤكد كوبرنيكوس فيها مكان الأرض ولا يتعامل معها كافتراضات».

ويشهد المرسوم الصادر عام ١٦٢٠ على الحاجة إلى التوفيق بين القرار الذي أصدرته لجنة فقهاء اللاهوت عام ١٦١٦، وبين الاعتراف العملي بفائدة نظرية كوبرنيكوس. وأكد مرسوم ١٦٢٠ على خطأ المبادئ المتصلة بوضع الأرض وحركتها؛ لأنها تتعارض مع المفهوم التقليدي للكتاب المقدس، ومن ثم فإن واجب المسيحي يقتضى منه الشك المسبق في هذه المبادئ. ويرجع السبب في توجيه اللوم إلى كوبرنيكوس إلى عدم إظهاره الشك الكافي فيها. ويبدو في هذه الآونة أن الكنيسة لم تحاول حظر أفكار كوبرنيكوس ليس لأنه لم يتمكن بعد من إثباتها على نحو علمي قاطع، ولكن لأن إثباتها قمين بإثارة المقت ضد العقيدة المسيحية الحقّة، ورغم ذلك فقد أقرت الكنيسة بالفائدة التي تعود بها المعلومات الرياضية الواردة في كتاب كوبرنيكوس على المجتمع. وكيف يمكن للكنيسة أن تتكر هذه الفائدة بعد أن تبنت بالفعل رياضيات كوبرنيكوس وجعلتها الأساس في إصلاح التقويم السنوي؟ ولا غرو إذا رأينا مرسوم ١٦٢٠ يقر بفائدة المعرفة الكوبرنيكية، ولكنه في الوقت نفسه يصر على اعتبار المبادئ التي تُبنى عليها هذه المعرفة مجرد افتراضات. والجدير بالذكر، أن الراهب الدومينيكانى ماجدالينوس عضو مجمع الفهارس هو الذي وقّع على المرسوم الصادر في عام ١٦٢٠. وفي حين أغفل مرسوم ١٦١٦ الحديث عن الجانب الرياضي المقبول في نظرية كوبرنيكوس، لم يفت على مرسوم ١٦٢٠ أن يشير إليها. والرأى عند القديس توماس الأكويني أن الافتراضات الفلكية جائزة وربما تكون محتملة، ولكن لا يمكن اعتبارها حقيقة مطلقة، ومثل هذا النوع من التفكير يشكل ركنًا أساسيًا في نظرية المعرفة الأرسططاليسية.

وقبل شهور قلائل من اتخاذ فقهاء اللاهوت في المكتب المقدس قرارهم، كان الكاردينال روبرت بيلارمين قد أرسل خطاباً إلى الأب فوسكاريني الذي أدان مجمع الفهارس كتابه إدانة كاملة، مشيراً فيه إلى جاليليو. يقول بيلارمين في هذا الخطاب:

«بادئ ذي بدء، يبدو أن نيافتكم والسيد جاليليو تتصرفان بتعقل وحكمة عندما اقتصرتما في حديثكما على الافتراضات دون المطلقات على النحو الذي كان كوبرنيكوس يسير عليه، فليس هناك أي خطر من الافتراض بأن الأرض تدور وأن الشمس ثابتة في مكانها، حيث إنه من الأفضل الافتراض باختلاف المركز *eccentrics* وبوجود دوائر صغيرة يدور مركزها على محيط دوائر كبرى *epicycles*، وهو الأمر الكافي بالنسبة لعلماء الرياضيات. ولكن الأمر يصبح مختلفاً عند التأكيد على أن الشمس في الواقع تقع في مركز الكون، وأنها فقط تدور حول نفسها دون أن تتحرك من الشرق إلى الغرب وأن الأرض في السماء الثالثة وتدور بسرعة هائلة حول الشمس. فهذا شيء ينطوي على الخطر ومن شأنه أن يثير سخط الفلاسفة المدرسين واللاهوتيين، كما أنه يسئ إلى العقيدة المقدسة بإظهار زيف الكتاب المقدس.

وفي واقع الأمر، لم يحاول بيلارمين تحليل نظرية كوبرنيكوس في إطار فلسفي أو من منظور منطقي، في حين شعر كل من فوسكاريني وجاليليو بالحاجة إلى المواءمة بين هذه النظرية وبين الكتاب المقدس. ولعل هذا ما دعا بيلارمين إلى صياغة أفكاره في شكل خطاب (وليس في شكل مبحث)، نصح فيه كلاً من فوسكاريني وجاليليو أن يظلا داخل حدود الافتراضات التي درج علماء الرياضيات على استخدامها، مثل الافتراض بوجود *epicycles*، أي دوائر صغيرة يدور مركزها على محيط دائرة كبرى ووجود *eccentrics*، أي باختلاف المركز. هذه الافتراضات في رأي بيلارمين هي كل ما يحتاج إليه عالم الرياضيات في عمله. وذهب بيلارمين إلى أن التأكيد على صحة نظرية كوبرنيكوس بشكل مطلق هو تجاوز لحدود الرياضيات ودخول في مجالات الفلسفة واللاهوت، وهو تجاوز له محاذيره، حيث إنه يؤدي إلى إعادة تفسير الكتاب المقدس. واستطرد بيلارمين في خطابه قائلاً:

«أنقول لو كان هناك إثبات حقيقي بأن الشمس هي مركز الكون، وأن الأرض تقع في السماء الثالثة، وأن الشمس لا تدور حول الأرض بل إن الأرض هي التي تدور حول الشمس - فإنه يتعين على المرء أن يتوخى الحذر الشديد وهو يفسر الكتاب المقدس،

الذى يبدو مُتعارضاً مع هذه الأفكار، كما يتعين علينا أن نقول إننا لم نفهم الكتاب المقدس، لا أن نقول أن الإثبات خاطئ ولكنى لن أصدق وجود مثل هذا الإثبات حتى يتمكن أحد من إقناعى به».

ومن الواضح أن بيلارمين فى خطابه لا يميل إلى تكبيل الاكتشافات العلمية، فهو لا ينكر حقيقة الافتراض الكوبرنيكى فى الطبيعة، كما أنه لا ينكرها على الصعيد الفلكى. غير أننا نستشف من كلامه اهتمامه الواضح بإقامة الحدود التى تفصل الرياضيات عن الفلسفة واللاهوت. ويمكن القول، إن موقف بيلارمين لا ينم عن أية شكوك لاهوتية فى التقدم العلمى، فضلاً عن أنه لا ينكر شرعية التعامل مع فرضية كوبرنيكوس على أنه رأى جائز وليس من نسج الخيال، حتى إذا لم يتم بعد إثباته إثباتاً قاطعاً. وفى الوقت نفسه، أظهر موقف بيلارمين حساسية خاصة نحو التعقيدات التى يجربها المذهب الكوبرنيكى على الفكر المؤسسى الدينى، بمعنى أن محاولة إثبات دوران الأرض قد تجر فى أذيالها العدوان على مجالات الفلسفية المدرسية واللاهوت المدرسى، الذى لم يجد أية عوائق أو صعوبات فى ظل الفلك التقليدى. وتتمثل هذه الصعوبات فى أنها تتحدى احتكار القساوسة لتفسير الكتاب المقدس، كما نصت على ذلك مراسيم مجمع ترنت. يقول بيلارمين مخاطباً فوسكارينى:

«وكما تعلم أقول إن المجمع يحظر تفسير الكتاب المقدس بطريقة مخالفة لما اتفق عليه آباء الكنيسة المقدسون. وإذا كنت نيافتكم لا ترغبون فقط فى قراءة هؤلاء الآباء بل أيضاً فى قراءة التعليقات الحديثة على سفر التكوين والمزامير وسفر الجامعة ويشوع، فسوف تجدها جميعاً متفقة على التفسير الحرفى القائل بأن الشمس فى السماء تدور حول الأرض بسرعة فائقة، وإن الأرض البعيدة جداً عن السماء ثابتة فى مركز الكون. فلنفكر الآن عما إذا كان بإمكان الكنيسة السماح بتفسير الكتاب المقدس على نحو يخالف تفسير الآباء المقدسين ويخالف جميع الشراح الإغريق واللاتين».

ومع ذلك، يبدو أن كل ما عاد إليه بيلارمين هو توخى الحذر الشديد فى إعادة تفسير الكتاب المقدس وليس الحظر الكامل على إعادة التفسير، حيث إنه يقول: «إننا لا نفهم الكتاب المقدس دون القول بالخطأ فى التدليل على إثبات (نظرية كوبرنيكوس)».

يقول موريزجو تاجليابو فى هذا الصدد، إن كلمة «افتراض» فى زمن جاليليو لم يكن لها معنى واضح، حيث إنها اقتربت فى معناها من كلمتى «وقتى»، أو «مؤقت»،



وساعد على المعنى الغائم لهذه الكلمة الاعتقاد السائد آنذاك بتصوير العقل البشرى وعجزه عن الوصول إلى الحقيقة المطلقة. ونحن نجد أصداً لهذا المعنى الغامض في المقدمة التي صدر بها القسيس البروتستانتي أوسياندر مبحث كوبرنيكوس عن دوران الأفلاك، حيث إن أوسياندر لم يفهم الافتراضات الفلكية على أنها جائزة، بمعنى أنها حقيقة، بل فهمها على أنها تصورات مجردة لا تمتُّ إلى واقع العالم الفيزيقي بأية صلة، وأن الهدف الوحيد من اختراع الإنسان لهذه المجردات هو أن تعينه على الحساب.

ولكن المرسوم الصادر في عام ١٦٢٠ قدم تفسيراً أكثر مدعاة للتشكك في معنى كلمة «الافتراض»، ومن ثم تحدد مجال استخدام نظرية كوبرنيكوس عن ذي قبل. فقد حظر هذا المرسوم مبدأ استخلاص تحديد مكان الأرض وحركتها، الأمر الذي فرض قيوداً على تطوير الافتراض الكوبرنيكي بهدف التيقن من صحته. ومعنى هذا أن منظور المذهب الكوبرنيكي طرأ عليه تغير، فبعد أن وصفه بيلارمين في خطابه المؤرخ في عام ١٦١٥ بأنه مذهب خاطئ، أصبح مرسوم ١٦٢٠ يتحدث عن التعارض القائم بين هذا المذهب والكتاب المقدس. وبينما عبر بيلارمين عن قلقه من أن نظرية كوبرنيكوس تنتقص من أحقية الكنيسة وحدها في تفسير الكتاب المقدس، نرى أن مرسوم ١٦٢٠ يعبر عن شدة قلقه من حدوث صدع بين الحقيقة الفلسفية وحقيقة الكتاب المقدس؛ ولهذا جنح مرسوم ١٦٢٠ إلى حظر مناقشة الافتراض الكوبرنيكي باعتباره حقيقة طبيعية جائزة. ورغم ذلك، فقد سمح هذا المرسوم باستخدام هذا الافتراض باعتباره نموذجاً رياضياً خالياً من أي معنى فيزيقي، وأيضاً باستخدامه كبناء مجرد لا يمتُّ إلى العالم الحقيقي بصلة.

وعلى أية حال، فمن الواضح أن الكنيسة الكاثوليكية لم تتخذ موقفاً موحداً من الافتراض الكوبرنيكي. والواقع، أن موقف هذه الكنيسة اختلف من شخص إلى آخر ومن جماعة إلى أخرى ومن مؤسسة إلى مؤسسة، غير أن هذه الأصوات المتعددة رأت أنه لا محيص أمامها عن الاتحاد في وجه ثقافة الإصلاح البروتستانتي التي بدأ ساعدها يقوى ويشتد. حتى الكنيسة نفسها وقعت في تناقض، فقد رأى فقهاء اللاهوت في المكتب المقدس أن مذهب كوبرنيكوس مضحك على الصعيد الفلسفي ومهرطق على الصعيد اللاهوتي، الأمر الذي استدعى ضرورة ترجمة هذه الإدانة إلى



واقع عملي وملمس. ومع ذلك، فإن أحداً من المسؤولين عن الكنيسة الكاثوليكية لم يرفض تدريس تعاليم كوبرنيكوس الفلكية بصورة صريحة، بل إن الجميع ذهبوا إلى أنه من المسموح به استخدام هذه التعاليم كمجرد افتراضات. وهكذا أصبحت هذه التعاليم من وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية محل جذب وشد وأخذ وعطاء يختلف باختلاف المفسر لها.

لقد اتبع الكاردينال بيلارمين المنهج العقلي الذي وضعه القديس توماس الأكويني في تفسير «المعرفة الافتراضية» بأنها تلك المعرفة التي لا تستند إلى برهان منطقي كامل، وهو على أية حال تفسير يسمح بجواز صحة الافتراض، وإمكانية إقامة الدليل عليه. ولكن مرسوم ١٦٢٠ جنح إلى اعتبار الافتراضات الفلكية أشياء مجردة منبثقة الصلة تماماً بالواقع، يستعين بها الإنسان في إجراء العمليات الحسابية على نحو ما أسلفنا.

والجدير بالذكر، أن الكاردينال روبرت بيلارمين (١٥٤٢ - ١٦٢١) الذي لعب دوراً بارزاً في قضية جاليليو كان رجل دين يتسم بالاستتارة والأفق العريض والإحاطة الواسعة بالدراسات الإنسانية والاهتمام بالثقافة الفنية في عصره، إلى جانب الرغبة في مواكبة أحدث التطورات العلمية، الأمر الذي أضفى عليه طابع التسامح وجعل منه نموذجاً للكاثوليكي المتفتح في الفترة المناهضة لعصر الإصلاح الديني. وقد شب بيلارمين وترعرع في أحضان طائفة الجيزويت واعتلى أرفع المناصب حتى صار رئيساً للكلية الرومانية، أعلى المؤسسات التعليمية الجيزويتية في إيطاليا. وظل بيلارمين حتى وفاته مشغول البال بمشكلتين لاهوتيتين بارزتين، هما: «العناية الإلهية»، و«حرية الاختيار». وعلى النقيض من ذلك، نلاحظ التشدد والتصلب في أفكار توماس دي ليموس الراهب الدومينيكانى الذى وقع على وثيقة لوم جاليليو الصادرة عام ١٦١٦.

#### موقف محاكم التفتيش من جاليليو ونظرية كوبرنيكوس

لم تتخذ الكنيسة الكاثوليكية - كما سبق أن قلنا - موقفاً موحداً من تفسير نظرية كوبرنيكوس، فقد كان لها موقفان متباينان منها: موقف طائفة الجيزويت المتمثل في بيلارمين، وموقف موظفي محاكم التفتيش المتمثل في طائفة الدومينيكان. ورغم أن الرهبان الجيزويت تأمروا على جاليليو في أخريات حياته، فإنه يجدر بنا أن ننوه بأن عدداً كبيراً من المعادين له كانوا ينتمون إلى طائفة الدومينيكان.

## محاضر محاكم التفتيش المؤرخة في ٢٥ فبراير ١٦١٦

ورد ذكر قرار البابا بولس الخامس بشأن جاليليو في الوثيقة المؤرخة في ٢٥ فبراير ١٦١٦، وهي الوثيقة التي قام فيها الكاردينال ميليني بتبليغ كل من المقيم وقوميسارية المكتب المقدس بالكيغية التي ارتآها البابا مناسبة لمعاملة جاليليو في ضوء اللوم الموجه إليه. تقول الوثيقة:

«قام سيدنا الكاردينال ميليني بإبلاغ الأب الموقر المقيم والآباء الموقرين في قوميسارية المكتب المقدس بعد ذكر الحكم الذي أصدره الآباء اللاهوتيون ضد الآراء التي طرحها عالم الرياضيات جاليليو (ومفادها أن الشمس تقف ثابتة في مركز الكون، وأن الأرض تتحرك حركة يومية حولها) بأن قداسة البابا أمونيافة الكاردينال المبجل بيلارمين باستدعاء جاليليو وتحذيره حتى يتغلى عن هذه الآراء، فإذا رفض الامتثال يتعين على الأب القوميسار - بحضور الكاتب والشهود - إصدار أمره إليه بالامتناع امتناعاً كاملاً عن تدريس مذهبه أو الدفاع عنه، وكذلك الامتناع التام عن مناقشته فإذا لم يرعو يتعين سجنه».

ويدل هذا الخطاب على طريقة عمل محاكم التفتيش آنذاك وفقاً لنصوص القانون، فهي تبدأ بالتحذير ثم النهي ثم السجن. وقد كلف الكرسي البابوي ببيلارمين بتوجيه التحذير الرسمي لجاليليو.

## موقف الكنيسة غير الموحد إزاء جاليليو والأمر المؤرخ في ٢٦ فبراير ١٦١٦.

بعد انقضاء يوم واحد على التبليغ الأنف الذكر بقرار الكرسي البابوي الخاص بجاليليو، سجلت وثيقة مؤرخة في ٢٦ فبراير ١٦١٦ الإجراءات والتدابير التي اتخذت ضد هذا العالم. وفيما يلي نصها:

«في القصر الذي يقيم فيه عادة جناب الكاردينال ببيلارمين صاحب المقام الرفيع وداخل حجرات هذا القصر (وفي حضرة الأب الموقر مايكل سيجيزي من لودي والقوميسار العام للمكتب المقدس) وبعد استدعاء المذكور أعلاه جاليليو للمثول أمامه (أي ببيلارمين)، قام جنابه المبجل بتحذيره بأن رأيه السابق الذكر رأى خاطئ، ومن ثم ينبغي عليه نبذه. بعدئذ مباشرة أمام عيني وأمام الشهود وبحضور نيافة الكاردينال صاحب المقام الرفيع نفسه قام الأب قوميسار المكتب المقدس، نيابة عن قداسة

البابا وعن كل أعضاء مجمع المكتب المقدس، بأمر جاليليو الذى كان حاضراً بنبذ رأيه السالف الذكر المنادى بأن الشمس تقف فى مركز الكون وأن الأرض تدور حولها، وأن يمتنع عن اعتناق هذا الرأى أو تدريسه أو الدفاع عنه بأية طريقة؛ سواء كان ذلك شفاهةً أو عن طريق الكلمة المكتوبة. فإذا لم يمثل لهذا الأمر فسوف يشرع المكتب المقدس فى اتخاذ الإجراءات ضده (سجلت هذه الوثيقة فى روما داخل القصر المذكور بحضور الشاهدين الأب بادينو نوريس من نيقوسيا فى مملكة قبرص وأجوستينو مونجارى والراهب فى دير الوردية الواقع فى أبرشية مونتيبو لسبانو، وكلاهما من القاطنين فى قصر نيافة الكاردينال صاحب المقام الرفيع).

وتدل هذه الوثيقة على انتهاك القرار الذى أصدره البابا بتحذير جاليليو قبل اتخاذ الخطوة الأعنف ضده، وهى إصدار الأمر إليه. فالوثيقة - كما نرى - تجمع بين عقوبتى التحذير (وهى الأخف)، وكذلك الأمر (وهى الأعنف) فى وقت واحد. وهو انتهاك ما كان ليحدث، لولا اتفاق المنفذين على ذلك. وفى حين اكتفى بيلارمين بتحذير جاليليو شفاهة بالامتناع عن الأخذ برأى كوبرنيكوس واعتباره حقيقة علمية (ولكنه ترك أمامه مفتوحاً اختيار الدفاع عن هذا الرأى وتعليمه ومناقشته كراى جازز أو محتمل)، نرى أن المسئول الدومينيكانى عن محكمة التفتيش ذهب إلى ما هو أقسى من ذلك، وهو إصدار أمر مباشر لجاليليو دون إتاحة فرصة الرفض أمامه. علماً بأن مسئول محكمة التفتيش الدومينيكانى سجل هذا الأمر كتابةً. غير أن المنفذين الدومينيكان لهذا الأمر لم يصروا على إخراسه إخراساً كاملاً. صحيح أنهم حرموا عليه بوضوح الدفاع عن المذهب الكوبرنيكى أو تعليمه؛ ولكنهم لم يحرموا عليه صراحةً مناقشته. فمصطلح المناقشة الوارد فى قرار البابا ليس له وجود فى توصيف «الأمر» الوارد فى وثيقة ٢٦ فبراير ١٦١٦. ولهذا يرى بعض الباحثين أن المنفذين الدومينيكان لقرار البابا لم يذهبوا فى تلك المرحلة إلى حد الأمر بإخراسه، ومعنى هذا أنه كان بالإمكان حينذاك معاملة المذهب الكوبرنيكى كافتراض مجرد يصلح فقط لإجراء العمليات الحسابية ولا يمت للواقع الفيزيقي أو الحقيقة الفيزيكية بصلة.

محاضر التفتيش المؤرخة فى ٣ مارس ١٦١٦

تشتمل هذه المحاضر على التقرير الذى رفعه الكاردينال بيلارمين إلى المجمع المقدس بشأن «تحذير» جاليليو. ويلاحظ بعض الدارسين أن هذا التقرير امتنع عن

الإشارة إلى «الأمر» الذي أصدرته القوميسارية ضد جاليليو. بل إن بيلارمين تجاهل مسألة «دفاع» جاليليو عن مذهبه أو «تدريسه». وهناك وثيقة يرجع تاريخها إلى ٢٦ مايو ١٦١٦ كتبها بيلارمين إلى جاليليو يدحض فيها الشائعات التي سرت عن إرغام الكنيسة جاليليو على نبذ آرائه. يقول بيلارمين في هذه الرسالة:

«نحن روبرت كاردينال بيلارمين نما إلى سمعنا أن جاليليو جاليلي يتعرض للتشهير وللزعم بأنه نبذ أفكاره على أيدينا، وأنه تاب توبة نصوحاً عليها. وإحقاقاً للحق نقول، إن جاليليو المذكور أعلاه لم ينبذ في حضرتنا أو على أيدي أناس آخرين هنا في روما أو في أي مكان نعرفه أيًا من أفكاره أو مذاهبه، كما أنه لم يتب عنها توبة نصوحاً أو غير نصوح. على العكس من ذلك فقط، تم إبلاغه بتصريح قداسة البابا الذي تولى المجمع المقدس نشره في فهرس الكتابات المحظورة، وفجواه أن المذهب المنسوب إلى كوبرنيكوس (بأن الأرض تدور حول الشمس وأن الشمس ثابتة في مركز الكون لا تتحرك من الشرق إلى الغرب) يتناقض مع الكتاب المقدس، ومن ثم لا يمكن الدفاع عنه أو اتباعه».

وقد اتبع بيلارمين سياسة التمييز بين حظر الأخذ بالمذهب الكوبرنيكي والدفاع عنه من ناحية، وبين تعليمه أو مناقشته من ناحية أخرى دونما فرض الحظر الصريح على تعليمه أو مناقشته، حيث إن بيلارمين ترك لجاليليو حرية الاختيار أو التصرف بشأنهما. ورغم ما يكتنف هذا التمييز من غموض فإن نفرًا من أبرز الباحثين يردون الخلاف في التفسير إلى خلاف بين الموقف الجيزوتي الذي يمثله بيلارمين، وهو موقف ينشغل انشغالا كبيرا بقضية التعليم بخلاف موقف الدومينيكان المتزمت الذي يهيمه في المقام الأول والأخير تنقية العقيدة المسيحية من أية شوائب، حتى لو اقتضى الأمر استبعاد الأفكار الجديدة.

القديس روبرت بيلارمين يهدئ من روع جاليليو

قلنا إنه عندما شعر جاليليو بورطة كتب إلى مريده «ديني» كي يشفع له لدى الكنيسة في روما، ولكن ديني تأخر بعض الوقت في الاتصال بالكاردينال بيلارمين الذي طمأنه قائلاً، إنه لا يظن أن مؤلفات جاليليو سوف تتعرض للحظر. كل ما هناك أنه قد يطلب منه إضافة بعض العبارات الملطفة، مثل القول بأن نظرية كوبرنيكوس تهدف إلى شرح بعض الأمور الظاهرية أو أي شيء من هذا القبيل. فبمثل هذا التحفظ

يمكن للسيد جاليليو مناقشة الموضوع دون أية عوائق، الأمر الذي يوحى بأن تعليق مؤلفاته سوف يكون مؤقتاً.

ومن المفارقة أن نعرف أن المبحث الذي ألفه بيلارمين نفسه بعنوان: «مجادلات» تعرض للحظر المؤقت لحين إدخال بعض التصحيحات عليه؛ لأن البابا السريع الغضب سكستوس الخامس (١٥٨٥ - ١٥٩٠) رأى أن بيلارمين لم يدافع عن سلطة البابا بما فيه الكفاية.. ولولا وفاة هذا البابا لظل كتاب بيلارمين محظوراً لفترة طويلة. وكذلك أرسل الكاردينال باربريني والكاردينال ديل مونت عن طريق ديني وكيامبولي، رسائل إلى جاليليو لبث الطمأنينة في نفسه، فمثلاً قال ديل مونت في رسالة مؤرخة في ٢١ مارس ١٩٦٥ (أي قبل توقيع لجنة فقهاء اللاهوت لجاليليو عام ١٦١٦)، إنه لا يسمع في روما عن أي صدى للضجة المثارة حول أفكاره.



## الفصل الخامس

### حياة جاليليو فى الفترة من

عام ١٦١٧ حتى المحاكمة عام ١٩٣٣

عاد جاليليو من فلورنسا إلى روما عام ١٩٣٣ ليشعر بالإحباط والكآبة ونوبات الحرقص المرضى على صحته التى أخذت فى الاعتلال. واسودت الدنيا فى وجهه، فتصححه صديقه القديم ساجريدو بالامتناع عن معارضة الأفكار الفلكية السائدة، وعدم إثارة الجهالة عليه حتى لا يفتكوا به. ولكن حب جاليليو للمعرفة والحقيقة جعله عام ١٦١٨ ينشر مبحثاً عن حركة المد والجزر أرسل فى ٢٣ مايو من هذا العام نسخة منه إلى ليوبولد أرشيدوق النمسا. وعلى الرغم من أن دراسته اعتمدت على اقتناعه بصحة نظرية كوبرنيكوس، إلا أن المرارة جعلته يقول للأرشيدوق ألا يأخذ مبحثه عن المد والجزر مأخذ الجد، بل مجرد دعاية للتسلية وتزجية وقت الفراغ.

وبناء على نصيحة نفر من أصدقائه، التزم جاليليو الصمت حتى تهدأ العاصفة. وشكا جاليليو من أن الجهل والحقد، وغياب التقوى والورع تقف فى طريقه، الأمر الذى أصابه بالتقزز والاشمئزاز، كما أصابه بالحزن والكآبة. ولكن لم تمض بضعة أسابيع حتى استعاد نشاطه وارتفعت روحه المعنوية، ولكن المرض كان قد عرف طريقه إليه، حيث اشتدت وطأة الآلام الروماتيزمية عليه. وفى تلك الفترة من حياته وضع أسس علم المكيانيكا. ورغم مرضه فقد وجد شيئاً من العزاء فى حياته الريفية فى الفيلا التى أقام فيها والمطللة على مدينة فلورنسا ونهر الأرنو، كما وجد عزاء أكبر فى عنايته بأشجار الزيتون التى اعتبر نفسه بفخر واعتزاز خبيراً. فى زراعتها. أضف إلى ذلك

استمتع بصحبة أصدقائه ومعارفه من الأدباء والفنانين. ويصف فينفياتي جاليليو في أخريات حياته فيقول، إن حديثه امتلأ بالنكتة الطلية والدعابة الذكية، وتميز بالحكمة البليغة والعبارات الحصيفة الثاقبة. ولم يقتصر حديثه على العلوم وحسب، بل امتد إلى الموسيقى والأدب والشعر. وكان يتمتع بذاكرة مذهلة في قوتها ويحفظ معظم أشعار فيرجيل وأوفيد وهوراس وكتابات سينيكا وكل أشعار بترارك، إلى جانب أشعار بيري وأريوستو الأثير إلى قلبه.

وكان لجاليليو ابنة راهبة في السابعة عشرة من عمرها معتلة الصحة وراضية بقضاء الله اسمها الأخت ماريا سيليست، التحقت بالدير في بلدة أريكتري. أحبت هذه الفتاة والدها من أعماق قلبها ووجدت في خطابات وزياراته لها أسعد الذكريات، كتبت عن والدها تقول إنها لا تستطيع أن تذوق طعم الراحة إلا إذا جاءتها أخباره، حيث إنها تحبه إلى المنتهى. وعبرت عن قلقها من عودة آلام البرد إليه، كما عبرت عن أمنيتها أن تتمكن من أن ترسل إليه القوط التي صنعتها بيديها من أجله على وجه السرعة. وشكت الفتاة من البرد القارس الذي يسود غرفة نومها في الدير، وطلبت من أبيها إرسال بعض المفروشات كي تتدفئ بها. كما أنها طلبت منه أن يرسل إليها الكتاب الأخير الذي قام بنشره مؤخراً، لحرصها الشديد على قراءته. وأشارت الفتاة إلى اضطرارها إلى إرسال الكعكات التي صنعتها له خوفاً من أن تجف؛ لأنه تأخر عليها بسبب ظروفه التي تحول دون زيارتها.

وأراد جاليليو التسرية عن ابنته فانتقل للعيش في فيلا صغيرة قريبة منها في موضع يقال له أريكتري. وهي المكان الذي عاش فيه بقية عمره. ومن المؤسف أن خطابات جاليليو إلى ابنته فقدت، حيث إنه كان يروي لها كل ما يحدث له. غير أن خطابات الفتاة إلى والدها لم تضيع. وتدلنا هذه الخطابات على أن الابنة أشرفت على ترتيب منزل والدها الجديد والقريب من الدير، كما أشرفت على المزرعة الصغيرة التي يمتلكها. وأيضاً أعدت ما طاب ولذ من الطعام وأرسلته إليه عن طريق مرسال خصوصي. فضلاً عن أنها صنعت له بعض الحلوى والمشروبات وحاكت ملابسه ومفروشاته. وأحياناً كان جاليليو يزور ابنته في حجرتها بالدير ويطلق نافذتها بمادة زجاجية؛ حتى تستطيع القراءة على ضوءها المنعكس في شهور الشتاء المعتمة. وأحياناً كانت الفتاة تشكو إلى أبيها من بعض المثالب التي تشوب حياة الدير، وتطلب منه

استخدام نفوذه لوضع الأمور في نصابها . وسوف نفصل حذب هذه الابنة عليه وحنانها الفائق به في فصل مستقل.

وبسبب ذبوع صيته كثر عدد تلاميذه ومريدوه داخل إيطاليا وخارجها، فأرسلوا إليه طالبين المشورة والإرشاد . وعلى سبيل المثال، تعلم الراهب كافالييري منه دراسة موضوع «المتناهيات في الصغر» *infinitesimals*، مما ساعد هذا الراهب على تأليف كتاب بعنوان: «هندسة غير القابل للتجزئة». وأيضاً ساعد جاليليو مريده كاستيللي في نشر مبحثه الرائد «حركة الماء»؛ ولكن هذه الاستشارات الهندسية لم تعد عليه بعائد مالى له قيمته. غير أن ضيق ذات يده في أيامه الأخيرة لم يثبط من همته أو يؤثر بالسلب على روحه المعنوية وانشراحه، فهو يكتب من روما مداعباً «إننى أكل الخيار بسبب طول ساعات النهار، فحافضة نقودى ليس فيها ما يكفى لأكل الشمام أو احتساء الخمر الباردة. وأنا أقضى الأيام الكلاية (أى العجاف) كيفما اتفق؛ ولكن الوجهاء يقرئوننى منهم».

وبعد أن اضطرتته صحته العلية إلى إرجاء العمل فى وضع جداول الكواكب التى تسير فى فلك المشتري لاستخدامها فى قياس خطوط الطول عاد إليه بهمة ونشاط، الأمر الذى اقتضى منه كثيراً من التراسل مع المسئولين عن الأساطيل الإسبانية الذين أدركوا أهمية هذا المبحث فى الملاحة.

وبسبب توبيخ لجنة اللاهوتيين له، تعلم جاليليو استخدام لغة ملفوفة غامضة تتطوى على السخرية دون أن يتزحزح عن أفكاره قيد أنملة. ومعنى هذا أن جاليليو وجد نفسه مضطراً إلى لبس قناع لم يكن فى الأصل يحب أن يلبسه. وهكذا امتزج احترامه الكامن لشرعية المؤسسة الدينية باحتقاره لأحكامها وأفعالها. وأدرك جاليليو مدى الضرر الذى ألحقه مرسوم ١٦١٦ بالاكتشافات الفلكية التى بدأت تزدهر فى إيطاليا، كما ألحقت الأذى بنظرية مركزية الشمس بعد أن وجدت لها أنصاراً بين أعداد متزايدة من الناس. بل إن التقرير الذى وجهه اللاهوتيون إلى جاليليو أوقف مسيرة نهضة علمية عظيمة لاحت فى الأفق.

وبعد توبيخ اللاهوتيين لجاليليو عام ١٦١٦، أخذ يتحسس طريقه ويتصرف بحذر. ورغم ذلك فعندما طلب إليه ليوبولد أرشيدوق النمسا فى عام ١٩١٨ موافاته بعمل من تأليفه، تجاسر وأرسل إليه المذكرة التى كان قد أعدها عام ١٦١٦ ليبعث بها إلى الكاردينال الشاب أورسينى. وأرفق بهذه المذكرة خطاباً يقطر سخرية فيما يلى نصه:

«مرفق بهذا مبحث عن أسباب حركة المد والجزر كتبته، في الوقت الذي كان فقهاء اللاهوت يفكرون في فرض الحظر على كتاب كوبرنيكوس ومذهبه الوارد فيه. وهو مذهب آمننت بصحته حتى شاء هؤلاء السادة حضره، معلنين أنه رأى زائف ويتعارض مع الكتاب المقدس. وعرفت أنه يخلق بنا طاعة أولى الأمر وتصديقهم، حيث إن بصيرتهم التي تفوق البصيرة التي يمكن لعقلي المتواضع الوصول إليها، ترشدهم وتهديهم سواء السبيل. ولهذا، فإنني أعتبر هذا المبحث الذي أرسله إليك مجرد خيال شعري شاطح أو مجرد حلم وإنني أرغب من سموكم اعتباره كذلك، حيث إنه ينبغي على الحركة المزدوجة للأرض. ولكن حتى الشعراء أحياناً يعلقون أهمية على بعض خيالاتهم. وإنني كذلك أعلق شيئاً من الأهمية على الخيالات التي تتراءى لي. وقد أعطيت نسخاً لعدد ضئيل من الشخصيات المرموقة حتى إذا حاول أحد أن ينسب لنفسه الخيالات التي تراءت لي (مثلما حدث في حالة الكثير من اكتشافاته)، فإن هذه الشخصيات المرموقة التي ترتفع فوق مستوى الشبهات سوف تشهد لي بأني أول من حلم بها. ومبحثي الراهن مجرد أداء شارد سطرته على عجل، دون أن أتوقع أن مؤلفات كوبرنيكوس سوف تُدان على أنها خاطئة بعد مرور ثمانين عاماً على نشرها. ولكن صوتاً من السماء هبط عليّ ليوقظني ويضع حداً لكل خيالاتي المرتبكة والملفوفة في الضباب. ومن ثم، فإنني أرجو سعادتكم أن تتكرموا بقبولها رغم افتقارها إلى النظام والترتيب. وإذا سمحت لي رحمة الله أن أتمكن من بذل شيء من الجهد، فسوف يتوقع سموكم مني شيئاً أكثر تماسكاً وأهمية مما أبعث به إليكم».

شاءت الأقدار أن تقوم الدنيا ولا تقعد عام ١٦١٨، عندما ظهرت المذنبات التي رأى فيها البعض غضباً من الله وتنبأ البعض بقرب نهاية العالم، الأمر الذي حفز العالم الفرنسي بيير بايل Bayle أن يؤلف مبحثاً بعنوان: «خواطر عن المذنب» كتبته بسبب مذنب ١٦١٨، ولكنه نُشر فيما بعد بمناسبة ظهور مذنب ١٦٨٠. فضلاً عن أن العالم الجيزويتى الأب هوراشيو جراسي ألقى محاضرة أقل أهمية من مبحث بايل في المكتبة الرومانية. وقرأ جاليليو نص محاضرة جراسي فضاق ذرعاً بها وبتفاهتها، ويعدم استخدام الأب جراسي للتليسكوب عند دراسة ظاهرة المذنب. استاء جاليليو من جراسي الذي حاول بمحاضرتة الغثة أن يدق مسماراً في نعش مذهب كوبرنيكوس الفلكي؛ ولكن جاليليو - رغم غضبه - لم يكن بمقدوره بسبب ظروفه الرد على جراسي. ورأى قنصل الأكاديمية الفلورنسية ماريو جويدوكي أحد أصدقاء جاليليو اليأس

والإحباط الذى أصاب صديقه، فاقترح عليه أن يقوم بنفسه بالرد على جراسى بدلاً منه.

درج الغرب منذ أرسطو على الاعتقاد بأن المذنبات تتكون من انبعاثات الأبخرة الأرضية التى ترتفع فوق مجالات النار، الأمر الذى يجعل سيرها غير المنتظم لا يؤثر فى انتظام الأفلاك السماوية. غير أن العالم الرياضى تيكو Tycho كان قد أوضح أن المذنبات تحتل مكاناً أعلى من القمر وأن لها مدارات من نوع غريب، وذلك عن طريق الحسابات التى أجراها بشأن مذنب عام ١٥٧٧. ومن ناحيته ذهب الفلكى المعروف كبلر إلى أن بإمكانه توضيح استقامة مسارات المذنبات؛ ولكن الأب جراسى أصر على أن مدارات المذنبات مسارات دائرية. ورأى جاليليو فى المذنبات رأياً يتعارض مع جميع الآراء السابقة، فهو يعتبرها آثاراً بصرية ناجمة عن الأبخرة الأرضية. وهو رأى يرى الفلكيون أن الصواب بجانبه. وأيضاً، وافق جاليليو على رأى كل من تيكو وكبلر فى النجوم المتجددة التالق؛ لأن رأيهما عزز اقتناعه بأن الأجرام السماوية ليست ثابتة فى مكانها.

وبسبب ظهور مذنب ١٦١٧ نشر جاليليو فى يونيو عام ١٦١٩ تحت اسم مستعار مبحثاً بعنوان: «مبحث عن المذنبات». واستقبل المتخصصون فى روما هذا المبحث بالمديح والاستحسان، وابتهج له أصدقاؤه لأنهم رأوا فيه حرصاً من جانب جاليليو على العودة إلى أبحاثه. وبلغ الحماس بصديقه الكاردينال مافيو باربرينى (الذى اختير بابا فيما بعد) لهذا المبحث حداً جعله ينظم قصيدة مديح فيه بعنوان: «التقريظ الخطر». ولكن كيامبولى كتب عن استياء طائفة الجيزويت من هذا المبحث وحشدهم قواهم للرد عليه. وقد قام جراسى بالفعل بالرد عليه فى مبحث مكتوب باللغة اللاتينية بعنوان: «الميزان». وعلى الرغم من أن كثيراً من أصدقاء جاليليو رحبوا بعودته إلى حلبة البحث العلمى فإنه تلقى خطاباً أرسله إليه صديقه ستيلوتى من روما يحذره من مغبة إثارة حفيظة الجيزويت عليه؛ لأنهم كثرة وسوف يتكالبون عليه ولن يهدأ لهم بال حتى يلحقوا الهزيمة به. ولسوء حظ جاليليو، توفى صديقه وراعيه كوزيمو الثانى فى عام ١٦٢٠ والذى وفر الحماية له وسانده مساندة قوية. وبعد وفاة حاميه كوزيمو وجد جاليليو مساندة أقل من ولية العهد التثنية الورعة الدوقة العظيمة. والجدير بالذكر، أن بيلارمين توفى فى عام ١٦٢١، أى بعد وفاة كوزيمو بعام. وزاد من تعرض جاليليو



للكوك والريب كما زاد من تكميم فمه اشتداد وطأة المرض عليه، وعودة توماسو كاسيني إلى شن الحرب عليه؛ الأمر الذى جعل جاليليو يتوخى حذرًا أكبر فى مسلكه وتصرفاته.

وفى أغسطس من عام ١٦٢٣، حدث تطور درامى مفاجئ يتلخص فى انتخاب مافيو باربريني بابا الكنيسة الرمانية، وأصبح يُلقب بالبابا إيريان الثامن، الذى كان فى يوم ما محبًا للفنون وعضوًا فى الجمعية الأكاديمية الفلسفية المتحررة المعروفة باسم أكاديمية دى لينسى. ولم ينس الناس تعاطفه السابق مع جاليليو، وأنه سبق له منذ سنوات قلائل أن كتب قصيدة مدح باللغة اللاتينية لجاليليو بعنوان: «الإطراء الخطر» يحييه فيها على نشر مبحثه عن المذنبات، الأمر الذى يدل على وقوفه بجانب التيارات العلمية الحديثة التى يمثل جاليليو واحدًا من أهم أركانها. وبطبيعة الحال، شجع الموقف الفكرى المتحرر الذى تبناه البابا إيريان الثامن كيامبولى على أن يكتب إلى صديقه جاليليو قائلاً: «نحن هناك نشعر برغبة عظيمة فى رؤية المزيد من إنتاج قريحتك. ولو أنك قررت نشر هذه الأفكار التى تدور بخلدك على الناس، فإنى على يقين بأن قداسة البابا سوف يُحسن استقبالها، فهو لا يكف عن الإعجاب بك فى جميع الأشياء، كما أنه يحتفظ بحبه لك سليماً وبلا شوائب. وينبغى عليك ألا تحرم العالم من إنتاجك طالما أن لديك وقتاً للقيام به». والجدير بالذكر، أن البابا إيريان الثامن قال للأمير سيسى عندما حضر لتهنئته بالبابوية: «هل سيحضر جاليليو؟ ومتى يحضر؟»، الأمر الذى يدل على رغبته فى رؤية جاليليو الذى وافق على الذهاب إلى روما وهو يأمل أن تُكَلَّل جهوده العلمية بالنجاح. غير أنه تأخر فى السفر إلى الكرسي البابوى حتى ينتهى من تأليف كتابه النثرى الرائع «المحليات»، الذى تهكم فيه من العالم لوثراريو سارسى Lothario Sarsi، ساخراً بشدة من أسلوبه العقيم فى معالجة المشكلات العلمية. وعاب جاليليو على سارسى اعتماده فى محاجّاته العلمية على سلطة الأقدمين، كما هاجم آراءه فى علمى الفلك والفيزياء.

#### موقف البابا إيريان من جاليليو

فى نهاية شهر أبريل من عام ١٦٢٤، بعد قيامه برحلة بحرية مكث عقبها أسبوعين فى كنف سيسى فى قصره الكائن فى أكواسبارتا، وصل جاليليو إلى روما حاملاً معه أعجوبته الجديدة المتمثلة فى اختراع ميكروسكوب قادر على تمكين

الإنسان من رؤية الأجسام الدقيقة والمتحركة في نقطة ماء واحدة. وهناك استقبله البابا بكل الود. وتكررت لقاءات جاليليو بالبابا وتناولوا الأحاديث المطولة فيما بينهما؛ ولكن جاليليو اكتشف بعد انقضاء ستة أسابيع على المعاملة البابوية الطيبة أنه لم يعد يتعامل مع صديقه القديم الراهب مافيو باربريني؛ ولكنه يتعامل مع شخص جديد اسمه البابا إيربان الثامن الذي كان يشعر بجسامة المسؤولية العامة الملقاة على عاتقه، فهو يريد أن يُحكم قبضته على جميع أرجاء القارة الأوروبية. فلا غرو إذا رأيناه يهتم بإنشاء مصنع سلاح في تيفولي، فضلاً عن أنه حول مكتبة الفاتيكان إلى مكان لحفظ الذخيرة.

انحدر إيربان الثامن من عائلة فلورنسية جمعت ثروتها من التجارة واندمجت بفضل ثرائها. وليس بفضل حسبها ونسبها. في المجتمعات الأرستقراطية، وكانت له حاسة أدبية ملحوظة. غير أن حاسته الأدبية كانت من النوع التقليدي. وأيضاً كان متقد الذكاء وواقعياً في موقفه من الحياة.

وما إن اعتلى سدة البابوية حتى ظهر خيلاؤه وزهوه الكامنان فيه، وأصبح سريع الغضب كثير الشك في الآخرين، ولا يجد غضاضة في تجاهل الأعراف والسنن القديمة التي أرساها أسلافه. فهو يقول: «إن الحكم الذي يُصدره بابا على قيد الحياة أفضل من كل المراسيم التي استتتها مائة من البابوات الموتى». وليس أدل على خيلائه من أنه عندما عبر له الأعيان والأشراف عن رغبتهم في إقامة تمثال تكريمياً له.. وهو الأمر الذي كان عادة لا يحدث إلا بعد وفاة البابا. أجاب بقوله: «دعوهم يفعلون هذا، فأنا لست واحداً من البابوات العاديين».

أحب البابا إيربان الثامن المشروعات الهندسية بقدر حبه لقرض الشعر اللاتيني. ولكن فهمه الحقيقي للعلم المتخصص كان محدوداً. فضلاً عن أنه لم يفهم حقيقة التيارات وصراعات القوى التي تعتمل في قلب القارة الأوروبية آنذاك. وعلى الرغم من مشاغله العامة الكثيرة، فإنه وجد الوقت لاستقبال جاليليو والتحدث معه لفترات طويلة. ولا أحد يعرف على وجه التحديد ماذا دار في تلك المحادثات. ومن الشذرات المتبقية يستشف الباحثون أن البابا أشى عاطر الثناء على المبحث الذي وضعه جاليليو بعنوان: «المجرب» Saggiatore، قائلاً إنه اعتاد قراءته بصوت عال على مائدة الطعام. وهنا بادر جاليليو بالتهوين من شأن الكتاب، فرد عليه البابا صائحاً أنه يتمنى أن يرى

جاليليو يؤلف المزيد من هذا الإنتاج الرائع . انتهز جاليليو هذه الفرصة ليشير بلباقة وكياسة إلى حقد أعدائه وشائثيه عليه وإلى المضايقات الكثيرة التي يعاني منها؛ فطمأنه البابا قائلاً، إنه ليس هناك ما يدعو إلى القلق طالما أنه ظل - كشأنه دائماً - الابن البار للكنيسة المقدسة، ونصحه بأن يترك أعداءه ينبحون دون جدوى كالكلاب. وأضاف البابا أن المؤسسات الدينية المدرسية الذكية لا تخشى على نفسها من العلم الجديد، مؤكداً أن الحملة ضد جاليليو يشنها أناس حاسدون ومغرضون.

وشعر جاليليو بخيبة الأمل في ردود البابا التي جعلته يرى أن البابا يهون من شأن هجوم شائثيه عليه، فلجأ إلى معارفه وأصدقائه لتصوير المضايقات التي يتعرض لها على حقيقتها. وعندما قام الكاردينال هوهنزوليرن بزيارة البابا ذكر له قبيل انصرافه الصعوبات التي واجهها في إقناع أحد النبلاء الألمان بسلامة موقف الكنيسة من جاليليو، حيث إن هذا النبيل شعر بالصدمة من جراء الحظر الذي فرضه مجمع الفهارس على أفكار جاليليو عام ١٦١٦ . وأصغى البابا إلى كلام الكاردينال هوهنزوليرن بتعاطف واهتمام شارحاً أن الكنيسة لم تدن ولن تدين مذهب كوبرنيكوس، كما أنها لا تعتبره هرطقة ولكنها تعتبره نزقاً وتهوراً . ومن الواضح أن البابا لم يكن دقيقاً في كلامه، فقد أخطأ عندما قال إن الكنيسة اعتبرت مذهب كوبرنيكوس تهوراً . وحقيقة الأمر أن مجمع الفهارس وصفه بأنه مذهب زائف . ناهيك عن أن هذا المجمع وصف هذا المذهب بأنه مضحك وسخيف من الناحية الفلسفية ومهرطقاً من الناحية الشكلية. ويبدو أن جاليليو كان يطمح في أن يعترض البابا اعتراضاً واضحاً على الإجراء الذي اتخذته مجمع الفهارس ضد كتاباته.

وعلى أية حال، فهم جاليليو من كلام عدد من الكرادلة أنه يمكن لأي شخص أن يعتقد في صحة أفكار كوبرنيكوس كيفما يشاء دون خوف من ملاحقة الكنيسة له، طالما أنه لا يثير أيه فضائح أو مشاكل. وشجعه هذا الفهم على العودة إلى فتح نفس الموضوع في مقابلاته التالية مع البابا، الذي طمأنه أن المرسوم الصادر ضده لا يهدف مطلقاً إلى تكبيل العقل أو منعه من التجديد؛ ولكنه يمنعه من الخلوص إلى استنتاجات فلسفية خاطئة. وقد سبق لنا أن ذكرنا أن الكنيسة استفادت من أبحاث جاليليو الرياضية في إصلاح التقويم السنوي في عهد البابا جريجوري، الذي قطع على نفسه عهداً ألا يصيب جاليليو أذى طالما أنه حي يُرزق. وعندما قال جاليليو للبابا

إيربان الثامن إن هناك شائعات تقول إن الذين أصدروا المرسوم جماعة من المستشارين الذين يفتقرون إلى العلم والمعرفة بادر قداسته بالقول إن هذا غير صحيح بالمرّة، وأضاف أنه شخصياً اشترك في صياغته. واعترف البابا بوجود أسباب عليها هي التي دعت إلى إصدار هذا المرسوم، حيث إن إصداره كان ضرورة ملحة ولكنها ضرورة مؤسفة للغاية. هنا جادل جاليليو البابا متسائلاً: أليس من مصلحة العقيدة المسيحية مناقشة الأمر بدقة وموضوعية، لعل السلطة الدينية تعيد النظر في قرارها وتصدر قراراً جديداً. ووافق البابا على فكرة جاليليو، وطلب منه مواصلة أبحاثه ليصل إلى اقتناع بتعذر التأكد مما يجرى في السماء. ولم يكف جاليليو عن مجادلة البابا قائلاً: «وماذا إذا تمكن أحد من إثبات صحة الدلائل التي تقوم عليها نظرية فيثاغورث؟ وهي نظرية تؤمن بتناسخ الأرواح وحلول الله في الطبيعة». عندئذ استشاط البابا إيربان الثامن غضباً وصاح: «إن في مقدور الله أن يسيّر الأجرام السماوية وفق مشيئته كما يتجلى في الكتاب المقدس. فالله قادر على تسيير شئون السماء وفقاً لمشيئته غير المحدودة التي يعجز العقل البشري المحدود عن استيعابها». عندئذ أدرك جاليليو أن أسلوبه في التفكير لا يتفق مع أسلوب البابا إيربان الثامن في التفكير، وكان ثمة هوة عميقة تفصل بينهما. فالبابا يرى أن دراسة الإنسان للطبيعة غير مجدية ولا تفضي إلى أي شيء إيجابي. عندئذ التزم جاليليو الصمت وشعر أن المضي في المجادلة لن يجدي فتياً، فالبابا يدعو إلى إجراء البحوث العلمية بفرض مسبق هو الاقتناع بأنها لا تؤدي إلى معرفة أي شيء إيجابي أو مفيد. وأيضاً، بدا من الواضح لجاليليو أن هذا البابا غير قادر على استيعاب الدلائل التي ينطوى عليها العلم الحديث. وبدا لجاليليو أن فكر البابا إيربان الثامن فكر لاهوتي في جوهره، وليس فكراً علمياً يستخلص النتائج من المقدمات.

والغريب أن جاليليو لم يقرأ البحث الذي أجراه كبلر حول كوكب المريخ رغم أنه كان يحتفظ بهذا المبحث في مكتبته، ورغم أن كافاليري كان يقوم بتدريس آراء كبلر في جامعة بولونيا. وبينما كان جاليليو مشغولاً في مقابلاته مع البابا انشغل كبلر بنشر مبحثه «مستمدات من مبحثه الساجياتور»، دافع فيه عن الفلكي تيكو براهي Tycho Brahe ضد اتهامه بعدم الدقة في نتائجه الرياضية وضد احتقار جاليليو له. وذهب كبلر إلى أن النظام الفلكي الذي توصل إليه تيكو يفضي بالضرورة إلى إثبات صحة

نظرية كوبرنيكوس. وبالنظر إلى أن كبلر كان يعيش خارج إيطاليا في مأمن من محاكم التفتيش، فإنه لم يفهم محاولة جاليليو التتصل من تبعات الإيمان بصحة النظرية الكوبرنيكية. والجدير بالذكر أن هوة الخلاف اتسعت بمرور الوقت بين الصديقين القديمين جاليليو وكبلر.

نصح سيسى جاليليو بالتحلى بالصبر حتى يجد استجابة فعالة من السلطة الكنسية؛ ولكن جاليليو اشتكى بأن الحياة قصيرة وأنه لا يستطيع الانتظار إلى الأبد حتى يجد مسئولا يعطيه أذنا صاغية، فهو لم يعد شابا ينعم بالقوة والعافية. وناقش جاليليو قلقه مع الأب نيكولو ريكاردى الذى عينه البابا مشرفاً على المقر البابوى. وأيضاً شكّا جاليليو إلى صديقه القديم الرقيب بادر موسترو الذى سطر تقييماً متحمساً لمبحث جاليليو «المجرب»، الأمر الذى شد من أزر جاليليو. وأضاف موسترو قائلاً، إن الملائكة بكل بساطة هي التي تحرك الأجرام السماوية؛ ولكن هذه الحقيقة لا يجب أن تمنع البشر من الوصول إلى اكتشافاتهم المدهشة بهذا الشأن. وطمان موسترو جاليليو بأن قال له إنه فهم من كلام البابا أنه يريد من جاليليو الاستمرار في أبحاثه المدهشة ولا يحرم العالم منها.

كان جاليليو آنذاك في الستين من عمره رجلاً مجرباً عرك الحياة واختبرها، يحدوه الأمل أن تجد أفكاره قبولاً لدى الكرسي البابوى. فأعلن بملء فمه أن حقيقة المذهب الكوبرنيكى ساطعة، وقرر الاضطلاع بمبحثه «حوار حول أكبر نظامين في العالم». وحاول جاليليو أن يسبر غور السلطة الدينية حتى يتجنب عدوانها، وأن يختبر نواياها نحوه شيئاً فشيئاً، فبدأ بالإعلان عن صحة نظرية كوبرنيكوس المؤكدة؛ ولكنه أرفقه بإعلان آخر عن ولائه الكامل للكنيسة. وسطر خطاباً إلى معارضه فرانسيسكو أنجولى يفند فيه آراءه برقة حاشية ودون أدنى تجريح، وصرح بصحة المذهب الكوبرنيكى دون موارد. ورغم امتناع جاليليو عن نشر هذا الخطاب فقد ذاع ذيوهاً عظيماً لدرجة أن كيامبولي حصل عليه وقرأ نصه للكرسي البابوى الذى لم يثر أى اعتراض عليه. وعندما اطمأن جاليليو إلى أن البابا وافق على ما جاء في خطابه إلى معارضه فرانسيسكو أنجولى ازداد جرأة وجسارة، وقرر أنه يعتزم مناقشة مركزية الشمس في الكون، ليس كمجرد افتراض رياضى بل كنتيجة فيزيقية يتعين علينا قبولها إذا تخلصنا من الاستمسك بالخزعبلات والغيبيات. وعبر عن أمله في الانتهاء من



كتاب «حوار حول أنظمة العالم الكبرى» في غضون عامين؛ وخاصة لأنه كان قد أعد بعض أجزائه ولا يحتاج إلا لترتيبها وإعادة صياغتها. ولكن صحته العلية لم تسعفه؛ فضلاً عن أن انشغاله بإسداء المشورة الهندسية للراغبين فيها كان أحد أسباب تعطيله. ولهذا حثه سيسى وكيامبولي على الإسراع للانتهاء من مبحثه حتى يتمتع به العالم. والعجيب أن طاقة جاليليو الخلاقة توهجت وهو في الستين من عمره وظلت متوهجة حتى وفاته.

وفي ٢٩ أكتوبر ١٦٢٩، كتب إلى صديقه إليا ديوداتي الإيطالي التوسكاني المهاجر إلى باريس والذي ساهم إسهاماً كبيراً في ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة الفرنسية، يخبره بأنه عاد إلى إجراء البحث عن ظاهرة «المد والجزر في البحار» الذي كان قد توقف لمدة ثلاثة أعوام، وأنه يتوقع الانتهاء منه في وقت قصير ليدل به على صحة نظرية كوبرنيكوس. وفي ٢٤ ديسمبر عام ١٦٢٩، أعلن لأصدقائه في روما عن انتهائه من تأليف كتابه «حوار حول أنظمة العالم الكبرى».

#### كتاب «حوار حول أنظمة العالم الكبرى»

يُعتبر هذا المبحث أخطر الأبحاث التي ألفها جاليليو على الإطلاق، وهو أصدق تعبير عن مكنونات عقله. والكتاب يفتقر إلى الوحدة والتناسق ويحتوي على موضوعات متفرقة، فهو يجمع بين الفيزياء والفلك وتجارب الحياة والأدب على نحو يمثل عصر النهضة الأوروبية تمثيلاً حقيقياً. والكتاب ليس مكتوباً بلغة علمية مستقيمة أو مباشرة، فهو يمزج بين خيالات الشعراء والعواطف المتأججة إلى جانب محتواه العلمي. ويرجع الفضل إلى جاليليو في هضم نظرية كوبرنيكوس الفلكية المتخصصة وصياغتها في قالب مستساغ. وهو يقدم مادته على شكل حوار كما لو كان كاتباً مسرحياً يخلق لنا شخصيات تتصادم ثم تتصالح، مثل شخصيتي سالفياتي وسيمبلسيو. ولكن شخصية فيليبو سالفياتي هي الأثير إلى قلبه والمعبرة عن أفكاره ومكنونات نفسه. وهو شخصية مستقاة من الواقع، فقد وُلد عام ١٥٨٢ من عائلة فلورنسية جمعت ثروتها من التجارة. ويبدو أنه كان زميل جاليليو في طلب العلم في مدينة بادوا وأنه عاش معه في البندقية. وبمجرد استقرار جاليليو في فلورنسا عام ١٦١١، قرر زيارة فيليبو سالفياتي في قصره الفخيم المطل على وادي نهر الأرنو. وتآلف قلبا هذين الصديقين بسبب اشتراكهما في حب الشعر، وخاصة الشعر الكوميدي. وكان قصر فيليبو سالفياتي

يحتوى على مرصد استخدمه جاليليو أثناء زيارته لصديقه حيث راقب الصديقان مسيرة كوكب المشتري، كما راقبا فى عام ١٦١٢ بقع الشمس التى يصفها جاليليو فى مبحثه «حوار حول أنظمة العالم الكبرى». وفى العام نفسه أيضاً حضر ساجريدو إلى القصر لزيارة سالفياتى ثم جاء كاستيللى فى وقت لاحق إليه، حيث تناقش فى علم الهيدروليكا مع جاليليو. وفى تلك السنة (١٦١٢)، رشح جاليليو صديقه سالفياتى لقبوله عضواً فى جمعية دى لينسى الفلسفية المتحررة. ثم رشح سالفياتى بدوره كلاً من ريدولفى وكاستيللى للانضمام إلى هذه الجمعية. وفى عام ١٦١٢، تولى سالفياتى تعريف جاليليو بمريد جديد من جنوة مهتم بدراسة الهيدروستاتيكا اسمه ج. ب. باليانى، الذى أصبح من أبرز الذين تبادلوا الرسائل مع جاليليو. تميز سالفياتى باهتماماته العلمية واحترامه الشديد للعقل، على الرغم من حبه للشعر ومات فى شرح الشباب وهو فى نحو الثانية والثلاثين من عمره. وفى كتابه «حوار» يرسم جاليليو صورة لساجريدو باعتباره رجلاً عرك الحياة يهتم بالتطورات العلمية الجديدة، فقد استمر لعدة أعوام يكتب عن صناعة عدسات التليسكوبات ومقاييس الحرارة (الترمومترات) وعن المغناطيسية ونظرية الضوء. ومن الثابت أنه كان يتجادل مع جاليليو حول كثير من المسائل العلمية. وقد توفى عام ١٦٢٠، وهو فى التاسعة والأربعين من عمره. وتمثل شخصيته سيمبلسيو فى «حوار» العناد والتشبث العقيم بالرأى والإيمان المطلق بفلسفة أرسطو.

كما أن هذه الشخصية تعبر عن وجهة نظر البابا المنادية باستحالة المعرفة الحقيقية. ونظراً لافتقاده إلى الكفاءة، نرى سيمبلسيو عاجزاً عن فهم نظرية جاليليو حول ظاهرة المد والجزر فى البحار. وعندما أبلغ جاليليو أصدقاءه فى روما أنه انتهى من تأليف «حوار حول أنظمة العالم الكبرى» فرحوا وتهللوا. وكتب إليه كاستيللى قائلاً له، إن الطريق أمامه أصبح آمناً ومُعَبَّداً، وأضاف أن بادر ريكاردى المسئول عن القصر الرسولى المقدس وكبير الرقباء وعده بتقديم العون إلى جاليليو، مؤكداً إمكانية تذليل ما قد يصادفه من عقبات لاهوتية. ولإدخال الطمأنينة إلى قلب جاليليو أرسل إليه كاستيللى خطاباً يبشره فيه بكل الخير، وبأن البابا ذكر فى لقائه مع الأب كامبانيلا Campanella أن الحظر الذى فُرض على جاليليو عام ١٦١٦ أمر يدعو إلى الانزعاج، مضيفاً «إن هذا (أى الحظر) لم يكن فى نيتنا أبداً.. ولو كان الأمر بيدنا لما صدر هذا

المرسوم.»، وكذلك كتب إليه كيامبولي من روما يقول: «إنهم هنا متشوقون إلى مقدمك أكثر من تشوقهم إلى رؤية أحب الفتيات».

وصل جاليليو إلى روما في ٣ مايو ١٦٣٠. وفي الثامن عشر من هذا الشهر نراه يكتب متفائلاً: «إن قداسة البابا بدأ يتعامل معي بروح جعلتني أتعشم في أن تسير الأمور لصالحى». فقد شجعه البابا على المضى في إجراء أبحاثه الفلكية، طالما أنها تقوم على أساس افتراضى بحت. والواقع، أن جاليليو بدأ يعرض حوارهِ حول أنظمة العالم الكبرى بفطنة وكياسة كما يتضح من مقدمته المعنونة: «مقدمة إلى القارئ الحصيف». اقترح البابا على جاليليو أن يغير عنوان كتابه من «ظاهرة المد والجزر في البحار» إلى «حوار أهم نظامين عالميين»، وتم عرض مخطوطة الكتاب على الأب بادر موسترو. الذى لم يطمئن قلبه إلى مضمون المخطوطة. ولأنه لم يكن يفقه كثيراً في علم الفلك، فقد كلف موسترو مساعده الأب رفائيلو فيسكونتى Visconti بفحص الكتاب. وبدا لبادر موسترو أن الكتاب ليس افتراضياً، فطلب من مساعده فيسكونتى المعروف باهتمامه بالرياضيات إجراء ما يراه من تعديلات فيه، فغير بعض الكلمات القليلة هنا وهناك ثم أعطى موافقته على نشر الكتاب. ولكن الأب ريكاردى شعر بعدم الاطمئنان؛ وخاصة لأن أعداء جاليليو أدخلوا في روعه أن الكتاب سوف يجر المتاعب في أذياه؛ فأسقط في يده. فهو لا يستطيع أن يطلب من جاليليو أن يعيد كتابة مخطوطته؛ فضلاً عن أنه كان عاجزاً عن تصور الطريقة التى ينبغى إعادة كتابة الكتاب بها. ومن ثم قرر ريكاردى أن يقوم بفحص الكتاب بنفسه. وحتى لا يتسبب في تعطيل طبع الكتاب أكثر من اللازم، وعد بتسليم المطبعة أولاً بأول كل صفحة ينتهى من مراجعتها. غير أنه لم يكن بمقدور المطبعجى أن يبدأ الطباعة دون تصريح، فاضطر ريكاردى إلى إعطائه التصريح المطلوب. وبحلول فصل الصيف شعر جاليليو بأن الحرارة المرتفعة في روما تخنقه؛ فقرر الرحيل إلى فلورنسا؛ وخاصة لأن وباء الملاريا أخذ ينتشر في روما آنذاك. ووعد جاليليو بالعودة إلى روما في فصل الربيع ومعه نسخة جديدة من مقدمة الكتاب وخاتمته.

وبدا لجاليليو أن أموره تسير على ما يرام. ولكنه أصيب بنكسة، فقد وردت إليه الأنباء من فلورنسا أن راعيه وخاميه ونصيره الأمير سيسى قد مات. وكان موته بمثابة ضربة قاضية له، فقد كان سيسى بالنسبة له نعم السند ونعم المعين، فهو الذى يشفع

له لدى السلطات الدينية في روما من أجل تذليل ما يقابله من صعاب، وفي ٢٤ أغسطس من عام ١٦٣٠، أرسل إليه صديقه كاستيللي خطاباً عاجلاً يدعو فيه إلى الإسراع بنشر الكتاب في فلورنسا لأسباب كثيرة لها وزنها ولا يستطيع البوح بها كتابة. وزاد من تعقيد الأمور انتشار الطاعون في أواسط إيطاليا في العام المذكور. واستبدت الحيرة بجاليليو الذي لم ير أمامه غير اللجوء إلى الوساطة الحميدة للسفير الفلورنسي في روما فرانسيسكو نيكولينى المتزوج من ابنة عم الأب ريكاردى. وكانت صداقة وطيدة تربط جاليليو بهذا السفير. وبذل الزوجان نيكولينى وزوجته ابنة عم ريكاردى جهداً حثيثاً لحمل الأب ريكاردى على الموافقة على طبع الكتاب في فلورنسا. غير أن ريكاردى رفض في بادئ الأمر؛ ولكنه ما لبث أن وافق تحت ضغط من قريبته.

وفي فلورنسا، تولى الأب جياسنتو ستيفانى المحقق في محكمة التفتيش هناك مراجعة الكتاب وغير بعض الكلمات القليلة فيه ثم أجازها، بل إن عينيه اغرورقتا بالدموع عندما شاهد مدى الاتضاع والطاعة التى يظهرها جاليليو للكنيسة. ولكن نشر الكتاب كان متعذراً بسبب عدم وجود مقدمته وخاتمته اللتين كان الأب ريكاردى يحتفظ بهما في حوزته. ويتضح لنا من إشارات كاستيللى المهمة أن كلاً من الأبوين جراسى وشاينر نصحا الرهبان المنتمين إلى طائفة الجيزويت بالتحرك للاعتراض على الكتاب. وزادت حيرة الأب ريكاردى، وأصبح نهباً مقسماً بين المتحمسين لطبع الكتاب والمعارضين له. وفي حيرته أخذ ريكاردى يرجئ ويسوِّف ويشير مشاكل جديدة ويزعم أن أوراق المقدمة والخاتمة ليست بحوزته، مضيفاً إلى ذلك حرصه على الالتزام بالتعليمات التى أصدرها الكرسي البابوى بشأن الكتاب. وحتى يخرج من ورطته اقترح بأن يتولى مراجعة نص الكتاب في فلورنسا فقيه لاهوتى غيره، وأصدر تعليماته بضرورة أن ينص المؤلف على طبيعة الكتاب الافتراضية تنفيذاً لأوامر الكرسي البابوى. وبالفعل، قام محقق محكمة تفتيش فلورنسا الأب كليمنت إجيدى بمراجعة الكتاب. ورغم انتهائه من المراجعة وانقضاء ما يقرب من عام، فإن الكتاب كان لا يزال تنقصه المقدمة والخاتمة. وغمر جاليليو بأس عميق وقال، إنه على استعداد لأن يثبت لأية لجنة يقوم الدوق العظيم بتشكيلها «بأنه لم يؤمن قط بأية آراء أو أفكار غير تلك التى يؤمن بها آباء الكنيسة الأجلاء». كما أبدى استعداده - إذا لزم الأمر - أن يصف

نظرياته «بأنها أضغاث أحلام وأشياء جوفاء تتغير كما تتغير الحرياء». وفي قنوطه العظيم صاح جاليليو قائلاً: «إن الشهور والسنوات تمضى وحياتي تذبل وتضيع وقدرك لكتابي أن يتآكل ويُصاب بالعفن».

ومن الواضح أن الأب ريكاردى فى حيرته وعجزه لم يشأ أن يزجج البابا بعرض المشكلة عليه. غير أنه اضطر - تحت الضغوط الشديدة - أن يسلم أوراق المقدمة والخاتمة إلى سفير فلورنسا فى روما يوم ١٩ يوليو ١٦٢١.

وأخيراً وفى فبراير ١٦٢٢، تمكن جاليليو من أن يهدى إلى جناب الدوق العظيم أول نسخه من كتابه الخطير «حول أكبر نظامين فى العالم».

ما إن ظهر كتاب جاليليو «حوار حول أنظمة العالم الكبرى»، حتى أمطره القراء بعاطر الثناء وبيعت جميع نسخه المطبوعة. غير أنه لم يُعرض للبيع فى روما إلا فى يونيو ١٦٢٢ بسبب ظروف انتشار الوباء. وتحمس كامبانيلا للكتاب تحمساً شديداً، واصفاً إياه بأنه «بداية حقبة جديدة». وأدرك الأب شاينر Scheiner، الذى ناصب المؤلف العداء، أن الكتاب لن يخلو من انتقاده نقداً شديداً.

والجدير بالذكر، أن الألمانى كريستوفر شاينر عالم فلك مرموق ينتمى إلى طائفة الجيزويت، وكانت تربطه بجاليليو صداقة قديمة تفككت عراها بسبب الاختلاف فى رأى والمنافسة حول أسبقية اكتشاف البقع الشمسية. كان شاينر يزور إحدى مكاتب بيع الكتب عندما سمع راهباً فى مدينة سينا يمتدح كتاب جاليليو الجديد إلى عنان السماء فامتقع وجهه وأصابته رعشة، وساءه أن يرى الراهب يعرض على البائع مبلغاً كبيراً من المال للحصول على نسخة من الكتاب المصادر الذى تكاتف الرهبان الجيزويت للتصدي له.

ويروى صاحب المكتبة، واسمه لاندینی، فى خطاب بعث به إلى جاليليو فى ٧ أغسطس ١٩٢٢ أنه كان فى كنيسة القديس جيوفانى عندما رأى الأب ريكاردى يبحث عنه. ولما وجده طلب منه أن يعطيه كل نسخ الكتاب التى أحضرها معه من فلورنسا، ووعد بإعادة هذه الكتب إليه فى غضون عشرة أيام على أكثر تقدير. ولكن صاحب المكتبة اعتذر عن عدم قدرته على إجابة الأب ريكاردى إلى طلبه؛ لأن خمساً من النسخ التى أحضرها معروضة للبيع. ولكته أبدى استعداداً لإعطائه نسخته الخاصة به



ونسخة أخرى خاصة بالسيد سيرستوري. وشرح الأب ريكاردى السبب الذى دعاه إلى طلب هذه النسخ، قائلاً إنه أراد الحصول عليها من أجل الدفاع عن الكتاب. وهنا نصح صاحب المكتبة الأب ريكاردى باللجوء إلى المؤلف جاليليو للحصول على النسخ المطلوبة، فهو لن يتردد فى إرسالها إليه؛ لأن نشر الكتاب تم عبر القنوات الشرعية وبعد أخذ موافقة قداسة البابا والمجمع المقدس. وعبر ريكاردى عن تعاطفه مع الكتاب وصاحبه، واصفاً إياه بأنه واحد من أفضل أصدقائه.

ثم مضى يقول إنه يريد الحصول على هذه النسخ بسبب آخر يحتفظ به لنفسه، مفاده أن المسئولين عبروا عن استيائهم من الصورة الرمزية التى تصدر الكتاب، وهى صورة لثلاثة دلافين يمسك كل منها فى فمه بذيل الآخر. فأنفجر صاحب المكتبة ضاحكاً؛ لأنه لم يكن يتصور أن يكون لمثل هذه الصورة الرمزية كل هذا الأثر السيئ فى نفوس قراء الكتاب. وطمأن صاحب المكتبة محدثه بأن جاليليو ليس من النوع الذى يحاول أن يخفى أسراراً كبيرة تحت مثل هذه الصور الصبغانية. وأضاف أن جاليليو برىء من هذا العبث، وأن المطبعجى هو المسئول عنه. وحين سمع ريكاردى ذلك شعر بالارتياح؛ لأنه لا يريد أن يصيب المؤلف أى مكروه.

واستطرد صاحب المكتبة قائلاً، إن كتاب جاليليو تعرض للملامة والتقريع لأنه لا يطابق مخطوطته الأصلية، حيث إن نهايته أغفلت الإشارة إلى محاجتين أو ثلاث كان البابا قد أدخلها على متن الكتاب. وهى محاجات قصد بها البابا إقناع جاليليو بزيف نظرية كوبرنيكوس. واستطرد صاحب المكتبة قائلاً، إن البابا عند رؤيته الكتاب لاحظ أنه يغفل ما اقترحه من إضافات فطلب تدارك الخطأ وإدراجها. ورأى صاحب المكتبة أن هذا لا يعدو أن يكون تعلقة، لأن السبب الحقيقى يكمن فى أن الآباء الجيزويت سعوا ما وسعهم السعى لفرض الحظر على الكتاب حسب ما ورد على لسان الأب ريكاردى نفسه، الذى أخبره بأن الجيزويت ينوون التشكيل بالكتاب. ويعلق صاحب المكتبة قائلاً، إنه يبدو أن هذا الأب كان يخشى على نفسه؛ لأنه أعطى مؤلفه تصريحاً بنشر الكتاب، الأمر الذى يدل على أن قداسة البابا لم يكن راضياً عنه.

وعندما تسلّم جاليليو خطاب صاحب المكتبة شعر بالغصة تملأ قلبه؛ لأن المرسوم الخاص بتعليق الكتاب كان قد صدر بالفعل. بوغت جاليليو لهذا الحظر المفاجئ ووقع عليه وقع الصاعقة. وجاء محقق محكمة تفتيش فلورنسا بنفسه إلى

مكتبة لاندينى ومعه أمر بإيقاف توزيع الكتاب وتسليم المخزون منه. وهنا ذكر لاندينى، أنه ليس بحوزته أية نسخة من الكتاب الممنوع. ويبدو أن الأب ريكاردى كان غافلاً عما يدور حوله، فقد تفجرت فضيحة الكتاب قبل أن يحاول هذا الراهب أن يجد لنفسه مخرجاً من أزمته. وبينما كانت خطابات التهئة تنهال عليه، كان جاليليو أشد ما يكون غضباً من مؤامرات أعدائه عليه. وفى ٢١ أغسطس عام ١٦٣٢، وصله خطاب من صديقه الأب كمبانيلا يؤكد صحة الأنباء السيئة. فيما يلى نصه:

«سمعت أنهم بصدد تشكيل لجنة من اللاهوتيين الغاضبين من أجل حظر كتابك (حوار)، وليس هناك فى هذه اللجنة أى شخص يفقه الرياضيات والأمور العلمية.

«أرجوك أن تدرك أنه قد تم حظر فكرة دوران الأرض دون إيمان من جانبك بقوة الأسباب الداعية إلى حظرها. وهذه قاعدة لاهوتية بالإمكان إثباتها؛ لأن مجمع نيقية أصدر مرسوماً ينص على أنه يمكن رسم صور الملائكة؛ لأن لها فى واقع الأمر وجوداً مادياً. وهذا المرسوم سليم، وإن كان الدافع إلى إصداره غير سليم؛ حيث إن جميع المدرسين فى زماننا يقولون بأن الملائكة ليس لها أى وجود مادى». «إننى أخشى العنف الناجم عن الجهل. فالأب مونستر يهيج أبشع الخواطر.. ولكن قداسة البابا لا علم له بذلك، فضلاً عن أنه لا يفكر بهذه الطريقة. وأنصحك أن تطلب من الدوق العظيم أن يطالب بضمى وضع الأب كاستيالى إلى هذه اللجنة المشكلة، أسوة بالدومينيكان والجيرويت والقساوسة العلمانيين. ولكن من المفروض أنه لا علم لى بهذا الأمر.. أو يمكنك أن تطالب بنفسك بوجودنا فى هذه اللجنة. وإنى على يقين من أننا سوف نكسب القضية، فأنا أعرف أن عقل البابا كبير عند إحاطته علماً بالأمر. وأرجو من الله أن يحفظك».

ما كاد جاليليو يقرأ هذا الخطاب حتى اعتراه شيء من الغم، فهو يعرف أن الأب كامبانيلا من النوع الذى يجلب المتاعب على نفسه وعلى الآخرين. ورغم ذلك، فقد أعد جاليليو رسالة سطرها بكياسة ولباقة يعرب فيها عن قلقه أرسلها إلى الدوق العظيم كى يبعث بها إلى البابا وكأنه هو صاحبها، طالباً من قداسته تعيين لجنة مشتركة فى فلورنسا مهمتها البحث والاستقصاء فى هذا الموضوع. وكلف الدوق العظيم الراهب نيكولينى بحمل هذه الرسالة إلى المقر البابوى فى ٥ سبتمبر ١٦٣٢. ولكن البابا استقبله بغضب شديد منعه من تقديم رسالة الدوق العظيم إليه. وصرخ

البابا في وجه الرسول نيكوليني صائحاً: «أخبر جاليليو هذا أنه تجرأ وتدخل في أمور ما كان ينبغي عليه أن يتدخل فيها، كما أنه تدخل في أخطر الموضوعات وأجلها وأكثرها إثارة لحفاظ الناس في هذه الأيام». ويستمر الرسول نيكوليني في رواية ما حدث: «فأجبت أنه السيد جاليليو لم يقد بطبع كتابه إلا بعد موافقة الفاتيكان». فرد عليه البابا غاضباً إنه هو والراهب كيامبولي - وخاصة الأخير - مسئولان عن خداعه. فقد أفهمه كيامبولي أن جاليليو سوف يسترشد بالأوامر البابوية، وأن كل شيء يسير على ما يرام. وأضاف البابا أن هذا كل ما يعرف بشأن هذا الموضوع، دون أن يكون قد رأى الكتاب أو قرأه. واشتكى البابا من الشكوى من كل من الراهبين كيامبولي وريكاردى؛ ولكنه أضاف أن ريكاردى أيضاً تعرض للخداع عن طريق معسول كلام جاليليو وأنصاره كي يجيز الكتاب أولاً ثم يسمح بطبعه في فلورنسا ثانياً، دون اتباع التعليمات الصادرة إلى المحقق في محكمة التفتيش هناك. وكذلك حشر البابا اسم الراهب ريكاردى الذي ليست له أى علاقة بمنح تراخيص النشر خارج روما. وهنا قال نيكوليني رسول الدوق العظيم للبابا، إنه نما إلى علمه أن لجنة خاصة سوف تُشكل من أشخاص يريدون السوء لجاليليو، وإنه يرجو البابا أن يتعطف ويعطى جاليليو فرصة الدفاع عن نفسه، فأجاب قداسة البابا إن المكتب المقدس في مثل هذه الأحوال لا يفعل شيئاً غير إصدار حكمه، داعياً المتهم للتراجع عن أقواله. عندئذ سأل نيكوليني البابا قائلاً: «ألا ترى قداسكم أنه ينبغي إبلاغ جاليليو سلفاً بالمصاعب التي تواجهه بالاعتراضات واللوم الموجه إلى كتابه، وكذلك تبليغه بضيق المكتب المقدس منه». فقال البابا بعنف: «أقول لك إن المكتب المقدس لا يؤدي عمله على هذا النحو ولا يتخذ مثل هذه التدابير. كما أنه لا يبلغ أحداً بها مسبقاً فهذه ليست عادته. ثم إن جاليليو يعرف تمام المعرفة الصعوبات التي تواجهه إذا كان ينبغي معرفتها، حيث إننا ناقشناها معه وقد عرفها جميعاً منا». وبعد أن ذكر نيكوليني قداسة البابا أن جاليليو أهدى كتابه إلى قداسته وأن المشكلة تخص واحداً من خدامه الأوفياء توسل إليه أن يأخذ ذلك في الاعتبار؛ ولكن البابا رد بغضب أنه في المسائل الخطيرة التي تهدد العقيدة بأوخم العواقب لا بد له من الموافقة على عقابها. ومن ثم طلب من نيكوليني الكتابة إلى جاليليو للابتعاد عن هذه المشاكل، إذا أراد الخروج من مأزقه محتفظاً بشرفه.

ولم يغب عن بال نيكوليني تصاعد حدة التوتر السياسي مؤخراً بين الكرسي البابوي وإقليم توسكانيا الذي تقع فيه فلورنسا، ولكن هذا لم يمنعه من أن يقول للبابا

إنه لا يزال يعتقد أن قداسته لن يذهب إلى حد فرض الحظر على كتاب تمت الموافقة عليه دون سماع كلمة جاليليو. وبطبيعة الحال امتنع البابا من هذا التدخل السافر في شئونه، الأمر الذي جعله يسترسل في تهديداته. قال إن الحظر أقل شيء يجب عمله، وإنه يجدر بجاليليو أن يعمل حسابه حتى يتفادى استدعاء المكتب المقدس له، وإنه أصدر مرسومه البابوي بتشكيل لجنة من اللاهوتيين ومن الأشخاص الآخرين المثقفين في مختلف العلوم، مضيفاً أن جميع أعضاء اللجنة أناس أجلاء يتسمون برجاحة العقل وشرف المقصد وأنهم سوف يزنون الأمور في هذا الموضوع الشائك بميزان العدل والقسطاس. ثم أخذ البابا يجأ بالشكوى من كل من جاليليو وكيامبولي. ثم كلف الرسول نيكوليني أن يبلغ المسئول الديني بشذوذ مذهب جاليليو. وأضاف أنه تصرف مع جاليليو بكل الاحترام وأنه تجنب تعقيد الأمور بعدم إحالة الموضوع إلى المكتب المقدس، مكتفياً بعرضه على لجنة خاصة. واختتم البابا قائلاً عن جاليليو: «لقد عاملته بطريقة أفضل من الطريقة التي عاملنى بها لأنه خدعنى».

ومن الواضح أن البابا كسب الجولة الأولى ضد جاليليو حين هدد باستخدام محاكم التفتيش في حالته، وجعل من شبهة الهرطقة سيفاً مسلطاً على رقبتة.

وانزعج جاليليو دون أن يدري حقيقة ما جرى. غير أن الأمور الخافية عليه تكشفته له بالتدريج. فقد أبلغ نفرٌ من الجيزويت البابا أنه اتضح لهم بعد الاطلاع على الكتاب أن صاحبه يدافع عن نظام كوبرنيكوس الفلكي. ومن جانبهم قام جراسي Grassi وشايفر وأنصارهما بحشد قوى جمعية يسوع وتسخيرها في شن حملة سياسية ضد الأفكار الجديدة والمستحدثة التي تبتقص من سيطرة هذه الجمعية على التعليم. وتمكن أعداء جاليليو من تأليب البابا ضده باستغلال زهوه وخيالاته، فقد أفهموه أن جاليليو تهكم عليه عندما أورد حاجته الداحضة لنظرية المد والجزر على لسان شخصية سيمبلسيو البكهاء الساذجة. وهى فكرة لم تخطر على بال جاليليو على الإطلاق. ومما أثار حفيظة البابا إيربان الثامن ضد جاليليو أن هذا البابا كان يعتبر نفسه فيلسوفاً لا يُشق له غبار يحق له القول الفصل في جميع القضايا. ومن ثم، فإنه لا يطبق معارضة أو مناقشة.

وقد استمر غضب البابا على جاليليو على ما هو عليه حتى بعد وفاة هذا العالم بعشرة أعوام، لدرجة أنه في كهولته اعترض على اقتراح بإقامة تمثال لجاليليو تكريماً

له. ولا غرو، فهو يجتر المشاحنات والأخذ والرد الذى دار بينهما، فضلاً عن استشهاده بطبيعة الخطر الذى تمثله أفكار جاليليو على نظام التعليم الكاثوليكي. كما تفهم غضب الجيزويت من جاليليو حين اعتبروه أكثر خطورة على الكنيسة الكاثوليكية من كل من لوثر وكالفن البروتستانتين. ولا شك أن البابا عض بنان الندم على ما أظهره من تشجيع سابق لجاليليو. وحز فى نفسه الشعور بأن جاليليو وأعوانه استغفلوه. وطاش عقله عندما رأى تفاقم الأخطار السياسية القادمة إليه من خارج البلاد، فلم يجد متنفساً له غير أن يصب جام غضبه على مرعوسيه، مثل الأب ريكاردى الذى أكد براءته بإثبات أنه لم يسلم أوراق كتاب جاليليو إلى المطبعة إلا بناء على تصريح من كيامبولي الذى عجز عن تبرئة نفسه، لأنه اعتمد فى تصرفاته على بعض الكلمات والعبارات التى تقوه بها البابا فى فترة رضاه على جاليليو، الأمر الذى قضى قضاء مبرماً على مستقبل كيامبولي الكنسى بعد أن كان أثيراً لدى الكرسي البابوى، الذى قام بترقيته إلى رتبة كاردينال منذ أسابيع قليلة. وأبعد البابا عن الكنيسة وعينه حاكماً على مدينة صغيرة اسمها مونتالتو ديلا ماركا.

ولم يسمح له البابا بالعودة إلى روما. وفى عام ١٦٢٢، أرسل كيامبولي خطابات إلى جاليليو جاء فيها: «احضر كى ترانى أيها السقراط المضطهد. وسوف نعتى بصحتك هنا عناية جيدة.. أما عن نفسى فأنى أستمد العزاء والسلوى من دراساتي. ولا زال الأمل يخامرني أن أولف شيئاً يذكره الناس من بعدى». وبعد مضى عشرة أعوام توفى كيامبولي فى الرابعة والخمسين من عمره. أما ريكاردى، فقد كان أوفر حظاً، حيث إنه استطاع الاحتفاظ بمنصبه.

عندما قلب البابا لجاليليو ظهر المجن استشاط هذا العالم غضباً للتحول المفاجئ فى موقف البابا منه. وزاد من غضبه أنه لم يكتب عن المذهب الكوبرنيكى إلا بعد الحصول على إذن من الكرسي البابوى، فضلاً عن حصوله على موافقة بنشر كتابه من الجهات الكنسية المعنية وحصوله على موافقة أخرى بنشره فى فلورنسا من محقق محكمة التفتيش هناك. ناهيك عن خضوع الكتاب للفحص والمراجعة والتتقيق والتصريح بنشره أكثر من مرة فى كل من روما وفلورنسا. فهل هناك امتثال أكثر من هذا لسلطة الكنيسة؟! وشعر جاليليو أن مؤامرة تُحاك ضده وتؤلب الكرسي البابوى عليه. وهو الأمر الذى أكدته رسالة صديقه فيليبو ماجالوتى إليه: «لا تفرغ إذا طلبت



اللجنة المشكلة إلى السلطات أن تعلن أن مذهب كوبرنيكوس ملعون ومهرطق. ولا تخف إذا قررت هذه اللجنة زيف هذا المذهب. وإنى لا أعتقد أنهم سيطلبون من الكرسي البابوي إعلان ذلك. إننى أقول لك هذا لأن أعضاء المكتب المقدس الذين يعالجون شئون العقيدة أخبرونى بذلك. فهم يقولون بوجود مسائل خلافية فى قلب الكنيسة، حيث إنها تنقسم حول رأى الآباء فى مسألة عذرية ولادة المسيح. وهم يؤكدون بأنه بدون ضرورة غاية فى الإلحاح أو بدون عقد مجمع عام، فإن هذه القضايا الخلافية لا تصل أبداً إلى حد الأزمة. هذا بكل تأكيد مسار الأحداث، كما أن الأب بادر مايسترو يرى أن الأمر سوف ينتهى بإجراء تغييرات طفيفة بإضافة أو حذف أشياء قليلة فى كتابك (حوار)».

ولم يكن الأب فيليبو ماجالوتى وحده هو الذى يهون من شأن عواقب غضب البابا على جاليليو، فقد ذهب نيكوليني إلى نفس رأى. وأيضاً كتب إليه رئيس أساقفة سينا أسكانيو بيكولوميني يطمئنه ويقول له، إن قوة حجته وبيانه هى التى أفزعت أقرانه من العلماء فلم يجدوا وسيلة للدفاع عن مناصبهم العلمية إلا الوشاية واستعداد الكرسي البابوي عليه. أما صديقه الراهب كاستيللى، فقد كتب إليه محفزاً: «هذا هو الوقت المناسب كى تتصدى لهم وترد عليهم بنفس الكلمات الجسورة التى سبق لكوبرنيكوس أن قالها للبابا بولس الثالث (١٥٣٤ - ١٥٤٩)». ثم أضاف إلى ذلك قوله: «لقد قلت بصراحة إنه إذا تم بالفعل تقديمك أمام محكمة التفتيش وإذا لم تتصرف هذه المحكمة المقدسة العليا بالأسلوب اللائق بها، فسوف تلتخ بذلك سمعتها وتبدد احترام الناس لها. وإذا عَنَّ لها أن تحاكم رجلاً يكتب بمثل هذا الانصياع والاحترام والتحفظ، فسوف يفضى هذا إلى أن آخرين سوف يتصدون لها ويناهضونها بالكتابة المضادة بكل قسوة وحزم».

ومفاد الرسائل التى تلقاها جاليليو لمؤازرته كالتالى: «إنهم لا يستطيعون أن يفعلوا لك شيئاً. لقد خرجت الأمور عن السيطرة لبرهة وجيزة؛ لأن البابا كان مندفعاً فى اتخاذ ما اتخذه من إجراء. فاجلس فى مكانك صامداً ولا تستسلم إلا بالقدر الذى تقتضيه منك الضرورة. ولكن حذارٍ أن تتحرش بهم وتثير غضبهم!». وهكذا نصحه أصدقائه ومريدوه أن يتكلم بعد أن تهدأ العاصفة. وأيضاً جاءه خطاب من راهب فى

البندقية اسمه فولجنزيو ميكانزيو يشد من أزره ويعضده فى محنته ويقول: «العالم ليس محدوداً بركن واحد فيه، وسوف تشاهد عملاً مطبوعاً فى أماكن ولغات كثيرة. إن الذى يقلقنى هو أن أرى نفسى محروماً من الشيء الذى وضعت جُلّ أملى فيه، وهو أن أرى حواراتك الأخرى منشورة مثل حوارك (علمان جديان)».

تلخصت أمنية جاليليو فى شيء واحد وهو أن يعطيه البابا فرصة للدفاع عن نفسه وشرح موقفه. وأراد أن يناقش كتابه نقطة بنقطة مع اللجنة المشكّلة لفحصه. ولم يكن جاليليو مندفعاً أو متهوراً، فقد علمته الأيام فائدة الحكمة والتروى. حتى عدوه بييرو جويكيارديني Piero Guicciardini شهد له بذلك. وأدرك جاليليو أنه يستند إلى موقف قوى من الناحية القانونية، فهو لم ينشر كتابه إلا بعد الحصول على الموافقات اللازمة. ولكنه أدرك فى نفس الوقت ضعف موقفه من الناحية السياسية. وكان بإمكانه أن يتجنب المتاعب بإجراء تعديلات جوهرية على حوار به جعل شخصية الساذج سيمبلسيو يفاجئ الجميع بالتدليل على صحة نظام تيكو الفلكى الذى كان قد أغفل مناقشته، وأن يجعل شخصية سالفياتى يعترف بالهزيمة. وهذه التعبيرات كان من شأنها أن ترضى البابا. وأيضاً كان فى مقدور جاليليو أن يبرئ نفسه بترديد المحاجّات الفيزيائية - الرياضية التى استخدمها ريكولي Riccioli. وهى المحاجّات التى كان من السهل على بورلى Borlli تنفيذها فى عام ١٦٦٨. نعم، كان بمقدور جاليليو أن يراوغ ويناور؛ ولكن إهانته جعلته ينطق بالحق دون مداراة.

على أية حال، كان جاليليو فى قرارة نفسه يأمل أن يناصره البابا سرّاً ويعاديه جهراً حتى ينقذ الكنيسة من التورط فى أى مأزق علمى. ومما أثار الشكوك فى نوايا جاليليو، استخدامه اللغة الإيطالية فى كتاباته بدلاً من اللغة اللاتينية؛ فضلاً عن أنه تجاهل مخاطبة الجامعات - كما جرت العادة - بشأن اكتشافاته العلمية ليخاطب مباشرة القطاع المستتير من رأى العام الإيطالى. ولو أنه لم يفعل هذا لكانت أقصى عقوبة يمكن إنزالها به هو حظر أعماله فى فهارس الكتابات المحظورة.

وتجمعت خيوط الفاجعة عندما قام محقق محكمة تفتيش فلورنسا بزيارة جاليليو فى بيته فى أكتوبر ١٦٢٢ ليعطيه الأمر الرسمى باستدعاء المكتب المقدس له، على أن يقدم نفسه إلى السلطات فى روما فى غضون ثلاثين يوماً. وأصاب جاليليو الرعب والفرع وأدرك مدى الخطر المحدق به. وشعر بالإعياء والمرض يعتريانه فأوى

إلى فراشه. ثم أرسل خطابًا إلى الكاردينال فرانسيسكو باربريني ابن عم البابا إيريان الثامن يرجوه إعفاءه من السفر في فصل الشتاء لما تتطوى عليه رحلة الشتاء من خطر على حياته. ويتضمن خطابه الندم على ما أجراه من أبحاث واكتشافات، فقد جاء في خطابه: «إننى ألعن الأيام التى كرستها للدراسة وحاولت فيها وأملت أن أبتعد نوعًا ما عن أن أسلك طرق البحث المعتادة. وإنى نادم على أنى أعطيت للعالم جزءًا من كتاباتى. وأشعر بالرغبة فى أن ألقى ما تبقى منها فى اللهب حتى أخفف أخيرًا من كراهية أعدائى المشبوبة ضدى». واقترح جاليليو فى خطابه أن يقوم بمراجعة كتابه بغية مهادنة السلطات وطلب تعيين لجنة فى فلورنسا تتولى هذه المراجعة، واختتم خطابه قائلاً: «إذا لم تكن كهولتى الطاغية أو الأمراض الجسدية الكثيرة التى أعانى منها أو عمق أحزانى أو خطورة الرحلة على من كان فى مثل ظروفى لا تعتبرها المحكمة العليا المقدسة أسبابًا كافية لإعفائى أو على الأقل تأخير سفرى، فسوف أقوم بهذه الرحلة من باب الطاعة والولاء للذين يزيدان فى قيمتهما عن حياتى».

ولم يفكر جاليليو فى الهرب رغم نصيحة كثير من أصدقائه أن يفعل هذا، ونسى السياسى المخضرم فرانسيسكو مورسينى القطيعة التى حدثت بينهما منذ عشرين عامًا، وعرض عليه بكل شهامة ملاذًا آمنًا فى أراضى البندقية؛ حتى نصيره نيكوليني نصحه بالهرب. ولكن الإنهاك والإعياء كانا قد بلغا به كل مبلغ فلم يعد فى كهولته المريضة قادرًا على مواصلة الصمود والتحدى، وانهار المحارب القديم فيه وشعر بالانكسار وبأنه ريشة فى مهب الريح يحتاج لمن يحميه ويواسيه.

وأيضًا، عقد البابا عزمه على عدم الاستماع إلى صوت جاليليو. فعندما قام الكاردينال باربريني بتسليم خطاب جاليليو إليه كتب على هوامشه معلقًا: «لقد حسم المجمع الأخير الأمر وليست هناك حاجة إلى أية إجابة أخرى». واستفسر من المقيم ما إذا كانت الأوامر الصادرة بهذا الموضوع نُفذت أم لا؟

وفى ١١ سبتمبر ١٦٣٢، قادم بادر ريكاردى وهو ينتفض من الاضطراب بزيارة نيكوليني بهدف إسداء النصح لجاليليو بتوخى العقل والتزام الطاعة، حيث تبين أن كتابه «حوار» ينطوى على العصيان الواضح والصريح. وقال ريكاردى، إنه أخفق فى ضم كامبانيلا وكاستيللى صديقى جاليليو إلى اللجنة المبدئية المشكّلة. ورغم ذلك، فإنه وعد ببذل كل ما فى وسعه لمساعدة جاليليو. وأيضًا أفضى ريكاردى إلى نيكوليني بسر

بالغ الأهمية طلب منه عدم إفشائه، وهو أن جاليليو آمن بمذهب كوبرنيكوس وقام بنشره في فلورنسا ولذا تقرر استدعاؤه إلى روما، حيث منعه الكاردينال بيلارمين نيابة عن البابا والمكتب المقدس من مناقشة رأيه. وأضاف أن هذا وحده يكفى لتدميره تماماً.

وتغير الموقف عما كان عليه بالأمس، فبالأمس ترفق به البابا ونصحه بعدم الإتيان بأى عمل من شأنه أن يدعو المكتب المقدس لاستدعائه. أما الآن فقد أمر البابا بتشكيل لجنة لفحص كتابه، وساعد اللجنة في عملها أنها وجدت في أوراق محكمة التفتيش الأمر الصادر في ٢٦ فبراير ١٦١٦ الذى ينص على «عدم تدريس (مذهب كوبرنيكوس) بأية صورة من الصور». وهو أمر تغافله البابا نفسه عندما سمح له بالكتابة عن هذه النظرية. كان هذا فحوى السر الذى أثمن ريكاردى نيكوليني عليه. وقامت اللجنة التى شكلها البابا بعقد خمس جلسات فى غضون ما يقرب من شهر. ثم رفعت إلى البابا مذكرة عن قضية جاليليو فى ثلاث صفحات وردت فيها الاتهامات الثلاثة الآتية:

أولاً: أن جاليليو انتهك الأوامر الصادرة إليه باعتناق فكرة دوران الأرض وثبات الشمس.

ثانياً: أنه أخطأ فى نسبة ظاهرة المد والجزر إلى ثبات الشمس ودوران الأرض.

ثالثاً: أنه مارس الغش والتدليس بامتناعه عن تنفيذ الأمر الذى أصدره إليه المكتب المقدس فى عام ١٦١٦، بالتخلى تماماً عن رأى القائل بأن الشمس مركز الكون وأنها ثابتة فى مكانها وإن الأرض تدور. ومن ثم، فإنه يتعين عليه الامتناع عن اعتناق هذا الرأى أو تدريسه أو الدفاع عنه بأية طريقة سواء أكانت شفاهية أم كتابة؛ حتى لا يقوم المكتب المقدس برفع الدعوى عليه. وهو أمر وافق عليه المدعو جاليليو نفسه ووعد بطاعته.

وأيضاً تدعو المذكرة المرفوعة للبابا إلى تحديد طبيعة الإجراءات الواجب اتخاذها ضد جاليليو وضد كتابه المطبوع، حيث لم ترد فى سجلات محاكم التفتيش أية إشارة إلى نوع هذه الإجراءات. (ويجدر بنا فى هذا الصدد أن نذكر أن جاليليو سلم مخطوطة كتابه إلى الكرسي البابوى عام ١٦٣٠، ثم قام بنشرها فى فلورنسا عام ١٦٣٢ ثم تم استدعاؤه إلى روما عام ١٦٣٣).

وفيما يتعلق بـ «حوار»، فقد وجهت اللجنة إلى جاليليو صاحبه الانتقادات التالية:

- ١ - أنه بدون صدور أية أوامر وبدون إجراءاته أية اتصالات بشأن كتابه قام بوضع خاتم الكرسي البابوي في روما على الصفحة الأولى.
  - ٢ - قام بطبع التصدير ببنت مختلف عن بقية الكتاب، الأمر الذي جعل هذا التصدير غير ذي فائدة وذلك عن طريق فصله عن بقية الكتاب؛ فضلاً عن أنه أورد مغزى الكتاب على لسان شخصية سيمبلسيو الفريير وفي موضع لا يسهل العثور عليه وبشكل يخفى على محدثه، حتى لا يبرز الموضوع وينال ما يستحقه من اهتمام ومناقشة كاملة.
  - ٣ - أن معظم الكتاب يخلو من الإشارة إلى أنه مجرد افتراض، بل إنه يؤكد دوران الأرض وثبات الشمس، وكذلك تقديم المحاجّات التي تستند إليها هذه الآراء على أنها محاجّات مفحمة وحقيقية بالضرورة وبطريقة تبدو معها الآراء المضادة مستحيلة.
  - ٤ - أنه عالج الموضوع وتركه دون أن يحسمه كما لو كان لهذا الموضوع بقية تشرحه، في حين أن الواقع يؤكد أنه أورد هذا الشرح.
  - ٥ - أنه يحتقر ويزدرى المؤلفين الذين يخالفونه في الرأي والمؤلفين الذين تستخدمهم الكنيسة أساساً.
  - ٦ - أنه يلحق الضرر عندما يؤكد ويدلل على وجود شيء من المساواة بين عقل الله وعقل الإنسان فيما يتعلق بعلم الهندسة.
  - ٧ - أنه ارتكب خطأ عندما نسب ظاهرة المد والجزر في البحار إلى ثبات الشمس ودوران الأرض. وهما أمران يجافيان الحقيقة.
- واختتمت اللجنة التي شكّلها البابا تقريرها بقولها، إن كل هذه الأشياء يمكن تصحيحها لو صحت قيمة الكتاب. ورغم أن المثالب التي عابتها عليه اللجنة كانت كافية لحظر الكتاب وإثبات أن صاحبه ارتكب جريمة شنعاء في حق الكنيسة وانتهاكاً لأوامرها الصادرة في ١٦١٦، فإن اللجنة أثرت أن تتجاهل جسامة هذه الاتهامات واكتفت بقبول إجراء التعديلات على كتاب جاليليو، الذي كان موقفه سليماً من الناحية القانونية نظراً لحصوله على الموافقات الرسمية اللازمة لنشر مبحثه. واصطدمت اللجنة بمشكلتين، أولاهما كما ذكرنا أن الكتاب نشر بتصريح كنسي واضح. وثانيتهما



أنه لا سبيل إلى توجيه اتهام إلى مذهب كوبرنيكوس بالهرطقة (والجدير بالذكر أن الأب جوفيفارا Guevara صرح في عام ١٦٢٥ بعد أن نشر جاليليو كتابه «المجرب» أن القول بدوران الأرض في حد ذاته لا يستوجب الملامة والتقريع).

وفي ١٥ سبتمبر ١٦٣٢، صرح البابا أنه مضطر أمام هذه الظروف إلى رفع الأمر إلى محكمة التفتيش. وحذر البابا سفير فلورنسا لدى الكرسي البابوي وحاكم فلورنسا من مغبة الافضاء بهذا السر، وهدد باتخاذ الإجراءات ضدهما. ولعل البابا أراد بذلك إعطاء حاكم فلورنسا فرصة لقطع أية علاقة تربطه بجاليليو. وأيضاً تجاهل البابا مناشدات نيكوليني له لإعادة النظر في القضية.

وفي يوم ٢٣ سبتمبر ١٦٣٢، أعلن المجمع العام أن جاليليو انتهك الأمر الصادر عام ١٦١٦، وذلك قبل استدعائه رسمياً في الأول من أكتوبر ١٦٣٠. وعلم نيكوليني بحالة اليأس التي انتابت جاليليو فسعى ما وسعه السعى لمساعدته، وناشد الكرادلة في المكتب المقدس مراعاة ظروف جاليليو المسن الصحية وصعوبة سفره في رحلة تمتد مائتي ميل في أقصى الظروف الجوية. ولكن مناشدات نيكوليني ذهبت أدراج الرياح فتوجه إلى البابا وتوسل إليه قائلاً لقداسته إن محاكمته في روما، بل وفي فلورنسا، تمثل خطراً على حياته؛ لأنه سيقضى نحبه في الطريق. فأجاب البابا بقوله: «يجب عليه الحضور.. كما يتعين في واقع الأمر محاكمته هنا في روما. وليغفر الله له لأنه أوقع نفسه في شطحات أوهام من شأنها توريطه في هذه الصعوبات التي أعفيتها منها عندما كنت كاردينالاً». عندئذ تجرأ نيكوليني وقال للبابا، إن المسؤولية تقع أولاً وأخيراً على عاتق الرقباء الذين أعطوه تصريحاً بنشر كتابه. فانفجر البابا إيريان الثامن ساخطاً وصب جام غضبه على كل من الرقيبين ريكاردى وكيامبولي. ولكنه في الوقت نفسه لام جاليليو لأنه يعرف أكثر منهما، ولأنه ورط نفسه في مثل هذه الموضوعات الشائكة والضارة. وأصر على حضوره إلى روما. وأضاف أنه ينبغي أن يكون بعض قضاته من أعضاء اللجنة التمهيدية التي شكلها. وكان البابا يعنى بذلك المستشارين الثلاثة المكلفين بفحص كتاب جاليليو ووضع تقرير بشأنه.

وفي ١٩ نوفمبر ١٦٣٢، تلقى جاليليو استدعاء آخر فأرسل شهادة مرضية موقعة من ثلاثة أطباء فيما يلي نصها: «وجدنا عدم انتظام في نبضات قلبه بمعدل ضربة كل ثلاث أو أربع ضربات.. وتصيب المريض بشكل متكرر نوبات دوار ونوبات حزن أسود

وقاتم وضعف في المعدة وأرق وآلام شديدة في الجسد، وبه فتاق خطير في جدار البطن. وجميع هذه الأمراض في حالة ازديادها ولو بصورة بسيطة قد تشكل خطراً على حياته».

وأنايب البابا أعضاء المكتب المقدس للرد على التقرير الطبي فقالوا إنهم لن يسمحوا بمثل هذا التهرب والتلاعب، وإنه في حالة تأخره لفترة أطول فسوف يرسلون مندوباً يرافقه لإحضاره مكبلاً بالأغلال الحديدية. وإذا كان هناك خطر بالفعل على حياته فيجب إحضاره بمجرد تمكنه من السفر كسجين يرسف في الأغلال. ومن ناحيته، اقترح البابا سفره على وسادة محمولة على الأعناق.

وأمام هذا الموقف البابوي المتشدد نصح دوق فلورنسا العظيم جاليليو بتنفيذ الأمر والسفر إلى روما. ولكن بسبب اعتلال صحة جاليليو وعدم قدرته على تجشم مشاق السفر أمر الدوق بنقله على وسادة محمولة على الأعناق. وكذلك طلب من نيكوليني أن يفعل كل ما يستطيع للدفاع عن جاليليو.

وبعد أن أفاق جاليليو من هول الصدمة بدأ يستعيد روحه القتالية القديمة، الأمر الذي جعله يتصدى بقوة لعالمين فرنسيين، هما: فروادمونت Froidmont ومورين Morin، اللذين نشرًا مؤخراً نبذات تهاجم نظرية كوبرنيكوس، وذلك في الخطاب الذي أرسله جاليليو إلى إيليا ديوداتي في باريس في ١٥ يناير (١٩٣٣). وهو خطاب يدافع بصراحة عن مذهب كوبرنيكوس ويذكرنا بموقفه منه كما عبر عنه عام ١٦١٥ في خطابه إلى كاستيللي. وأيضاً تساءل جاليليو عن مدى الجرح الذي سوف يصيب الكنيسة إذا جاء فروادمونت أو أي شخص آخر لينكر دوران الأرض، ثم يتضح فيما بعد بالدليل والبرهان إنها تدور.

ولاشك أن هذا التساؤل ينطوى على تعريض بموقف البابا إيربان نفسه، الذي عز عليه أن يوجه إليه جاليليو مثل هذا الانتقاد. والجدير بالذكر، أن المناهضين للبابا إيربان الثامن اتهموه بالتضحية بمصالح الكنيسة في سبيل طموحه وإرضاء غروره والعمل على إثراء أقربائه، الأمر الذي دفع سفير مودينا في روما إلى أن يكتب إلى أميرها قائلاً: «هؤلاء الحكام (يعني البابا والكنيسة) يريدون تحطيم سلطانهم العائلي، وهم يحبون الثراء ويشتتهون السلطة. وعندما يتعين عليهم اتخاذ قرار نراهم يتخاذلون عن اتخاذ أية قرارات تمثل خطراً داهماً على مصالحهم».

كان البابا إيربان الثامن من الناحية السياسية فى مأزق ولا يعرف السبيل إلى الخروج منه. وفى البداية راهن على قوة الأمة الفرنسية ضد قوة إسبانيا والنمسا السياسية، ولكن تبين له ضعف فرنسا. ولسوء حظ إيربان الثامن استطاعت فرنسا فيما بعد تعظيم قوتها وهيبتها بعد أن توقف البابا عن مؤازرتها. وفى مثل هذا الجو المتوتر وغير المستقر شعر البابا بالمؤامرات تحاك ضده، لدرجة أن أحد المراسلين الديبلوماسيين وصفه بقوله إنه يعيش فى خوف من دس السم له، ويحبس نفسه فى قلعة جوندولو فلا يستطيع أحد زيارته دون الخضوع للتفتيش. وأيضاً كان حراسه بكثافة يجوبون الممر المؤدى إلى القلعة التى يسكنها. وهو يخشى من أن تكون الاستعدادات التى تقوم بها نابولى موجهة ضده، كما يخشى من اعتداء توسكانيا على أراضيه. ويبدو أن اضطراب البابا وتوتره العصبى كان وراء تضخمه ومبالفته فى حجم الخطر المحدق به. وبأقول قوة فرنسا التى يساندها شعر بأن النمسا سوف تبسط نفوذها عليه. وفى تلك اللحظة التاريخية أراد أن يثبت لنفسه وللعالم أنه لا يزال قوياً مهاب الجانب فاتجه إلى مناصبة جاليليو العداء وقرر تأديبه على مروقته، رغبة منه فى استعادة هيئته على صعيد السياسة الدولية. ولم يهدأ له بال حتى تمكنت اللجنة التمهيدية التى عينها من تجميع خيوط القضية ضد ضحيته جاليليو.

بعد رحلة استغرقت ثلاثة وعشرين يوماً، وصل جاليليو إلى روما وهو فى حالة إنهاك وإعياء بالغين فى الثالث عشر من شهر فبراير (١٦٣٢). وبناء على أوامر حاكم فلورنسا استقبلته سفارتها فى روما بدفء وترحاب حيث نزل ضيفاً على السفارة، وتولت زوجة السفير - وهى امرأة فى منتهى طيبة القلب - العناية بصحته. وبقي جاليليو ملازماً لحجرتة الدافئة لعدة أسابيع لا يزعجه أحد، إلا بعض الزيارات القليلة التى قام بها من آن إلى آخر بعض كرادلة محكمة التفتيش. وقد أظهر المقيم As-sessor السابق بوكابيللا له الود الشديد، كما حاول الأب ساريسترى مساعدته. وما إن تماثل جاليليو بعض الشئ إلى الشفاء، حتى زار المكتب المقدس ليقدم له احتراماته. وهناك التقى بمقيم محكمة التفتيش الجديد الأب فيبي Febei. وحرص الأب نيكولينى على زيارته للاستمتاع بحديثه. وفى التاسع عشر من شهر فبراير ١٦٣٢، كتب نيكولينى يقول: «أظن أننا نجحنا فى رفع روح الجنتلمان المعجوز (يعنى جاليليو) المعنوية بأن أوضحنا له كل ما فعلناه من أجل الدفاع عن قضيته».

ولكن جاليليو أحياناً عجز عن تفهم السبب الذى دعا محكمة التفتيش إلى اضطهاده، ونصحه نيكوليني أن يلتزم بالطاعة ولا يسمح للغضب أن يملكه.

وبعد أن استعاد جاليليو رياطة جأشه لم تظهر عليه أمارات الخوف التى سبق أن اعترته، بل ظهرت عليه علامات الضيق الشديد والدهشة لما حدث. وكان على استعداد أن يجادل السلطات كبيرها وصغيرها. ويتضح لنا هذا من الخطاب الذى أرسله جاليليو إلى شقيق زوجته حيث يقول: «إننا (نيكوليني وأنا) سمعنا أخيراً أن الاتهامات الكثيرة والخطيرة الموجهة إلىّ اختصرت إلى اتهام واحد وأنه تم إسقاط بقية الاتهامات، ولن أجد صعوبة فى التخلص من هذا الاتهام إذا استمعوا إلى دفاعي».

وبعد مرور خمسة أيام قال نيكوليني فى خطاب لاحق على خطاب جاليليو: «بقدر ما أرى، فإن العقبة الأساسية تكمن فى أنهم هنا (أى فى روما) يذهبون إلى أن الأمر الصادر إلى جاليليو عام ١٦١٦ ينص على ضرورة امتناعه عن مناقشة نظرية كوبرنيكوس أو الحديث عنها، فى حين أن جاليليو على العكس من ذلك ذهب إلى أن الأمر لم ينص على هذا».

سعى أصدقاء جاليليو إلى إدخال الطمأنينة إلى قلبه، وخاصة لإدراكه سلامة موقفه من الناحية القانونية. ولهذا تحفز جاليليو للإمساك بتلابيب السلطة الكنسية التى تتهمه، ولكن نيكوليني نصحه بضبط النفس ومنعه من إظهار التحدى.

وبدت بعض بوادر الأمل تلوح فى شهر مارس ١٦٢٣، بعد أن قرأ كبير المحققين الصارم المتجهم الكاردينال ديزيدريو سكاجاليا Desiderio Scaglia كتاب جاليليو بمساعدة كاستيللى الذى شرح له حوار جاليليو نقطة بنقطة. ومن ناحيتهم ندت عن أعضاء المكتب المقدس تلميحات مريحة ومطمئنة، الأمر الذى جعل أحباءه يعتقدون أن الأمور سوف تتجلى لصالحه طالما أنه يظهر الطاعة الواجبة لسلطة الكنيسة؛ فضلاً عن أن دوق فلورنسا العظيم مارس الضغط على البابا لإرجاعه إلى فلورنسا.

ولكن الغم الشديد سرعان ما أصاب الأب نيكوليني وبدد تفاؤله عندما أخبره البابا يوم ١٣ مارس ١٦٢٣ أن المكتب المقدس سوف يستدعى جاليليو للمثول أمامه حين يتحدد موعد محاكمته. وعبثاً توسل نيكوليني إلى البابا كي يتدخل لمنع هذا من

الحدوث؛ ولكن البابا قال بصريح العبارة إنه ليس هناك مفر. قال: «فليغفر الله لجاليليو لأنه أقحم نفسه في الأمور المتصلة بالمذاهب الجديدة والكتاب المقدس، حيث إن سلامة المرء تقتضى منه الإيمان بالأفكار الشائعة. وأرجو من الله أن يساعد كيامبولى أيضاً لاعتناقه هذه الأفكار الجديدة لأنه يميل إلى الأخذ بها واعتناق الفلسفات الجديدة» ثم أضاف البابا أن جاليليو كان صديقه، وأنهما كثيراً ما تناولا الطعام على نفس المائدة وأعرب عن أسفه لأنه يسبب له هذه المضايقات. ولكنه حذر من أن المسألة تتعلق بالعقيدة والدين. عندئذ قال له نيكوليني إنه لو استمع إليه لحصل منه على كل ما يريد من شروح وتفسيرات. فأجاب البابا أن جاليليو سوف يستجوب في الوقت المناسب. حينئذ قال البابا إن هناك حاجة تبقى بلا رد ومفادها: «إذا كان الله قادراً على كل شيء وإذا كان موجوداً فما الداعي أن نحاول فرض الضرورة عليه؟ وهنا رد نيكوليني قائلاً إنه لا يعرف كيف يجيب عن هذا التساؤل؛ ولكنه استطرد قائلاً إنه سمع جاليليو يقول إنه على استعداد أن يتخلى عن اعتقاده بدوران الأرض. ولكن ما الذى يدعو لإنكار دوران الأرض طالما أن الله قادر على صنع العالم وتسييره بألف طريقة وطريقة. وهنا ظهر الغضب على وجه البابا وأجاب: «لا ينبغي أن نفرض الضرورة على الله سبحانه وتعالى». وخشى نيكوليني من الاسترسال في الكلام؛ حتى يتجنب أن يثير ثائرة البابا أكثر فأكثر، وحتى يتجنب أن يقول شيئاً من شأنه إلحاق الضرر بصديقه جاليليو، وأيضاً حتى يتجنب أن يوجه إليه المكتب المقدس اتهامات مماثلة.

وعندما أخبر نيكوليني دوق فلورنسا العظيم بالحديث الذى دار بينه وبين البابا تملك الدوق النشوة الصارمة، فهذا الحديث ينطوى على انتقاد ديپلوماسى مبطن للكرسى البابوى.

ومن الواضح أن البابا أراد بإشارته إلى صداقته مع جاليليو إلى ذر الرماد في العيون، حيث بات من الواضح أن كراهيته لصديقه القديم أصبحت مشبوبة. وليس أدل على ذلك من أنه بعد مضى عام وصدر الحكم عليه في عام ١٦٢٤ التمس جاليليو من البابا السماح له بالعودة لتلقى العلاج؛ ولكن البابا رفض أن يجيبه إلى طلبه. قال قداسته «إنه يرفض الاستجابة إلى الطلب المقدم ويحذر المدعو جاليليو كي يتوقف عن كتابة العرائض والالتماسات حتى لا يزج به في سجون المكتب المقدس»، الأمر



الذى جعل أتباع الدوق العظيم يصيحون: «شئ لا يصدق!» و«شئ لم نسمع به مطلقاً». ويسجل لنا التاريخ بحروف من نار الخطاب الذى أرسله جاليليو إلى ديوداتى Diodati بتاريخ ٢٥ يوليو ١٦٢٤ فيما يلى نصه: «مما زاد من قتامة هذه الفترة فى حياتى خسارتى العظيمة، فأثناء غيابى الذى اعتبرته ابنتى أشد ما يكون خطراً على حياتى أصيبت باكتئاب عميق كان السبب فى تدمير صحتها التى تأزمت أخيراً (عقب عودتى بشهرين)، مما أودى بحياتها بعد مرض قصير لم يمهلها سوى ستة أيام وعمرها لا يتجاوز الثالثة والثلاثين تاركة إياى فى حزن يائس. وكانت مصادفة مشؤمة حين عدت إلى بيتى عقب زيارة الدير برفقة الطبيب الذى أخبرنى للتو أن حالتها ميئوس منها ولن تعيش حتى اليوم التالى، فقد حدث أن جاءنى آنذاك قسيس محكمة التفتيش لإبلاغى بالأمر الذى أصدره المكتب المقدس فى روما بضرورة المشول أمامه حتى لا يزجوا بى مرة أخرى فى السجن الفعلى التابع للمكتب القدس. وأستطيع أن أستنتج من هذا أن سجنى الحالى لن ينتهى إلا بالمصير الأبدى الذى يلقاه جميع البشر».

إن كل ما استطاع الأب نيكوليني انتزاعه من البابا يوم ١٢ مارس ١٦٢٢ وعد منه بوضع المتهم فى حجرات مريحة ويقوم خادم على خدمته بدلاً من الزج به فى زنزانه، كما هو الحال مع سائر المتهمين.

وأخفى نيكوليني عن صديقه جاليليو خبر الشروع فى تقديمه للمحاكمة، غير أنه قام بزيارة جميع القضاة المكلفين بالنظر فى قضيته. ومن ناحيته قام باربريني برسم صورة للبابا عن مدى «اعتلال صحة الرجل الطيب العجوز الذى ظل على مدى ليلتين كاملتين يصرخ ويئن من ألم ممض، وعن تقدمه فى العمر وأحزانه». فطمأنه إلى أن المحكمة سوف تأخذ كل هذا فى الاعتبار.

وفى محنته القاسية بدأ المريدون والمعجبون ينفضون من حوله. وأحجم كثير من معارفه عن التوسط له لدى السلطات باستثناء معجب عجوز واحد عديم الفاعلية يدعى بوناروتى. حتى أصحاب السلطان فى فلورنسا تركوه لمصيره المحتوم، فقد كتب أحدهم - وهو كيولى - إلى سفير فلورنسا فى روما ينصحه بعدم التورط فى الدفاع القوى عنه، كما أن حكومة فلورنسا أضافت أنها سوف تتكفل بنفقات جاليليو لمدة

شهر واحد فقط. واحتقر السفير هذه الخسة فكتب إلى بلاده يقول إن نفقات إقامة جاليليو لا تمثل عبئاً، وإنه والراهب نيكوليني على استعداد للإنفاق عليه من مالهما الخاص.

وعندما تم تبليغ جاليليو في ٨ أبريل ١٦٢٣ بأمر تقديمه إلى المحاكمة رحب بذلك؛ لأنه ظن أن المحاكمة ستوفر له فرصة لمواجهة هيئة المحكمة المشكلة من عشرة كرادلة ومناقشتهم ومقارعتهم بالحجة بالحجة. أي أن جاليليو رآها فرصة سانحة لفضح أعدائه على المستويين: اللاهوتي والعلمي. وأسقط في يد جاليليو عندما أفهمه نيكوليني أن المحاكمة لن تعطيه فرصة للدفاع عن نفسه، ناصحاً إياه بالخضوع والامتثال لكل ما يرغبون فيه في مسألة دوران الأرض. وتلقى جاليليو هذا الخبر كالصاعقة. ويصف نيكوليني رد فعل الرجل الطاعن في السن، قائلاً إنه «سقط في بئر من الأحزان وانهارت قواه منذ ليلة أمس، لدرجة جعلتني أنزعج على حياته. كنا جميعاً نحاول أن نهدي من روعه ونعزيه ونساعده عن طريق معارفنا وما نملك من اتصالات؛ لأنه في الحقيقة يستأهل كل خير».

الصراع بين الكنيسة وجاليليو يصل إلى ذروته

بدأت في روما يوم ١٢ أبريل ١٦٢٣ محاكمة جاليليو الثانية والنهائية أمام مفتش عام محكمة التفتيش ومساعديه ومدعى المفتش العام الأب فينسنزو ماكيولانو أو ماكولاني Vincenzo Maculano. والدارسون لا يعرفون عن هذا الأب الدومينيكاني سوى النزر اليسير. ويبدو أن البابا اختاره لهذه المهمة بسبب كفاءته الإدارية التي تجلت عند تكليفه بالإشراف على تعزيز قلعة سان أنجلو.

مثل جاليليو في صبيحة اليوم المذكور أمام المكتب المقدس. وجرت العادة على سجن المتهم سجناً انفرادياً حتى تنتهي محاكمته، ولكن بالنظر إلى اعتلال صحة جاليليو ومراعاة لقدر ومهابة دوق فلورنسا العظيم سمح له بالمكوث في مقر محكمة التفتيش الواقع بالقرب من الفاتيكان. ونصت الإجراءات على أن يبدأ المتهم بحلف اليمين، ثم سئل ما إذا كان يعرف أو يخمن السبب في استدعائه. فأجاب جاليليو قائلاً إنه يفترض أن استدعائه حدث نتيجة نشره كتابه الأخير (حوار عن نظامين عالميين جديدين). وأظهروا له نسخة من الكتاب فأقر أنه الكتاب موضع المسألة. وسأله المحققون عن أحداث عام ١٦١٦ (أي أحداث المحاكمة الأولى)، فأجاب أنه حضر إلى

روما فى ذلك العام بمحض اختياره كى يعرف الرأى المناسب الذى ينبغى عليه اتخاذه بشأن الافتراض الكوبرنيكى، وحتى يتأكد أنه لا يدين بأية آراء غير الآراء التى تدين بها الكنيسة الكاثوليكية. ثم سألته المحكمة عن الاجتماعات التى عقدها مع العديد من الكرادلة قبل صدور المرسوم ضده، فأجاب أن هذه الاجتماعات تمت بناء على طلب الكرادلة ورغبتهم فى التعرف على المذهب الكوبرنيكى، وهو مذهب يصعب فهمه على غير المتخصصين.

ثم دار الاستجواب على النحو التالى :

س : ماذا حدث بعد ذلك؟

ج : فيما يتعلق بالجدال الذى احتدم حول الرأى السابق ذكره القائل بثبات الشمس ودوران الأرض، قرر مجمع الفهارس المقدس أن مثل هذا الرأى اذا اعتبر حقيقة مؤكدة يتناقض مع الكتاب المقدس ويسمح به فقط كافتراض، كما هو الحال مع كوبرنيكوس.

س : هل تم تبليغك بهذا القرار؟ ومن قام بتبليغك؟

ج : الكاردينال بيلارمين هو الذى أبلغنى بقرار مجمع الفهارس المقدس.

س : وهل قال لك الكاردينال بيلارمين أى شئ آخر؟

ج : قال لى إن رأى كوبرنيكوس المذكور يمكن الأخذ به كتخمين أو افتراض، كما هو الحال مع كوبرنيكوس. ونيافته يدرك أننى مثل كوبرنيكوس أخذت بهذا الرأى كتخمين، كما يتضح من الإجابة التى أرسلها سيدنا الكاردينال ردًا على خطاب تلقاه من باولو أنتونيو فوسكارينى المنتمى إلى طائفة الرهبان الكارملايت. وإنى أحتفظ بنسخة من هذا الكتاب الذى وردت فيه العبارة التالية: «يبدو أن جنابكم والسيد جاليليو تتصرفان بحكمة، حيث إنكما لا تتحدثان بحزم ويقين. ويرجع تاريخ خطاب الكاردينال إلى ١٢ أبريل ١٦١٥. وهو يعنى أنه لا يجب الأخذ بهذا الرأى أو الدفاع عنه باعتباره رأياً مطلقاً».

واستطرد جاليليو قائلاً :

«فى شهر فبراير ١٦١٦، أخبرنى سيدنا الكاردينال بيلارمين أن رأى كوبرنيكوس إذا تم الأخذ به بصورة مطلقة فسوف يتناقض مع الكتاب المقدس. ومن ثم يجب عدم

اعتناقه أو الدفاع عنه، ولكن يمكن الأخذ به واستخدامه على أنه افتراض وطبقاً لهذا، فإننى أملك شهادة من الكاردينال بيلارمين بتاريخ ٢٦ مايو ١٦١٦ يقول فيها، إن رأى كوبرنيكوس لا يمكن الاقتناع به والدفاع عنه لأنه يتعارض مع الكتاب المقدس. وها أنا أقدم نسخة من هذه الشهادة. وعندما سألته محكمة التفتيش عما إذا كان هناك أى شخص أو أشخاص حاضرين أثناء تسلمه هذه الشهادة من الكاردينال بيلارمين، أخذت الشكوك تساور جاليليو حول مغزى هذا التساؤل، خاصة لأن ريكاردى وسير ستورى والبابا لم يشيروا إلى وجود أحد غير بيلارمين. كان جاليليو يعرف عن يقين وعلى وجه التحديد كل ما قاله بيلارمين فى هذا الشأن، ولكن سوء حظه شاء أن يموت بيلارمين منذ ثلاثة عشر عاماً، الأمر الذى يتعذر معه التأكيد على صحة أقواله. ودعاه هذا إلى توخى الحذر فى إجابته.

قال : «عندما عرض سيدنا الكاردينال لما قلته حول آراء كوبرنيكوس كان بعض الآباء الدومينيكان حاضرين، غير أنى لم أكن أعرفهم ولم أرهم من قبل».

س : هل أصدر إليك الآباء الحاضرون أو أى شخص أمراً آخر بخصوص هذا الموضوع؟

وما إن تلقى جاليليو هذا السؤال، حتى أصابه الذعر الواضح. فقد رأى رئيس محكمة التفتيش يتطلع إلى وثيقه أمامه كان جاليليو يجهل فحواها. وخشى أن يكون المحققون قد أعدوا له شركاً للإيقاع به، كما خشى أن يعارض المحكمة معارضة صريحة. وبدأ يضرب أخماساً فى أسداس هل سطر بيلارمين شيئاً آخر غير ما أحاطه به علماء؟ أليس من الجائز أن تكون بعض كلمات بيلارمين قد فاتته؟ وهل لوجود الرهبان الدومينيكان أثناء اجتماع بيلارمين به أى مغزى؟ وفى حيرته وارتباكاه أجاب جاليليو بما يلى :

«لا أتذكر أن أحداً من الحاضرين ألمح إلى هذا الأمر سوى الكاردينال بيلارمين الذى أصدره إلى شفاهة. وأتذكر أن منطوق هذا الأمر هو الامتناع عن الأخذ (بمذهب كوبرنيكوس) أو الدفاع عنه. لست أذكر، فأنا لم أعتد التفكير فى هذا الأمر أو أبذل جهداً لترسيخه فى ذاكرتى، حيث إننى فيما بعد تلقيت بعد أسابيع قليلة الشهادة التى أبرزتها الآن والمؤرخة فى ٢٦ مايو، والتى تنص بكل وضوح على أمرى بعدم الأخذ أو الدفاع عن «مذهب كوبرنيكوس». وذاكرتى لا تذكر العبارتين الأخيرتين المضافتين،

وهما «عدم تدريس» و«بأية طريقة»؛ لأننى أفترض عدم ورودهما فى الشهادة المذكورة التى استندت إليها، والتى احتفظت بها خوفاً من النسيان.

س : وهل حصلت على تصريح بكتابة الكتاب الذى تعترف بتأليفه بعد إصدار الأمر المذكور إليك؟

حينئذ ارتعدت فرائص جاليليو الطاعن فى السن، وخشى من الإشارة إلى مسئولية البابا وتشجيعه له حتى لا يعقد الأمور وينهار المعبد فوق رأسه. قال:

أنا لم أطلب تصريحاً بتأليف الكتاب، لأننى لم أر فى كتابته أننى أخالف الأمر بعدم الأخذ برأى كوبرنيكوس أو الدفاع عنه أو تدريسه، ناهيك عن شق عصا الطاعة على هذا الأمر.

س : عندما طلبت الإذن بطبع الكتاب، هل أخبرت المسئول الدينى بالأمر الصادر إليك؟

ج : لم يحدث أننى ناقشت هذا الأمر معه حين طلبت الموافقة على طبع الكتاب، حيث إننى لم أر ضرورة لذلك وحيث إن الشكوك لم تساورنى بشأنه؛ لأننى لم أعتقد أو أدافع فى هذا الكتاب عن دوران الأرض وثبات الشمس. بل إننى نزعت إلى إثبات الرأى المناهض لكوبرنيكوس وأوضحت أن محاجاته واهية وغير نهائية.

وبهذا انتهت جلسة التحقيق الأولى.

وفى الوقت نفسه، حرص المحقق على سؤاله عدة مرات عن الذين أبلغوه بأمر مرسوم ١٦١٦. ولم تتغير إجابات جاليليو فى جميع هذه المرات: إن أحداً لم يخاطبه فى هذا الشأن سوى الكاردينال بيلارمين. وكان هدف المحقق من هذا السؤال المتكرر أن يزل لسان جاليليو فيعترف بوجود أمر خاص أصدره إليه قوميسار محكمة التفتيش، الذى حضر المقابلة التى أجراها بيلارمين مع جاليليو. فمثل هذا الاعتراف قمين بأن يجعل من ورقة ١٦١٦ وثيقة رسمية وقانونية مائة فى المائة، ولكن جاليليو أصر فى أقواله إن بيلارمين هو الوحيد الذى أبلغه مسبقاً بمضمون مرسوم عام ١٦١٦ الذى كان فى سبيله إلى الصدور.

لم يحالف التوفيق جاليليو حين زعم أنه سعى فى حوارهِ إلى دحض مذهب كوبرنيكوس، حيث إن المحققين شعروا أنه يغشهم ويخادعهم. وتضايق منه المحققون



لكثرة احتجاجاته، وبعد استجوابه لمدة خمسة أيام كتب المحققون تقاريرهم، وهم: المستشار أوجستينوس أوريجيوس Augustinus Oregius (مستشار البابا اللاهوتي)، وملشور إنشوفير Malchior Inchofer، وزكريا باسكواليجو Zacharias Pasqualigo. وأجمعت تقاريرهم الثلاثة على أن جاليليو لم يناقش رأى كوبرنيكوس المحظور وحسب، بل آمن به وعلمه ودافع عنه. وساورهم الشك في أنه لا يزال يؤمن به حتى ذلك الوقت. ومن ناحيته قدم المستشار إنشوفير تقريراً من سبع صفحات مفاده:

أولاً: إنه من المؤكد أن المتهم قام بتعليم هذا المذهب، فليس التعليم سوى نقل المعرفة إلى الآخرين. ومن المؤكد أيضاً أن جاليليو مارس تعليمه منذ أن نشر نيذته عن البقع الشمسية وعرض محتاجاته على نحو لا يستقيم بدون الاعتقاد بدوران الأرض.

ثانياً: إنه يدافع أيضاً عن مذهب كوبرنيكوس. لقد اقترح كوبرنيكوس طريقة صريحة لإجراء الحسابات (كما أشار أوسياندر في تصديره لكتاب هذا الفلكي)، في حين أن جاليليو سعى إلى تأكيد هذا المذهب وترسيخه وسوق المحتاجات على ذلك، الأمر الذي يؤكد ممارسته الدفاع عنه. ولو كان في نيته إعمال الفكر، لما أقدم بزهو وصلف على الاستهزاء بأرسطو وبطلميوس وإنكار الحقائق التي لا تروق له. وطالما أنه استهزأ بهما في كتاباته، فليس هناك أدنى شك في أنه فعل أكثر من ذلك في محادثاته.

ثالثاً: إن جاليليو يدين بمذهب كوبرنيكوس عن طريق استنتاجاته من ناحية وتأكيداته من ناحية أخرى، وينبغي ألا نأخذ احتجاجاته المتكررة مأخذ الجد للتدليل على أنه لم ينتهك المرسوم الصادر بشأنه. ولو أنه يقصد هذا بالفعل فلماذا لم يقيم بالدفاع عن المرسوم الذي أصدره المجمع المقدس، إن هدفه الحقيقي هو تعزيز المذهب الكوبرنيكي بالمزيد من المجادلات والمحتاجات. فضلاً عن أنه يستخدم اللغة الإيطالية في عرض مجادلاته، في حين أن اللغة اللاتينية هي لغة البحث والاستقصاء العلمي. وهو يسعى باستخدام اللغة الإيطالية إلى اكتساب عامة القراء إلى صفه.

رابعاً: يزعم جاليليو إنه يناقش افتراضاً رياضياً. لكنه يصيغ هذا الافتراض كحقيقة واقعة، وهذا ما لا يفعله علماء الرياضيات مطلقاً. ولو كان المتهم لا يدين بهذا الرأي بقوة، لما تصدى للدفاع عنه بكل هذه الجسارة، ولما كتب خطابه إلى الدوقة العظيمة

ولما أقدم على السخرية من أصحاب الرأي التقليدي الذين يصفهم بأقزام الفكر ممن لا يتبعون فيثاغورث أو كوبرنيكوس. وهو - على النقيض من ذلك - يمتدح وليم جيلبرت Gilbert المهرطق المارق الكثير المشاحنات والذي يسفسط في دفاعه عن مذهب كوبرنيكوس.

والجدير بالذكر، أنه بعد مرور أكثر من قرن وفي عام ١٧٤٤ على وجه التحديد، صرح بابا روما بنيدكت الرابع عشر بطبع نسخة منقحة من حوار جاليليو، بالرغم من أن الحظر كان مفروضاً على جاليليو وكوبرنيكوس آنذاك. وفي واقع الأمر، لم يطرأ أى تغيير فى النسخة المنقحة ولكن أُضيفت إليها كلمة «إذا» فى مقدمة الجمل والعبارات حتى تبدو افتراضية.

بقى جاليليو حبيساً فى مبنى محكمة التفتيش يكابد الآلام الممضة الناجمة عن إصابته بمرض عرق النساء ومتاعب المصران. ومرت عليه فى الحبس أسابيع دون أن يحدث شئ، ويبدو من هذا التأخير أن المحكمة احتارت فى أمر هذه القضية. وكان الكاردينال فرانسيسكو باريريني واحداً من قضاة المحكمة العشرة، فطلب من قوميساريته أن تجد مخرجاً لبقاً من هذه الورطة. وذات يوم دخل القوميسار حجرة جاليليو وجلس معه يتجاذبان أطراف الحديث. ويروى قصة هذه المقابلة خطاب أميط اللثام عنه مؤخراً فى عام ١٨٢٣. يقول كاتب الخطاب الراهب دا فيرنزولا إنه تمكن من إقناع جاليليو بخطئه، وإن جاليليو طلب منه إمهاله بعض الوقت كي يتسنى له إعداد اعترافه بهذا الخطأ. والجدير بالذكر، أن كاستيللى مريد جاليليو ونصيره ذهب إلى مقابلة الراهب فيرنزولا عند بداية المشكلة، وأنه تحدث إلى فيرنزولا بحرية تامة. قال كاستيللى لفيرنزولا إنه لا يجد أدنى غضاضة فى التأكيد على دوران الأرض وثبات الشمس، وأنه لا يوجد مبرر واحد لحظر «حوار» جاليليو فوافقه الراهب فيرنزولا على هذا الرأي، قائلاً إن مثل هذه المسائل لا ينبغى مناقشتها فى إطار الكتاب المقدس. ولكن عندما تفاقمت مشكلة جاليليو وأخذت تتعقد اتسم موقف فيرنزولا من جاليليو بالتصلب والتشدد.

قلنا إن المحققين تضايقوا من كثرة احتجاجات جاليليو، لدرجة أن قوميسار محكمة التفتيش خاطبه قائلاً: «يا عزيزى السيد جاليليو، يبدو أنك لا تدرك حقيقة وضعك. أنت تصر على الحديث عن كتابك، فى حين أننى لم أسألك عنه، وأنت لازلت

تريد منا الاعتقاد بسلامة أفكارك ونقاوة نواياك وتعترف على الأكثر بأنك أسأت فهم التعليمات...».

واستطرد القوميسار مخاطباً جاليليو يقول، إنه قد يحتاج بأن الأمر الصادر إليه عام ١٦١٦ يخلو من توقيعه بالعلم، وبأن السلطات الكنسية العليا شجعتة على مناقشة مذهبه وأنه لا يمكن مناقشة أى مذهب بدون تعليم مبادئه وشروطها. وتساءل القوميسار عن دوافع جاليليو، مشيراً إلى أنها ليست فوق مستوى الشبهات فكل الدلائل تشير إلى إيمانه بالمذهب الكوبرنيكى. وهو ما تؤكد التقارير التى سطرها الخبراء عن كتابه. ثم أضاف القوميسار أن الكاردينال بيلارمين شرح له بكل وضوح نوايا الكنيسة التى وعد بطاعتها ثم ما لبث أن تجاهلها. واتهمه القوميسار بمحاولة خداع القضاة وتأكيد مذهبه الذى يتناقض مع تعاليم الكنيسة. ولام القوميسار جاليليو لأنه أساء استعمال الحرية الممنوحة له بافتراض أمور تتطوى على إنكار العقل الإلهى اللامحدود. ثم لجأ القوميسار إلى لغة التهديد والوعيد، قائلاً إن الإجراءات ضد جاليليو قد اتخذت وليس من السهل وقفها، وهى إجراءات تقتضى استجوابه بمنتهى الدقة والتشدد واستخدام الوسائل المؤسفة لإرغامه على الاعتراف، عندئذ سوف يشمل المكتب المقدس برحمته ويزج به فى سجنه. ولكن القوميسار استطرد قائلاً إن أحداً لا يريد لهذا أن يحدث. وأيضاً نصح القوميسار جاليليو بالاعتراف بعصيان الأوامر الكنسية وبالاعتذار بالنسيان أو الفخر أو الخيال أو أية شرور أخرى (بدلاً من كثرة الاحتجاج والإصرار على براءته).

وبعد مرور يومين سألت المحكمة فى ٢٠ أبريل ١٦٢٣ ما إذا كان لديه ما يضيفه، فأجاب قائلاً إنه واصل التفكير لعدة أيام فى الاستجابات التى خضع لها يوم ١٢ أبريل من العام الآن الذكر بخصوص الأمر الذى أصدره إليه المكتب المقدس بمنعه من الاعتقاد فى أو الدفاع عن أو تدريس - على أى نحو من الأنحاء - المذهب الكوبرنيكى الذى تمت إدانته للتو، الأمر الذى دفعه إلى إعادة قراءة حوار به بعد انقضاء ثلاثة أعوام على تأليفه. وكان هدفه من وراء ذلك أن يكتشف ما إذا كانت قد بدرت منه سهواً أية كلمة قد يستشف منها القارئ أو السلطات عصيانه للكنيسة أو انتهاكه لأوامرها.

ويقول جاليليو، إن السلطات تكرمت بالسماح له بالحصول على نسخة من كتابه فتوفر على قراءتها بعناية فائقة. واعترف جاليليو أن الكتاب ظهر له كما لو كان كتاباً

جديداً عليه من تأليف مؤلف آخر، كما اعترف بكل صراحة أن كثيراً من مواضيع الكتاب بدت وكأنها مكتوبة بطريقة توحى للقارئ الذى يجهل هدف الكتاب الحقيقى.. وقد يكون له الحق فى ذلك - أن يفترض أننى أسوق المحاجات لإثبات صحة ما هو خطأ وما كنت أنوى دحضه وتفنيده».

ومضى القوميسار يتهم جاليليو بالدفاع بقوة عن حاجتيه، أولاهما خاصة بالبقع الشمسية والأخرى بالمد والجزر، على نحو لا يتفق مع قوله إنهما محاجتان غير نهائيتين وإنه يعتزم دحضهما.

وتم صرف جاليليو من ساحة المحكمة بعد هذا التصريح الذى تفوه به القوميسار، ولكن جاليليو طلب منه السماح بالإدلاء بالبيان التالى :

«من أجل زيادة تأكيدى أننى لا أومن بصحة الرأى الذى تمت إدانته والخاص بدوران الأرض وثبات الشمس، أرجو منحى الوسيلة والوقت اللازمين لشرح موقفى بصورة أوضح، حيث إنى على أتم استعداد أن أفعل ذلك. وسوف تتوافر لدى فرصة أشد ما تكون مناسبة لأن أفعل هذا؛ لأن الكتاب المنشور يتحدث عن أن المتحاورين اتفقوا فيما بينهم على اللقاء مرة أخرى بعد مضى وقت معين لمناقشة مشاكل الطبيعة غير ذات الصلة بالأمور التى سبقت مناقشتها فى اجتماعاتهم. ونظراً لأن هذا سوف يعطينى فرصة يوم إضافى أو يومين إضافيين، فسوف أقطع على نفسى وعداً بمواصلة المحاجات التى سيقى للدفاع عن الرأى المذكور لإثبات خطئها وإدانتها، كى أدحضه بطريقة فعالة للغاية اعتماداً على بركة الله. وإنى لهذا أتوسل إلى محكماتكم المقدسة أن تساعدنى على تنفيذ قرارى الصعب ووضعه موضع التنفيذ».

كانت كلمات جاليليو الأخيرة كافية كدليل على نجاح القوميسارية فى أن تنتزع منه ما ترغب من اعتراف. وهكذا نجحت الكنيسة الكاثوليكية فى إذلاله وحمله على إنكار مذهبه. ونفذ فيرنزولا وعده بأن أطلق سراحه من مقر سجنه فى بيت سفير فلورنسا لدى روما، الذى كتب إلى الدوق العظيم معبراً عن استبشاعه لما تعرض له جاليليو من عسف واضطهاد. قال هذا السفير: «إن التعامل مع محكمة التفتيش شئ مروع، فقد عاد الرجل المسكين (جاليليو) أقرب إلى الموت منه إلى الحياة».

وتم الاستجواب التالى يوم ١٠ مايو فى العام نفسه فى جو يخلو من الرسمية. وطبقاً للقواعد المرعية، سمح فيرنزولا للمتهم أن يقدم ما يشاء من دفاع عن نفسه.

ودافع جاليليو عن نفسه، فقال إنه لم يوضح لرئيس القصر المقدس الأمر الذى سبق صدوره عام ١٦١٦ منذ ما يقرب من ستة عشر عاماً والخاص بحظره من الإيمان أو الدفاع عن دوران الشمس وثباتها؛ لأنه شعر بعدم وجود ضرورة لذلك. وأضاف أنه لا يذكر أن عبارة حظر تدريسه بأى شكل من الأشكال قد وردت فى نص هذا الأمر. ولكن عندما رأى شائثيه يُلطخون سمعته، حرص على إظهار نقاوة مقصده الذى لا يعرف الختل والخديعة. كما حرص أن يزوده الكاردينال بيلارمين بشهادة تشرح السبب الذى جعله يستدعيه. وأضاف جاليليو أن حيازته على هذه الشهادة التى سطرها بيلارمين بخط يده، جعلته لا يهتم بأن يتذكر حرفياً ما سبق للأب بيلارمين أن قاله له شفاهة. وهو لا يذكر ورود عبارة «والامتناع عن تعليم مذهبه بأية طريقة كانت»، فى حين أنه لم يدر بخلده وجود أى خلاف بين النص الصادر إليه شفاهة والنص الذى كتبه بيلارمين بخط يده. بل تصور أن الأمر الذى أصدره مجمع الفهارس لابد وأن يكون مطابقاً للأمر الشفهي، ولهذا لم يفكر فى تبليغ رئيس القصر المقدس وإحاطته علماً بالأمر القديم.

وأكد جاليليو أنه إذا كانت هناك بعض الشوائب فى كتابه فإنها ترجع إلى زلات القلم، وإلى طموح زائل ورضا عن النفس ورغبة فى إظهار تفوقه فى الجدل على غيره من سائر الكتاب. وهى عيوب هو على أتم استعداد لإصلاحها رغم أنها افتراء عليه من الشائثين والحاquدين. وتوسل جاليليو فى دفاعه إلى قضائه أن يراعوا كهولته فهو فى السبعين من العمر، وأن يراعوا إجهاده من رحلته الطويلة والشاقة التى قام بها فى طقس بالغ القسوة للتخفيف من عقابه على ما ارتكب من وزر، حيث إنه يثق فى رحمة وطيبة قلب قضائه. وأرفق جاليليو بتضرعائه الشهادة التى كان بيلارمين قد كتبها له بخط يده.

ويسجل المؤرخون الأمر الصادر فى عام ١٦١٦، وفيما يلى نصه :

«إنه فى يوم الجمعة الموافق السادس والعشرين من فبراير، تم استدعاء المدعو جاليليو للمثول أمام نيافة الكاردينال بيلارمينو فى قصره ومقر إقامته بحضور مايكلانجلو سيجيرى لودى المبجل الذى يشغل وظيفة القوميسار العام للمكتب المقدس، حيث تم تحذيره من خطأ رأى السالف الذكر. وأيضاً تم تحذيره لنبد هذا رأى. وبعدئذ على الفور وفى حضوري وحضور الشهود ونيافة الكاردينال، قام



القوميسار المذكور بأمر المدعو جاليليو باسم قداسة البابا ومجمع المكتب المقدس بأن ينبذ تمامًا الرأي القائل بأن الشمس مركز الكون وأنها ثابتة وأن الأرض هي التي تدور، وبألا يؤمن أو يعلم أو يدافع عن هذا الرأي بأية طريقه شفاهة أو كتابة، حتى لا يتخذ المكتب المقدس الإجراءات ضده. وقد وافق المدعو جاليليو على هذا الأمر ووعد بطاعته (تحرر في روما في المكان السالف الذكر في حضور بادينو نوريس Ba-dino Noiras وأجوستينو مونجارو Agostino Mongardo القاطنين في قصر الكاردينال المذكور والشهود).

ولمن يرغب في المقارنة نورد فيما يلي نص الشهادة الخطية التي أبرزها جاليليو أمام قضااته، والتي كان قد طلب من بيلارمين أن يعطيها له:

«نحن الكاردينال روبرتو بيلارمينو قد نما إلى سمعنا عن طريق الوشاية أن السنيور جاليليو جاليلي تراجع عن آرائه واستتبع الاستتابة الصحيحة. وبالنظر إلى أنه طلب إلينا إيضاح حقيقة ما حدث، فإنني أعلن بقدر علمنا أن السنيور جاليليو لم يتراجع في حضرتنا أو حضرة أي شخص في روما أو في أي مكان غير روما عن أي رأي أو مذهب يدين به. كما أنه لم تعرض عليه أية استتابة نصوح، فكل ما حدث أنه تم تبليغه بالإعلان الصادر عن قداسة البابا والذي نشره مجمع الفهارس المقدس، والذي ورد فيه أن المذهب المنسوب إلى كوبرنيكوس والمنادى بدوران الأرض حول الشمس وثبات الشمس في وسط الكون دون أن تتحرك من الشرق إلى الغرب، يجافي ما جاء في الكتاب المقدس، ومن ثم لا يمكنه الدفاع عنه أو الإيمان به. وبوصفنا شهودًا على ذلك قمنا بكتابة هذه الكلمات بخط يدنا يوم ٢٦ مايو ١٦١٦».

وبمقارنة الوثيقتين يلاحظ الدارسون أن الوثيقة الأولى تفتقر إلى الانتظام في الشكل، وأن تعليمات المكتب المقدس إلى بيلارمين ورواية بيلارمين لما حدث في ذلك تتفقان مع الشهادة التي أعطاها هذا الكاردينال لجاليليو ولا تتفقان مع الأمر الكنسي الخاص بجاليليو الصادر عام ١٦١٦.

### تفاوت كاذب

أطلقت محاكم التفتيش سراح جاليليو فاتخذ في مايو ١٦٢٢ من فيلاً مديسيس سكناً له، الأمر الذي أحيا فيه الأمل والتفاؤل، ظناً منه أن الأيام أخذت تبتسم له.

وتوقع أصدقاءه انتهاء قضيته بهدوء وسكينة، وكتب الكاردينال كابوني من فلورنسا معبراً عن يقينه من انتهاء القضية، بل إن جويدوكي وأجيونتي وسيني بعثوا بالتهنئة إلى جاليليو، كما أن رئيس الأساقفة بيكولوميني سأل صديقه جاليليو عن الوقت المناسب كي يرسل إليه مساند نقالة لحمله إلى مدينة سيينا للإقامة فيها.

وأيضاً فرحت ابنة جاليليو الراهبة ماريا سيلست، وتهللت عندما سعدت بسماع نبأ إطلاق سراح والدها. وبسبب شدة انفعالها أصابها صداع عنيف استغرق يوماً وليلة. ودفعها قلقها على والدها إلى نقل جميع أوراقه من منزله حتى لا تقع في أيدي محاكم التفتيش التي قد تغير على مسكنه متوقعة أوحش العواقب، ومتضرعة إلى الله بعيون لا يجف لها دمع أن يحفظ والدها من الأذى. وأيضاً كتبت إلى والدها تقول، إن خطاباتة إليها تتلج صدرها وتعبر له عن سعادتها بعودته إلى بيته. وأضافت أن صحته سوف تتحسن لو أنه مكث مع رئيس أساقفة سيينا. وأيضاً أخبرته ابنته في رسائلها إليه ببعض الأمور المنزلية، مثل ما فعلت بالنبيذ الذي كان يحتفظ به والبرتقال الذي زرعه والقمح الذي اشترته.

وأيضاً فرح نيكوليني بإطلاق سراح صديقه، ولكن ما عرفه عما ينتظر جاليليو شاب فرحته؛ ففي مقابله مع البابا في ٢١ مايو عرف أن القضية لم تنته كما كان مظهرها. قال عن كتاب «حوار» الذي كان السبب في إثارة المشكلة: «إنني أخشى كثيراً أن الكتاب سوف يتعرض للحظر، إلا إذا قام جاليليو بكتابة اعتذار عنه. فضلاً عن أنه سوف يستتاب؛ لأن جاليليو انتهك الأمر الصادر له من بيلارمين عام ١٦١٦». ولكن نيكوليني امتنع عن إخباره بذلك مرة واحدة حتى لا يصدمه، كما أنه نصح أصدقاءه في فلورنسا بالتزام الصمت تجنباً لإزعاجه.

ورغم ما أشيع من أن مشكلة جاليليو سوف تجد لها حلاً في غضون عشرة أيام، فقد مرت الأسابيع دون أي حل.

صحيح أن محكمة التفتيش انتهت من النظر في قضية جاليليو، ولكنها رفعت تقريرها بشأن القضية للسلطات العليا كي تتخذ القرار الذي تراه مناسباً، وتضمن هذا التقرير الذي لا يحمل توقيعاً تلخيصاً لكل ما جرى. وقد اعتمد البابا والمجمع على الملخص المشار إليه في توجيه المحاكمة. وفيما يلي مضمون مقدمة هذا التقرير :

### ضد جاليليو جاليلي :

فى فبراير ١٦١٥، تسلم الأب الدومينيكانى نيكولو لورينى من فلورنسا خطاباً كتبه جاليليو وأشاعه فى هذه المدينة متبعاً مذهب كوبرنيكوس، ومحتوياً على آراء مشكوك فيها وطائشة. ويقول الأب المذكور إن الخطاب يهدف إلى معارضة بعض الوعظاات التى ألقاها الأب كاسينى حول الإصحاح العاشر من سفر يشوع. وكان المرسل إليه المقصود هو الأب كاستيللى، راهب مونتكاسينو الذى كان آنذاك يدرس الرياضيات فى بيزا. ويحتوى هذا الخطاب على النقاط التالية :

- فى الكتاب المقدس آراء كثيرة زائفة إذا فهمت معانى الكلمات بطريقة حرفية (يقول الدارسون إن لورينى قام بتزوير هذه النقطة بعناية).

- فى المجادلات الطبيعية يجىء الكتاب المقدس فى المرتبة الأخيرة (يقول الدارسون إن أعداء جاليليو غيروا فى أقواله بحيث تتفق مع نواياهم السيئة).

- إن الكتاب المقدس قام بتحريف بعض ركائز مبادئه الأساسية، بأن نسب إلى الله نفسه ما هو أبعد ما يكون عن جوهره ويتعارض مع هذا الجوهر (يقول الدارسون إن لورينى زور كلمة «تحريف»).

- عند مناقشة المسائل الطبيعية يجب على نحو ما أن تسود الحاجة الفلسفية على المحاجات القدسية (أى اللاهوتية).

- إن الأمر الذى أصدره يشوع للشمس (بألا تتحرك) ينبغى فهمه على أنه ليس صادراً إلى الشمس، بل إلى أقصى منطقة فى الفضاء الخارجى التى تدور حول الأرض طبقاً لنظرية بطلميوس الفلكية Primum Mobile.

- استحالة الحصول على أصل هذا الخطاب رغم كل الجهود المبذولة (يقول الدارسون إن هذا غير صحيح، حيث إن جاليليو سلم هذا الخطاب إلى السلطات فى ١٥ فبراير ١٦١٥ ولكنه لم يضم إلى الملف الخاص بقضيته).

وأيضاً عند استجواب الأب كاسينى شهد بالتالى :

- إن جاليليو قال إن الله صدفه ونسب إليه الضحك والبكاء.. إلخ، وأن المعجزات التى صنعها القديسون ليست معجزات حقيقية. (يقول الباحثون بأنها تهمة زائفة، حيث إن كاسينى لم يقل بطريقة مباشرة إن جاليليو عبر عن هذه الآراء).

- إن جاليليو ذكر بعض أسماء الشهود الذين اتضح من استجوابهم أن مثل هذه الآراء ليست تأكيدية من جانبه وجانب تلاميذه، بل هي مجرد آراء مطروحة للنقاش فقط (يقول الباحثون إن هذه النقطة مجرد ادعاء، فقد أوضح أتافانتى أنه ليست لجاليليو أية علاقة ببعض الآراء التي طرحها أتافانتى كدارس لاهوت على بساط النقاش).

- إن جاليليو في كتابه عن البقع الشمسية في روما ذكر رأيين (دوران الأرض وثبات الشمس) (يقول الباحثون عن هذه النقطة إن المصدر الحقيقي لهذين الرأيين ليس جاليليو نفسه، بل الإدانة التي وجهها كاسيني لجاليليو. ولا شك أن الادعاء باستقاء هذين الرأيين من كتاب جاليليو المطبوع وليس من إدانة كاسيني لجاليليو ساعد على تعقيد قضيته).

- وقد تم توصيف هذين الرأيين بأنهما مضحكان من الناحية الفلسفية، فالرأي الأول يتسم رسمياً بالهرطقة لأنه يتعارض تعارضاً مباشراً مع الكتاب المقدس ومعتقدات القديسين، في حين أن الرأي الثاني ينطوي على أقل تقدير على إيمان خاطئ من الناحية اللاهوتية الحقة.

- وبناء عليه، قام قداسة البابا في ٢٥ فبراير ١٦١٦ بأمر الكاردينال بيلارمين باستدعاء جاليليو للمثول أمامه (يقول الباحثون إن هذا يعطى الانطباع بأن جاليليو حضر إلى روما نتيجة الاستدعاء الصادر عام ١٦١٥، الأمر الذي أنكره جاليليو بكل وضوح وجلاء)، أمراً جاليليو بنبذ - وليس مناقشة بأية طريقة كانت - الرأي الخاص بعدم حركة الشمس وثبات الأرض (يبرز الباحثون ورود خطأين في هذه النقطة، حيث إن الخطأ الأول يتعلق بدوران الأرض وليس ثباتها. فضلاً عن أن تعليمات بيلارمين لم تشمل عبارة (نبذ مناقشة هذا الرأي بأية طريقة كانت).

- إن الكاردينال بيلارمين لمح لجاليليو في السادس والعشرين من الشهر المذكور، وفي حضرة الأب قوميسار المكتب المقدس والمسجل والشهود - بهذا الأمر فوعد بطاعته. ومفاد هذا الأمر «أنه ينبغي عليه أن ينبذ تماماً الرأي المشار إليه، وأن يمتنع عن الاعتقاد به وتعليمه وتدرسه والدفاع عنه بأية طريقة كانت حتى لا يتخذ المكتب المقدس الإجراءات ضده (يقول الدارسون إن ورود المعلومة على هذا النحو يقصد بها التضليل وتشويه الوثيقة الأصلية، حيث إن الذي أورد الأمر الآنف الذكر هو قوميسار المكتب المقدس وليس الكاردينال بيلارمين نفسه. وأيضاً يعلق الباحثون بقولهم إن من

يقرأ هذه الوثيقة كما هي ، لن يتنبه إلى التناقض الموجود بين الأوامر التي أصدرها المجمع المقدس وتنفيذها في قصر بيلارمين كما ورد في الوثائق، كما سوف يخفى عليه دفاع جاليليو عن نفسه وهو دفاع له أهميته. وأيضاً يخلص القارئ إلى نتيجة مفادها أن المتهم اعترف بذنبه في ارتكاب بعض التجاوزات البسيطة من أجل الهروب من اتهامه بالهرطقة).

هذا ما ورد في مطلع التقرير المشار إليه تحت عنوان: «ضد جاليليو جاليلي». والغريب في هذا التقرير أنه يذكر تهمة الهرطقة التي سبق أن أضافها كاسيني إلى ملف جاليليو، وهي التهمة التي تجاهلها محققو محكمة التفتيش المنتمون إلى جيل ١٦١٦. وفي حين أن كاسيني لم يجرؤ أن يتهم جاليليو مباشرة بالهرطقة، نجد أن التقرير لا يجد أدنى غضاضة في إسنادها بكل صراحة إليه.

ويخطئ المرء إذا ظن أن أزمة جاليليو احتلت حيزاً كبيراً من تفكير الكنيسة واهتمامها. بالعكس كانت أزمته أمراً ثانوياً، حتى اهتمام البابا بها كان ثانوياً بالنظر إلى كثرة مشاغله وهمومه، فقد كان مهموماً بالمؤامرات التي تحاك ضده لتمكين الإسبان من التغلب عليه. فضلاً عن أنه عاش حياته مهدداً ويخشى أن يموت مسموماً. ويقال إن سبباً غير معلن من أسباب غضبه من جاليليو أن جاليليو أجرى مفاوضات مع البحرية الإسبانية تهدف إلى مساعدتها في استجلاء خطوط الطول. والحقيقة، أن مشغوليات البابا الكثيرة لم تسمح له بمعرفة قضية جاليليو بكل جوانبها وتفاصيلها. فاللذان كانا على علم دقيق بها هما المقيم Assessor وقوميسار محكمة التفتيش. حتى القوميسار العام للمكتب المقدس كان غارقاً في عدة مشاكل تنفيذية أخرى. والشئ الوحيد المؤكد أن البابا كان على علم بالتقرير الباكر الذي رفعته إليه اللجنة التمهيدية، بالإضافة إلى ملخص الاستجابات.

والجدير بالذكر، أن جويدو بنتفوجليو Guido Bentivoglio ألف كتاباً صغيراً بعنوان: «ذكريات» ورد فيه ما يلي : «الله يعلم مقدار أسفى أن أرى أرشميدس زمانه (أي جاليليو) يمر بمثل هذه المحنة المحزنة. كل ذلك بسبب خطئه لأنه سعى إلى نشر الأفكار الجديدة الخاصة بدوران الأرض بعكس ما تراه الكنيسة. فهذه الآراء أفضت إلى مثوله أمام المكتب المقدس في روما عندما كنت أشغل وظيفة رئيس المحققين الأعلى، وهناك حاولت أن أساعده بقدر استطاعتي».



وفى بداية الكتاب الصغير «حياة جاليليو» الذى ألفه الكاهن جيراردينى -Ghe-rardini ونشره مارجيوني يقول المؤلف، إنه عرف جاليليو عام ١٦٣٣ أثناء وجوده فى روما، وأنه عرض عليه المساعدة عن طريق أحد معارفه وهو من أهم أعضاء المكتب المقدس. وأضاف المؤلف أنه حاول إنقاذه من المهانة الكبيرة التى تعرض لها نتيجة المحاكمة. غير أن جاليليو أعرض عن قبول هذه المساعدة بسبب عدم اطمئنانه إلى نواياه، أو لثقته المطلقة فى براءته.

وضمنت العناصر المعادية لجاليليو من القضاة إلى جانب سكاجليا كلاً من جينيتى Ginetti وجسى Gessi وهيروسبى Verospi، وهم جميعاً من أهل روما التى احتدمت الشحناء السياسية بينها وبين فلورنسا، فضلاً عن أنهم من أشد المناصرين للبابا. هؤلاء الأعداء كانوا يتوقون إلى إحراق كتاب «حوار» المهرطق، وإلى الزج بمؤلفه جاليليو طيلة حياته فى سجن قلعة سانت أنجلو خلافاً لنية البابا. وقد دفعهم سوء الطوية إلى القول بأن رسوم الدلافين المطبوعة فى صدر كتاب جاليليو عبارة عن رموز ماسونية شريرة، وأن جاليليو المنجم تتبأ بوفاة البابا فى عام ١٦٣٠. ويعبر المبحث الذى وضعه الراهب الجيزويتى أنتشوفر بعنوان: Tractus Syllepticus عن العداء السافر لجاليليو. وأيضاً احتوت مذكرة بيوناميكى Buonamici على ما يشبه خواطر جاليليو آنذاك، فقد اعتبر القوميسار فيرنزولا شخصاً شريراً تحالف مع طائفة الرهبان الجيزويت لاتخاذ الإجراءات ضد جاليليو بسبب حقدهم على الأب ريكاردى. وفيما بعد استيقن جاليليو من أن الجيزويت هم الذين دسوا له وتآمروا عليه.

ومن الأمور التى حيرت الدارسين وجود صفحة واحدة من اليوميات التى سطرها ج. ف. بيوناميكى، الذى صادق جاليليو فى تلك الفترة من حياته وعرفه عن كثب وأدى له كثيراً من الخدمات، زار بيوناميكى فى الأول من مايو ١٦٣٢ جاليليو بمجرد وصوله إلى سفارة فلورنسا فى روما. وما إن ترك هذا الرجل مقر السفارة فى ٢ مايو من هذا العام، حتى سطر بكل عناية وصفاً دقيقاً لما جرى لجاليليو منذ أحداث عام ١٦١٦. ويخبرنا بيوناميكى عن الوساطة التى اضطلع بها الأب مافيو باريرينى لتلطيف موقف المجمع من جاليليو، وأيضاً بالملاحظات المتعلقة التى أبداه الكاردينال هوهنزولرن عام ١٦٢٤. ويجدر بالذكر، أن صفحة واحدة تبقت من يوميات بيوناميكى، فى حين اختفت الصفحات التالية لها. ويبدو أن سبب اختفاء هذه الصفحات من اليوميات يرجع إلى محاولة إزالة الإشارات إلى المؤامرات التى دبرت ضد جاليليو، تجنباً للانتقام

السلطة الكنسية من ضحيتها. ويتضح لنا من المذكرة التي كتبها بيوناميكي أن الجميع تتكروا لجاليليو الذي اعتبر القوميسار ألد أعدائه، وأنه تواطأ في الدسياسة التي دبرها الرهبان الجيزويت مع الرهبان الدومينيكان ضده. والذي لا شك فيه وجود بعض غلاة المتعصبين أمثال أنتشوفر وتريعهم على عرش المؤسسة الدينية. فضلاً عن أن بعض رجال الدين المنافقين من المشتغلين بالسياسة أو العلم أرادوا التزلف إلى السلطة الدينية على حساب جاليليو.

أما جاليليو نفسه فقد احتقر قضاته احتقاراً لا مزيد عليه، وكثيراً ما جازف بالتصريح بهذا الاحتقار. وكثيراً ما نسمع جاليليو يردد الكلام عن مؤامرة فائقة التدبير بدافع «الكراهية والرجس والغش والخديعة». وفي هذا الجو المشبوه قال الأب جرينبرجر Grienberger: «لو أن جاليليو عرف فقط كيف يكسب رضا طائفة الجيزويت عنه لحظى بالسؤدد والمجد في العالمين وتجنب كل المصائب التي حلت به، ولاستطاع أن يكتب ما يشاء في كل شيء... حتى عن دوران الأرض».

## الفصل السادس

### إصدار الحكم وتراجع المتهم عن آرائه

تمت إحالة الملخص الذى وضعته محكمة التفتيش بشأن قضية جاليليو والتقرير الذى وضعته لجنة الخبراء عنها إلى المجمع المقدس فى أوائل مايو ١٦٢٢ لاتخاذ ما يراه من قرارات. ولكن كان لابد لاتخاذها من انتظار عودة البابا من قلعة جوندولفو. وبعد تأجيل النظر فى هذا الموضوع مرتين، أوردت السجلات أن البابا اتخذ فى ١٦ يونيو ما يلى : «استجواب جاليليو لمعرفة نواياه حتى إذا اقتضى الأمر التهديد باستخدام التعذيب معه، ثم إرغامه على التراجع عن آرائه التى تشوبها شبهة الهرطقة القوية فى اجتماع مجمع المكتب المقدس بكامل هيئته. ثم أدانته وأمرت بالزج به فى السجن كما يشاء هذا المجمع، مع إصدار الأمر له بالكف عن معالجة دوران الأرض وثبات الشمس بأية طريقة، سواء بالكلمة المنطوقة أو المكتوبة حتى لا يتعرض لعقوبة الانتكاس (أى الحكم عليه بالموت). وكذلك يجب فرض الحظر على كتابه الذى يحمل عنوان: «حوار جاليليو». وبالإضافة إلى ذلك، لابد - حتى يعلم الجميع بهذه الأمور - من إرسال نسخ من الحكم عليه إلى كافة الرئاسات الرسولية وكل المحققين الذين يتصدون للهرطقة. كما يجب على وجه الخصوص إرسالها إلى محقق محكمة تفتيش فلورنسا، الذى يتعين عليه تلاوة الحكم فى اجتماع حاشد ويحضر معظم المشتغلين بعلم الرياضيات».

وقد كتب لهذا القرار البابوى الغلبة على أسلوب قوميسارية المجمع المقدس فى معالجة المشكلة، وهو أسلوب يرمى إلى انتزاع اعتراف من جاليليو بخطئه ثم استتابته

وتحديد إقامته في منزله، بشرط أن يتجنب الكتابة في المسائل الكونية ويستغرق في تلاوة صلوات الاستغفار والندم. وكان من الواضح أن خطة قوميسارية المجمع في التعامل مع جاليليو لم تتضمن نشر وإذاعة الحكم الصادر ضده، أو التراجع عن آرائه علناً أمام الملأ. فالقوميسارية لم تفكر إلا في تعليق كتاب جاليليو لحين انتهاء مؤلفه من تصويبه.. ومعنى ذلك أن القوميسارية أرادت معالجة الأمر في ضوء التعليمات التي كان الكاردينال بيلارمين قد أصدرها في فبراير ١٦١٦ على نحو ما ذكرنا.

ولكن الأمر صار مختلفاً في عام ١٦٢٣، حيث أصبح من المطلوب استتابة جاليليو علناً واستصدار أمر رسمي ضده. ومما ساعد على ذلك أن كثيراً من القضاة أرادوا أن ينزلوا به أشد العقاب. وكما أسلفنا، لعب الرهبان الجيزويت دوراً بارزاً في التشهير بجاليليو وشن حملة شعواء عليه في عام ١٦٢٢، ورأوا في تدميره فرصة سانحة لتدمير منافسيهم من الرهبان الدومينيكان الذين أعطوه تصريحاً بنشر كتابه. ومن ثم كان من الطبيعي أن يسعى الجيزويت إلى محاكمة جاليليو باعتباره مهرطقاً، وأن يجعلوا من الأب ريكاردى كبش فداء ويهددوا بتقديم الأب كيامبولي إلى المحاكمة.

وسارت محاكمة جاليليو عام ١٦٢٣ على هذا النحو : عندما عرضت القضية على البابا لاتخاذ ما يراه مناسباً قرر البابا والمجمع المقدس ، كما رأينا، ضرورة إخضاعه لاستجواب متشدد، وضرورة تراجعه عن آرائه أمام الملأ ووضعه في سجن رسمي. وكان لزاماً على المتهم أن يعترف بخطأ نواياه النابع من غروره وخيالاته. وتقرر عدم قبول دفاعه واعتبار أن نواياه الإجرامية تتعارض مع الكنيسة، وساعد على ذلك طبيعة الملخص المرفوع إلى قداسة البابا، فهذا الملخص لم يغفل دفاع جاليليو عن نفسه وحسب، بل أدخل من الحذف والإضافة ما جعل من السهل إثبات أن جاليليو مذبذب. أما التهديد بتعذيب جاليليو فقد كان مجرد إجراء شكلي فقط، حيث إن القانون الروماني كان لا يسمح بتعذيب رجل في مثل سن جاليليو أو ظروفه الصحية. ولكن هذا لم يمنع من تخويفه بإطلاعه على وسائل التعذيب.

وبعد مرور يومين سعى نيكوليني - مثملاً فعل في الماضي - إلى مقابلة البابا، راجياً منه سرعة إطلاق سراح جاليليو وفقاً لتلميحات القوميسار. ولكن البابا فاجأه بإخباره أن القضية قد تم النظر فيها وأنه سوف يتم استدعاء المتهم في غضون أيام قليلة لسمع بنفسه الحكم الذي أصدره المكتب المقدس عليه. وعندما توصل نيكوليني

للبابا أن يشمل المتهم برحمته، أجاب البابا بأنه لا بد من حظر رأيه لأنه خاطئ ويتعارض مع الكتاب المقدس، وأضاف أن جاليليو سوف يودع في السجن لفترة معينة لانتهاكه الأمر الصادر إليه عام ١٦١٦. ثم وعد البابا بمقابلة نيكوليني مرة أخرى بعد صدور الحكم عليه للتشاور في أمر تخفيف هذا الحكم. وعندما واصل نيكوليني توسلاته قال البابا إنه لا بد من إيداع جاليليو في دير مثل سانتا كروتشي. وأضاف أنه لا يعرف ما سيسفر عنه حكم المجمع المقدس على وجه التحديد، رغم إجماع أعضائه على ضرورة استتابة المتهم. ويبدو أن مسألة الإجماع لم تكن مؤكدة؛ لأن ثلاثة كرادلة من القضاة العشرة رفضوا في نهاية الأمر التوقيع على الحكم. ولم يكن بيد الراهب نيكوليني ما يفعله غير الذهاب إلى جاليليو وتبليغه بالأخبار بكل ما يمكن من رقة وعذوبة للتهوين عليه، دون أن يشير إلى مسألة الزج به في السجن؛ لأن الأمل كان لا يزال يراوده في إلغاء حكم السجن.

وفي مساء يوم الاثنين الموافق ٢٠ يونيو ١٦٣٣، تسلم جاليليو استدعاء المكتب المقدس له للحضور في اليوم التالي. وفي هذه الجلسة الأخيرة تم تحت تهديد التعذيب سؤال المتهم عن نواياه بخصوص معتقداته. وفي صبيحة الواحد والعشرين من التاريخ المشار إليه مثل جاليليو أمام القوميسارية. وبعد أن أقسم القسم المعتاد سئل عما إذا كان لديه ما يقوله، فأجاب بالنفي.

وبسؤاله عن اعتقاده الآن أو فيما سبق بأن الشمس مركز الكون وأن الأرض تدور وتكمل دورانها مرة كل يوم وأنها مركز الكون، أجاب جاليليو قائلاً:

«منذ زمن طويل، أي قبل أن يتخذ المجمع المقدس قراره بحظر هذا الكتاب وقبل صدور الأمر الذي لمحو لي به، كنت أعتبر رأي كل من بطليموس وكوبرنيكوس خاضعاً للنقاش وأن كلاً من الرأيين قد يكون صحيحاً، ولكن بعد أن اتخذ المجمع المقدس القرار المشار إليه وبعد استيثاقى من حكمة السلطات، طرحت جانباً جميع الشكوك التي تساورنى وآمنت - كما لا أزال أؤمن كحقيقة لا تقبل النزاع - بصحة الرأي البطلمي القائل بثبات الأرض ودوران الشمس».

ثم سئل جاليليو عن رأيه المؤيد لنظرية كوبرنيكوس كما جاء في كتابه «حوار المنشور في وقت لاحق، فأجاب بقوله:



«فيما يتعلق بكتابة الحوار المنشور لم يكن دافعي إلى كتابته إيماني بصحة مذهب كوبرنيكوس، ولكنه كان ببساطة السعى إلى إظهار الفائدة التي تعود من تقديم البراهين المستمدة من الطبيعة والفلك، والتي يمكن أن تساق لتأييد كل من الجانبين. وكنت أهدف إلى توضيح أن المحاجات التي يستند إليها أي من الجانبين لا تحظى بأى برهان نهائى يثبت صحة هذا الرأي أو ذاك. وحتى نسلك سبيل اليقين يجب علينا الالتجاء إلى قرارات التعاليم الأسمى (المسيحية) كما قد يتجلى لنا من مطالعة عدد كبير من الفقرات الواردة فى كتاب (الحوار) موضوع الاستجواب. ولهذا، فإنى أؤكد وأقسم بضميرى أننى الآن لا أعتقد بصحة رأى المدان، كما إنى لم أعتقد فيه منذ أن اتخذت السلطات قرارها».

وواصل القضية استجوابهم لجاليليو، قائلين إن المحاجات الواردة فى «حوار» الدالة على صحة نظرية كوبرنيكوس تجعل المرء يفترض أنه يؤيدها أو أيدها عند تأليف الكتاب، الأمر الذى يقتضى منه أن يقترح علاجاً لهذا الأمر، فرد جاليليو بقوله:

«لست أعتقد ولم أعتقد رأى الذى نادى به كوبرنيكوس منذ التلميح لى بالأمر الصادر بوجوب نبذ هذا الرأى. وأما بخصوص الباقي، فها أنا ذا ماثل بين أيديكم تفعلون بى ما تشاءون».

عندئذ أمرته المحكمة أن يقول الحق حتى لا يتعرض للتعذيب، فقال: «جئت هنا كى أكون خاضعاً لكم. وأنا لم أعتقد هذا الرأى منذ صدور القرار كما سبق أن ذكرت».

وبهذه العبارة أنهى جاليليو أقواله واختتمت هيئة المحكمة جلساتها بتدوين العبارة التالية: «وحيث إنه لم يكن هناك أى شىء آخر يمكن عمله لتنفيذ المرسوم (الصادر فى ١٦ يونيو ١٦٣٣) طلبت منه المحكمة التوقيع على أقواله ثم أعيد إلى مكانه». والجدير بالذكر، أن استجوابه الأخير كان مجرد استيفاء شكلى استغرق أقل من ساعة. ولو أن القوميسار الذى ترأس المحاكمة أراد تضيق الخناق عليه لفعل مثلاً فعل من قبل كل من باسكواليجو Pasqualigo وأنتشوفر اللذين استندا إلى مقتطفات من كتاب «الحوار» لمحاصرة جاليليو، ولفعل مثلاً فعلت اللجنة التمهيدية التى فحصت كتابه لنتهمه فى نهاية فحصه بشبهة الهرطقة. ولو أنهم فعلوا ذلك لوجد جاليليو نفسه فى موقف أصعب وأكثر عسراً.

وقبع جاليليو فى السجن ينتظر مصيره المحتوم والحكم الذى سوف تصدره المحكمة عليه. وبطبيعة الحال لا يخفى على أحد أن ما حدث لجاليليو كان نذير شؤم على التقدم العلمى والصحة النهضوية ليس فى فلورنسا وحدها، بل فى جميع أرجاء إيطاليا.

وفى يوم الأربعاء الموافق ٢٢ يونيو ١٦٢٣، اقتيد جاليليو إلى قاعة واسعة فى دير الدومينيكان المعروف باسم سانتا ماريا فى قلب روما، وهو دير مشيد من حطام معبد قديم لعبادة منيرفا إلهة الحكمة عند الأقدمين. وجيء بالمتهم وهو يلبس لباساً ناصع البياض، للدلالة على استنابته، وركع على قدميه بين قضاته المجتمعين ليستمع إلى تلاوة الحكم الصادر ضده. وفيما يلى نص هذا الحكم :

«بنعمة الله نحن كاردينالات الكنيسة الرومانية المقدسة والمفتش العام فى محاكم التفتيش المنتدب من قبل الكرسي الرسولى المقدس خصيصاً للتصدى لانحطاط الهرطقة فى كل أرجاء العالم المسيحى :

«بما أنك يا جاليليو ابن المرحوم هينسينزو جاليلي والمواطن الفلورنسى البالغ من العمر سبعين عاماً سبق رفع أمرك إلى المكتب المقدس بسبب اعتقادك بصحة المذهب الزائف الذى يروج له البعض والقائل بأن الشمس تحتل مركز الكون وإنها لا تتحرك، وإن الأرض هى التى تدور وتكمل دورتها مرة كل يوم،

«وبما أنك قمت بتلقين تلاميذك هذا المذهب وأنت تراسلت مع نفر من علماء الرياضيات فى ألمانيا بخصوصه، وبما أنك طبعت بعض الرسائل تحت عنوان: «حول البقع الشمسية» حيث ذهبت إلى صحة هذا المذهب، وبما أنك رددت على اعتراضات الكتاب المقدس على هذا الرأى، وهى اعتراضات كانت تساق ضد هذا الكتاب من وقت لآخر، وبما أنك فسرت الكتاب المقدس وفق هواك، وبما أنك سطرت وثيقة فى شكل خطاب من المفترض أنك كتبتة من أجل تلميذ سابق لك وفيه قدمت مختلف الآراء المؤيدة لنظرية كوبرنيكوس والتى تتعارض مع العقل وسلطة الكتاب المقدس،

«فإن المحكمة المقدسة التى انتوت التصدى للفوضى والشر الناجمين (عن مذهبك) والذى يمثل تفاقمهما تهديداً للإيمان المقدس، وبأمر من قداسة البابا وأسيادنا المبجلين من الكرادلة المسئولين عن محكمة التفتيش العليا - فإن خبراء اللاهوت وصفوا الرأى الخاص بثبات الشمس ودوران الأرض على النحو التالى :

«الرأى القائل بأن السماء تحتل مركز الكون ولا تتحرك من مكانها رأى مضحك وزائف من الناحية الفلسفية وينطوى على الهرطقة من الناحية الشكلية، حيث إنه يتناقض تناقضاً صارخاً مع الكتاب المقدس.

«وأيضاً الرأى القائل بأن الأرض ليست مركز الكون وإنها غير ثابتة رأى مضحك وزائف من الناحية الفلسفية، كما إنه يعتبر خطأ إيمانياً من الناحية اللاهوتية على أقل تقدير.

«ولكن حيث كانت هناك آنذاك رغبة فى استعمال الرأفة معك يوم ٢٥ فبراير ١٦١٦ يتولى نيافة الكاردينال بيلارمين إصدار الأمر إليك بنبذ هذا المذهب الزائف نبذاً كاملاً.

«وفى حالة رفضك تقوم قوميسارية المكتب المقدس بإجبارك على التخلّى عن المذهب المزعوم ومنعك من تدريسه للآخرين. وكذلك منعك من الدفاع عنه، بل ومن مجرد مناقشته. وفى حالة عدم امتثالك لهذا الأمر يتعين الزج بك فى السجن. وقد قام الأب قوميسار المكتب المقدس آنذاك بوضع هذا الأمر موضع التنفيذ، وذلك فى القصر فى اليوم التالى وبحضور نيافة الكاردينال بيلارمين الذى حذرك برقة أمام المسجل والشهود، وطلب منك التخلّى تماماً عن الرأى الزائف المشار إليه والامتناع فى المستقبل عن الأخذ به أو الدفاع عنه أو تدريسه بأية طريقة كانت، سواء عن طريق النطق أو الكتابة. ثم سمح لك بالانصراف بعد أن قطعت على نفسك عهداً بالطاعة.

«وحتى يتم تماماً استئصال هذا المذهب البالغ الضرر ولا يكون سبباً فى إلحاق الأذى بالعقيدة الكاثوليكية، أصدر المجمع المقدس مرسوماً بوضع الكتب الداعية إلى هذا المذهب فى فهرس الكتابات المحظورة وإعلان زيفه، نظراً لأنه يتعارض تعارضاً تاماً مع الكتاب المقدس.

«وبالنظر إلى ظهور كتاب مؤخراً فى فلورنسا فى العام الماضى يتضح من عنوانه «حوار جاليليو جاليلى بشأن أعظم نظامين عالميين» أنك مؤلفه. وبالنظر أيضاً إلى أنه تم تبليغ المكتب المقدس فيما بعد بأن الكتاب المنشور ساعد على انتشار الرأى الزائف الخاص بدوران الأرض وثبات الشمس يوماً بعد يوم، فقد أخضعنا الكتاب المذكور للفحص الدقيق. واتضح من انتهاكك الجلى للأمر المشار إليه والمفروض

عليك أنك في هذا الكتاب دافعت عن الرأي المشار إليه والسابق إدانته، وقيل لك هذا صراحة ودون أدنى موارد.

«ورغم أنك في الكتاب المذكور حاولت عن طريق مختلف الحيل أن تترك الانطباع بأن هذا الموضوع لم يحسم وبالتالي فهناك احتمال أن يكون صحيحًا، مما يعد على كل حال خطأ فادحًا للغاية؛ لأنه لا يوجد رأي يصح اعتباره محتملاً طالما أنه من الواضح تعارضه مع الكتاب المقدس.

«ولهذا أمرنا بمثولك أمام المكتب المقدس الذي قام باستجوابك بعد حلف اليمين فاعترفت بأنك مؤلف الكتاب وبأنك قمت بنشره. واعترفت بأنك بدأت بتأليف هذا الكتاب منذ ما يقرب من عشرة أعوام أو اثني عشر عامًا، حتى بعد إصدار الأمر إليك كما أسلفنا. كما أنك طلبت تصريحًا بطبع الكتاب دون أن تلمح إلى الذين منحوك هذا التصريح أن هناك أمرًا صادرًا يحول دون اعتناقك المذهب المشار إليه، ودون الدفاع عنه أو تدريسه على أي نحو كان.

«وأيضًا اعترفت بأن مواضع كثيرة في طريقة تأليفك للكتاب توحى لقارئه بأن المحاجات التي سيقى لدعم الجانب الزائف منه من شأنها - بسبب قوة حجتها - أن يقتنع بصحتها أكثر من اقتناعه بصحة دحضها. وتلمست لنفسك العذر لوقوعك في هذا الخطأ زاعمًا أنه خطأ غير مقصود، عندما قلت إنك ألقت الحوار لإثبات رضاك عن نفسك كشأن أي مؤلف يشعر بالرضا عن نفسه حين يستخدم محاجات بالغة الدقة والنعومة، كي تثبت لنفسك أنك أكثر ذكاء من السواد الأعظم من البشر من حيث مقدرتك على أن تسوق مجادلات بارعة ومعقولة كي تعزز بها الآراء الزائفة.

«لقد أعطيناك فترة مناسبة كي تعد دفاعك عن نفسك فأبرزت شهادة مكتوبة بخط يد جناب سيدنا الكاردينال بيلارمين تؤكد أن هدفك من الحصول عليها هو الدفاع عن نفسك ضد وشايات أعدائك الذين اتهموك بالتراجع عن آرائك، وبأن المكتب المقدس أنزل العقاب بك، وهذه الشهادة تتضمن تصريحًا بأنه لم يحدث أنك تراجع عن أقوالك وأنت لم تعاقب بالمرّة. فالشهادة تبين فقط تصريح نيافته وتبليغك بهذا التصريح الذي أصدره قداسة البابا، والذي تولى المجمع المقدس نشره في فهرس الكتابات المحظورة. ويتضمن هذا التصريح القول بأن المذهب المنادي بدوران الأرض وثبات الشمس يتعارض مع الكتاب المقدس، ومن ثم لا يمكن الدفاع عنه أو الأخذ به.

وحيث إن هذه الشهادة تخلو من أى ذكر للعبارتين الواردتين فى الأمر وهما اللتان تأمرانك (بعدم تدريس مذهب كوبرنيكوس) و(بأية طريقة كانت)، فقد طالبتنا بأن نصدق أن ذاكرتك لا تتذكر هاتين العبارتين بسبب مضى نحو أربعة عشر أو ستة عشر عاماً على ورودهما فى الأمر الصادر إليك، مما جعلك تغفل ذكره عندما تقدمت بطلب للسماح لك بالترخيص بطبع كتابك. قلت كل هذا ليس على سبيل الاعتذار عن الخطأ الذى ارتكبته ولكنك أرجعته إلى طموحك، وليس إلى شرفى شخصك. غير أن هذه الشهادة التى أبرزتها للدفاع عن نفسك زادت من تفاقم انحرافك؛ لأنه على الرغم من أن الشهادة توضح أن رأى المذكور يتعارض مع الكتاب المقدس، فإنك تجرأت وناقشت هذا الرأى ودافعت عنه وجادلت بأنه محتمل. فضلاً عن أن التصريح بطبع كتابك والذى انتزعته بالمكر والخديعة لن يفيدك فى أى شىء، حيث إنك أخفيت الأمر الصادر إليك.

«وبما أنه بدا لنا أنك لم تظهر الحقيقة كاملة فيما يتعلق ببيتك، فقد فكرنا أنه من الضرورى إخضاعك للاستجواب الدقيق (بدون الشك على أية حال فى الأمور التى اعترفت بها والمذكورة أعلاه فيما يتعلق بتواياك)، فإنك أجبت فى الاستجواب ككاثوليكي صالح. وبعد أن رأينا المزايا الواردة فى قضيتك وقمنا بدراستها دراسة ناضجة إلى جانب دراستنا الدقيقة لاعتراقاتك وأعدارك الأنفة الذكر، وكذلك كل ما ينبغى مشاهدته وأخذه فى الاعتبار - فإننا وصلنا إلى الحكم النهائى الوارد ضدك والمذكور أسفله:

«ولهذا، فإنه بعد استحضار اسم سيدنا يسوع المسيح المقدس وأمه المجيدة مريم العذراء على الدوام من أجل استصدار الحكم النهائى ومشاركتها منصة القضاء، وبعد مشورة ونصيحة أساتذة اللاهوت المقدس المبجلين وأساتذة القانون والمقيمين (أى المثلثين)، فإننا نخلص إلى التالى فيما يتعلق بالقضية الماثلة أمامنا بين كارلو سنسرى Carlo Sinceri الفقيه القانونى والمسئول المالى فى المكتب المقدس فى جانب، وبينك يا جاليليو جاليلى الماثل هنا كمتهم تم استجوابه ومحاكمته والإدلاء باعتراقاته فى جانب آخر :

«نحن نقول وننطق ونصدر الحكم ونصرح بأنك أيها المدعو جاليليو جعلت نفسك.. نتيجة الأمور التى اتضحت من المحاكمة ومن اعترافك الأنف الذكر - خاضعاً لحكم



المكتب المقدس عليك بالهرطقة، والحكم بالذات بأنك آمنت بصحة المذهب الزائف الذى يتعارض مع الكتاب المقدس والقائل بأن الشمس مركز الكون وإنها لا تتحرك من الشرق إلى الغرب، وإن الأرض تدور وليست مركز الكون، فضلاً عن أنك ترى أنه يمكن الاعتقاد برأى والدفاع عنه كشيء محتمل، حتى إذا تقرر وأعلن أنه هذا الرأى يخالف الكتاب المقدس. وبذلك تكون مستحقاً للوم والعقاب الذى ينص عليه ويفرضه القانون الكنسى والدساتير الأخرى، سواء كانت عامة أو خاصة، والتى تسن لردع مثل هؤلاء المنحرفين. ونحن على استعداد لتبرئة ساحتك إذا قمت بقلب مخلص وإيمان صادق أمامنا بنبذ ولعن ومقت والتراجع عن الأخطاء والهرطقات السابقة الذكر، إلى جانب كل خطأ آخر أو هرطقة أخرى تتعارض مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية الرسولية على النحو الذى نحدده لك.

«وحتى لا يمر ما ارتكبت من خطأ جسيم ومن تجاوزات دون عقاب بالمرّة، وحتى تتوخى الحذر فى المستقبل وتصبح عبرة للآخرين حتى يمتنعوا عن ارتكاب انحرافات مماثلة - فإننا نأمر بإصدار مرسوم عام لحظر كتابك (حوار جاليليو جاليلي).

«ونحن ندينك ونزج بك رسمياً فى سجن هذا المكتب المقدس حسبما يتراءى لنا، وكنوع من التوبة النصوح نأمرك خلال السنوات الثلاث القادمة بأن تتلو مرة كل أسبوع مزامير التوبة السبعة. ونحن نحتفظ لأنفسنا بحرية تلطيف وتخفيف وإلغاء - كلياً أو جزئياً - العقوبات والتوبة الأنفة الذكر .. ولهذا، فنحن نقول وننطق ونصدر الحكم ونعلن ونأمر ونحتفظ بالحق فى استخدام ذلك أو أية طريقة أخرى أو أى شكل آخر نراهما أفضل».

وبعد النطق بالحكم، تسلم جاليليو صيغة التراجع عن آرائه. ويقول بيوناميكي الذى رأى جاليليو مباشرة عقب هذه الأحداث: «وحين رأى جاليليو نفسه مضطراً إلى عمل ما كان يظن أنه أمر مستحيل - وخاصة لأن حديثه مع الأب فيرزيولا خلا تماماً من أية إشارة إلى التراجع عن آرائه - توسل إلى الكرادلة فى حالة إصرارهم على أن تكون إجراءاتهم على هذا النحو: أن يحذفوا نقطتين على الأقل يحق لهم بعد حذفهما أن يجعلوه يقول كل ما يحلو له. وتتطلب النقطة الأولى منهم حذف وصفهم له بأنه كاثوليكي غير صالح، حيث إنه كاثوليكي وينوى أن يظل كاثوليكيًا على الرغم مما يشيعه أعداؤه عنه. أما النقطة الثانية، فإنه لا يمكن وصفه بأنه غشاش ومخادع، وخاصة فيما

يتعلق بنشر كتابه لأنه خضع بكل صدق وإخلاص إلى لوم السلطة الكنسية، ولم يتم بطبع الكتاب إلا بعد الحصول على تصريح قانوني بذلك».

وقد عثر الباحثون في القرن الثامن عشر على نسخة أخرى من مذكرة بيوناميكي نقحها بنفسه، وجاء فيها: «وأضاف جاليليو أنه إذا شاء الكرادلة ذلك، فسوف يقيم بنفسه محرقة للكتاب ويضرم بيديه فيها النار ويصرح بذلك أمام الله ويتحمل كافة النفقات فيما لو ساقوا إليه الدليل على فساد كتابه».

ثم جثا جاليليو على ركبتيه وقرأ بصوت عال الصيغة المعدلة. قال : «أنا جاليليو ابن المرحوم هينسنزو جاليلي الفلورنسي البالغ من العمر سبعين عاماً.. المتهم شخصياً أمام هذه المحكمة والجاني أمامكم أيها الكرادلة الموقرون والمبجلون في عموم محاكم التفتيش الذين يعهد إليهم باستئصال الهرطقة المنحطة في جميع أنحاء العالم المسيحي. أقسم على الكتاب المقدس الذي أراه بعيني وألمسه بيدي أنني آمنت دوماً ولا زلت أومن وبمعونة الله سوف أومن في المستقبل بكل ما تدين به وتشره وتعلمه الكنيسة الكاثوليكية الرسولية المقدسة. ولكن بعد أن أبلغني المكتب المقدس بطريقة قانونية بصدور أمر مفاده أنه يتعين عليّ أن أنبذ تماماً الرأي الزائف القائل بأن الشمس مركز الكون وثابتة في مكانها وأن الأرض هي التي تدور، وأنني يجب على ألا أومن أو أدافع أو أدرس بأية طريقة كانت شفاهة أو كتابة المذهب الزائف المذكور، وبعد إبلاغي بأن هذا المذهب المذكور يتعارض مع الكتاب المقدس قمت بكتابة وطبع كتاب ناقشت فيه هذا المذهب الجديد الذي سبق إدانته، وقدمت فيه محاجات شديدة القوة لصالح هذا المذهب دون أن أقدم حلولاً للمشاكل الناجمة عنه. ومن ثم حكم على المكتب المقدس بشبهة الهرطقة القوية، بمعنى أنني اعتقدت أن الشمس مركز الكون وثابتة وأن الأرض تدور حولها.

«ولهذا، فإنني بدافع الرغبة في اقتلاع أية شكوك مشروعة حولي تساور بقوة عقولكم وعقول كافة المسيحيين المؤمنين. وإنني بقلب مخلص وإيمان صادق أنبذ وألعن وأمقت الأخطاء والهرطقات الآنف الذكر.. وكذلك كل خطأ آخر وهرطقة أو ملة أخرى تتعارض مع الكنيسة المقدسة. وأقسم إنني في المستقبل لن أقول أو أؤكد شفاهة أو كتابة أي شيء من شأنه أن يكون سبباً في إثارة أية شكوك مماثلة حول شخصي. كما أقسم بأن أبلغ المكتب المقدس أو محقق محكمة التفتيش أو أي مسئول

دينى فى أى مكان أوجد فيه عن أى مهرطق أو أى شخص يشتبه فى هرطقته أكون قد عرفته. وبالإضافة إلى ذلك، أقسم وأقطع على نفسى عهداً بأن أؤدى أداء كاملاً كل أنواع التويات التى يفرضها المكتب المقدس أو سيفرضها علىّ فى المستقبل. وفى حالة انتهاكى هذه العهود والحنث بالأقسام (لا قدر الله)، فسوف أستحق كل الأوجاع والعقوبات المفروضة علىّ والتى تنص عليها القوانين المقدسة والدساتير الأخرى العامة منها والخاصة التى تتصدى لأمثالى من المنحرفين. ولهذا، ساعدنى يا إلهى وساعدبنى أيتها الأناجيل المقدسة التى ألمسها الآن بيديّ.

وبعد تلاوة هذه الاستتابة، قام جاليليو بالتوقيع على صيغة فيما يلى نصها : «أنا المدعو جاليليو جاليلي نبذت وأقسمت وعاهدت وألزمت نفسى بما تقدم، وأشهد بالحق على أننى وقعت بخط يدي الآن على وثيقة العدول عن أقوالى. وأننى تلوت ما جاء فى هذه الوثيقة كلمة بكلمة فى روما فى دير منيرفا بتاريخ ٢٢ يونيو ١٦٣٣».

«الموقع بخط يده أدناه على نبذ ما تقدم جاليليو جاليلي».

وبعد مرور يومين أطلق سراح جاليليو ليقوم سفير فلورنسا بالتحفظ عليه فى فيلا مديسيس. وقد علق صديقة الأب نيكوليني على حالته قائلاً: «بدا جاليليو مهموماً للغاية بسبب هذا العقاب الذى لم يكن يتوقعه. أما بخصوص كتابه فإنه أظهر اهتماماً ضئيلاً بحظره، حيث إنه كان يتوقع هذا الحظر منذ وقت طويل».

ويجدر بنا أن نلاحظ أن جاليليو رفض الإقرار بأنه كاثوليكي غير صالح وأنكر أنه استخدم الغش والخداع للحصول على تصريح نشر حوارهِ، رغم أن هذا عرضه للحرق على الخشبة. ورغم الحزن العميم الذى ملأ قلبه ويأسه العظيم من نشر أبحاثه فى المستقبل، فقد استمر يعمل حتى أكمل رائعته البحثية «العلمان». ورغم نجاح المحققين فى حمله على إنكار ما يؤمن به، فإنه احتفظ بومضاته الساخرة دون أن يتمكنوا من القضاء على إيمانه بالمذهب الكاثوليكي، فتحن نراه يداوم على الصلاة ويطلب إلى أصدقائه الصلاة من أجله. كما أنه فكر فى الحج مرة أخرى إلى مزار سيده لورتيو مثلما فعل بعد عام ١٦١٦. غير أن حالته الصحية حالت دون ذلك.

وأرسل جاليليو إلى بيريز Peirese رسالة تدل على اقتناعه الراسخ ببراءته وظلم السلطة الدينية له:

«لست آمل في التخفيف من كربي فأنا لم أرتكب أى وزر. قد آمل في العفو والحصول عليه لو أنتى أخطأت. إن ولى الأمر يمكنه أن يغفر الأخطاء. ولكن بالنسبة لشخص برىء صدر ضده حكم ظالم، فإنه من المفيد (لولى الأمر) استعمال الشدة للتظاهر بالشرعية الصارمة. ولكن حقيقة نيتى الطاهرة سوف تتضح لو أنه تم الكشف عن الأكاذيب والافتراءات والمناورات وأساليب الخداع التى استخدمت فى روما منذ ثمانية عشر عاماً بهدف خداع السلطات. إنك طالعت كتاباتى وتفهم منها بكل تأكيد الدافع الحقيقى المتخفى وراء قناع الدين عند إشعال الحرب ضدى.. تلك الحرب التى تكبلنى وتعترض طريقى باستمرار فى كافة الاتجاهات بحيث لا تأتىنى أية مساعدة من الخارج، كما أعجز عن الدفاع عن نفسى. فقد صدر أمر عاجل إلى جميع مفتشى محاكم التفتيش بعدم السماح بإعادة طبع أى من كتبى التى سبقت طباعتها منذ عدة أعوام، أو بالحصول على إذن بطبع أى كتاب جديد أولفه.... وإنى أقول إنه أمر قاس أن يفرض الحظر على كل أعمالى حتى اضطر إلى الإذعان فى صمت، تحت وابل من الهجمات والتعريض والسخرية والإهانات من كل جانب».

وما من شك أن هذه الرسالة تلقى ظلالاً كثيفة على شرعية السلطة الدينية الرومانية التى انتهكت كافة الأعراف والمبادئ المسيحية. والجدير بالذكر، أن جاليليو سرعان ما استجمع قواه وعاد إلى سابق عهده. وفى خلال شهر واحد من مغادرته روما وجدت نسخة من كتابه «حوار» عن طريق وسطاء موثوق بهم سبيلها إلى خارج البلاد؛ لتصل إلى يد الناشر ماتياس تيرنجر فى استراسبورج. وفى عام ١٦٣٧، تُرجمت هذه النسخة إلى اللغة اللاتينية حتى يتمكن جمهور عريض من القراء فى جميع أرجاء أوروبا من الاطلاع عليها، الأمر الذى رفع من روح جاليليو المعنوية. وتنافس كثير من الكاثوليك الأتقياء والقساوسة والرهبان والكرادلة على شراء نسخ كتابه «حوار» من السوق السوداء بعيداً عن أعين الرقباء ومحاكم التفتيش، الأمر الذى رفع سعره أضعافاً مضاعفة.

ورغم سرية تداول الكتاب فقد تربص الرهبان الجيزويت بصاحبه بمجرد أن صرح أسقف من خارج البلاد بنشر كتابه الجديد «مباحث فى العلمين الجديدين» فى أولتر ثم فى فيينا بأمر مباشر من إمبراطورها، وأخذ الجيزويت أعداؤه القدامى يلاحقونه من جديد. وفى عام ١٦٢٩، كتب جاليليو إلى بالياتى يقول: «لم أتمكن من الحصول على نسخة واحدة من حوارى الجديد المنشور منذ عامين فى أمستردام. ولكنى أعرف

أن جميع بلاد الشمال تتداوله. ولا بد أن يكون السبب في ذلك أن الآباء الجيزويت قاموا بشرائه بمجرد وصوله إلى براغ، لدرجة أن الإمبراطور نفسه لم يتمكن من الحصول لنفسه على نسخة».

والجدير بالذكر، أن كتاب جاليليو الجديد عن علم الديناميكا يعزز نفس مذهب كوبرنيكوس الذي فرضت الكنيسة الحظر عليه.

وفي أخريات أيامه درج جاليليو على الاعتراف أمام كاهن الاعتراف وأخذ التناول بانتظام، الأمر الذي يدل على أن راعيه وأب اعترافه أعطاه الحل بأن يفعل هذا، متغاضياً بذلك عن موقف الكرسي البابوي والسلطة الكنسية منه. ونتناول فيما يلي كيف أمضى جاليليو البقية الباقية من حياته.



الفصل السابع  
جاليليو فى أيامه الأخيرة  
(١٦٣٤-١٦٤٢)

وأخيراً قررت محاكم التفتيش الزج بالشيخ الفانى جاليليو فى سجن أركيتري Arcetri. وزاد من يؤسه أن ابنته الحبيبة فيرجينيا الراهبة المولودة فى ١٣ أغسطس ١٦٠٠ توفيت فى ٢ أبريل ١٦٣٤، وهى فى الرابعة والثلاثين من عمرها. وحتى ندرك أثر الصدمة عليه يكفى أن نسترجع ما كتبه إلى بعض أصدقائه بشأن وفاتها. فقد كتب إلى صديقه إيليا ديوداتي فى باريس يوم ٢٥ يوليو ١٦٣٤ يقول:

«عشمتى أنك تعذرنى ويعذرنى أصدقائى وأصحاب الفضل علىّ فى باريس عندما تسمعون عن المصائب الماضية والحاضرة التى لحقت بى وعن المصائب التى قد تحل بى فى المستقبل، حتى تعذرنى على تأخرى طويلاً فى الرد على خطابك ويعذرونى على صمتى الكامل. وطبقاً للحكم الذى أصدره المكتب المقدس ضدى، قاموا بسجنى حسب مشيئة قداسته فى قصر الدوق العظيم وحدائقه الواقعة بالقرب من ترينيتا دى مونتى. حدث هذا فى شهر يونيو فى العام الماضى وأفهمونى أنتى إذا طلبت العفو الكامل بعد ذلك الشهر والشهر الذى يليه، فسوف يمنحونى إياه. وفى الوقت نفسه طلبت إعفائى من قضاء كل الصيف وربما جزء من الخريف هناك والسماح لى بسبب سوء الطقس بالذهاب إلى سينا، حيث أسكنونى فى مقر رئيس الأساقفة. وهناك مكثت خمسة شهور، ثم استبدلوا بالعقوبة النفى إلى هذه الفيلا الصغيرة التى تبعد ميلاً واحداً عن فلورنسا، مع صدور أمر مشدد بعدم الذهاب إلى هذه المدينة وعدم استقبال زوارى من الأصدقاء الكثيرين وعدم دعوتهم إلى زيارتى. هنا عشت عيشة

هادئة للغاية، وتكررت زياراتي للدير المجاور حيث عاشت ابنتاي كراهبتين. وقد أحببتهما للغاية، وخاصة ابنتي الكبرى التي تميزت بمواهب عقلية غير عادية وطيبة قلب نادرة، والتي أحببتني من سويداء قلبها. وفي فترة غيابي عنها التي اعتبرتها هذه الابنة خطراً داهماً على حياتي أصابها حزن عميق دمر صحتها. وأخيراً أصابتها دوسنتاريا عنيفة توفيت عقبها بعد مرور ستة أيام، وهي فقط في الرابعة والثلاثين من عمرها، تاركة إياي في غم وكرب شديدين».

تأثر جاليليو تأثراً بالغاً بوفاة ابنته الراهبة ماريا سيلست، لدرجة أنه شعر بأنه سيلحق بها في الآخرة على وجه السرعة، وهو ما يبينه خطابه إلى صديقه جيردى بوتشيوني في ٢٧ من أبريل من نفس عام الوفاة «إننى أسمعها دوماً تتاديني كي ألحق بها». وفي هذا الخطاب الذى يقطر حزناً وأسى نرى هذا الشيخ الفانى يعبر عن وحشته المروعة ودنو الموت منه:

«سوف أكتب إليك عن صحتي التي اعتلت للغاية. وإنى أعانى من الفتاق أكثر من أى وقت مضى، وأشعر بالنبض يتقطع فى عروقي، كما تتابنى كثيراً ضربات قلبي العنيفة. وأيضاً أشعر بكآبة أشد ما تكون عمقاً. فقدت شهيتي وكرهت نفسي. وخلاصة القول، إننى أشعر على الدوام بأن ابنتي الحبيبة تتاديني كي ألحق بها.

«ولست أرى فى مثل هذه الظروف أن يبدأ (ابنى) هنسنزيو رحلته الآن؛ لأنه قد تحدث أمور تستدعى وجوده. وإنى إلى جانب ما ذكرت أعانى من الأرق المستمر، الأمر الذى يفزعنى كثيراً. وأنا أخبرك بهذا حتى تخبر هنسنزيو به إذا وجدت أنه من المناسب أن تفعل ذلك. وأنا لا أرغب فى إرباك خططه، ولكن يبدو لى أنه ينبغى عليه أن يعرف. ولأنك يمكنك التحدث معه بحزم أكبر من حزمى معه، فإنك سوف تقول له ما فيه الكفاية كي يسلك الطريق الأصلى».

وذكر جاليليو فى خطابه أنه فى تلك الفترة من حياته عانى من الفتاق، الأمر الذى جعله يطلب من سفير توسكانيا إذنًا بنقله إلى فلورنسا حتى يتسنى له تلقى العلاج المطلوب. وزاد من محنته آنذاك أن محكمة التفتيش أبلغته برفض المكتب المقدس عودته إلى فلورنسا. وهددوه إذا كرر طلبه أن يقتادوه إلى سجن المكتب المقدس فى روما. وزاد من سوء حالته أن صديقاً عزيزاً عليه فى روما تبرع بالدفاع عنه أمام الأب الجيزويتى كرسستوفورو جريمبرجر أستاذ الرياضيات فى الكلية الرومانية، فرد

جرى مبرجر أن جاليليو جلب على نفسه النكبات والمصائب عندما جعل طائفة الرهبان الجيزويت تنفر منه وتتأصبه العداء.

ويشكو جاليليو في خطابه إلى صديقه من تحامل أستاذين في جامعة بيزا عليه، هما: «بيرجارد» و «كيارامونتي». كما أن راهبًا جيزويتيًا هيج الخواطر ضده بنشر كتاب جاء فيه إن القول بدوران الأرض هي بدعة وضلال وأفضع الهرطقات جميعًا، وإنها كخطيئة تفوق في بشاعتها إنكار خلود الروح وتجسد السيد المسيح، فضلًا عن أن أنتونيو روكو الذي اعترف بجهله في الرياضيات والفلك سعى إلى النيل منه بالدفاع عن فلسفة أرسطو.

ورغم المحن التي عصفت به، استطاع جاليليو بعد انقضاء شهور قلائل على وفاة ابنته استجماع قواه والبدء في تأليف واحد من أشهر مباحثه على الإطلاق، وهو «حوار بين علمين جديدين» وهو رهن السجن في أركيتري. ولم يعدم جاليليو من يدافع عنه ويطلب توفير قدر أكبر من الحرية له. فقد سعى إلى الشفاعة له لدى بابا روما سفير فرنسا الكونت دي نوا إيل وصديقه نيكولو دي بيريس دون جدوى. ونحن نراه يرسل إلى صديقه نيكولو دي بيريس في باريس خطابًا مؤرخًا يوم ٢١ فبراير ١٦٣٥ يؤكد ظلم الكنيسة له باسم الدين، وأن أعداءه من رجال الكنيسة أعطوا أوامرهم المشددة إلى محاكم التفتيش لمنعه من إعادة طبع أي من مؤلفاته القديمة ومنعه من نشر أي كتاب جديد.

ويدور الحوار بين العلمين الجديدين حول التماسك أو جاذبية الالتصاق ومقاومة الكسور وحول السرعة الثابتة والمتزايدة وحركة القذائف. وانتهى من هذا المبحث في صيف عام ١٦٣٦. ثم جاءت مشكلة نشره بسبب الحظر الذي فرضته الكنيسة على مؤلفاته. وهو حظر تعسفي شمل استقصاءه عن الأجسام الطافية، وهو موضوع لا يمت بصلة إلى نظرية كوبرنيكوس الفلكية. وحاول جاليليو الالتفاف حول الحظر، فسعى إلى نشر مبحثه في العلمين الجديدين في ألمانيا. وأرسل جاليليو مخطوطه إلى صديق له في فيينا يدعى جيوفاني بيبيروني ليكتشف أنه لا سبيل إلى نشر أي من كتاباته إلا بموافقة الرهبان الجيزويت، وعلى رأسهم عدو جاليليو اللدود القديم الأب شاينر. ولهذا صرف جاليليو النظر عن فيينا كمكان للنشر. ولكن الكاردينال ديتسيريتشين توسط في الأمر حتى استطاع تمكين بيبيروني من طباعة المبحث في مدينة أولمتز بموافقة أحد

الآباء الدومينيكان ودون علم شأنه شاينر. ولم تعجب بيبيروني طبعة أولمتز فعادت المخطوطة إلى فيينا حيث اعترض شاينر على نشرها، مما اضطر بيبيروني إلى الدفع بها إلى براغ حيث سمح أحد الكرادلة بطبعها في مطبعة جامعة براغ. ومع ذلك، ظهرت عراقيل جديدة حالت دون طبعتها هناك. وأخيراً قيص لها أن تظهر في أمستردام بهولندا عام ١٦٢٨. وذرًا للرماد في العيون، ادعى جاليليو أن الكتاب المطبوع مسروق من نسخة للمخطوط كان الكونت دي نوا إيل يحتفظ بها. وعلى أية حال، كان جاليليو على حق عندما قال لصديقه فيينا في ٧ مايو ١٦١٠ إنه أول من استحدث علم الميكانيكا. ويظهر كتاب «حوار بين علمين جديدين» خطأ نظرية أرسطو في تحديد سرعة الأجسام الساقطة. فقد أخطأ أرسطو عندما قال إننا إذا قذفنا جسمين من ارتفاع واحد أحدهما يزن ثمانية أرطال والآخر يزن أربعة أرطال، فإن الجسم ذا الأرطال الثمانية يسقط بضعف سرعة الجسم ذي الأرطال الأربعة. والجدير بالذكر، أن المحاورين الواردة أسماؤهم في كتاب الميكانيكا «حوار حول علمين جديدين» هم نفس المحاورين الذين ظهروا فيما بعد عام ١٦٢٢ في مبحث جاليليو العظيم الشأن «حوار عن أهم نظامين عالميين». هذان النظامان العالميان هما النظام البطلمي أو البطلميوسي والنظام الكوبرنيكي. ونفس الشخصيات المتحاوره التي ظهرت في المبحثين هي: صديقه ساجريو وسالفياتي والفر الساذج سيمبلسيو كما يدل على ذلك اسمه. ويسخر جاليليو في حوارهم على لسان سالفياتي من هذه الفكرة، حيث إنه أثبت بالتجربة أن الأثقال المختلفة الوزن تسقط على الأرض بنفس معدلات الزيادة في السرعة، وأن الأمر يختلف باختلاف الوسط الذي يسقط الجسم من خلاله، ومن ثم باختلاف مقاومة هذا الوسط للجسم الساقط. فالهواء - على سبيل المثال - أقل في مقاومته للجسم الساقط في الماء. ولن يكون هناك فرق بين سرعة سقوط الجسمين المختلفين في الوزن إذا كان الوسط فراغاً. وفي إرسائه لعلم الميكانيكا توصل جاليليو إلى أن الجسم الذي يتحرك في خط أفقي مستقيم يستمر في الحركة بنفس السرعة إلى أبد الآبدين (بفرض عدم وجود أية مقاومة له بطبيعة الحال)، وبذلك يكون جاليليو قد مهد الطريق أمام عالم الرياضيات المعروف نيوتن باكتشاف قانون القصور الذاتي. وقد استمر جاليليو في انشغاله بالديناميكا أو حركة الأجسام حتى بعد أن نشر محاوراته عن العلمين الجديدين، وظل منشغلاً بها حتى وفاته حسبما يقول مريده فيفياني الذي ألف كتاباً عن حياة معلمه عام ١٦٥٤. يقول فيفياني:

« فى الأيام الأخيرة من حياته وبينما اشتدت عليه آلام الجسد انشغل عقله دوماً بالمسائل الميكانيكية والرياضية. وفكر فى تأليف حوارين آخرين يضيفهما إلى الحوارات الأربعة التى أتمها. فى أول هذين الحوارين عرض كثيراً من التجارب والخواطر الجديدة ذات الصلة ببعض الفقرات المتنوعة الواردة فى الحوارات الأربعة الأولى، إلى جانب إيجاد حل لكثير من المشاكل التى تكتنف علم الفيزياء الأرسطاطاليسى، كما أنه اعتزم فى الحوار الثانى مناقشة علم جديد تماماً وأعنى به قوة مركز الصدم Percussion التى قال إنه اكتشفها.»

وبذلك يكون لجاليليو الفضل فى تمهيد الطريق أمام نيوتن لاكتشاف قوانين الحركة وفى توفير المادة التى اعتمد عليها فى اكتشافاته الخاصة بالقصور الذاتى، وأيضاً يرجع إليه الفضل فى اكتشاف نيوتن لقانونه الشهير «كل فعل له رد فعل مساوٍ له فى القوة ومضاد له فى الاتجاه.» وهو ما يعرف بقانون نيوتن الثالث للحركة، وهو قانون سبق لجاليليو أن ألمح إليه عام ١٥٩٤ فى مبحثه حول علم الميكانيكا وفى أفكاره عن مركز الصدم Percussion التى أملاها على تلميذه فيفيانى وتوريسلى. وقد نوّه بهذه الأفكار عالم الفلك المعروف روبرت جرانت فى كتابه «تاريخ علم الفلك الفيزيائى». يقول جرانت: «على الرغم من روعة اكتشافات جاليليو الفلكية، فإنها تستمد أهميتها من مساندتها لنظرية كوبرنيكوس... ولكن عبقرية هذا الفيلسوف العظيم تتجلى بوضوح فى أبحاثه المهمة ذات الصلة بعلم الميكانيكا. فتحن ندرك أن علم الحركة لم يكن له وجود قبله؛ لأن المعرفة الوحيدة التى كانت موجودة عن هذا الموضوع قبل جاليليو كانت تتكون من شذرات مهمة قليلة ومبعثرة فى كتابات أرسطو.»

ويستطرد جرانت فى تقريره لجاليليو قائلاً: «إن عبقريته تكمن فى استخلاص قوانين الحركة من مشاهد الحياة اليومية التى تحدث أمام الناس العاديين فى أخذونها على علاتها ولا يعيرونها أدنى اهتمام. هذه القوانين التى اكتشفها جاليليو هى التى اعتمد عليها نيوتن فى تحقيق إنجازاته وفى اكتشافه لقانون الجاذبية الكونى». وبذلك يكون جاليليو - على حد قول جرانت - هو الذى وضع الأساس الذى تم تشييد علم الفيزياء الرياضى عليه.»

وبذكرنا هذا بقول ألبرت أينشتاين، إن جاليليو هو أب علم الفيزياء الحديث. وبعد أن انتهى جاليليو فى صيف ١٦٣٦ من تأليف كتابه «حوار حول علمين جديدين»،



استأنف أبحاثه الخاصة بتحديد خطوط العرض عن طريق «توايح المشتري». وفي أغسطس عام ١٦٢٦، تراسى إلى سماعه أن التجار الهولنديين رصدوا جائزة قدرها ثلاثون ألف سكوذة لمن يدلهم على طريقة مؤكدة لتحديد خطوط العرض في البحر، فتقدم بخطة في هذا الشأن إلى المسؤولين الهولنديين عبر وساطة ديوراتى في باريس. ولم يشأ الظهور بنفسه في المفاوضات الجارية حتى لا يلفت نظر محاكم التفتيش إليه. وفي ١١ نوفمبر عام ١٦٢٦، قامت الحكومة الهولندية بتعيين لجنة مكونة من أربعة أعضاء للاتصال بجاليليو والاستفسار منه عن بعض النقاط الفنية. وأفضى جاليليو إليهم بأدق التفاصيل الخاصة بطريقة وضعه للجداول التي تحدد خطوط العرض. ومن جانبها قررت الحكومة الهولندية إرسال أحد أعضاء اللجنة وهو هورتسبوس، إلى إيطاليا في يوليو ١٦٢٨ لمناقشة جاليليو في خطته وجهاً لوجه. ولكننا نعرف من الخطاب الذي أرسله جاليليو إلى ديوراتى والمؤرخ في ١٤ أغسطس ١٦٢٨ أن الاتصالات بين الطرفين توقفت بسبب اطلاع المكتب المقدس على المفاوضات الجارية، الأمر الذي عرضه لمزيد من الأذى والضرر.

ولكن الجانب الهولندى أراد التعبير عن عظيم امتنانه لجاليليو فأرسل بعض التجار الهولنديين ممن يتاجرون في فلورنسا ليقدموا إليه سلسلة من الذهب، مرفقاً بها خطاب بعثت به الحكومة الهولندية. وما إن وصل هؤلاء التجار إلى منزله في ديللا كوستا حتى وجدوه طريح الفراش ومصاباً بالعمى الكامل. وطلب من ضيوفه تلاوة خطاب التقدير الذي أرسلته الحكومة الهولندية على مسامعه؛ ولكنه اعتذر عن عدم قبول السلسلة الذهبية لأن عماء ومرضه سوف يحولان دون إتمام المفاوضات. وعندما رأى شدة اهتمام المسؤولين الهولنديين باستجلاء موضوع خطوط العرض، قام بتسليم تلميذه السابق الأب رينيرى أستاذ الرياضيات بجامعة بيزا جميع الأوراق والملاحظات والحسابات والجداول المتصلة بهذا الموضوع، كي يقوم بمراجعتها واستكمالها وتسليمها إلى الحكومة الهولندية. ولكن وفاة بعض الأطراف الهولندية المشاركة في المفاوضات أدت إلى توقفها تماماً وضياع الأوراق التي أوصى جاليليو تلميذه بتسليمها إلى الجانب الهولندى، وظلت هذه الأوراق ضائعة نحو قرنين من الزمان حتى تمكن الباحثون من العثور عليها في وقت لاحق. وقد بدأ جاليليو يعاني من مشاكل الإبصار في منتصف عام ١٦٢٦. وفي عام ١٦٢٧، كانت عينه اليمنى قد فقدت الإبصار، كما بدأت عينه اليسرى تعتم. ولم يسكت أصدقاء جاليليو ومريدوه عن الظلم والاضطهاد

الواقع عليه، بل حاولوا جاهدين رفعه عنه؛ غير أن صديقه القديم البابا إيربان الثانى وقف له بالمرصاد واستمر فى حقه عليه. وفى نهاية سبتمبر ١٦٣٦، سمحت له محاكم التفتيش بزيارة الدوق العظيم فى قصره خارج فلورنسا؛ ولكنها اشترطت عليه القيام بهذه الزيارة عند انبلاج الفجر والعودة منها آخر الليل تحمله عربة مغلقة حتى لا يتعرف عليه أحد فى الطريق. ولم يرحم البابا اعتلال صحته وشيخوخته وعماه. وعندما تقدم صديقه الأب كاستيلي بالتماس إلى المكتب المقدس فى ٩ يناير ١٦٣٨ للعفو عن أستاذه المحطم، أصدر هذا المكتب تعليماته المشددة إلى المحقق المحلى فى فلورنسا برؤية جاليليو وكتابة تقرير دقيق عن حالته الصحية، ومعرفة ما إذا كان لا يزال سادراً فى غيه ينشر ضلالاته أم لا. وبالفعل، اضطلع الأب فاناتو بهذه المهمة ورفع تقريراً بهذا الشأن إلى الكاردينال فرانسيسكو باريرينى فى ٣ فبراير ١٦٣٨. قال باريرينى فى تقريره: «حتى أقوم بتنفيذ تعليمات قداسته على نحو دقيق توجهت بنفسى على غير انتظار لرؤية جاليليو ورفقتى طبيب من الغريباء. ولم أفكر فى الاهتمام بتتبع الدراسات والأشغال التى اضطلع بها حتى أتمكن، فى حالة عودته إلى فلورنسا، من أن أعرف ما إذا كانت حالته تسمح بإذاعة المذهب الخاص بازدواجية حركة الأرض الذى كان السبب فى إدانته. ووجدته فاقد البصر تماماً. غير أنه كان يأمل فى الشفاء من المياه البيضاء التى لم يمض على تكونها أكثر من ستة أشهر. ولكن فى مثل عمره (٧٤ سنة) رأى الطبيب أن حالة عينيه غير قابلة للشفاء. وإلى جانب هذا كان يعانى من فتاق شديد وقاس ومن تعب من الحياة دائم وأرق مستمر، وأكد لنا (والقاطنون معه فى نفس المنزل شهود على ذلك) أن هذا الأرق لا يسمح له بالنوم العميق لمدة ساعة واحدة خلال الأربع والعشرين ساعة. كما بدا من فرط هزاله أنه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. وتقع الفيلا التى يقيم فيها على مسافة بعيدة من المدينة ويصعب الوصول إليها، لدرجة يصبح معها وجود العلاج الطبى أمراً نادراً، فضلاً عما يتكلفه هذا العلاج من نفقات باهظة. وتسببت إصابته بالعمى فى عدم قدرته على مواصلة أبحاثه. ولكنهم كانوا فى بعض الأحيان يقرءون عليه. ولم يعد أحد يرغب فى التحدث طويلاً معه، حيث إن اعتلال صحته جعله لا يكف عن الشكوى من عله وأوجاعه لضيقه الذين زاروه من وقت إلى آخر. ونظراً لهذا، فإنى أعتقد أن قداسة البابا إذا تكرم وسمح له بوسع رحمته بالبقاء فى فلورنسا ورأى قداسته أنه يستحق هذا، فلن تكون أمامه فرصة لعقد أية اجتماعات. وحتى إذا توافرت لديه فرصة، فقد بلغ درجة من الذل والهوان تكون معها أية كلمة تحذير قوية كافية لردعه.»

وبناء على هذا التقرير الذى يشهد بأن جاليليو أصبح خطاماً، أظهر له البابا قدراً ضئيلاً من الرحمة. فسمح له بدخول فلورنسا والإقامة فى منزل ابنه الواقع فى طريق ديللا كوستا بالقرب من سان جيورجيو. وحذرت محكمة التفتيش من الخروج من محل إقامته إلى المدينة حتى لا يزج به فى غياهب السجن ويطرد من حظيرة الكنيسة، كما حذروه من التحدث مع أى شخص عن مذهبه المدان وألا يستقبل ضيوفاً تحوم حولهم الشكوك. وأيضاً طلب المحقق فاناتو من فئسنزيو ابن جاليليو أن يضع تصرفات أبيه تحت المراقبة وألا يسمح للزوار بالبقاء طويلاً مع والده. ومن فرط الذل والانكسار شعر الابن بالامتنان لمحكمة التفتيش الظالمة؛ لأنها سمحت بمعالجة والده فى فلورنسا. غير أن موقف الدوق العظيم منه كان أكثر رفقاً به، فقد أعطاه معاشاً سنوياً قدره ألف سكودة. لم تسمح محكمة التفتيش لجاليليو بالخروج من منزله فى فلورنسا، لدرجة أنه فى يوم عيد القيامة احتاج إلى إذن من كنيسة روما كي تسمح له بالذهاب إلى كنيسة سان جيورجيو الصغيرة رغم أنها على بعد أمتار من الشارع الذى يسكنه؛ ولكنه فيما بعد تمتع بقدر أكبر من حرية الحركة بين مسكن ابنه فى طريق ديللا كوستا وبين الفيلا التى يمتلكها فى أركيتري. ويجول صيف ١٦٢٨، ظن الجميع أن ساعته الأخيرة قد اقتربت. وشعوراً بدنو الموت منه أوصى جاليليو فى ٢١ أغسطس ١٦٢٨ بدفنه فى مقبرة عائلته فى كنيسة سانتا كروتشى بفلورنسا، كما أوصى بتوزيع ما لديه من مال على أفراد أسرته. وفى أوائل سبتمبر من العام المذكور، قام تلميذه السابق الدوق العظيم بعيادته لمدة ساعتين ساعد أثناءهما فى إعداد الدواء الذى يتناوله. وكرر الدوق العظيم زيارته له، وأحياناً أوفد لزيارته أحد أفراد عائلة المديسيس. وطلب جاليليو أن يسمحوا له بزيارة تلميذه وصديقه الأثير إلى قلبه الأب كاستيللى، فأمر الدوق العظيم يوم ٩ سبتمبر ١٦٢٨ سفيره فى روما بالعمل على تلبية طلبه. وتعهد الدوق العظيم بدفع نفقات الرحلة التى يقوم بها كاستيللى إلى روما. ورد السفير بقوله، إن كاستيللى طلب من تلقاء نفسه من البابا السماح له بزيارة جاليليو، فاشتراط عليه البابا أن تتم هذه الزيارة فى حضور أحد أعضاء محكمة التفتيش. وعندما وصل الحبيب كاستيللى إلى فلورنسا فى أوائل أكتوبر ١٦٢٨، أصدرت إليه محكمة التفتيش أمراً بعدم التحدث مع جاليليو عن مذهبه المحظور. وضاق كاستيللى ذرعاً بالقيود التى فرضتها محاكم التفتيش على زيارته فاشتكى لدى الكرسي البابوى، طالباً منه السماح له بقدر أكبر من الحرية. فسمح البابا لكاستيللى بها، بعد أن قطع على نفسه عهداً بإطاعة جميع أوامر الكنيسة ونواهيها.

وفى يناير ١٦٢٩، تحسنت أحوال جاليليو الصحية فتمكن من العودة إلى منزله فى أركيتري الذى لم يغادره حتى وفاته عام ١٦٤٢.

وفى أيامه الأخيرة سمحت السلطات الدينية لهذا الشيخ الفانى أن يقابل أصدقاءه وأحباءه الذين جاءوا للتعبير عن عميق تقديرهم واعترافهم بفضله عليهم، وزاره من باريس معجبون وأصدقاء أوفياء أمثال جاسندى وديوراتى، كما زاره من إنجلترا الشاعر الإنجليزى الكبير جون ميلتون الذى كان آنذاك فى التاسعة والعشرين من عمره ليقول له إن الحوارات التى ألفها عام ١٦٢٢ تجد قبولاً واستحساناً عند الطبقات المتعلمة فى بلاد الإنجليز . ويتضمن الكتاب الذى نشره ميلتون بعنوان: «أريوباچيتيكا»، والذى يعتبر أروع دفاع عن حرية الرأى والتعبير - الإشارة التالية إلى زيارة ميلتون لجاليليو. والكتاب عبارة عن خطاب وجهه ميلتون إلى مجلس اللوردات والعموم فى بلاده. كتب ميلتون فى هذا الخطاب:

«أستطيع أن أروى ما رأيت وسمعت فى البلاد الأخرى حيث تستبد محاكم التفتيش بالناس وتتكلم بهم. وهناك جالست بين رجال العلم فيها (حيث حظيت بهذا الشرف). وكنت أعتبر نفسى محظوظاً لأنى ولدت فى إنجلترا، أى فى مكان من المفترض أن تشيع فيه الحرية الفلسفية، فى حين أنهم لم يفعلوا شيئاً غير النحيب على الحال الذليل الذى وصل إليه علماءهم، وأن هذه الحالة الحزينة هى التى أدت إلى انطفاء لمعة الذكاء الإيطالى، وأن لا شئ أصبح يكتب هناك طوال هذه الأعوام الكثيرة غير المديح الزائف. هناك وجدت جاليليو الشهير وقمت بزيارته، وقد تقدم به العمر وأصبح سجيناً بناء على أوامر محكمة التفتيش؛ لأن أفكاره الفلكية اختلفت عن أفكار الرقباء من الرهبان والفرنسيسكان والدومينيكان.

ومن المحتمل أن يكون جون ميلتون قد التقى بجاليليو عدة مرات.

وعندما سافر الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز خارج إنجلترا فى الفترة من ١٦٢٤ حتى ١٦٢٧ أمضى بعض الوقت فى فلورنسا نحو عام ١٦٢٥ / ١٦٢٦، حيث التقى بجاليليو وأعجب به أيما إعجاب. والغريب أن ديكارت حين ذهب إلى إيطاليا لم يبد اهتماماً بمقابلة جاليليو.

والجدير بالذكر، أن عالم رياضيات نابهاً وتلميذاً له فى الثامنة عشرة من عمره جاء فى صيف عام ١٦٢٩ ليعيش مع أستاذه تحت سقف واحد، وظل يلازمه حتى وفاته

عام ١٦٤٢. وقبل وفاته بعامين نشر فورتيونو ليسيتي Fortunio Liceti الأستاذ بجامعة بادوا، مبحثاً يعارض فيه جاليليو ويزعم أن القمر مضيء بسبب طبيعته الفسفورية، وليس بسبب انعكاس أشعة الشمس على سطحه حسب نظرية جاليليو. وبعد تردد كثير قرر جاليليو في ١٣ مارس ١٦٤٠ أن يملأ رده على ليسيتي.

ويبدو مما كتبه جاليليو في أيامه الأخيرة أنه نبذ إيمانه بنظرية كوبرنيكوس، وأكد أن الكنيسة كانت على حق حين أنكرتها. ولعل هذا يرجع إلى المعاناة النفسية والبدنية التي كابدها. ولعلها نوع من السخرية التي لجأ إليها كثيراً عند الرد على أعدائه وشأنه والاستهزاء بهم، وهي التظاهر بمساييرة خصومه فيما يعتقدون من آراء خاطئة.

إن عبقرية جاليليو لم تخنه أو تفارقه مدى الحياة. فقبل وفاته بوقت وجيز فكر في النصف الثاني من عام ١٦٤١ من الاستفادة من البندول في تنظيم عمل الساعة. وشرح فكرته لابنه فينسينزو وأملى عليه رسماً توضيحياً لعمل البندول. ولكن وطأة المرض اشتدت عليه قبل أن يتمكن بمساعدة ابنه من وضع فكرته موضع التنفيذ. وبعد وفاة والده واصل الابن أبحاث أبيه الخاصة بالبندول، حتى تمكن من صنعه قبل وفاته هو الآخر في ١٦ مايو ١٦٤٩.

وفي الشهور القلائل السابقة على وفاته سعى أصدقاؤه ومريدوه الأوفياء إلى التخفيف عنه بقدر ما يستطيعون. وأظهر الدوق العظيم اهتماماً بالغاً بصحته وأمره بما لذ وطاب من الطعام والشراب. ومما خفف من بؤسه وشقائه، مجيء صديقه وتلميذه الصدوق كاستيللي في نهاية سبتمبر ١٦٤١ إلى سكنه للإقامة معه بعض الوقت والتناقش معه في الأمور العلمية ذات الاهتمام المشترك. وأيضاً في منتصف أكتوبر ١٦٤٢ حضر التلميذ الفيلسوف تورشيللي ليلنازله ليل نهار، حتى حانت ساعته وشيعه إلى مثواه الأخير. وكذلك أحاطه تلميذه المخلص فيفياني بكل الرعاية والحب.

وبحلول ٢ نوفمبر ١٦٤٢ داهمت الحمى جاليليو وآلام الأطراف الممضة، الأمر الذي أقعده عن الحركة تماماً. ورغم معاناته من الأرق والآلام الروماتيزمية وضربات القلب العنيفة والمضطربة ظل عقله صافياً حتى نهاية العمر، لدرجة أنه في فترات زوال الألم عنه ناقش المسائل العلمية لساعات طوال مع كل من تورشيللي وفيفياني اللذين بادرا بتدوين آرائه في هذه المناقشات، التي دارت حول الميكانيكا وفلسفة أرسطو وخواص الأشكال الدويرية وقوة الصدم Percussion. ولكن آراءه في أيامه



الأخيرة التي سبقت موته بشأن هذه الموضوعات اندثرت، باستثناء آرائه فى قوة الصدم والتي أضيفت على شكل حوار سادس إلى مبحثه «حوارات حول علمين جديدين». وفى ٨ يناير عام ١٦٤٢، وهو نفس العام الذى شاهد فيه مولد نيوتن، صعدت روح جاليليو إلى بارئها وهو فى عمر يناهز الثامنة والسبعين. وبسبب غيرة وحسد شائثيه منه نراهم يسعون سعيًا حثيثًا إلى منع مواراة جثمانه الثرى فى أرض الكنيسة حتى لا يدنسها. ولكن أصدقاءه الأمناء والأوفياء نجحوا فى الانتصار على قوى التعصب والجهالة، وجمعوا ثلاثة آلاف كرونة لإقامة شاهد على قبر هذا الرجل العظيم فى كنيسة سانت كروتشى، الأمر الذى أثار حفيظة البابا إيريان الثامن الذى ظل على سابق كراهيته وعداوته المشبوبة له، فاستدعى نيكوليني السفير التوسكانى ليبلغ حاكم البلاد بأنه لا يليق إحاطة رفاته بكل مظاهر التبجيل والتقدير، لأن الكنيسة تتشكك فى صحة عقيدته. ونصح السفير حاكم البلاد بالتريث فى إحاطة المتوفى بكل هذه الحفاوة البالغة. وخوفًا من أن يتعرض جثمان الراحل العظيم للأذى قرر أحباؤه دفنه فى مكان غير ظاهر فى الكنيسة. واستمر هذا الوضع نحو اثنتين وثلاثين سنة، حتى وافت المنية ألد أعدائه البابا إيريان الثامن. عندئذ تجاسر فيفيانى وبقية مريدى جاليليو فأحاطوا قبره بقدر أكبر من التكريم. ولكن فيفيانى لم يقبل هذا التكريم المتواضع لأستاذه فأقام عام ١٦٩٣ شاهدًا كبيرًا على قبره، ووضع تمثالاً من البرونز على باب منزله. ولم يكتف الوفى فيفيانى بهذا، بل أوصى قبل وفاته فى عام ١٧٠٣ ابن عمه (الذى ترك له ثروته) بإقامة شاهد فخم من المرمر يليق بمكانة الفقيد. ومن جانبه تولى جيو باتستانيللى منفذ الوصية الاستفسار عام ١٧٣٤ من السلطات الدينية عن وجود أية مراسيم أو تعليمات تحظر إقامة شواهد تكريم لجاليليو. فردت الكنيسة فى ١٦ يونيو ١٧٣٤ بعدم وجود مثل هذا الحظر، بشرط عرض كلمات الشاهد على الجهات المختصة. وأخيرًا تم نقل جثمانه فى ١٢ مارس ١٧٣٧ فى حضرة رجال الأكليروس وأساتذة المدارس والجامعات فى فلورنسا وبيزا، وكذلك حضور العلماء والأدباء والفنانين الواقدين من جميع أرجاء إيطاليا محاطًا بكل مظاهر العظمة والأبهة والتكريم، إلى مثوى عظماء فلورنسا الواقع فى الجناح الشمالى من كنيسة سانت كروتشى. ولم يكتفوا بنقل رفات جاليليو إلى هناك وحسب؛ بل نقلوا معه رفات تلميذه الوفى فيفيانى الذى أوصى أن يدفن بجوار أستاذه. وتحول رفات جاليليو إلى ما يشبه بقايا القديسين والشهداء، فحرص البعض على اقتناء جانب من هذه البقايا، ومن بينها إصبعه الذى كان يستخدمه فى تأليف أعماله العظيمة .

هذه قصة حياة العالم الجهبذ الذى ظل يكابد أوجاع الأمراض نحو خمسين عاماً دون أن يفت هذا فى عضد طموحه العلمى أو يفتر حماسه للعمل. والجدير بالذكر، أن جاليليو أحب الريف والطبيعة من سويداء قلبه واعتبرهما حافزاً لنشاط الذهن وانطلاق الفكر؛ ولهذا كان يجد متعة خاصة فى العناية بحديقة منزله وزراعة الفواكه والكروم فيها.

وقد ظل طول حياته لا يبخل على حدائقه بجهد أو مال. كما كان يأخذ بيد الدارسين النابهين الفقراء.

ورغم اعتراضه على فيزياء أرسطو، فإنه لم يحاول أن يسفه أفكاره أو يحط من شأنها مثلما فعل الآخرون. وبالعكس عبر عن شديد إعجابه بمبحثى أرسطو فى علمى «الأخلاق» و «البلاغة»، وأيضاً أعلى من شأن أفلاطون وأرشميدس، واعتبر علم الهندسة ركيزة مهمة وأساسية فى فهم كتاب الطبيعة.

#### أهم الأحداث فى حياة جاليليو وتواريخها

- ولد فى بيزا بإيطاليا يوم ١٥ فبراير ١٥٦٤.
- التحق بالتعليم فى دير فالومبروزا فى الفترة من ١٥٧٥ - ١٥٧٧.
- التحق بدير فالومبروزا غير أنه تركه فى عام ١٥٧٨.
- بدأ دراسته فى جامعة بيزا فى عام ١٥٨١.
- اخترع الميزان الهيدروستاتيكي فى عام ١٥٨٦.
- كتب مبحثاً عن مركز الجاذبية فى الجوامد استقبل بالحفاوة عام ١٥٨٨.
- حصل على وظيفة أستاذ رياضيات فى جامعة بيزا بمساعدة جويدو بالدو ديل مونت فى عام ١٥٨٩.
- استقال من جامعة بيزا بعد صراعه مع أتباع أرسطو عام ١٥٩١؛ ولكن ديل مونت ساعده مرة أخرى فى أن يعين أستاذ كرسى الرياضيات فى جامعة بادوا.
- كتب إلى كبلر يقول له إنه أصبح منذ سنوات عديدة يؤمن بنظرية كوبرنيكوس (١٥٩٧).
- أنجب - بدون زواج - ابنته فرچينيا (التي أصبحت الراهبة ماريا سيلست ١٦٠٠).

- أنجب ابنته الثانية ليفيا التى أصبحت الراهبة أرشأنجيلا (١٦٠١).
- عاد إلى فلورنسا خلال فصل الصيف الدراسى لتدريس الأمير كوزيمو (١٦٠٥).
- أنجب ابنه فينسنزىو فى عام ١٦٠٦.
- اخترع الهولندى هانز ليبرشى التليسكوب فى عام ١٦٠٨.
- فى فبراير عام ١٦٠٩، تولى الأمير كوزيمو منصب دوق توسكانيا المعظم، وفى يوليو/ أغسطس من هذا العام، أنشأ جاليليو تليسكوبًا أخذ يراقب به الأجرام السماوية.
- فى مارس ١٦١٠، نشر مبحثه «رسول فى النجوم».
- فى يونيو من العام نفسه استقال من جامعة بادوا، وفى سبتمبر عاد إلى فلورنسا ليعمل فيلسوفًا وعالم رياضيات فى بلاط كوزيمو الثانى.
- وفى عام ١٦١١، سافر إلى روما منتصرًا، حيث أيد الفلكيون الجيزويت صحة اكتشافاته. وتم انتخابه عضوًا فى أكاديمية دى لينسى، ثم عاد إلى فلورنسا لينخرط فى نقاش محتدم حول حركة الأجسام فى الماء.
- فى عام ١٦١٢، نشر مبحثًا عن الأجسام الطافية وكتب خطابات عن البقع الشمسية، ويتهم الأب لورينى بمهاجمته من فوق منبر الكنيسة.
- فى عام ١٦١٣، تولت أكاديمية دى لينسى نشر خطابه عن البقع الشمسية، كما أخبره الأب كاستيللى أن مذهبه يجد اعتراضًا عليه فى بلاط الدوق العظيم على أساس تناقضه مع الكتاب المقدس، الأمر الذى جعله يكتب خطابًا إلى كاستيللى.
- فى عام ١٦١٤، تصدى الأب كاسينى للهجوم العلنى عليه.
- فى عام ١٦١٥، أبلغ شانتووه المكتب المقدس استنكارهم للخطاب الذى أرسله إلى كاستيللى؛ ولكن الحكم جاء لصالحه. وأيضًا نشر الأب فوسكارينى كتابًا يحاول فيه التوفيق بين الكتاب المقدس وعلم الفلك الجديد. وفى نفس هذا العام، أرسل الكاردينال بيلارمين خطابًا إلى فوسكارينى ليحذره ويحذر جاليليو معه أن يبقيا فى دائرة الافتراضات حتى يتمكن من التدليل على صحة مذهبيهما. ويذهب جاليليو إلى روما للدفاع عن موقفه. وكذلك كتب توماس كامبانيلا «دفاعًا عن جاليليو» بناء على طلب الكاردينال جيتانى.

- في ١٩ فبراير ١٦١٦، تم استدعاء مستشاري المكتب المقدس اللاهوتيين لأخذ رأيهم في نظرية كوبرنيكوس.
- في ٢٣ فبراير من هذا العام، اتهم هؤلاء المستشارون مذهب كوبرنيكوس بالهرطقة.
- في ٢٥ فبراير، كلف البابا بولس الخامس الكاردينال بيلارمين بالتعبية على جاليليو أن ينبذ هذا المذهب ولا يحاول الدفاع عنه.
- في اليوم التالي (٢٦ فبراير)، أصدر قوميصار المكتب المقدس العمومي أمره الشهير الموجود في ملفات هذا المكتب إلى جاليليو بالامتناع عن مناقشة كوبرنيكوس بأي شكل من الأشكال.
- في ٣ مارس، أعطى الكاردينال بيلارمين شهادة تمكنه من دحض الأكاذيب والأراجيف التي أثرت حوله.
- في ٥ مارس، فرض مجمع الفهارس حظراً يمنع تداول كتاب كوبرنيكوس عن «دوران الأجرام السماوية» حتى يتم تصحيح ما ورد فيه من أخطاء، وحتى يتم توضيح أن الآراء التي تضمنها هذا الكتاب لا تعدو أن تكون مجرد افتراضات ليس لها أساس من الواقع.
- في عام ١٦١٨، تظهر المذنبات فيحتمد حولها الجدل.
- في عام ١٦١٩، اشترك جاليليو في هذه الملاحاة بنشر مبحثه الذي نسبه إلى تلميذه ماريو جويدوكي تحت عنوان: «مبحث عن المذنبات».
- في عام ١٦٢٠، نشر مجمع الفهارس قائمة بالتصويبات التي أدخلت على كتاب كوبرنيكوس وجعلته صالحاً للقراءة من الناحية الدينية.
- في عام ١٦٢١، تسوء أحوال جاليليو بوفاة البابا بولس الخامس والكاردينال بيلارمين والدوق العظيم كوزيمو الثاني. وأيضاً يقوم جاليليو في هذا العام بكتابة مبحث يحمل عنوان: «المجرب» للرد على بحث «الميزان الفلكي» للأب جراسي.
- في عام ١٦٢٣، تم انتخاب مافيو كاردينال باربريني بابا روما ليصبح البابا إيريان الثامن فيهديه جاليليو مبحثه الأخير «المجرب».

● في عام ١٦٢٤، سافر جاليليو إلى روما لإلغاء الحظر المفروض على نظرية كوبرنيكوس، وتحدث بهذا الشأن محادثات طويلة ست مرات مع البابا إيريان الثامن الذي شجعه على المضى في الكتابة، ونبهه ألا تتجاوز أفكاره حدود الافتراضات.

● في عام ١٦٢٥، بدأ جاليليو في تأليف مبحثه «حوار حول أعظم نظامين في العالم» الذي لم يخف فيه تأكيداً لصحة نظرية كوبرنيكوس، ولكن المرض الذي ألم به في الفترة من ١٦٢٦ حتى ١٦٢٩ منعه من إتمام المبحث السالف الذكر.

● في يناير عام ١٦٣٠، أتم تأليف هذا المبحث. وفي مايو من هذا العام توجه إلى روما، حيث اتفق مع الأب ريكاردى على نشر الكتاب، وفي شهر أغسطس توفي صديقه الحميم الأمير سيسى مؤسس أكاديمية دي لينسى.

● في عام ١٦٣١، أرسل جاليليو إلى روما يطلب منها السماح بنشر المبحث الأنف الذكر في فلورنسا. واستطاع نيكوليني السفير التوسكاني أن يقنع ريكاردى بإعطاء جاليليو الإذن بنشر مبحثه.

● في فبراير عام ١٦٣٢، تم نشر الكتاب ولكن المكتب المقدس ما لبث أن حظر نشره وتداوله في أغسطس من العام نفسه. ثم استدعى جاليليو إلى روما في أعقاب ذلك في شهر أكتوبر.

● في فبراير عام ١٦٣٣، وصل جاليليو إلى روما وسعى إلى السلطنة بالتزول في سفارة توسكانيا. وفي أبريل من العام نفسه، قام الأب فيرنزولا بالتحقيق معه مرتين. وكان فيرنزولا وابن عم البابا كاردينال باربريني يميلان إلى استعمال اللين والتسامح مع جاليليو. وفي مايو دافع جاليليو عن نفسه أمام المجمع المقدس. وكان التقرير المرفوع إلى البابا بشأن هذه التحقيقات مضللاً، ولهذا أصدر البابا إيريان الثامن في ١٦ يونيو مرسوماً يقضى بأن يتراجع جاليليو علناً عن آرائه ويفرض الحظر على كتابه. وفي ٢٢ يونيو تراجع جاليليو عن أفكاره، فخفف الحكم الصادر ضده وأطلق سراحه بحيث يتحفظ عليه أساقفة سيينا.

● في ديسمبر عام ١٦٣٣، يعود إلى مسكنه في أركيتري بالقرب من فلورنسا.

● في عام ١٦٣٧، فقد جاليليو البصر في كلتا عينيه ويتوجه للعيش في فلورنسا حيث يواصل تأليف كتابه الجديد بعنوان: «علمان جديدان».



● وفي عام ١٦٢٨، نشر مبحثه عن العلمين الجديدين في مدينة ليدن بهولندا.

● في ٨ يناير ١٦٤٢، رحل جاليليو عن الدنيا.

## الفصل الثامن

### رد الاعتبار إلى جاليليو

في خريف عام ١٩٩٢، عرف المشاهدون لشاشات التليفزيون وقراء الصحف في العالم أن البابا بول الثاني قام برد الاعتبار إلى جاليليو. وبذلك تكون الكنيسة الكاثوليكية قد اعترفت بخطئها واعتذرت رسمياً عن هذا الخطأ. وفي نظر العالمين ببواطن الأمور لم يكن هذا الموقف من جانب الكنيسة جديداً، حيث إن فهرس الكتب الممنوعة الذي أصدرته عام ١٧٥٨ - أي بعد مرور أكثر من قرن على وفاة جاليليو - رفع الحظر عن الكتابات المدافعة عن دوران الأرض. صحيح أن نفرًا من العاملين في الفاتيكان في روما حاول في عام ١٨٢٠ أن يسوق بعض المحاجات القانونية لمنع نشر أحد المؤلفات الفلكية؛ ولكن محاولته سرعان ما ذهبت أدراج الرياح. ونتيجة لهذا، تم استبعاد «حوار» جاليليو من فهرس الكتابات المحظورة الصادر بعد التاريخ المشار إليه. وقد أسهم الكاثوليك الرافضون لإدانة جاليليو بنصيب وافر في الكتابة عن قصة الصراع بين العلم والدين. ومن الخطأ أن نظن أن هذا الصراع المحتدم قد انتهى عقب وفاة جاليليو، فقد تجلى بعد ذلك في صور متنوعة وأوقات مختلفة.

### اجتماع مجمع الفاتيكان الثاني

استمر مجمع الفاتيكان الثاني الذي يضم جميع أساقفة الكنيسة الرومانية في الانعقاد لنحو شهرين في فصل الخريف، في الفترة من عام ١٩٦٢ حتى عام ١٩٦٥. وأسفرت هذه الاجتماعات عن نشر دستور كنسي بعنوان: «الكنيسة في عالم اليوم» تطرق بطبيعة الحال إلى موضوع العلاقة بين العلم والدين. وبالنظر إلى أن شيئاً من

التغير طرأ على موقف الكنيسة الكاثوليكية من هذه المسألة، حيث إنها لم تعد ترى ضرورة لوجود صراع بين العلم والدين، فإن هذا التغير ساعد على استقلال العلوم والنشاط الذهني والفني بوجه عام. وفي هذا السياق كان من الطبيعي أن تهتم الكنيسة بما حدث لجاليليو. وفي واقع الأمر، أشار الكثير من الأساقفة المجتمعين في كلماتهم واقتراحاتهم إلى جاليليو، ورأوا في معاملة الكنيسة له جوراً لا ينبغي تكراره. واشتكى أسقفان في هذه الاجتماعات من الضجة المبالغ فيها التي اصطنعتها الكنيسة بشأن قضية جاليليو. وارتفعت أصوات كثيرة تنثي على جاليليو، من بينها صوت الأسقف إلتشنجر العامل في استراسبورج، وذلك في خطاب ألقاه في مجمع الفاتيكان الثاني في ٤ نوفمبر ١٩٦٤. قال: «كثير من علماء العالم يحتفلون بذكرى مرور أربعة قرون على ميلاد هذا الرجل العظيم. ولكن أحداً لم يصلح الخطأ الذي اقترف في حق هذا الرجل التعس الذي أدين ظلماً. ومن ثم، فإن إعادة الكنيسة الاعتبار إلى جاليليو في تواضع ولياقة سوف يكون عملاً رائعاً».

ومع ذلك، فقد فشل الأسقف إلتشنجر في رد الاعتبار إلى جاليليو. ورغم هذا الفشل؛ فإن الأساقفة المدافعين عنه استطاعوا حمل زملائهم في المجمع على إدخال تعديل يحتوي على سيرة حياة جاليليو، وهي خطوة مهدت بطبيعة الحال إلى رد الاعتبار إليه.

#### خطبة بمناسبة مرور قرن على ميلاد أينشتاين

انتهز البابا جون بول فرصة مرور مائة عام على مولد أينشتاين ليلقي خطاباً عن جاليليو باللغة الفرنسية، بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٩٧٩ أمام الأكاديمية الثانوية للعلوم (التي وصفها بأنها خليفة أكاديمية دي لينسي التي كان جاليليو واحداً من أبرز روادها، والتي ناصبتها الكنيسة العداء أيام جاليليو)، وأيضاً أمام الكلية الأكليريكية. وتركز خطاب البابا على ترحيب الكنيسة الكاثوليكية بالعلم وإعجابها بمنجزاته. وفي معرض خطابه أشار البابا إلى أن عظمة جاليليو تضارع عظمة أينشتاين، وأن هذه العظمة لا تخفى على أحد. وأوضح البابا في هذا الخطاب ما تعرض له جاليليو على يد رجال الكنيسة الكاثوليكية من تنكيل واضطهاد. ولعل الفقرة التالية من أهم الفقرات التي اشتمل عليها الخطاب البابوي:

«حتى نتحرك قُدماً إلى الأمام ونتجاوز ما خلص إليه المجمع، أحب أن يتوفر اللاهوتيون والعلماء والمؤرخون مدفوعين بروح التعاون الصادق على مزيد من الدراسة

لقضية جاليليو، وأن يتوخوا الحيدة في التعرف على أية أخطاء أيًا كان مصدرها، وأن يزيلوا من عقول الكثيرين العراقيين التي جعلت قضية جاليليو سببًا في غياب التناغم المثمر بين العلم والدين وبين الكنيسة والعالم. وإنى أعبر عن تأييدي الكامل لهذه المهمة التي سوف تجعل من العلم والدين حقيقة محترمة، وتفسح الطريق أمام المزيد من التعاون بينهما.»

ثم أردف البابا قائلًا، إن جاليليو الذي يستحق لقب مؤسس علم الفيزياء الحديث صرح بجلاء أن الدين لا يتعارض مع العلم. وحين قام مجمع الفاتيكان الثاني بإقرار هذه الفكرة نجده يستخدم نفس تعبيرات جاليليو الواردة في «خطاب إلى كاستيللي». وأشار البابا أيضًا إلى شدة تقوى جاليليو وورعه، كما ينصح في كتابه العلمي «رسالة من النجوم». كما استند البابا إلى «خطاب إلى الدوقة العظيمة»، الذي ذهب فيه جاليليو إلى ضرورة التوفيق بين الكتاب المقدس والعلم. ورغم أن البابا چون بول لم ينادِ عام ١٩٧٩ برد الاعتبار رسميًا إلى جاليليو، فإنه أقر بعظمة منجزاته العلمية ودوره الشجاع في محاولة التوفيق بين العلم والدين.

#### عودة إلى حوار جاليليو المصادِر

أسفرت الخطبة التي ألقاها البابا چون بول بمناسبة مرور مائة عام على مولد أينشتاين، عن تشكيل لجنة بابوية متعددة التخصصات بتاريخ ٣ يوليو ١٩٨١ لإجراء مزيد من البحث والاستقصاء حول قضية جاليليو. وفي خلال عقد من الزمان قام أعضاء اللجنة بإصدار سلسلة من المطبوعات المهمة عن الوثائق الخاصة بقضية جاليليو ودلالاتها. وبينما كانت اللجنة تضطلع بعملها، أكد لها البابا ضرورة تضافر جهود العلماء واللاهوتيين لكشف الحقائق بحيدة وموضوعية كاملة. وانتهز البابا فرصة مرور ثلاثة قرون ونصف على نشر جاليليو حواره ليكرر مؤازرته له. وفي ٩ مايو ١٩٨٢، ألقى البابا خطابًا أمام جمع من علماء البلاد المختلفة والكرادلة المقيمين في روما، بالإضافة إلى عدد من رجال الدين المرموقين، قال فيه إن الكنيسة «تعلمت من قضية جاليليو فهمًا أدق لسلطانها». وعبر مجمع الفاتيكان الثاني عن تأييده لحرية البحث العلمي وتأكيده من عدم وجود تعارض بين العلم والدين. فكلاهما كما قال البابا ضرب من المعرفة يفضى إلى معرفة أكبر بالله الذي هو أصل كل حقيقة. ولم ينس

البابا في حكمته أن يذكر الحاضرين بأن الأب بيلارمين لم ير داعياً لوجود توتر بين العلم والدين، أو داعياً للجمود والتزمت في فهم الكتاب المقدس.

النتائج التي توصلت إليها اللجنة البابوية المتعددة التخصصات

في يوم ٣١ أكتوبر عام ١٩٩٢، قدم الكاردينال بول بوبارد Poupard النتائج التي توصلت إليها اللجنة البابوية بإيجاز، إلى قداسة البابا جون بول. وقد بين الكاردينال أن اللجنة لم تكن بصدد إعادة محاكمة جاليليو، ولكن التساؤلات التي أثارها هذه اللجنة توضح وجود خلل في الإجراءات القانونية التي اتخذت في محاكمة جاليليو الأولى عام ١٦١٦.

كان أول ما فعله الكاردينال بوبارد القيام بتوضيح إصرار بيلارمين عام ١٦١٦ على انتفاء وجود برهان حقيقي على صحة مذهب كوبرنيكوس، حيث لا بد من الوصول إلى مثل هذا البرهان قبل الحديث عن ارتكاب إساءة إلى الكتاب المقدس أو إساءة في إعادة تفسيره. والرأي عند بيلارمين أن جاليليو عجز عن الإتيان ببرهان دامغ على صحة هذا المذهب، كما أن معارضي جاليليو فشلوا في الإتيان ببرهان دامغ يثبت عدم صحته. ولهذا السبب نصح بيلارمين كلاً من جاليليو وفوسكاريني بتوخى الحذر. وفي الوقت نفسه، توخى بيلارمين نفسه الحصافة عندما أوضح الإجراءات التي ينبغي على الكنيسة اتخاذها في حالة وجود براهين دامغة. ولم يجانب الكاردينال بوبارد الصواب عندما ذكر أن بيلارمين نبه علماء اللاهوت إلى ضرورة إعادة تفسير فقرات الكتاب المقدس موضع الخلاف، في حالة وجود دليل على صحة المذهب الكوبرنيكي. ولم يكن بيلارمين مستعداً للنظر في أمر إعادة تفسير الكتاب المقدس، طالما أنه لا يوجد دليل قاطع على صحة النظرة الكوبرنيكية. ومن هذا المنطلق نصح بيلارمين كلاً من جاليليو وفوسكاريني بتوخى الحكمة. وأشار بوبارد بإيجاز إلى رفع الحظر عن الكتب المدافعة عن المذهب الكوبرنيكي وإزالته من فهارس الكتب الممنوعة. والجدير بالذكر، أنه تمت إزالة العداء الرسمي للمذهب الكوبرنيكي في عام ١٨٢٢، غير أن اللجنة لم تتمكن من إعطاء إجابة شافية عن تأخر الكنيسة في إدراك الخطأ الذي تورطت فيه.

وتوصلت اللجنة المذكورة إلى نتيجة مفادها أن جميع المشاركين في محاكمة جاليليو بدون استثناء لهم الحق في اعتبار أنفسهم من المؤمنين بصحيح الدين



المسيحي؛ لأن الجانب المؤيد لمذهب كوبرنيكوس والجانب المعارض له لم يتمكن من إثبات صحة وجهة نظرهما. ولا شك، أن عدم قدرة رجال اللاهوت الكاثوليكي على النأي بأنفسهم عن التفسير الحرفي للكتاب المقدس جعلهم يناقشون المسائل العلمية من منظور لاهوتي، كما جعلهم يخلطون بين اللاهوت والعلم. ومما زاد في ضبابية الرؤية أن الذين حاكموا جاليليو في المرة الأولى عام ١٦١٦، كانوا كرادلة لا تربطهم بالعلم أية صلة.

وعلى أية حال، انتهت اللجنة التي شكلها البابا جون بول للبحث في قضية جاليليو إلى التالي:

«إن القضاة الذين أصدروا الحكم على جاليليو في إطار ظروفهم التاريخية والثقافية، عجزوا عن فصل الدين عن الفلسفة الكونية القديمة التي أصابتها الشيخوخة، واعتقدوا. وهم مخطئون في ذلك تماماً. إن ثورة كوبرنيكوس الفلكية التي لم تكن قد استقرت بعد وظهر الدليل القاطع على صحتها سوف تدمر التقاليد الكاثوليكية، وأن واجبهم اقتضى منهم حظر تعليمها. هذا الخطأ في الحكم الذي لا يتحرى الموضوعية والواضح لنا تماماً في يومنا الراهن دفعهم إلى اتخاذ إجراءات عقابية كبدت جاليليو الكثير من العذاب، ويجب الاعتراف بصراحة بهذه الأخطاء كما طالبت يا قداسة البابا».

#### خطاب البابا جون بول

في الخطاب الذي ألقاه البابا جون بول للرد على أعضاء الأكاديمية البابوية وأمام ضيوفه البارزين، قدم شكره للكاردينال بويارد وجميع الذين اشتركوا معه في أعين اللجنة. وأيضاً وجه إليهم شكره الخاص على مطبوعاتهم ذات الطابع العلمي المتميز مما حظى بعظيم تقديره. وهكذا أرسى البابا جون بول تقليداً مهماً في كيفية التعامل مع أية مشاكل علمية قد تواجه الكنيسة في المستقبل. وأضاف البابا بأنه اهتم بموضوع جاليليو رغم انقضاء كل هذا الزمن، حتى تصبح الكنيسة مؤهلة لمواجهة مثل هذه المشاكل ومؤهلة للمصالحة بين العلم والدين.

واستطرد البابا قائلاً، إن جاليليو - شأنه في ذلك شأن معظم أعدائه - لم يكن يميز بين المعالجة العلمية للظواهر الطبيعية والتفكير الفلسفي الذي تتطلبه عادة مثل هذه المعالجة. ولهذا نراه يرفض الاقتراح الذي عرضوه بأن يأخذ بالنظام الكوبرنيكي

كافتراض، طالما أنه لا يوجد إثبات قاطع على صحته. ثم أثنى البابا على جاليليو ثناء عاطفياً بقوله: «من المفارقة أن نرى المؤمن الصادق جاليليو يفوق في إيمانه الثاقب معارضيه من عملاء اللاهوت».

ولكن البابا أعطى أعداء جاليليو شيئاً من العذر، عندما اعترف بصعوبة تقبل اللاهوتيين آنذاك لفكرة مركزية الشمس في الكون. قال:

«إن القرار الكنسي الذي تتطلبه نظرية كوبرنيكوس كان من الصعب اتخاذه، حيث إن الاعتقاد بمركزية الأرض في الكون بدا جزءاً من تعاليم الكتاب المقدس نفسها... دعنا نقول بطريقة عامة إنه أصبح لزاماً على الأكليروس أن يظهروا جسارة حقيقية ويتفادوا السقوط في شرك التردد أو الحكم المتعجل؛ لأنه يمكن لكليهما التسبب في إلحاق الضرر الجسيم».

وموقف البابا جون بول هنا لا يختلف كثيراً عن موقف بيلارمين الذي أبلغ جاليليو به عن طريق ديني Dini. وأيضاً يشير هذا البابا إلى الحاجة إلى فهم جديد للكتاب المقدس في ضوء التطورات العلمية، الأمر الذي يتطلب من عالم اللاهوت أن يكون ملماً بهذه التطورات. وبرد الاعتبار إلى جاليليو صارت الكنيسة الكاثوليكية تعتبره «عالم فيزياء لامع» و«أنه من الناحية العلمية مؤسس الأسلوب التجريبي». ولم يغفل البابا أن يشير في خطابه إشارة مبتسرة إلى أن «الإنجيل لا يُعنى باستقصاء تفاصيل العالم الفيزيقي»، وهو بذلك يردد ما كان جاليليو نفسه يسعى جاهداً إلى توضيحه.

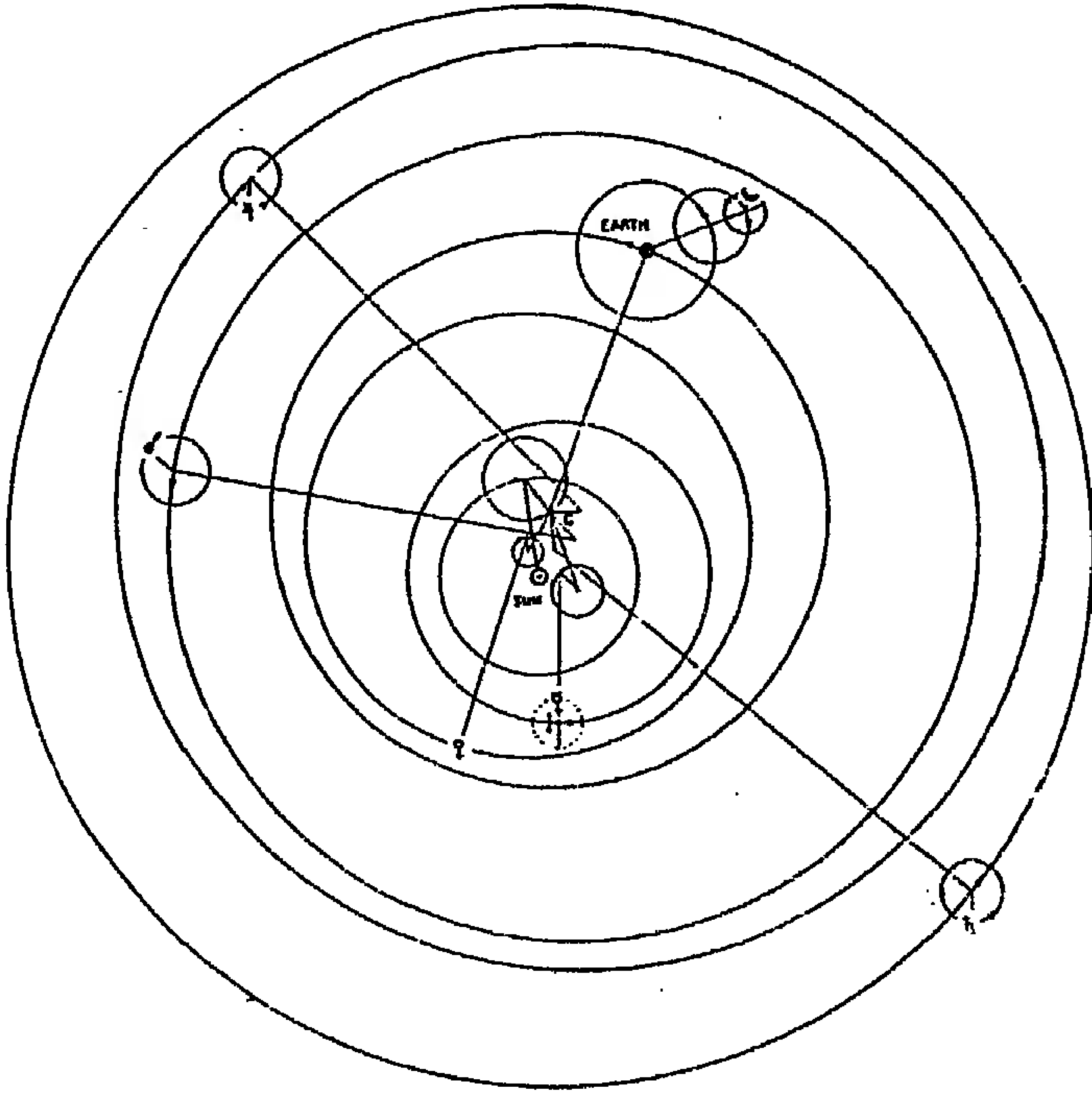
يقول البابا في هذا الشأن:

«هناك نوعان من العلم: نوع يعتمد على التنزيل، ونوع آخر يعتمد على ما يستطيع العقل اكتشافه باستخدام طاقاته. والعلوم التجريبية والفلسفة على وجه الخصوص تنتمي إلى النوع الثاني.. ولا ينبغي فهم الفرق الموجود بين هذين النوعين من العلم على أنه ينطوي على التناقض. فالنوعان ليسا غريبين عن بعضهما البعض، حيث إن هناك نقاط تلامس بينهما».

ويذهب البابا إلى أن الأكاديمية البابوية مسئولة عن تقدم المعرفة وعن احترام الحرية المشروعة اللازمة لإجراء البحوث العلمية. ويستطرد قائلاً: «فوق كل شيء تكمن أهمية النظرية العلمية أو الفلسفية في ضرورة كونها نظرية حقيقية، أو أنها على أقل تقدير نظرية جادة تقف على أرض صلبة. والهدف من أكاديميتكم في حالة العلم

الراهنه وحدوده المضبوطة هو على وجه التحديد والتمييز والتعريف بكل ما يمكن اعتباره حقيقة مكتسبة، أو على أقل تقدير حقيقة تتمتع بدرجة من الاحتمال تجعل من رفضها ضرباً من الغفلة والبعد عن المعقولية. وبهذه الطريقة يمكن تجنب الصراعات غير الضرورية.

وهكذا اعترفت الكنيسة الكاثوليكية بعد انقضاء نحو أربعة قرون، بأنها أساءت إساءة بالغة إلى واحد من أذكى وأخلص وأبر أبناءها.



رسم يبين نظام كوبرنيكوس الشمسي. وفيما يلي الرموز الخاصة به والمذكورة بالرسم

☉	Sun	الشمس	♁	Earth	الأرض
☿	Mercury	عطارد	♂	Mars	المريخ
♀	Venus	الزهرة	♃	Jupiter	المشتري
☾	Moon	القمر	♄	Saturn	زحل









الشيخ إسماعيل الثاني عندما تولى سدة الكرسي البابوي





ازکار دینال بیلامین



# الموت شتقاً فحرقاً

جيرولا موسافونارولا

(١٤٩٨ - ١٤٥٢)



## طفولة وحيدة حزينة

### والطريق إلى الرهينة

ينحدر جيرولامو سافونارولا Girolamo Savonarola (١٤٥٢ - ١٤٩٨) من إحدى عائلات بادوا الإيطالية. وكان أحد أسلاف هذه العائلة، أنتونيو سافونارولا، محاربًا مفوارًا حارب ببسالة منقطعة النظير نحو عام ١٢٥٦ ضد طاغية يدعى إيزيلينو دا رومانو Ezzelino da Romano. وتخليدًا لبطولته، أطلق اسمه على إحدى بوابات بادوا التي لا تزال تحمل اسمه حتى الآن. وفي منتصف القرن الخامس عشر، انتقل أحد فروع هذه العائلة إلى مدينة فيرارا في إيطاليا. وكان عاقل هذه المدينة نيكولو دست أو نيكولو الثالث عاشقًا للفنون والآداب، وراعياً للعلم يحرص على اجتذاب العلماء المرموقين إلى بلاطه. ولهذا دعا الطبيب المحسن الورع ميشيل سافونارولا لحضور مجلسه. ولكن يبدو أن هذا الرجل كان يحتقر حياة البذخ في البلاط الملكي ويسخر منها في قرارة نفسه وفي بعض كتاباته غير المنشورة؛ فضلاً عن تأليفه بعض الكتب عن الطب وحياة التقشف. ويبدو أن حفيده جيرولامو ورث عنه الزهد والبعد عن زخرف الحياة الزائل. وتميز هذا الجد التقى بحديه الشديد على حفيده جيرولامو سافونارولا. وقد عمل هذا الرجل الطيب القلب والعطر السيرة طبيباً في بلاط كل من ليونيلو وبورسو إست اللذين خلفا والدهما المتوفى عاقل فيرارا. ويذكر أن هذا الجد استقر في فيرارا عام ١٤٤٠ ومارس التدريس بنجاح في جامعته، الأمر الذي جعل الجوائز تنهال عليه حيث عينه بابا روما نيكولاس فارساً على أورشليم، كما أغدق عليه ورثة الماركيز نيكولو الثالث المال وأقطعوه الأرض والضياع. واصطفاه ليونيلو خليفة



الماركيز نيكولو كى يكون طبيبه الخاص، وأعفاء من كل المشاغل والواجبات حتى يتفرغ للكتابة.

وكان لهذا الطبيب الناجح ابن متلاف قال عنه المؤرخ فيلارى إنه بدد ما تركه له والده من مال؛ ولكنه أظهر حرصاً غير عادى على تعليم جيرولامو. ورغم ضآلة المعلومات التى يملكها الدارسون عن إيلينا زوجة هذا المسرف ووالدة جيرولامو، فإن الدلائل تشير إلى نبل أخلاقها وشدة تعلق جيرولامو بها؛ إذ كان فى وقت الشدائد والأزمات يكتب إليها كى يزيح عن نفسه الكرب والضيق. ونحن لا نبالغ إذا قلنا، إن جيرولامو كان يحب أمه لدرجة العبادة.

ولد جيرولامو سافونارولا فى ٢١ سبتمبر ١٤٥٢، وهو المولود الثالث فى سبعة أطفال. واتسم منذ طفولته بالجدية وغمرة الإحساس بالوحدة إلى جانب زهده الفطرى فى الحياة. وتدل القصيدة التى نظمها عام ١٤٧٢ بعنوان: «حطام الدنيا» على مدى إعراضه عن بهرج الحياة وزخرفها. وتمنى والدا جيرولامو أن يصبح ابنهما طبيباً. وكان من الطبيعى أن يحيطه جده الطبيب ميشيل بالرعاية والاهتمام منذ نعومة أظفاره. ومما شجع جده على هذا الاهتمام ما أظهره حفيده من رغبة عارمة فى طلب العلم وحب عميق للكتب، حتى ولو كانت أعلى من مستواه وقدراته على التحصيل أو الفهم.

توفى جد جيرولامو فجأة تاركاً إياه لإرشاد والده الذى أخذ يعطيه دروساً فى الفلسفة، والجدير بالذكر، أن مدينة فيرارا آنذاك شاهدة بزوغاً للفلسفة الأفلاطونية إلى جانب بعض الترجمات الأمانة لأعمال أرسطو فى اللغة الإغريقية. وحمل الأب ابنه على التوفر على دراسة مؤلفات القديس توماس الأكوينى والشروح العربية لفلسفة أرسطو. واستهوته أعمال القديس توماس الأكوينى فاستغرق استغراقاً كاملاً فى تأملها، وانصرف عن الطب إلى دراسة كتابات الأقدمين ونظم الشعر ودراسة الرسم والموسيقى ويجد الباحثون عسراً شديداً فى تتبع تطوره الفكرى حينذاك، نظراً لوجود ثغرة فى سيرته فى تلك الفترة من حياته.

وعندما شب جيرولامو وترعرع فى مدينة فيرارا التى بلغ تعدادها مائة ألف نسمة، كان البلاط الملكى هناك مبهرراً فى بهرجته واحتفالاته ومباهجه. فضلاً عن أنها كانت مزاراً للأمراء والأباطرة والبابوات. وبعد نيكولو الثالث اعتلى أريكة الحكم فى فيرارا ولداه غير الشرعيين اللذان اعترف بشرعيتهما فيما بعد، وهما: ليونيلو وبورسو،

مفضلاً إياهما على ابنه الشرعى إركول. تولى ليونيلو الحكم بعد وفاة والده عام ١٤٤١، ثم خلفه بورسو عام ١٤٥٠. وكانت فترة حكمهما تمرور بالمشاكل والاضطرابات، وارتبط ليونيلو بصداقات وطيدة مع العلماء والدارسين وشجع جامعة مدينته على الازدهار، كما استهواه نظم الشعر والسوناتات باللغة الإيطالية وتدبيج الخطب باللغة اللاتينية. وأحاط ليونيلو نفسه وحاشيته بكل مظاهر البذخ والأبهة. والشئ نفسه تكرر فى حياة خلفه بورسو؛ ففى عام ١٤٥٢ زار بلاطه الإمبراطور فردريك الثالث برفقة ألفى تابع، وهو فى طريقه إلى روما فأكرم بورسو وفادته وأقام له الأفراح والليالى الملاح لمدة عشرة أيام متواصلة. وعند عودته من روما قام الإمبراطور فردريك بمنحه لقب دوق فأقام له بورسو المزيد من الاحتفالات المبهرة.

شاهد جيرولامو بأم عينيه فى طفولته كل هذا البذخ والإبهار. وبدأت هذه الاحتفالات والولائم نشازاً؛ لأنها واكبت سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣ فى يد الأتراك وما مثله هذا من خطر على العالم المسيحى. وفى هذا الجو المشحون بالتوتر ترأس البابا بيوس الثانى (١٤٥٨ - ١٤٦٤) اجتماعاً فى مانتوا؛ من أجل العمل على محاربة الأتراك. ومن أجل تحقيق هذا الهدف تحرك فى عام ١٤٥٩ موكب البابا تحيط به كل مظاهر العظمة والأبهة، يتبعه عشرة كرادلة وستون أسقفًا وعدد كبير من الأمراء لزيارة المدن الإيطالية. وتنافست المدائن لاستقبال موكب البابا بكل مظاهر الحفاوة اللائقة بالأباطرة والملوك. وعندما وصل الموكب مدينة فيرارا، استقبله أهلها بسدة أو أريكة مصنوعة من الذهب. وفرشت أرض المدينة بالأقمشة والبُسُط التى تآثرت عليها الزهور. وصدحت الموسيقى وارتفعت العقائر بالغناء. وفى مدينة مانتوا ألقى البابا يوم ٢٧ مايو ١٤٥٩ فى بلاغة منقطعة النظير خطاباً نارياً عن المحنة التى ابتلى بها المسيحيون الذين يعيشون فى القسطنطينية؛ ولكن الصراعات التى احتدمت بين أمراء إيطاليا حالت آنذاك دون نجاح البابا بيوس الثانى فى إرسال حملة صليبية إلى بلاد الشرق. غير أن فشل البابا فى استنهاض الهمم لم يقلل من حفاوة فيرارا البالغة به عند عوته إلى هذه المدينة. وهكذا رأى جيرولامو سافونارولا هذه الاحتفالات المبهرة التى أقامها حاكم فيرارا لاستقبال رأس الكنيسة الكاثوليكية. ولعل رؤيته لاهتمام البابا بزخرف الدنيا وبهرجها ترك فى نفس الصبى جيرولامو أسوأ الأثر.

وبعد وفاة بورسو فى التاسع من أغسطس عام ١٤٧١، استطاع إركول (الابن الشرعى لنيكولو الثالث) أن ينصب نفسه ملكاً على مدينة فيرارا بعد أن أراق دم الموالين لسلفه. وفى اليوم التالى للمجازر التى ارتكبها، أقام إركول الاحتفالات الصاخبة. ورغم أن الدارسين لا يعرفون على وجه التحديد أثر هذه الحفلات بالذات على نفسية الصبى جيرولامو، فإنه من المقطوع به أن نفسه عافت مثل هذا الجو الصاخب، وأنه عانى من الوحدة والحزن منذ نعومة أظفاره. ونذر حياته منذ ذلك الوقت الباكر للصوم والصلاة والعبادة ودراسة الكتاب المقدس وكتابات القديس توماس الأكوينى والعزف الحزين على قيثارته كلما سنحت له الفرصة، أو كتابة القصائد التى تعبر عن شدة كآبته. ويبدو أن حياة القصور والسرايات المترفة لم ترق له وأنه عزف عن حياة الرغد والترف، فعندما صحبه أبواه فى صباه ذات مرة إلى قصر الدوق، صمم تصميمًا لا هوادة فيه ألا تخطو قدماء عتبة هذا القصر مرة أخرى. ولا غرو، فقد بدا له رمزًا للفساد والطفيان. وفى بدرومات القصر وأقبائه المظلمة كان السجناء يرسفون فى أغلالهم تندُّ عنهم التأوهات والآهات ويتلوون من الألم والعذاب، فى حين كان سيد القصر وحاشيته يتراقصون ويتميلون على أنغام الموسيقى ويحتسون كؤوس الخمر. ولاشك، أن هذه المفارقات كانت تمزق نياط قلب جيرولامو سافونارولا فلا يجد راحة أو ملجأ إلا فى الكنيسة يبلى مذبحتها بدموعه، وهو منبطح أمامه لساعات طوال لعله ينسى فساد هذا العالم وشره.

وزاد من غمه أن نبيلًا من فلورنسا نفته هذه المدينة إلى فيرارا كانت له فتاة غير شرعية وتقيم فى نفس الشارع الذى يقطنه جيرولامو فى فيرارا. وانبهر الفتى بحسنها وجمالها وتصور أن زواجه منها سوف يضمن له السعادة على الأرض؛ فتقدم إلى خطبتها فنهرته فى استعلاء مهين، الأمر الذى صدمه وأثار حنقه الشديد وعمق فيه الشعور بالوحدة والوحشة. وكان من الطبيعى أن يلتجئ إلى الخالق يلوذ به. كان جيرولامو سافونارولا آنذاك فى العشرين من عمره. وضاق ذرعًا بالحياة الدنيا ونذر حياته للآخرة وأثر أن ينخرط فى حياة الرهبان الدومينيكان. ولكنه أخفى قراره بالرهبة عن والديه حتى لا يعترضوا عليه. وخشى الشاب أن يضعف أمام اعتراض أهله على قراره. والغريب أن أمه أحست بما يختلج فى صدره وبنوى فعله وصارحته بهذا يوم ٢٢ أبريل ١٤٧٥. وفى اليوم التالى أقامت فيرارا احتفالاً عظيمًا بعيد القديس

جورج فذهب أبواه لحضور هذا الاحتفال. واختار جيرولامو هذا الوقت للهرب من البيت إلى بولونيا للالتحاق بدير الدومينيكان هناك. وإمعاناً في الاتضاع وإذلال النفس، طلب من رئيس الدير إسناد أحقر الأعمال إليه وأكثرها نصيباً وتعباً، بزعم أنه جاء إلى الدير ليكفر عن ذنوبه. ولكنه تذكر أهله بمجرد دخوله قلايته في الدير، فقام دون إبطاء يوم ٢٥ أبريل ١٤٧٥ بإرسال خطاب إلى والديه يطمئنهما فيه على نفسه ويبرر هروبه من المنزل. وقال في الخطاب إنه عجز عن تحمل ما يستشري في العالم من فساد وشرور وآثام. وأكد أن قراره بالالتحاق بالدير ليس وليد نزوة أو رغبة عابرة، بل هو نتيجة التأمل الطويل والعذاب الممض. واعتذر لوالده عن عدم قدرته على مصارحته بنيته في الرهينة؛ لأنه خشى أن تثبته المواجهة عن عزمه. وطلب من والده التخفيف عن والدته المكومة، كما طلب من أبويه أن يدعوا له باليمن والبركات. وأخبر الابن أباه أنه ترك بعض الأوراق التي دون فيها خواطره بجوار نافذة حجرته. فبحث الأب عن هذه الأوراق حتى وجد مبحثاً سطره ابنه بعنوان: «احتقار العالم» يبرز فيه الفساد الذي يعيث في أرجاء إيطاليا، وصلى إلى الله أن يشق مياه البحر الأحمر مرة أخرى كما فعل أيام موسى وأن يفرق الأشرار فيها. والجدير بالذكر، أن عائلة من مدينة فلورنسا ظلت تحتفظ بمخطوط هذا المبحث بناء على الرغبة التي أبداهـا ماركو سافونارولا عام ١٦٠٤.

كان جيرولامو سافونارولا ذا طبع نارى ممرور وجهاز عصبى شديد التوتر؛ فضلاً عن تمتعه بقدرة مذهلة على التصميم والحزم وقوة الإرادة. ورغم صرامة وجهه وقسوة ملامحه، فقد ارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة وطيبة قلب تغلب الناظر إليها وتعطيه إحساساً بالثقة والأمان في حضرته. ورغم بساطة لغته وخشونتها، فإنه كان عندما يتحمس لشيء يتحدث بحرارة شديدة كفيلة بإقناع من يسمعهـا.

وفى الدير عاش جيرولامو سافونارولا عيشة الزهد والتقشف والصمت والتأمل الروحى مكثراً من التوبة والصيام، لدرجة أصابت جسده بالنحول والهزال. والغريب أن رؤساءه في الدير سعوا في مناسبات عديدة إلى كسر حدة حماسة، حيث إن مأكله لا يكفى لاستمراره في قيد الحياة. وتعهد أن ينام على فراش القش ويغلى نفسه بملاءة واحدة. ورغم خشونة لباسه، فقد احتفظ دوماً به نظيفاً. واحتار رؤساؤه في الدير من فرط ورعه وتقواه.

أمضى سافونارولا سبعة أعوام (١٤٧٥ - ١٤٨١) فى قلايته فى دير الدومينيكان فى بولونيا، حيث لفت نظر رؤسائه إليه بغزارة علمه ومواهبه العقلية. وأسند إليه الدير مهمة تعليم الرهبان الجدد وإرشادهم. ورغم أن هذا العمل المتواضع منعه من تكريس كل وقته للابتهال والصلاة، فإنه قبله عن رضا بدافع الطاعة التى هى أول واجبات الرهبنة. ولكن هذا الرضا لم يكن كاملاً، فقد اعتمل السخط فى نفسه كلما تذكر فساد الكنيسة الكاثوليكية. وفى هذه الفترة من حياته نظم قصيدة بعنوان: دمار الكنيسة. وجد سافونارولا فى بابوات روما وحاشيتهم تجسيدا للفساد المروع الذى بلغ ذروته على يد البابا ألكسندر السادس (١٤٩٢ - ١٥٠٣)، وبولس الثانى (١٤٦٤ - ١٤٧١)، وسكستوس الرابع (١٤٧١ - ١٤٨٤)، ذلك البابا الذى عين أبناء عمه الأربعة فى أرفع المناصب المدنية والكنسية. ولعل أسوأهم جميعاً كان ابن عمه الشاب الأثير إلى قلبه بييترو رياريو البالغ من العمر ستة وعشرين عاماً الذى نصبه عمه البابا فى منطقته بطريرك القسطنطينية ورئيس أساقفة فلورنسا، إلى جانب تعيينه كاردينالاً. وقد وصلت أخيار بذخ هذا الشاب بقية البلاد الأوروبية، وبلغ إسرافه حداً جعله ينفق مائتى ألف فلورينة فى أقل من عام واحد، الأمر الذى اضطره إلى استدانة ستين ألف فلورينة. وتدهورت صحته بسبب تهالكه على الشهوات والملذات، مما عجل بوفاته فى ٥ يناير ١٤٧٤. وظل البابا سكستوس الرابع على فساده حتى وفاته عام ١٤٨٤. حتى أمراء الممالك الإيطالية كانوا سادرين فى غيهم وضلالهم.

وفى هذا الجو العام الذى يسوده الفساد العميم دبّت فى البلاد الفوضى والاضطرابات وكثرت المؤامرات والاغتيالات. وفى مدينة فيرارا، على سبيل المثال، حاول نيكولو دست بمساندة عصاة مكونة من ستمائة شخص أن يطيح بحكم أخيه الدوق أركول، ولكن المحاولة باءت بالفشل وفقد جميع المتآمرين حياتهم. وأدت هذه الفوضى الضارية أطنابها إلى المزيد من طغيان الحكام الطليان واستبدادهم بشعوبهم. ولعل أفظع هذه المؤامرات وأكثرها ترويعاً، تلك المؤامرات التى حاك خيوطها بازى فى فلورنسا، فقد طعن هذا الرجل غريمه جوليانو دى مديسيس داخل كاتدرائية هذه المدينة أثناء أداء طقس التناول. واستطاع رفيقه لورنزو أن يتفادى الطعنات وامتشق حسامه فى وجه أعدائه حتى شق طريقه إلى النجاة، ويقول أنجلو بوليزيانو الذى ساعده على النجاة، إن الضجيج هز أركان الكنيسة التى بدت وكأنها تسقط وتتهار على رؤوس المصلين. ومما يدعو للدهشة أن عدد القساوسة المنخرطين فى هذه



المؤامرة كان كبيراً، وأن زعيم المؤامرة ضد لورنزو دي مديسيس في كل من فلورنسا وروما كان رئيس أساقفة سالفيانى، وأن المحرض عليها كان البابا سكستوس الرابع نفسه الذى سعى من وراء المؤامرة إلى توفير المزيد من أسباب البأس والسلطان لأولاد أخيه. وعندما استيقن البابا من إخفاق سعيه أعلن بدون مواربة أن أهل فلورنسا أعداؤه. هذا هو الجو الذى شب فيه سافونارولا وترعرع، والذى أراد الهرب منه فلجأ إلى السلوى والعزاء فى الصلاة والانكباب على الدراسة. وتقديرًا من رؤساء الدير له، قاموا بترقيته من معلم للرهبان المستجدين إلى واعظ. واضطلع بوظيفته الجديدة بكل نشاط وحماس معتمدًا اعتمادًا كاملاً على الكتاب المقدس، وليس على أساليب الخطابة والبلاغة التقليدية. ولا يسجل لنا التاريخ أثر هذه الوعظات على المستمعين إليه. فكل ما نعرفه فى هذا الشأن أن أستاذه للفلسفة فى جامعة بولونيا لامه؛ لأنه نبذ أسلوب الخطابة الكلاسيكى واعتمد اعتمادًا مطلقاً فى وعظه على الكتاب المقدس.

وفى عام ١٤٨١، عينه رؤساؤه واعظاً فى مدينة فيرارا التى نشأ فيها، وهناك نأى بنفسه عن الاتصال بأهله وأصدقائه ومعارفه، حتى لا يضعف أمامهم ويعاوده الحنين إلى دنياهم. ويبدو أن أهل فيرارا لم يقيموا وزناً لوعظاته تحقيقاً للحكمة الشائعة «لا كرامة لنبي فى وطنه»، ويبدو أن سافونارولا لم يصبح بعد واثقاً من نفسه متمكناً من أدواته ومدركاً لمواهبه. ومع ذلك، فقد ظهرت فى هذه الآونة الباكرة ومضات من المواهب المتأصلة فيه، كما نستدل على ذلك من الحكاية التالية. ذات يوم استقل سافونارولا قارباً على نهر البوكى ينقله من مدينة فيرارا إلى مدينة مانتوا. وكان على ظهر القارب ثمانية عشر جندياً يقامرون ويغلظون فى قسمهم ويملثون الدنيا صياحاً وضجيجاً دون أدنى احترام لوجود راهب بينهم. واستشاط سافونارولا غضباً وتحديث إليهم بخشونة تركت فى نفوسهم أعمق الأثر، فقد جثا أحد عشر جندياً منهم على ركبهم، طالبين منه الصفح والمغفرة.

وفى نفس العام (١٤٨١)، لاحت نذر إعلان الحرب على فيرارا فلاذ بالفرار عدد من سكانها وأغلقت جامعة فيرارا أبوابها، ورأى رئيس الدير أنه من الأصح إبعاد رهبانه عن الخطر وأمر سافونارولا بالتوجه إلى فلورنسا. وقبل رحيله إليها ودع أهله وصحبه فى فيرارا وشاء القدر أن يكون هذا وداعه الأخير لهم؛ لأنها كانت المرة الأخيرة التى رآهم فيها. ورغم أن هذه الحرب كانت فى الأساس موجهة ضد دوق

فيرارا، فقد اتسع نطاقها حتى شمل شبه الجزيرة الإيطالية بأكملها التي انقسمت إلى معسكرين متطاحنين. وفي حقيقة الأمر، كان وراء هذه الحرب دافعان، أولهما: رغبة البندقية في توسيع مجال سيطرتها ونفوذها حتى يشمل قلب إيطاليا، وثانيهما: رغبة البابا في توسيع رقعة الأراضي التابعة لأولاد أخيه الفاسدين. وشعر سافونارولا بالفصحة تملأ فؤاده وتآلم كثيراً عندما رأى بابا روما يشعل ناز الحرب خصيصاً من أجل توسيع رقعة نفوذ أولاد أخيه الفاسقين في وقت بدا خطر الغزو التركي لإيطاليا قريباً ومائلاً. وما إن وطأت أقدام سافونارولا أرض فلورنسا عام ١٤٨١، حتى التحق بدير القديس مرقص. واحتفظ هذا الدير بمكتبة عامة عظيمة تضم مجموعة ثمينة من المخطوطات النادرة، التي حصل عليها الدير عن طريق الشراء أحياناً والإهداء أحياناً أخرى.

وكان من حسن حظ فلورنسا أن يقوم القديس أنتونين بتأسيس عدد كبير من مؤسسات البر والإحسان فيها، كما أن مشاعر هذا القديس النبيلة دعتة إلى تحويل جمعية بيجالو التي أسسها القديس بطرس الشهيد إلى جمعية خيرية بهدف تصفية المارقين الذين خضبوا شوارع فلورنسا بدماء الحرب والاقتيال؛ فضلاً عن أن القديس أنتونين أسس جماعة انصالحين التي تجمع العطايا والمساعدات لتوزيعها على ما نسميه في مصر بالمائلات المستورة، وهي العائلات التي غدر بها الزمان وتخجل من الاستجداء. وكان من عادة هذا القديس السير في شوارع فلورنسا ممطياً ظهر حمار يوزع الخبز والملابس على الفقراء. ورغم وفاته عام ١٤٥٩، فإن أريج ذكراه العطرة ظل يفوح ليتسمه سافونارولا عند قدومه إلى المدينة عام ١٤٨١، ويتسمه الرهبان الآخرون الذين اعتبروا أنتونين تجسيدا للفضيلة ونبراساً لهم. وفي فلورنسا الجميلة بمناظرها الطبيعية الخلابة وتلالها البديعة وطيبة قلب البسطاء فيها استبشر سافونارولا خيراً وأحس أن السعادة في انتظاره. ورأى سافونارولا في الفن الذي اشتهرت به هذه المدينة تعبيراً عن الانسجام المقدس وعلى روعة العبقرية المستوحاة من الإيمان والعقيدة. حتى زملاؤه الرهبان كانوا على درجة رفيعة من الثقافة والحس المرهف؛ فأنسأه هذا ما سبق أن كابده من حزن ويأس وإحباط.

## أحوال فلورنسا فى زمن سافونارولا

عندما حضر سافونارولا إلى فرنسا كانت مقاليد الحكم فى يد لورنزو «الرائع» الذى كان آنذاك فى أوج سلطانه وشهرته. ونعمت فلورنسا تحت حكمه بالرخاء والرفاهية رغم قسوة هذا الحكم. نجح لورنزو فى اغتصاب الحكم عن طريق سفك الدماء والاستبداد، واختلس لنفسه أموال الدولة كى ينفقها على ملذاته وشهواته وعلى حفلات الفسق والمجون. ولم يكتف بهذا، بل سعى بشتى الطرق إلى إفساد شعبه. غير أنه نجح فى استتباب الأمن ونشر السكينة وإخماد كافة القوى المتمردة على حكم عائلة المديسيس. وانشغل أهل فلورنسا بالرقص والغناء وإقامة الحفلات ولم يعودوا ينشدون الحرية من الطغيان الذى يرزحون تحت وطأته.

أسهم لورنزو بنصيب وافر فى إقامة احتفالات الرقص والغناء وتشجيع محكوميه على الانخراط فيها، لدرجة أن قام بنفسه بتأليف بعض الأغانى البذيئة والفاحشة ليتغنى بها الوجهاء والأشراف فى الكارنقالات. اتسمت هذه الأغانى ببذاءة تفوق حد الوصف، الأمر الذى يعطى الدارس صورة لمدى استئراء الفساد فى مدينة فلورنسا الجميلة. ورغم ما اتصف به لورنزو من فساد عظيم، فقد تحلى بفضيلة لا يمكن إنكارها تتمثل فى رعايته للفنون والآداب. ورغم ما اتسمت به فلورنسا فى عهده من فسق وفجور، فقد شاعت فيها الثقافة الرفيعة فاطلع الكثيرون على الكلاسيكيات وآداب الأقدمين، كما أن كثيراً من النساء أتقن اللغتين الإغريقية واللاتينية ونظمن القصائد بها. ناهيك عن ازدهار فنى العمارة والرسم، فارتفعت الكنائس الفخيمة والقصور المتينة والأبنية الأنيقة. أى أن العمارة والفنون ازدهرت رغم استئراء الفساد

والبعد الكامل عن الدين والأخلاق. ولم يكن هذا الانحلال الخلقى وليد اعتناق فلسفة هدامة أو مذهب متشكك، بل كان انحلالاً من أجل الانحلال. وبعد سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك فر منها إلى الغرب الباحثون القادمون من اليونان واستقر بعضهم فى فلورنسا، حيث أحيوا الاهتمام بالتراث الكلاسيكى وكثرت الزيارات إلى اليونان للاطلاع على تراث الإغريق؛ فضلاً عن الاهتمام بجمع المخطوطات القديمة. غير أن الفنون التشكيلية كانت أوفر حظاً من الأدب والدراسات الفلسفية، حيث أصبح الإقبال على الرسامين والنحاتين والمشتغلين بالعمارة عظيماً.

وعلى أية حال، كان هذا هو الوضع قبل وصول عائلة المديسيس إلى الحكم، ومن الخطأ أن نظن أن لورنزو هو الذى أخذ بيد الفنون حتى ترعرعت، حيث إن هذا الاهتمام بأداب الأقدمين وفنونهم ظهر فى وقت باكر منذ زمن الأديبين المعروفين بترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤) وبوكاشيو (١٣١٢ - ١٣٧٥). أى أن عائلة المديسيس وجدت هذا الازدهار الفنى والأدبى والثقافى قائماً قبل اعتلائها سدة الحكم؛ ولكنها دفعته قُدماً إلى الأمام وسعت إلى الاستفادة منه. كان لورنزو يتمتع بحس شعرى صادق وذوق فنى رفيع؛ فضلاً عن سموق مستواه الثقافى: فقد تعلم فن الشعر من لاندينو، ودرس الفلسفة الأرسطاطاليسية على يد أجيريوبولوس، والمذهب الأفلاطونى على يد ميسينو. فلا غرو إذا رأيناه فى قصره يستضيف أفضل العقول فى زمانه. وأيضاً كان لورنزو عجبياً فى مزجه الثقافة الرفيعة بأحط رغبات الجسد وشهواته، فبعد كل ممارسة للبطش والطفيان أو الحكم بالإعدام على أعدائه يذهب إلى الأكاديمية الأفلاطونية ليناقش مع علمائها الفضيلة وخلود الروح، ثم يجوب شوارع المدينة بصحبته شباب عرييد يشاركونه الفسق والمجون ثم يعود إلى قصره ليستقبل الشعراء وينافسهم فى تلاوة الشعر ومناقشة أصوله وقواعده.. وكان ينفهم فى كل هذه الأنشطة المتعارضة بدرجات متساوية من الحماس. وكان الشاعر أنجيلو بوليزيانو الذى بدأ ترجمة إلياذة هوميروس فى الخامسة عشرة من عمره من أقرب المقربين إليه. ونظراً لثقة لورنزو فيه، عينه أمين مكتبته ومربياً لأولاده، واستضافه للإقامة الدائمة فى القصر. وكذلك كان ميسر لويجى بولسى من المقربين إلى لورنزو الذى شاركه المجون والعريدة. وامتدت رعاية هذا الأمير العرييد إلى الرسامين والنحاتين. وإليه يرجع الفضل فى تأسيس حديقة القديس مرقص التى زودها بأجمل التماثيل، وأمر بفتح أبوابها لدارسى الرسم والتحف. والجدير بالذكر، أن الفيلسوف مارسيليو فيكينو Marsilio Ficino الذى طبقت شهرته الآفاق ورئيس الأكاديمية الأفلاطونية كان صديق لورنزو.

## أول إقامة لسافونارولا في توسكاني ورحلاته إلى لومباردي

### وعودته إلى فلورنسا في الفترة من ١٤٨١ إلى ١٤٩٠

لم تمض أيام قلائل على مكوث سافونارولا في مدينة فلورنسا حتى عاوده شعوره القديم بالوحدة، وأحس بالغربة بين سكان هذه المدينة التي دخلها والأمل الكبير يحدوه في العثور على آذان صاغية له؛ فإذا به أمام شعب لا يكثرث بالعقيدة المسيحية في قليل أو كثير ويختلفون فيما بينهم ويتشاحنون حول أفكار الفيلسوفين أفلاطون وأرسطو، دون أن يكون للدين المسيحي في رأيهم أي اعتبار. وكواعظ، لم يرق سافونارولا في عيون أهل فلورنسا، فهو يستخدم لغة خشنة تميل إلى البساطة النابعة مباشرة من القلب وتخلو من الاقتباس من كلاسيكيات الأقدمين وتعتمد - كما أسلفنا - اعتماداً مطلقاً على نصوص الكتاب المقدس، وتضايق أهل فلورنسا من الغضب العام الذي صبه سافونارولا على رموس الأشرار والفاسقين، وعلى قلة إيمان رجال الدين المسيحي والعلمانيين على حد سواء.

وعندما التحق سافونارولا بدير القديس مرقس في عام ١٤٨١، كلفه رئيسه بتدريس الرهبان الجدد، فكرس كل وقته وجهده وحماسه لهذه المهمة والقيام بها على خير وجه. وكان دومًا يحث تلاميذه على الانكباب على دراسة الإنجيل، وهو يتحدث إليهم بعيون منقوخة تملؤها العبرات من شدة السهد وكثرة السهر وتلاوة الابتهالات والصلوات. ويبدو أن أسلوبه في الوعظ البسيط والنابع من القلب خلب لب مستمعيه من الشباب، الأمر الذي جعل رئيسه في الدير يطلب منه في الصوم الكبير الذي يسبق عيد الفصح بأربعين يومًا إلقاء عدد من الوعظات في كنيسة القديس لورنزو، أمام



جمهور يحلل كلماته بكل برود ولا تسهل إثارته، كما هو الحال مع الشباب، وهو جمهور يفضل البيان والبديع والبلاغة على التلقائية، الأمر الذي انتهى بانصراف المستمعين عنه حتى انخفض عددهم إلى خمسة وعشرين شخصاً.

وأدرك سافونارولا على الفور السبب في فشله كواعظ في التأثير في جمهور الكبار في فلورنسا، ذلك الجمهور الذي لا يأبه بالمفاهيم المسيحية ولا يقيم لها وزناً، فهو يحب الخطب التي تتضمن بعض الإيماءات الفاحشة ولا تخلو من الاستشهاد بأقوال الوثنيين القدامى. وآلمه كثيراً انفضاض المستمعين عنه، وخاصة لأنه كان يتحرق شوقاً لتصل كلمته إلى العالم الشرير الذي يريد منه أن يتحلى بالفضيلة والإيمان المسيحي الصادق. وارتسمت على شفاه مستمعيه ابتسامات ساخرة أصابته بالإحساس بالعجز والشلل. ونصحه البعض بالتخلي عن ممارسة الوعظ والعودة إلى تعليم الكتاب المقدس وتفسيره. وقبل سافونارولا هذه النصيحة الموجهة وقرر تنفيذها، فاعتلى المنبر ليعلن أمام عدد ضئيل من الجمهور تخليه عن الوعظ.

ومن حسن حظه - آنذاك - أن رؤساءه في الدير أرسلوه مندوباً عن دير القديس مرقس إلى ريجيو إميليا لحضور قداس يقيمه الرهبان الدومينيكان في هذه المدينة، فسافر إلى هناك وهو شديد الغم والهم لفشله كواعظ. وزاد من غمه أنه عرف إنشاء سفره باندلاع الحرب في مسقط رأسه فيرارا. واستاء كثيراً أن يرى بابا روما يحرض على هذه الحرب التي مزقت إيطاليا؛ من أجل توسيع ودعم سلطة أولاد أخيه الفاسدين. وصل سافونارولا إلى ريجيو والدم يغلي في عروقه. والجدير بالذكر، أن نفراً كبيراً من عليّة القوم في مجالات الدين والعلم والأدب حضروا الاجتماع.

وكان من أبرز الحاضرين جيوفاني بيكو Pico كونت ميراندولا الذي ذاع صيته في العالمين كرجل متبحر في العلم وهو دون العشرين من عمره. تكررت زيارات بيكو للجامعات الرئيسية في كل من إيطاليا وفرنسا، حيث أظهر حماساً عظيماً للدرس والتحصيل. ولم يكتف بإتقانه المدهش للغتين اللاتينية والإغريقية اللتين حذقهما أكثر من الإيطالية لغته الأم، بل اشتهر بحرصه الشديد على دراسة اللغات الشرقية؛ فضلاً عن تعمقه في علمي اللاهوت والفلسفة، وراوده حلم بإجراء مصالحة بين المسيحية والوثنية والجمع بينهما في صعيد واحد. فكر بيكو في إجراء جولة ذات طابع فلسفي يلتقى فيها بكل من يريد الاستفسار منه عن أهم النقاط العلمية والفلسفية التي

لخصها في تسعمائة نقطة اختلف معها وأدانها جميعاً البابا أنوسنت الثامن (١٤٨٤ - ١٤٩٢)، الأمر الذي جعل بيكو يتخلى عن فكرته. واضطر بيكو إلى تقديم اعتذار إلى الكرسي البابوي؛ ولكن البابا سامحه بعد لأي. ومع ذلك، فقد شاعت شهرة بيكو في أرجاء إيطاليا؛ ولكن هذه الشهرة اضمحلت بمرور الزمن واعتبرته الأجيال اللاحقة أدنى مرتبة في الآداب من بوليزيانو Poliziano وفي الفلسفة من فيكينو Ficino. واستطاع يهودى أن يشكك في ادعائه بالإحاطة باثنتين وعشرين لغة. ومن الأخطاء النقدية التي ارتكبها بيكو، أنه اعتبر قصائد لورنزو دي مديسيس أعلى شأنًا من أعمال بترارك ودانتى. ورغم أخطائه وسطحيته، فقد نبه الأذهان إلى أهمية الاستشراق ودراسة اللغات الشرقية. ومما زاد من شهرته، تمتعه بتقاطيع وجهه الجميلة وسلوكه المهذب وشبابه النضير وذلاقة لسانه. هذا هو بيكو الذى حضر الاجتماع الدينى المنعقد فى ريجيو والذى حضره سافونارولا مندوباً عن دير الدومينيكان.

ورغم التباين العظيم والتناقض الهائل فى شخصى بيكو وسافونارولا، فقد شعر الواحد منهما بالانجذاب نحو الآخر. ومن ثم نشأت بينهما علاقة وثيقة. وعندما طرحت بعض المسائل اللاهوتية المدرسية للنقاش فى ذلك الاجتماع الكنسى، لم يعن سافونارولا بالاشتراك فيها. ولكن بمجرد أن ثارت مشكلة انضباط رجال الدين فى مسلكهم حتى هاج وماج وأرغى وأزبد وانطلق فى هجوم قاس على مفاسد الكنيسة ورجالها، لدرجة أذهلت الحاضرين الذين وقعت كلماته عليهم وقع الصاعقة. وأحس المستمعون أنهم أمام رجل ذى مواهب عقلية فذة. وسعى الكثيرون، وعلى رأسهم بيكو، إلى التعرف إليه وكسب وده. وتوطدت فيما بعد عرى الصداقة بين الرجلين. ولم يخف بيكو تيهه وإعجابه بسافونارولا.

وبعد رجوعه إلى فلورنسا رأى سافونارولا إن إقلاعه عن التبشير والوعظ مستحيل، فنبذ قراره بالإمساك عنهما. وفى البداية ألقى وعظاته على عدد ضئيل من رواد كنيسة دير موريت؛ غير أن وعظاته لم تترك أى أثر فى مستمعيه من أهل فلورنسا الذين راقت لهم أقوال الأقدمين الوثنيين وأعلوا من شأن الحذقة فى شئون الفلسفة واللاهوت. وكان لسافونارولا حينذاك منافس فى فلورنسا هو الراهب ماريانو، ربيب عائلة المديسيس والذى بنى لورنزو «الرائع» ديرًا خصيصًا له. وكان من عادة لورنزو التردد على هذا الدير والانخراط فى مناقشات لاهوتية مع هذا الراهب الذى تدفق

عليه المعجبون والمريدون من الأدباء ومن حاشية الأمير. واستطاع هذا الراهب المفقوه أن يخلب الباب مستمعيه ببلاغته وانسجام إيقاع كلماته وأن يصرفهم عن وعظاته سافونارولا، الأمر الذي حدا بتابعه الوفي جيرولامو بنيفيني أن ينصحه قائلاً: «إن المرء يا سيدنا لا يستطيع إنكار صدق مذهبك ونفعه وضرورته. ولكن طريقة كلامك تقتقر إلى الرشاقة؛ وخاصة بالمقارنة اليومية بطريقة الراهب ماريانو.» فأجابه سافونارولا غاضباً: «إن زخرف القول ورشاقة اللفظ سوف تتدحر أمام المذهب الصحيح الذي يتوخى بساطة التعبير.» ولكن هذا لم يقلل من ازدياد شعبية منافسه الذي انهال عليه الثناء من كل جانب، والذي بهر الجمهور ببلاغته وذلاقة لسانه واقتباساته من شعراء اللاتينية ومن فلسفتي أرسطو وأفلاطون. فضلاً عن أنه كان يزين حديثه بالطرف والمُح التي تدخل السرور والبهجة في قلوب مستمعيه.

ولكن النجاح العظيم الذي أصابه غريمه لم يفت في عضده أو يثنيه عن عزمه، وزاده انصراف الجمهور عنه تصميمًا. وتضايق من غفلة جمهور المصلين في فلورنسا، الذي فضل بلاغة شيشرون والأقدمين على صدق الكتاب المقدس وآباء الكنيسة وشهادتها. وأيضاً زاد هذا من اقتناعه بسلامة عقيدته وأنه ليس لنبي كرامة في وطنه. وكذلك دعاه هذا الزيف والادعاء أكثر وأكثر إلى التصدي لفساد الكرسي البابوي والكنيسة الكاثوليكية، إلى جانب الإيمان بأن الله اختاره لمحاربة الفساد واستئصال شأفته. وجعله هذا الإيمان يكرس حياته للصوم والصلاة والعبادة. وتجلت له في تصوفه رؤى كثيرة. ففي إحدى المناسبات بينما هو يتجاذب أطراف الحديث مع راهبة، إذا به يرى السماء تتشق وتمر أمامه كل المصائب التي حلت بالكنيسة. وسمع صوتاً يأتيه من علٍ يأمره بالكشف عن أوشاب الكنيسة وأدرانها للناس. وفي غمرة اضطرابه رأى العالم ينهار من حوله على نحو ما رآه يوحنا البشير.

وبعد أن توفي البابا سكستوس الرابع عام ١٤٨٤، ألف سافونارولا قصيدة مديح للسيد المسيح يطلب فيها أن يشمل إيطاليا بغيرانه ورحمته، فإذا بالكرادلة في روما يختارون رجلاً أسوأ من سلفه هو أنوسنت الثامن. وكان لهذا البابا الجديد أبناء غير شرعيين ادعى أنهم أولاد أخيه أقطعهم الأرض وأقامهم أمراء على البلاد. ولم يكتف هذا البابا بانحلاله الشخصي وممارساته الشهوانية، بل سمح باستشرائها بين رجال الكنيسة القريبين منه. فلا غرو إذا رأينا روح سافونارولا تتمزق من الوجيع والالم.

وانتشرت أحوال سافونارولا عندما أرسله رؤساؤه في الدير في عامي ١٤٨٤ و ١٤٨٥ للوعظ والتبشير في فترة الصوم الكبير السابق لعيد الفصح، إلى جمهورية سان جيميجناتو الواقعة في أحضان تلال مدينة سيينا. وكان جمهور المصلين في هذه الجمهورية يختلف عن جمهور المصلين في فلورنسا، فهم أناس بسطاء لا يستهويهم زخرف القول أو جميل الكلمات أو بلاغة الأقدمين. وبطبيعة الحال، وجد سافونارولا نفسه على سجيته بين هؤلاء البسطاء. وتركزت وعظاته هناك على موضوعين، هما: الفساد العظيم الذي يعميث في الكنيسة، وضرورة استئصال هذا الفساد. والجدير بالذكر، أن رغبته الطاغية في استئصال هذا الفساد جعلته يتحدث بطلاقة وحرقة نابعة من صميم قلبه ووجدانه. ووجدت كلماته النارية ضد فساد البابا والكنيسة صدى عميقاً في نفوس البسطاء. وأعطاه هذا ثقة في نفسه وصحة رأيه؛ فعاد إلى فلورنسا وهو مطمئن إلى سلامة أقواله ومواقفه. واستمر في الاحتفاظ بوظيفته المتواضعة كمعلم للرببان الجدد في فترة الصوم الكبير الذي يدوم أربعين يوماً في عام ١٤٨٦. وأسند إليه هذا العمل في مختلف مدن لومباردي، وعلى وجه الخصوص في بريشيا. وارتكز تدريسه على سفر الرؤيا الذي ساعده كثيراً في التأثير في مستمعيه مهدداً جميع الإيطاليين بغضب الله الآتي، داعياً إياهم إلى التوبة ونشدان رحمة الله ومغفرته. وتتبأ سافونارولا بالمصير الأسود الذي ينتظر بريشيا التي أنذر أهلها بالمذلة والانكسار أمام أعدائهم، وبغرق شوارعها في نهر من الدم، ويسبى زوجاتهم واغتصاب عذاراهم وسفك دماء أطفالهم أمام عيون أمهاتهم. ونجحت نبوءاته المرعبة في بث الفزع في قلوب أهل بريشيا. وعندما تمكن أعداء بريشيا من الاستيلاء عليها عام ١٥١٢، قام قائدهم جاستون دي فوا بقتل ما يقرب من ستة آلاف منهم بحد السيف، الأمر الذي جعل أهلها يتأكدون من صدق نبوءات الرجل العجوز الذي جاءهم من مدينة فيرارا مبشراً ونذيراً. وهكذا ذاعت وعظاته في جميع أرجاء إيطاليا ولم تصبه الشهرة العريضة بالغرور، بل زادته اتضاعاً وزادته استغراقاً في الصوم والصلاة إلى درجة الذهول والغياب الكامل عن الدنيا، الأمر الذي جعله يختار الأماكن الموحشة والنائية عن الناس يلقي فيها وعظاته.

ظل سافونارولا في منطقة لومباردي حتى يناير عام ١٤٨٩، وكتب خلال فترة بقائه هناك من مدينة باقيا خطاباً إلى أمه يفيض رقة ووداً وحناناً يطلب منها أن تسامحه، وقال لها إنه لم يعد يملك غير الصلاة من أجل عائلته. وجاء في خطابه ما يلي: «لقد

هجرت هذا العالم وأصبحت أخيراً في كرمة سيدنا يسوع المسيح متنقلاً بين كثير من المدن ليس من أجل إنقاذ روحى، بل أيضاً من أجل إنقاذ أرواح الآخرين، وإذا كان الرب قد وثق بى وأعطانى وزنته فإنه ينبغى على أن أستخدمها وفقاً لمشيئته» وأضاف أنه على يقين من أنه سيخدم الله بعيداً عن مسقط رأسه أفضل من خدمته له فى بلده الأصلي فيرارا. وفى خطابه يخبر سافونارولا ذويه بعزمه على السفر إلى جنوة. ولكن وعظاته فى جنوة تظل مجهولة. وكل ما نعرفه عنه فى تلك الفترة أن رؤساء قاموا باستدعائه إلى فلورنسا عام ١٤٨٩ بناء على رغبة الأمير لورنزو دى ميديسيس. ويبدو أن الأمير استدعاه إرضاء لصديقه الأثير إلى قلبه بيكو ديلا ميراندولا. كان بيكو آنذاك يمر بأزمة كادت أن تعصف به. فالبابا ينذره ويحذره ويهدده بالطرد من الكنيسة. وفى محنته أراد بيكو أن يلتمس نصيحة رجل دين موثوق به فتذكر سافونارولا الذى شن هجوماً عاتياً على مبادئ الكنيسة، والذى كان قد قابله وأعجب به فى ريجيو على نحو ما أسلفنا. ولهذا، مارس بيكو الضغط على صديقه الأمير لورنزو كى يستدعى سافونارولا إلى فلورنسا؛ لأن استدعاه شرف كبير له وللأمير والمدينة بأسرها.

وإنها لمفارقة ما بعدها مفارقة أن يصبح سافونارولا عدو عائلة ميديسيس اللدود، الذى تمكن فيما بعد من القضاء على سلطانها. وبناء على توجيهات الأمير لورنزو أصدر رؤساء الدير أمراً إلى سافونارولا بالعودة إلى العمل فى كنيسة القديس مرقص. ولم يدرك الأمير لورنزو أنه بدعوته سافونادولا يحضر بيديه قبره وقبر عائلته. ومن ناحيته، شعر سافونارولا أن الله يريد منه أن يخدم فى فلورنسا التى أشاحت فيما مضى بوجهها عنه واستقبلته وعظاته بفتور وعدم اكتراث. ولكن رحلة العودة إلى فلورنسا كانت شاقة عليه، فقد انهارت صحته ولم يعد قادراً على مواصلة السفر لولا الرؤيا التى شاهدها فيما يشبه المنام، إذ رأى رجلاً غريباً يظهر له على الطريق ويقله من عثاره ويعيد إليه شجاعته وقوته، ويرافقه إلى بيت ضيافة الغريب ويرغمه على ازدراد الطعام حتى تمكن من استرداد عافيته ثم صحبه إلى فلورنسا. وما إن أوصله الغريب على باب هذه المدينة حتى ودعه قائلاً: «تذكر أن تفعل مشيئة الله الذى أرسل فى طلبك.» ثم اختفى عن ناظره.

وفى بداية الأمر اقتصر دروس سافونارولا على الرهبان لتمتد شيئاً فشيئاً إلى جمهور العلمانيين، الذين طلبوا منه هذه المرة أن يلقي وعظاته من فوق منبر الكنيسة.



كان ذلك في اليوم الأول من شهر أغسطس عام ١٤٨٩، حيث امتلأت مقاعد الكنيسة عن آخرها، مما اضطر البعض إلى الوقوف. واستفاض سافونارولا الذي طبقت شهرته آفاق إيطاليا في شرح سفر الرؤيا، شرحاً ملك أفئدة الحاضرين. ونظراً لأنه كان دائماً ينفذ ويتوعد ويتحدث عن الشؤم الآتي، فقد ضاق به ذرعاً عدد من مستمعيه واتهموه بالجهل وضيق الأفق والتعصب. ولكنه استطاع هذه المرة أن يتغلب على شائثيه ويردهم على أعقابهم ويخرس أسننتهم. ومن المؤسف أن وعظاته آنذاك اندثرت، مما يجعل من الضروري الرجوع إلى كتاباته للوقوف على فلسفته.

## فلسفة سافونارولا

ترك سافونارولا وراءه عددًا ضئيلاً للغاية من المقالات الفلسفية التي كان قد سطرها من أجل تعليم الرهبان الجدد. وهاجم النقاد هذه المقالات التي لم تحظ باحترام سافونارولا نفسه واتهموها بأنها تقليد خانع لأرسطو والقديس توماس الأكويني. ويرى بعض الدارسين أن فحص مقالاته قمينٌ بأن يظهر لنا أن سافونارولا لم يكن يقلد فلسفة أرسطو تقليدًا أعمى، حيث إنه اتهمها بالمادية في العديد من المناسبات. فضلاً عن أنه ما فتئ يكرر قوله: «إن أرسطو لم ينجح حتى في إثبات خلود الروح. كما أنه ليس على يقين من بعض النقاط المهمة، لدرجة أنني في الحقيقة أعجز عن فهم المجهود الذي تضيعونه في دراسة كتاباته».

كانت إيطاليا في عهد سافونارولا تسيطر عليها مدرستان فلسفيتان، هما: المدرسة الأفلاطونية والمدرسة الأرسطاطاليسية. وتوطدت أركان المدرسة الأفلاطونية التي أسستها أكاديمية فلورنسا في الجنوب الإيطالي. وقد تأثر جيوردانو برونو بمثالياتها، في حين انتشرت المدرسة الأرسطاطاليسية في الشمال، وبالذات في جامعات بولونيا وبادوا وبافيا. وقد ظهر أثرها جلياً في أفكار العالم الفلكي المعروف جاليليو جاليلي. وتفرعت من هاتين المدرستين مدرسة ثالثة أسسها برناردينو تيلسيو Telesio وتوماسو كامبانيلا Campanella. درس تيلسيو في جامعة بادوا، حيث تعلم الفيزياء والفلسفة التجريبية وتصدى لفلسفة أرسطو. أما كامبانيلا، فقد حَبَّذ التجريبية ونسب إلى الحواس جانباً كبيراً من المعرفة الإنسانية، الأمر الذي جعله يبدو مادياً في منجاء لولا تسليمه بأهمية الحدس في اكتساب المعرفة.

وعلى الرغم من أن سافونارولا درس بعض الشيء أفكار أرسطو في وقت باكر من حياته، إلا أنه احتضن الفكر الأفلاطوني الجديد عندما ذهب إلى فلورنسا، حيث دفعته نزعته إلى التصوف إلى مخالطة مارسيليو فيكينو وبقية أعضاء الأكاديمية هناك. وفي مجال نظرية المعرفة يذهب سافونارولا إلى أنه يسهل على الإنسان معرفة ما هو غير معروف عن طريق دراسة ما هو معروف، ومن ثم يمكنه الوصول إلى الحقيقة. ويرى سافونارولا أن الحواس سهلة الإدراك، حيث إنه يمكنه استخلاص قواعد أو تجارب عامة من المحسوسات الفردية. ولهذا؛ فإن الحكمة تقتضى من الإنسان أن يتقصى الأسباب الأولية وأن يحول المحسوسات في نهاية الأمر إلى أفكار. يقول سافونارولا في هذا الصدد: «إن الإنسان يخزن مدركاته الحسية على هيئة صور في مخيلته، حيث يتلقفها العقل ويحولها إلى أفعال ذهنية.» ومعنى هذا أن الإنسان يستمد المعرفة من المدركات الحسية. ومع ذلك يرى سافونارولا أن العقل وحده لا يستطيع تحويل المحسوسات إلى أفكار دون وجود معرفة ذهنية مسبقة، يصبح العقل بغيرها مجرد قوة غير قادرة على تحقيق المعرفة وعاجزة حتى عن فهم معانى الكلمات. نادى سافونارولا بأهمية الاستقرار واستنتاج الكليات من الجزئيات وما هو غير معلوم مما هو معلوم. ويبدو أن فلسفته تقوم على مزج المذهب الأفلاطوني والمذهب الأرسططاليسى بأفكار توماس الأكويني اللاهوتية، دون دمجها في نسيج واحد متسق ومنسجم. ولعل عذره في ذلك أنه لم يكن يوماً ما فيلسوفاً بالمعنى الحقيقي للكلمة.

هذا سافونارولا في مبحثه عن الفلسفة والأخلاق حذو توماس الأكويني؛ غير أنه أظهر ميلاً نحو أفكار المدرسة الأفلاطونية الجديدة؛ فضلاً عن الأثر الذي تركه فيه كل من فيكينو والأكاديمية. يقول سافونارولا في هذا الصدد: «إن هدف الإنسان الأخير بلا ريب هو استشراف القداسة. وهو ما لا يتم عن طريق الاستغراق في التأمل بقدر ما يتم في رؤية الله الصافية. ونحن هنا في هذا العالم نستطيع فقط أن نرى صورة بعيدة ونائية وظلاً ضعيفاً وواهياً لاستشراف القداسة، في حين أنه يمكننا أن نتمتع به في اكتماله وحقيقته في العالم الآخر. ورغم أن الجهد البشري وحده لا يكفي لاستشراف القداسة، فإنه يتمين على الإنسان بذل الجهد من أجل تحقيق هذا الاستشراف. وهو جهد لا يمكن بذله إلا عن طريق ممارسة الفضائل والأعمال الصالحة. والجدير بالذكر، أن سافونارولا آمن بأهمية الأعمال الصالحة كما آمن

بحرية الاختيار، الأمر الذى جعله يهاجم المنجمين وقراء الطالع فى النجوم والأبراج. قاله فى نظره قد ترك للإنسان حرية الاختيار ولا يحاول أبداً أن يقوض هذه الحرية. ووجه شانتو سافونارولا إليه عدداً من الاتهامات، منها أنه يسعى إلى ادعاء النبوة كى يتبعه الناس أذلاء خائعين.

كتب سافونارولا نبذته «تقسيم جميع العلوم» للرد على من يتهمون به باحتقار الشعر والفلسفة معاً. ولهذا، رسم جدولاً للعلوم والمعارف المختلفة أراد به التعبير عن احترامه لهما جميعاً مهما تدنت مرتبتهما. وهذا الجدول يعلى من شأن الميتافيزيقا ويعتبرها سيادة العلوم، لأنها تبحث عن الحقائق السامية. وهو يعتبر اللاهوت لب المسيحية، حيث إن كافة العلوم تعالج أشياء خاصة من نواح خاصة، فى حين أن اللاهوت هو العلم الأول الذى يتتبع كل الأشياء ويردها إلى المحرك الأول وهو الله.

وفى تصنيفه لأقسام العلم الأساسية نراه يضع الشعر فى خانة المنطق. ورغم غرابة هذا التصنيف، فقد درج المدرسيون على فعل ذلك. وعلى كل حال، عاب سافونارولا على الشعراء اقتداءهم بالأقدمين وتقليدهم لهم، ورأى فى هذا افتقاراً إلى التجديد وضعفاً فى الحجة. ولهذا، أولى سافونارولا ظهره للقدمات واتبع ما يمليه عليه عقله. هذا الموقف الرافض لسلطة الأقدمين إلى جانب وعظاته ومباحثه السياسية واللاهوتية، تتم بجلاء عن استقلاله فى رأى. ويؤكد كتابه المهم «انتصار الصليب» هذه النزعة الواضحة للاستقلال فى رأى ورفض التقيد بالتقاليد وسلطة الأقدمين؛ كما يؤكد ضرورة استخدام الإنسان للعقل. ونحن نراه يكرر نفس الحاجة التى سبق أن ردها من قبل قائلاً: «يجب أن نصل إلى معرفة الأمور غير المرئية عن طريق الأمور المرئية. وسائر المعرفة الإنسانية مستقاة من المدركات الحسية التى تشمل فقط الخصائص الجسدية والخارجية، فى حين أننا عن طريق العقل الذى يتسم بالدقة والنعمية نستطيع أن نخترق المادة التى تتكون منها الأشياء الطبيعية، ويمكننا بعد تمحيصها أن نصل إلى معرفة الأمور غير المرئية».

ويظهر سافونارولا نفس الوضوح والاستقلال فى رأى فى وعظاته ودعوته إلى الفضيلة والإصلاح السياسى. ويذهب الدارسون إلى أنه تمتع بالقدرة على إبداء رأى المستقل منذ طفولته فشهرة هذا الكاتب أو ذاك لا تؤثر فيه، حيث إنه يهتدى بعقله ويجعل منه منارة تضىء له الطريق. ويبدو أن شائثيه كانوا على حق عندما اتهموه

باحترار الفلسفة. ورغم ذلك، فإن دفاعه عن استقلال العقل ساعد الفلسفة في زمانه على التحرر من إसार الأقدمين وأغلالهم. ورغم أنه صرف نظره عن العلم وأشاح بوجهه عنه، فإن إسهامه في عصر النهضة أمر لا يرقى إليه شك، ويتمثل هذا الإسهام في احترامه للعقل والاستقلال في الرأي، حيث إنهما ركيزة كل تجديد. علمًا بأنه أشاح بوجهه أيضاً عن الفكر والأدب الوثنيين اللذين درج أعلام عصر النهضة على الإشادة بهما.



## كتيبات سافونارولا عن الدين المسيحى

### وتفسير الأناجيل

يعتبر سافونارولا واحداً من أعلام عصر الإصلاح الدينى الذى شاهده أوروبا فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر. واستهدف الإصلاح الدينى تقريب الإنسان إلى خالقه دون حاجة إلى وساطة رجال الدين. ولم يشغل بال سافونارولا غير شئ واحد ملك عليه كل وجدانه هو الشوق العارم للقرب من الله ومعاينته، وحث الآخرين على السعى إلى ذلك. ويتضح لنا هذا بجلاء من الكتابات الدينية التى سطرها سافونارولا عام ١٤٩٢. ومعظم هذه الكتابات عبارة عن كتيبات أو نبذات، مثل كتاباته عن التواضع والصلاة ومحبة السيد المسيح. ومن الطبيعى أن تكون هذه النبذات ذات طابع أخلاقى تدعو إلى الزهد والتقشف. وفى النبذة التى سطرها سافونارولا عن الصلاة نراه يعتبرها أنجح وسيلة إلى اكتساب التواضع؛ لأن الصلاة بدون اتضاع وإحسان تصبح عديمة الجدوى. ويطور سافونارولا هذه الفكرة فى نبذة ألفها عن الصلاة الذهنية. وفى هذه النبذة نراه يحث الإنسان على البحث عن الله، ليس فى السماء أو على الأرض بل فى دخليته، كما يحثه على الشعور بأن الله موجود فى دخليته وأن يقوم بالتركيز عليه. والرأى عنده أن الكلمات لا تصنع الصلاة، فالذى يصنعها هو الاستغراق الكامل فى الذات الإلهية. فالصلاة فى حقيقة الأمر تتبع من الذهن، لا الكلمات. والله لا يلتفت إلى طول الصلاة، بل إلى حرقه الابتهاال، ويهتم بالداخل ولا يكثر بالخارج.

ويدل مبحثه عن محبة يسوع المسيح الذى توالى طبعاته بجلاء شديد على نزعة الصوفية التى تدفعه إلى الاتحاد الروحى مع المسيح والعيش معه فى ملكوته، واستلهاهم

هذا الملكوت من الداخل وليس مجرد تقليده من الخارج، فضلاً عن مشاركته العذاب الذى كابده على الصليب. هذا فى نظره هو الطريقة الكفيلة باتحاد المخلوق المحدود بخالقه غير المحدود. ويذهب سافونارولا إلى أن هذا الحب هو فيض من لطف الله بعباده، وينبع من ممارسة العباد للخير والإحسان. ويختتم سافونارولا مبحثه عن محبة يسوع بعدد ضئيل من التأمّلات يحدثنا فيها عن رحمة الله وخيره علينا، وعن تشوف روح الإنسان إلى الاتحاد به وإلى أن يلقي نفس مصيره، فتخترق جسده على نفس الصليب نفس المسامير التى اخترقت جسد المسيح، كما يلبس نفس تاج الشوك الذى لبسه.

وتتضمن النبذة التى نشرها سافونارولا بعنوان: «كتاب حياة الأرامل» فى أوائل عام ١٤٩١ نصائح أخلاقية سديدة يزجّيها إلى الأرامل. وهو ينصحهن بأن يهبن كل حياتهن لله، ويستمسكن بالطهر والعفاف، ويقضين بقية حياتهن فى وحدة ونحيب على أزواجهن الذين فقدنهن. أما إذا كانت الأرملة غير قادرة على مقاومة رغبات الجسد أو تحمل شظف العيش وتريد أن تجد بعلّاً يتولى إعالة أولادها من زوجها السابق أو تعليمهم، فيمكنها الزواج برجل آخر. ولكن الأجدر بها الامتناع عن الزواج، وأن تمضى بقية حياتها تبكى على زوجها الذى مات وتتوح عليه.

تحدث سافونارولا إلى رعيته كما لو كان ملهماً من السماء، ومن ثم فإنه لم يكن بحاجة إلى تفسير ما يقول. وكما أسلفنا نبذ الاستشهاد بالقدماء والاستناد إلى سلطتهم، واعتمد اعتماداً مطلقاً على سلطة الأناجيل التى حفظها عن ظهر قلب وأدخلت على قلبه السلوى والعزاء. والرأى عنده أن الكتاب المقدس يحتوى على تفسير لكل شئ على وجه البسيطة، وأن الله يرسل من وقت إلى آخر أناساً يختصهم بالنعمة والبصيرة المنورة فيقومون بهداية العالم وإنارة الطريق أمامه. غير أن الرؤى القاتمة والخيال الجامح كانا يأخذانه بعيداً عن الدنيا، فنسمع منه نذر الشؤم التى تهدد إيطاليا وكنيستها الفاسدة بالويل والثبور وعظائم الأمور. ولاشك أن طبيعته النارية القاطعة شجعتة على المضى فى طريق النبوءات، دون أن يشك لحظة واحدة فى صدقها.

## سافونارولا يعظ أهل فلورنسا ويحض على كراهية

حاكمها لورنزو «الرائع»، عام ١٤٩١

اكتظت كاتدرائية القديس مرقص في فلورنسا بالمستمعين لوعظاته سافونارولا في فترة الأربعين يوماً السابقة على عيد الفصح في عام ١٤٩١. ويات من الواضح أنه أصبح يخلب ألبابهم بوعظاته، ويسبى عقولهم بوعيده وتهديده بغضب الرب الآتي لا محالة. وشن سافونارولا هجوماً شديداً الوطأة على الفساد المتفشى في ربوع البلاد وبين عليا القوم، الأمر الذي ضايق الحاكم لورنزو دي مديسيس وحاشيته. وخطر له حينذاك أن يتوقف عن الحديث عن الغضب الإلهي القادم وأن يقتصر وعظه على الأخلاق والدين؛ ولكنه وجد استحالة في أن يفعل ذلك. يقول سافونارولا في هذا الشأن، إنه قرر أثناء وعظه في كنيسة الدومو عام ١٤٩١ أن يتجنب الحديث عن الرؤى التي يراها عن الخراب الذي ينتظر الطليان بوجه عام، وشعب فلورنسا بوجه خاص عقاباً لهم على آثامهم. وألقى نفسه مسهداً لا يذوق طعم النوم طول الليل بسبب الصراع الذي احتدم بداخله إثر اتخاذ هذا القرار. وأخذ يصلى بحرقة، فإذا بصوت يقول له: «أيها الأحق، ألسنت ترى أن إرادة الله هي التي تفرض عليك مواصلة السير في نفس الدرب»؛ ولهذا توفر على إعداد وعظة هاجم فيها بمنتهى الشدة طمع رجال الكنيسة في الذهب ومتاع الدنيا الزائل، كما هاجم إهمالهم لنموهم الروحي وأسهب في الانقضااض على فساد الأكليروس في عصره، حيث إنه يدفعهم ويدفع أبناءهم إلى تقلد الوظائف الكنسية ليس حباً في الكنيسة، ولكن طمعاً في متاع الدنيا. وأيضاً استفاض سافونارولا في حديثه عن ظلم الأغنياء للفقراء وفرضهم الضرائب والمكوس

الباهظة عليهم بهدف استنزاف كل ما لديهم؛ ولهذا وصف فلورنسا بأنها مفارقة لصوص والدم المسفوك. واستطرد قائلاً، إن رجال الكهنوت يناصبونه العداء ويؤلبون الناس ضده لاحتقاره والاستهزاء به. ولكنه أكد أن انفضاض الناس عنه لن يثنيه عن عزمه لاستئصال شأفة الفساد والاقتداء بالمسيح، الذي استطاع من خلال فئة ضئيلة من المؤمنين به أن يغير وجه التاريخ الإنساني. وقد وجدت وعظاته عام ١٤٩١ صدى عميقاً به في نفوس الناس، كما يتضح من أحد مريديه الراهب دا بريسكيا الذي تسلم خطاباً منه مؤرخاً في ١٠ مارس ١٤٩١ يقول سافونارولا فيه: «إن عملنا يحرز تقدماً كبيراً لأن الله يساعدنا بصورة رائعة، رغم أن كبار رجال المدينة يناصبوننا العداء... وإنى أثق في الله الذي يعطينا كل يوم قدراً أعظم من الشجاعة والمثابرة. وإنى أبشر ببعث الكنيسة وتجديدها، وأجعل من الأناجيل هادياً لى».

وليس أدل على نجاحه آنذاك من أن لورنزو استضافه في قصره كي يلقي وعظة بمناسبة عيد القيامة المجيد، فاعترف بأنه وجد نفسه مضطراً إلى مراعاة الكياسة والتحفظ في الكلام، الأمر الذي جعله على غير سجيته بالمرّة، قائلاً إنه يؤثر الوعظ في الكنيسة حتى يأخذ راحته في الهجوم على الطغاة. واستفز هذا التصريح لورنزو وأثار غضبه، الأمر الذي زاد من إقبال الناس على سافونارولا ومن شهرته فتقرر تعيينه في وظيفة كهنوتية رئيسية في كنيسة القديس مرقس في يوليو عام ١٤٩١، وهي وظيفة وفرت له قدراً أكبر من الاستقلال. وكان أول شيء فعله في وظيفته الجديدة أنه رفض على الفور ما درج عليه السابقون له، وهو الذهاب إلى الحاكم للتعبير عن طاعتهم وولائهم، قائلاً: «إننى أعتبر أن الفضل في اختياري يرجع إلى الله وحده، وإنى أقسم بطاعة الله وحده». وبسبب هذا التصريح المستفز صاح لورنزو غاضباً: «ألا ترون أن هذا الغريب الذي جاء إلى داري يرفض مقابلتى». وكظم لورنزو غضبه وسعى إلى استمالة غريمه عن طريق المعاملة الحسنة. وذهب لورنزو عدة مرات لحضور القداس الذي يقيمه سافونارولا في كنيسة القديس مرقس، وتعهد بعد القداس أن يتمشى في حديقة الكنيسة، ولكن سافونارولا رفض أن يبرح بناء الكنيسة لمقابلة لورنزو. وعندما أبلغه الرهبان بوجود الأمير أجابهم قائلاً: «طالما أنه لم يطلب منى أن أقابله فدعوه يبقى أو ينصرف على راحته».

عندئذ سعى لورنزو إلى أسلوب آخر هو محاولة خطب وده بشتى الطرق، فأغدق على الدير المال الوفير والهدايا النفيسة. ولكن موقف سافونارولا لم يتغير قيد أنملة،

وظل يحتقر لورنزو لطغيانه وظلمه وفساده. بل إنه فى وعظاته أشار من طرف خفى إلى محاولة الأمير التقرب إليه قائلاً، إن الكلب لا يكف عن النباح دفاعاً عن سيده إذالقى أحد عظمة إليه . ورغم ذلك، فقد ترك لورنزو فى صندوق النذور مبلغاً كبيراً من القطع الذهبية . فأمر سافونارولا على الفور بتوزيعها على الفقراء والمساكين، بحجة أن الدير لا يحتاج إلى كل هذا البذخ. وهكذا تأكد لورنزو أنه مهما فعل، فلن يستطيع زحزحة سافونارولا عن موقفه الرافض له.

ولكن لورنزو واصل سياسة مهادنة هذا الراهب العنيد فأرسل إليه وفداً مكوناً من أهم خمسة أشخاص فى فلورنسا، لحثه على تغيير مسلكه وأسلوبه فى الوعظ حتى لا يتعرض هو والدير للأخطار. ولكن سافونارولا أسكتهم قائلاً: «أعرف أنكم لم تحضروا بمحض إرادتكم ، ولكن بناء على مشيئة لورنزو. فاطلبوا منه التوبة عن خطاياها؛ لأن الله لا يحترم مراتب الأشخاص ولا يستثنى من عقابه أمراء العالم». وعندما ألمح وفد الأمير إلى نفيه خارج البلاد أجابه بأنه لا يخشى النفى، وأن مذهبه الجديد سوف ينتصر وينهض على أنقاض المذهب القديم. ثم أردف قائلاً: «على الرغم من أنتى غريب عن المدينة وأن لورنزو مواطنها، بل مواطنها الأول، فسوف أبقى فيها فى حين أنه سوف يرحل عنها» ثم أخذ يستفيض فى حديثه عن فساد الحكم فى فلورنسا، لدرجة أدهشت الوفد من معرفته الوثيقة ببواطن السياسة ومجريات الأمور. حينئذ تبا سافونارولا أثناء وعظه فى كنيسة القديس مرقص بالتغيرات الهائلة التى ستشهدا إيطاليا، ويقرب نهاية حياة لورنزو الرائع وبابا روما وملك نابولى.

وبمرور الأيام كثرت الرؤى الصوفية التى تجلت له، والتى ظهر أثرها فى وعظاته لشعب فلورنسا التى تبا بانهارها وسقوطها. واستطاع بصدقه وإخلاصه وحماسه أن يجعل المستمعين إليه يرون نذر الشؤم التى تلوح فى الأفق، وأن يحثهم على الانخراط الكامل فى الحياة الروحية وعدم الاكتفاء بأداء الطقوس والشعائر. وأدرك لورنزو خطورة الموقف عليه فأوعز إلى الراهب ماريانو دى جينازانو لاستئناف وعظاته التى كان قد توقف عنها، وأن يهاجم فى هذه الوعظات طريقة سافونارولا فى ادعاء النبوة واستيحاء السماء. وقبل الراهب ماريانو أن يلعب هذا الدور، ولا غرو فقد كان منافقاً مرثياً وعميلاً للورنزو .

وقلب ماريانو لسافونارولا ظهر المجن، فبعد أن كان يتظاهر ب صداقته له انقض عليه فى وعظة ألماها فى الدير فى يوم صعود السيد المسيح إلى السماء. وجاء



للاستماع إليه حشد كبير من أهل فلورنسا بدافع حب الاستطلاع، وكان لورنزو وأشراف فلورنسا من بين الحاضرين. وما إن اعتلى ماريانو منبر الكنيسة، حتى اجتاحه الغل والعداء لسافونارولا فأخذ يرميه بأقذع التهم في لغة مقززة نفرت الناس منه. وبسبب غلظته وخشونته في القول وافتقاره إلى التهذيب واللياقة، قرر عدد من أعلام المدينة التوقف عن حضور وعظاته والذهاب لسماع وعظات سافونارولا، الذي خرج من هذه المنافسة أكثر قوة وبأساً عن ذي قبل. وباندحار ماريانو أمام منافسه أحس الأمير لورنزو بالغصة تملأ قلبه كما غمرت المرارة قلب ماريانو، الذي زاد من مرارته أن اندحاره كان مهيناً أمام الرجل الذي اكتسحه ببلاغته ونجح في صرف الناس عنه في بادئ الأمر، وذلك عندما وطأت قدما سافونارولا أرض فلورنسا لأول مرة. ومن ثم قرر الانتقام منه والتآمر عليه، حتى نجح في وضع نهاية له. أما الأمير لورنزو، فقد شعر بالعجز والانكسار العميق أمام سافونارولا، كما أن الأمراض والعلل أصابته فقرّر أن يترك عدوه الذي يحترمه في قرارة نفسه وشأنه ولا يتدخل مطلقاً فيما يليق به من وعظات. وقد كانت «رسالة القديس يوحنا» هي أولى وعظاته المنشورة نحو عام ١٤٩١.

## موت لورنزو دي مديسيس والبابا إنوسنت الثامن ورحلة سافونارولا إلى بولونيا والإصلاحات التي تمت في الدير (١٤٩٢-١٢٩٣)

تدهورت صحة لورنزو دي مديسيس تدهورًا كبيرًا وبات من الواضح أن الأمير مشرف على الموت. وأكثر من زيارته أعز صديقين، وهما: فيكينو وبيكو، كما لازمه طيلة الوقت أكثر أصدقائه وفاء وإخلاصًا، وهو أنجيلو بوليزيانو الذي بكاه بكاء مرًا عندما لفظ أنفاسه الأخيرة. وأصاب لورنزو في أيامه الأخيرة تغير عظيم، فقد انصرف اهتمامه إلى الدين واحترام الكهنوت. وفي أيامه الأخيرة قبل أن تفيض روحه مثلت أمامه جميع الذنوب والآثام التي ارتكبها في شبابه، فامتأ قلبه بالرعب وأحس بوخز الضمير يمزقه في مماته. ولم يعد يثق بأى واحد من القساوسة؛ لأنهم كانوا جميعًا طوع بئانه يفعلون وفق مشيئته ويوافقونه على معاصيه. وفجأة تذكر وجه عدوه اللدود سافونارولا المتجههم، ذلك الرجل الذي تحداه في عز جبروته دون أن يخشى بطشه وتهديداته فصاح لمن يلتفون حول فراش موته: «لست أعرف سوى قسيس صادق واحد، ثم عبر عن رغبته في الاعتراف في حضرته بذنوبه، طالبًا من المولى الصفح والغفران. وفي الحال جاء رسول من القصر إلى كنيسة القديس مرقص لاستدعاء سافونارولا، واندesh رئيس الدير من هذا الاستدعاء العاجل. ومن ناحيته، رفض سافونارولا إجابة الأمير إلى طلبه؛ لأنه كان يعرف أنه لا يعير كلامه اهتمامًا. ولكنه على الفور قبل السفر مع الرسول عندما عرف منه أن لورنزو في النزع الأخير. وقبل أن تفيض روحه طلب لورنزو الذي كدره السقم رؤية جليسه وأنيسه بيكو ديلا ميراندولا الخفيف الظل، والذي استطاع بملحه وطرائفه أن يزيح بعض الغم عن كاهل

المريض المشرف على الموت، وأن يجعل الابتسامة الباهتة ترتسم على شفثيه. وأثناء خروج بيكو من غرفة الأمير دلف سافونارولا إليها. واعترف لورنزو للراهب بأن ذنوبه تجثم فوق صدره، ومن بينها السلب والنهب وانتقامه الدموي من المتآمرين ضده. واعتري روح الأمير اضطراب عظيم فسعى سافونارولا إلى تهدئته والتخفيف عنه، مذكراً إياه بأن الله غفور رحيم؛ ولكنه اشترط على لورنزو ثلاثة شروط، أولها الإيمان الكامل برحمة الله فوافقه الأمير المحتضر. وكان شرط سافونارولا الثاني أن يعيد الأسلاب بالكامل إلى أصحابها الأصليين، وأن يوصى أبناءه بذلك. ورغم أن الغم ظهر على وجه لورنزو لهذا الشرط القاسي، فإنه أوما برأسه للدلالة على موافقته. وأخيراً طلب سافونارولا من لورنزو أن يعيد الحرية إلى أهل فلورنسا؛ عندئذ ظهر الامتناع على وجه المحتضر واستجمع كل قوته كي يدير جسمه ليعطى الراهب ظهره، دون أن ينبس بنت شفة. ولهذا غادر سافونارولا دون أن يعطيه الحل أو الغفران. وظل لورنزو يتمزق من عذاب الضمير حتى أدركته المنية في ٨ أبريل ١٤٩٢.

وكان لموت لورنزو أعظم الأثر ليس في توسكانييا وحدها، بل في جميع أرجاء إيطاليا؛ فقد كان هذا الأمير بارعاً في إدارة شئون السياسة وتوازاناتها، الأمر الذي مكّنه من الحفاظ على علاقات معقولة مع غيره من الأمراء. غير أن ابنه وخليفته ببيرو كان على نقیض والده تماماً، فهو ينغمس في الرياضة وألعاب القوى والفروسية والملاكمة ولعبتي كرة القدم والتنس، إلى جانب انغماسه في الشهوات دون أن يحذق لعبة السياسة. كما افتقر ببيرو إلى تهذيب والده الذي جعل منه رجلاً محبوباً رغم كل عيوبه. وبسبب طباع الابن السيئة فقدت فلورنسا مكانتها الرفيعة بين الممالك الإيطالية، وزاد الطينة بلة أن ببيرو حرم شعبه من البقية الباقية من مظاهر الحرية التي كان أبوه الداهية يحرص على إعطائها للناس تجنباً لتمردهم عليه. وبسبب سياسة الابن الخرقاء انفض عنه كثير من الموالين لوالده ولحكم عائلة دي مديسيس عموماً.

وبعد هذه الحادثة التف حول سافونارولا كل المعارضين لحكم عائلة دي مديسيس، واعتبروه رمزاً لهذه المعارضة. وزاد من قدره في عيون الناس أن الأمير لورنزو المحتضر طلب منه أن يكون كاهن اعترافه في اللحظات الأخيرة من حياته. وتذكر الشعب نبوءة الراهب عن وفاة لورنزو والبابا وملك نابولي، فازدادوا اقتناعاً بقداسته. وخارت قوى البابا إنوسنت الثامن وأصبح أقرب إلى الموتى منه إلى الأحياء، فاقترح

طبيب يهودى إجراء عملية نقل دم متطوع شاب فى كامل صحته وعافيته إلى عروق البابا، وأن ينقل فى المقابل دم البابا إلى الشاب. ولكن هذه التجربة التى طبقت لأول مرة على البابا بعد تطبيقها على الحيوانات باءت بالفشل. وتكرر إجراؤها ثلاث مرات دون جدوى، الأمر الذى أدى إلى وفاة الشباب الثلاثة الذين ضحوا بدمائهم فى سبيل إنقاذ البابا. وعقب فشل العمليات الثلاث لاذ الطبيب اليهودى بالفرار، وانتهى الأمر بوفاة البابا إنوسنت الثامن فى ٢٥ يوليو عام ١٤٩٢. وتداول كرادلة الفاتيكان الأمر فيما بينهم لانتخاب بابا جديد تحركهم الرشوة والشهوة وعوامل الفساد. وكان ألكسندر السادس البابا الجديد والمنتخب لا يقل فساداً عن انتخبوه من الكرادلة؛ فهو ليس شهوانياً وزير نساء وحسب، بل كان أيضاً يعبد الذهب ويعشق اكتنازه بكافة الطرق غير المشروعة، لدرجة أنه أقام علاقات طيبة مع الأتراك والمغاربة واليهود ممن اعتبرتهم الكنيسة الكاثوليكية أعداء السيد المسيح. وعند انتخابه بابا روما، كان ألكسندر السادس على علاقة آثمة بامرأة سيئة السمعة تدعى فانوزا أنجب منها عدداً من الأطفال. ويقال إنه كان عشيق أمها قبل ذلك، وبعدئذ وجهت إليه تهمة مضاجعة لوكريزيا ابنته من فانوزا. وكان نجاح هذا الرجل الفاسد فى اعتلاء كرسى البابوية سبباً فى إصابة كل الإيطاليين باليأس والقنوط. ورغم هذا الفساد العظيم، فقد قام البابا الجديد بإدخال شىء من النظام والانضباط فى هذه الفوضى الضاربة أطنابها فى جميع أرجاء البلاد. ولم يكن هدفه من وراء ذلك الإصلاح، بل إحكام قبضته على العباد والبلاد حتى يتمكن من استنزافهم عن طريق فرض الضرائب عليهم وتنصيب أولاده - رغم شهوانيتهم وجرائمهم وغلظة قلوبهم - ولاية على المدائن والممالك. عندئذ تذكر سكان إيطاليا نبوءة سافونارولا التى تحققت عن انتشار الشر المستطير فى كل أرجاء إيطاليا والكنيسة. وساد الإيطاليين رعب من المستقبل، كما ساد بينهم الاعتقاد بأن سافونارولا نبيّ موحى له من لدن الله، الأمر الذى جعل سافونارولا نفسه يقتنع بصحة نبوءاته وصدق الرؤى التى تتجلى له. وفى عام ١٤٩٢، تجلت له رؤيا نزلت عليه من السماء، حيث شاهد فى أحدهما يداً فى كبد السماء تلوح بسيف وسمع أصواتاً تاتى من عل تبشر الصالحين وتنذر الخطاة بأن غضب الله آت فى الطريق، وهجأة رأى سافونارولا السيف يتجه نحو الأرض واكفهرت السماء وأظلمت وأمطرت سيوفاً وسهاماً وألسنة لهب. فأصبح كل العالم منخرطاً فى الحرب يكابد المجاعة والأوبئة. وانتهت هذه الرؤيا بسماع أمر يأتى من السماء، أمراً بإياه بإعلان هذا على مستمعيه حتى يعودوا إلى خشية الله ويبتهلوا إليه كي ينقذهم من الغضب الآتى.

وأيضاً شاهد سافونارولا فى رؤيا أخرى صليباً أسود يرتفع فى روما حتى يصل إلى السماء ويمد ذراعيه حتى اشتمل على المعمورة بأسرها. ومرة أخرى أصبحت السماء حالكة الظلام، وانبعثت ومضات البرق، وشق الرعد حجاب السماء وهبت عاصفة عاتية هوجاء من الريح والبرد. ولكن صليباً من الذهب ارتفع فى أورشليم المقدسة وسطع نوره فأضاء أرجاء المعمورة، فجاء الناس زرافات ووحداناً من كل فج عميق مبهورين عابدين. واستمر سافونارولا فى الحديث عن رؤاه طوال عام ١٤٩٢، وبالذات فى فترة الصوم التى تسبق عيد الفصح. ثم ألقى بعدئذ أحاديثه الشهيرة عن فلك نوح فى عام ١٤٩٤: فأصاب نجاتاً عظيماً.

أصبح سافونارولا كثير الغياب عن فلورنسا. وفى شهرى فبراير ومايو ١٤٩٢ قام بزيارة البندقية عدة مرات، كما أنه زار بيزا حيث ألقى عدداً ضئيلاً من الوعظات فى دير سانت كاترين، وعقد صداقة وثيقة العرى مع ستيفانو دا كموديونت، الذى صار فيما بعد من أخلص أتباعه ومريديه. وفى فترة الصيام السابقة على عيد الفصح من عام ١٤٩٣، طال غيابه عن فلورنسا حيث ذهب للتبشير فى بولونيا. وضاق ببيرو حاكم فلورنسا ذرعاً به وبوعظاته وسعى إلى وضع حد له وتقليص شعبيته وتصرف معه بنزق، حيث إنه افتقر إلى حكمة وحصافة وديبلوماسية والده لورنزو، الذى تحمله رغم شدة ضيقه منه. ورأى بييرو ضرورة التخلص منه، فسعى إلى نقله من فلورنسا ووضع منافسه القديم الراهب ماريانو محله. وشعر شعب فلورنسا باليتم نتيجة إبعاده فكان يرسل إليهم الخطابات مواسياً. وفى خارج فلورنسا شعر سافونارولا بأنه مثل السمكة التى تخرج من الماء، فجاءت وعظاته باردة بلا روح. وأصبح معظم المستمعين إليه من النساء.

ومن بين هؤلاء النساء حضرت يومياً إلى كنيسة زوجة نبيل يدعى بنيتوليو اعتادت المجيء متأخرة، تتبعها حاشية كبيرة من الوصيفات والفرسان والخدم والحشم. وعبثاً حاول الراهب سافونارولا تنبيهها إلى ضرورة احترام مواعيد الصلاة. ولكنها لم تكثر به واستمرت فى الحضور المتأخر وإزعاجه أثناء إقامة الشعائر، الأمر الذى اضطره إلى الإشارة إلى خطيئة إزعاج المصلين والمؤمنين. واغتاضت هذه السيدة من جرأته وتجاسره عليها، فأمنت فى تأخرها وفى كمية الجلبة التى تحدثها، وتصرفت بتكبر واستعلاء بدون احترام الكنيسة ونظامها. وأخيراً أحدثت المرأة ضوضاء عالية وهو فى



قمة انفعاله وانشغاله بإلقاء وعظته؛ فلم يتمالك نفسه وصاح غاضباً: «انظروا! ها هو الشيطان قد جاء ليقاطع حكمة الله» واستشاطت المرأة غضباً من هذا التوبيخ الواضح، فأمرت اثنين من خدمها بقتله أثناء إلقاء كلمته من فوق المنبر؛ غير أن الخادمين رفضا طاعتها . وأضمرت له السيد سوء، فأرسلت فيما بعد اثنين آخرين إلى قلاليته لتأديبه وضربه ضرباً مبرحاً. ودخل الرجلان عليه في القلاية؛ ولكنه واجههما بكل ثقة وحزم ورباطة جأش وتحدث إليهما بلهجة تتسم بالوقار، فانصرفا في اضطراب عظيم دون أن يمساها بسوء.

ثم قرر سافونارولا العودة إلى فلورنسا . وعندما وصل إليها وجد أن حالتها قد ساءت عن ذي قبل بسبب نزق وحماسة حاكمها بييرو. ووجد هذا الراهب نفسه في مأزق؛ لأن توجيه النقد لبييرو معناه نفيه من فلورنسا . واكتشف سافونارولا أن دير كنيسة القديس مرقص في فلورنسا لم يكن حتى عام ١٤٤٨ تابعاً لسلطة حاكمها، وأنه انضم إليه عقب تفشى وباء الطاعون الذي أتى على الأخضر واليابس. وحتى لا يكون الدير تحت رحمة بييرو حاكم هذه المدينة سعى سافونارولا إلى إعادته إلى سابق استقلاله. ورغم أنه استطاع إقناع حاكم فلورنسا بالتخلي عن سيطرته على الدير، فإن الاعتراض على استقلال الدير كان كبيراً. وجاء هذا الاعتراض من رهبان مملكة لومباردى والبندقية وروما. ولكن المصادفة البحتة هي التي رجحت كفة سافونارولا على معارضييه، فعندما عرض الأمر على البابا في مايو ١٩٤٣ أعلن أنه على غير استعداد في ذلك اليوم لختم أية مذكرة ترفع لقدامته . فانصرف مرءوسو البابا من الغرفة تاركين إياه على انفراد مع أحد أنصار سافونارولا، هو كاردينال نابولي الذي كان في الوقت ذاته أثيراً إلى قلب البابا. وكان مزاج البابا صافياً فتبادل المزاح والنكات والضحكات مع صديقه وضييفه. واقتنص كاردينال نابولي هذه الفرصة السانحة وأخرج من جيبه مذكرة كان قد أعدها بشأن مواقفة البابا على استقلال الدير وقدمها إليه كي يختمها؛ ولكن البابا المازح رفض ضاحكاً.

فضحك الكاردينال أيضاً وقام بسحب الخاتم من إصبع البابا وختم به على الموافقة باستقلال الدير. وما إن حدث هذا حتى جاء رسل من لومباردى يطلبون منه عدم الموافقة على استقلال الدير . غير أن السيف كان قد سبق العذل، وأسقط في يد البابا ولم يستطع العدول عن ختمه. وهكذا شاءت الأقدار تحقيق رغبة سافونارولا في استقلال دير القديس مرقص.

وعبثاً حاول رهبان لومباردى إلغاء المرسوم البابوى، يساعدهم فى ذلك حاكم فلورنسا ببيرو الذى غير رأيه. وأمر رئيس الرهبان بنقل الراهبين سافونارولا ودومينيكو إلى فلورنسا، حيث تم انتخاب سافونارولا رئيساً للدير، الأمر الذى رسخ مكانته وثبت أقدامه. وبعد حصوله على استقلال دير كنيسة القديس مرقص، لم يكن بوسع أحد أن يتدخل فى شئونه. وبذل سافونارولا كل ما فى وسعه لإصلاح الكنيسة الكاثوليكية. وبعد عودته إلى دير فرض على جميع رهبانه الالتزام بمبدأ الفقر والعوز، أى العودة بالدير إلى أهدافه الأصلية، حيث إن تغيرات جوهرية طرأت على قوانين الدير. فبعد أن كان مؤسسه القديس دومينيك يحظر على الرهبان امتلاك أى شئ، بمرور الوقت تخفف رهبان دير القديس مرقص من شرط الفقر وأخذت ثرواتهم تتضخم؛ ولهذا أمر سافونارولا ببيع كل ممتلكات الدير، كما فرض على رهبانه لبس الملابس الرخيصة الخشنة والامتناع عن حيازة الذهب والفضة. ثم طلب من الرهبان أن يكسبوا قوت يومهم بعرق جبينهم والعمل فى الحقول والمزارع. فضلاً عن أنه فتح المدارس لتعليم الرسم والنحت والعمارة ونسخ المخطوطات وتزيينها بالنقوش والرسوم. وعهد سافونارولا إلى رهبانه المخضرمين بتعليم الرهبان الجدد والعمل ككهنة اعتراف، وأيضاً كلف الرهبان ذوى القدرات العقلية المتميزة والملمين بعلوم اللاهوت أن يمارسوا التبشير وينتقلوا للوعظ من بلد إلى آخر. وحتى لا يصبح الراهب المبشر تحت رحمة المتصدقين وأهل البر، أمر شخصاً عادياً بمرافقته والكد ليل نهار لإعالتة؛ حتى لا تدفع الحاجة الراهب إلى الانحراف فى القول أو الفعل. وبناء على أوامره اقتصرت الدراسة فى الدير على ثلاثة موضوعات، هى: اللاهوت والفلسفة وعلم الأخلاق. فضلاً عن الانكباب على دراسة الكتاب المقدس فى ضوء اللفتين الإغريقية والعبرية، وأيضاً فى ضوء اللغات الشرقية تمهيداً لهداية الكفار الأتراك.

كان سافونارولا نموذجاً للرهبنة يحتذيه الرهبان، فهو أقسى وأكثر تشدداً على نفسه من قسوته على الآخرين: فلباسه وسريره أكثر خشونة من لباسهم وأسرتهم وقلابته أسوأ القلايات جميعاً. واستطاع سافونارولا بقدوته الحسنة وحماسه الملتهب أن يخلق حركة إصلاحية تحارب الفساد وتبذ متاع الدنيا وتدعو إلى الزهد والتقشف، فسار على دربه المریدون من الفقراء والنبلاء على حد سواء ممن نذروا أنفسهم للرهبنة. وتدفق سيل من الناس الراغبين فى خدمة الدير فلم يعد يسمهم. وانتشرت عدوى حماسه فى فلورنسا إلى الأديرة فى أرجاء توسكانيا الأخرى، بل إن رهبان بعض

الأديرة الأخرى المنتمية إلى طوائف دينية مختلفة عبروا عن رغبتهم في ترك أديرتهم للالتحاق بدير كنيسة القديس مرقس. وهو ما رفضه سافونارولا؛ لأن في قبولهم تجاوزاً لسلطاته وصلاحياته الكنسية؛ فضلاً عن أنه لم يرغب في أن يوغر صدور الآخرين ضده.

بذل سافونارولا جهداً جهيداً لتوحيد نظام الرهبنة في بلاده؛ ولكن هيهات فقد كانت إيطاليا نهباً مقسمًا بين الأحزاب المتطاحنة، لدرجة أن مدينة سينا ناصبته العداء وأساءت استقباله، الأمر الذي جعله يعود إلى فلورنسا حصنه الحصين وقلعته المنيع التي دانت له بالولاء.

## سافونارولا يواصل الوعظ في فلورنسا

(١٤٩٣ - ١٤٩٤)

عندما استمر سافونارولا في إلقاء وعظاته في مدينة فلورنسا في الفترة المشار إليها كان على سجيته تماماً في معركته ضد الفساد، فلم يعد هناك ما يخشاه بعد حصول ديره على الاستقلال، كما أن بييرو حاكم فلورنسا الجديد لا يستطيع إبداءه والإضرار به، الأمر الذي زاده ثقة واطمئناناً واقتناعاً بسلامة نبوءاته. واستأنف هجومه العاتى على فساد الكنيسة الكاثوليكية؛ فضلاً عن أنه ناقش في وعظاته في تلك الفترة بعض جوانب اللاهوت المسيحى المهمة. وتعتبر هذه الوعظات من أفضل وعظاته على الإطلاق.

بدأ سافونارولا وعظاته في تلك الفترة بتعريف الإيمان بأنه هبة من الله ونور من لدنه يضئ عقل الإنسان، وإذا كان الله يهدى إنساناً دون آخر فتلك هى مشيئته، فالإنسان لا يحصل على الخلاص بسبب ما يتصف به من خير، بل يخلص بسبب خير الله ونعمته عليه. فقد وضع المسيح بطرس الذى أنكره ثلاث مرات على رأس الكنيسة، كما أنه وهب الخلاص لمريم المجدلية الخاطئة. ولا يعنى هذا فى رأى بعض الدارسين أن الخلاص يأتى نتيجة اللطف الإلهى وحده، حيث إنه ينبغى على هذا الإنسان أن يتعاون بأفعاله وإرادته مع هذا اللطف الإلهى للحصول على الخلاص. ويحدثنا سافونارولا عن أهمية الحب فى تحقيق الخلاص، فالمسيح كابد كل ما كابده لأنه أحب البشر.

وأضاف سافونارولا أن الوعاظ المسيحيين يلجئون إلى التأثير في مستمعيهم وإبهارهم بالحديث عن أرسطو وأفلاطون وفيرجيل وبتراارك، دون أدنى اهتمام بخلاص أرواحهم. وتعجب من أن هؤلاء الوعاظ لا يحفلون بالإشارة إلى الإنجيل، رغم أنه النبع الصافى الرقراق الذى ينبغى على كل مسيحى أن يرده . ثم يتحدث عن رجال الكنيسة الذين يقولون ما لا يفعلون، فهم ييشرون بالنقاء والطهارة رغم أنهم زناة وآثمة، ويتظاهرون بنبذ الدنيا فى حين أنهم مستغرقون فى متاعها.

وبعد هذا الهجوم الشديد على رجال الكنيسة فى إيطاليا تناول حكامها وأمرائها بالنقد اللاذع؛ لأنهم يحيون حياة الفسق والمجون والبطش ويحيطون أنفسهم بالمداحين والمرائين، ويجدون بين القساوسة من ينافقهم ويسير فى ركابهم. ومن الواضح أن هجوم سافونارولا على فساد رجال الكنيسة والحكام يتضمن فى ثناياه هجوماً على فساد حكم بييرو دى مديسيس وبطانته، ذلك الحكم الذى تتبأ بانهياره وسقوطه. ويضيف أن الأكليروس فى إيطاليا يخطئون عندما يحفلون بالبلاغة وبقيمون وزناً للفصاحة وذلاقة اللسان، ويظنون أنه بالإمكان هداية أرواح المسيحيين عن طريق الاستشهاد بأقوال الشعراء والخطباء أمثال فيرجيل وهوراس وشيشيرون. كما أنه ينحى باللائمة عليهم ؛ لأنهم يثقون بالمنجمين والراجمين بالغيب. وأيضاً يعيب على المسيحيين اهتمامهم بالظاهر وعدم اكتراثهم بالباطن، فهم يزينون كنائسهم ويزوقونها ويلبسونها أقشب حلة ويتفنتون فى زخرفتها دون عناية بالارتقاء بالجانب الروحى فى حياتهم. فضلاً عن أن كهنتهم يترنمون بكل جد ووقار بأعذب الترانيم التى ترافقها أعذب الألحان الكنسية، ليغطوا بذلك على ريائهم وفقرهم الروحى . ويمضى سافونارولا فى المقارنة بين حال الكنيسة فى بدايتها وحالها فى الوقت الحاضر، فيقول إنها فى الماضى كانت أصدق وأنقى تشيح بوجهها عن عرض الدنيا الزائل، ويأسى لما آلت إليه الكنيسة من انكسار وهوان بسبب استغراق رجالها فى المفاسد والشهوات والملذات، لدرجة جعلتهم يندحرون أمام الأتراك الذين انتزعوا منهم القسطنطينية . فضلاً عن أن ضعفهم وهوانهم أدى إلى فقدهم اليونان والبلاد الآسيوية.

وفى العام التالى (١٤٩٤)، واصل سافونارولا وعظاته التى تحمل عنوان «فلك نوح»، وهى الوعظات التى كان قد بدأها فى عام ١٤٩٢. والفلك إشارة واضحة إلى النجاة من



طوفان شر هذا العالم ومن غضب الله الآتى. وفى ٢١ سبتمبر عام ١٤٩٤ على وجه التحديد، ألقى سافونارولا وعظة عن الطوفان كان لها أعظم الأثر، ليس فى حياة هذا الراهب وحسب، بل فى جميع أرجاء فلورنسا . كان يوم هذه الوعظة يوماً مشهوداً، فعندما صعد سافونارولا إلى المنبر وبدأ يتكلم بصوت جهورى، ران الصمت والوجوم على جميع الحاضرين وغمرهم اضطراب عظيم وسرت رعدة فى أوصالهم، حتى اضطراب سافونارولا نفسه كان لا يقل عن اضطراب المصلين. فقد وردت أنباء على التوبأن جيشاً فرنسياً عرمرماً عبر جبال الألب بهدف غزو إيطاليا والاستيلاء عليها. وانتشرت إشاعة مرعبة انتشار النار فى الهشيم فحواها أن جنود هذا الجيش عمالقة صناديد لا يقهرون، وأن ضراوتهم فى القتال بلا حدود. ولم يكن أى أمير فى إيطاليا باستثناء ملك نابولى مستعداً للتصدى لهؤلاء الغزاة. وشعر الإيطاليون بالهول والفرق يخلع قلوبهم، وتوقعوا أن تغرق الشوارع فى حمامات الدم. وفى رعبهم لاذ أهل فلورنسا بسافونارولا يلتمسون لديه النصيح والمشورة، فقد تحققت نبوءاته المشئومة عن غضب الله الآتى. وبين عشية وضحاها غدا هذا الرجل أملاً ورمزاً للخلاص ترنو إليه إيطاليا من دانيها إلى قاصيها، وتحول سافونارولا إلى رمز سياسى يتطلع إليه الطليان فى محنتهم الأليمة.

## الغزو الفرنسي لإيطاليا

عام ١٤٩٤

بعد وفاة لورنزو دي مديسيس واعتلاء ألكسندر السادس سدة الكرسي البابوي (١٤٩٢ - ١٥٠٣)، تدهورت الأحوال في إيطاليا تدهورًا كبيرًا بسبب جشع هذا البابا وطمعه في تمزيق أوصال بلاده لصالح أبنائه غير الشرعيين. كما أن لودفيكو المغربي الذي اغتصب حكم ميلانو كان يفاخر بخسته ودهائه. وقيل إنه قام بسجن ابن أخيه جيوفان جاليزو في بافيا، وإنه قتله بدس السم البطيء المفعول له بهدف اغتصاب أملاكه. ولم تسكت إيزابيلا أراجون ابنة ألفونسو حاكم نابولي (وحفيدة فرديناند) على هذا الاعتداء على مصالح زوجها، وطلبت من والدها التدخل لإعادة الأمور إلى نصابها واستعادة ما اغتصبه لودفيكو المغربي من زوجها. وجن جنون لودفيكو عندما أحس بالخطر يتهده من كل جانب، واتخذ حاكم فلورنسا لورنزو دي مديسيس موقفًا معتدلًا وحكيمًا من هذا الصراع المحتدم، وحاول أن يصلح ذات البين بين الطرفين المتنازعين وعقد معاهدة تحالف بين ممالك نابولي وميلانو وفلورنسا، واستطاع أثناء حياته الحفاظ على حياده والعب على الحبل للمحافظة على استمرار هذا التحالف الذي اختل بعد وفاته واعتلاء ابنه والعرش. وعن اللثيم لودفيكو أن يختبر قوى المتحالفين معه، فاقترح أن يلتقى سفراء الدول الثلاث المتحالفة في نفس الوقت في روما لتقديم واجب الطاعة والولاء للبابا الجديد ألكسندر السادس. ولكن بييرو أراد أن يتصل من هذه الشراكة ويستقل عنها وأن يصل إلى روما على رأس بعثة خاصة به رائعة وفخمة ومهيبة لمقابلة البابا، ولهذا سعى إلى إغراء ملك نابولي برفض اقتراح

لودفيكو. وانتهاز فرديناندو بن ألفونسو ملك نابولي هذه الفرصة لرد الصاع صاعين وتصفية حساباته القديمة مع لودفيكو الذي اغتصب حكم جيوفان جاليزو زوج إيزابيلا. وأخذت الشكوك تساور لودفيكو فتآمر بأن دعا فرنسا إلى غزو مملكة نابولي. وكان هذا الغزو بداية لسلسلة من المصائب والنكبات التي حلت بإيطاليا، وكانت سبباً في القضاء على تقدمها وازدهارها الأدبي والتجاري والثقافي. وزاد الطينة بلة أن إيطاليا - آنذاك - كانت نهباً مقسمًا بين حكامها الطامعين نتيجة القلاقل التي عصفت بها خلال القرن الخامس عشر.

وبينما تمزقت أوصال إيطاليا اشتد ساعد بعض البلاد المجاورة لها مثل تركيا، التي قويت لدرجة أنها تمكنت من وضع قدمها في قلب أوروبا، ومثل فرنسا وإسبانيا اللتين استطاعتا احتلال أجزاء من شبه الجزيرة الإيطالية. ناهيك عن سويسرا التي تميزت - آنذاك - بامتلاك أقوى سلاح مشاة في جميع أرجاء أوروبا. وشعر كثير من الدول الأوروبية بالغيرة مما أصابته إيطاليا من تقدم في مضمار الفنون والآداب والعلوم فوقفت لها بالمرصاد تتحين الفرصة لإلحاق الهزيمة بها، فقد عز عليها أن تكون إيطاليا مصدر إشعاع حضاري وثقافي في البلاد المحيطة بها. ونظراً لقرب إيطاليا منه، فإن شارل الثامن ملك فرنسا الشاب المغامر كان يطمع في الاستيلاء عليها توطئة إلى غزو تركيا.

ووجد هذا الملك المغامر أن نابولي لقمة سائغة يسهل عليه ابتلاعها. وشجع الفرنسيين على غزو إيطاليا ما كانت تعاني منه من قلاقل وعدم استقرار. وعندما دعاهم لودفيكو المغربي لاحتلال نابولي رأوا الطريق أمامهم ممهداً. حتى البابا ألكسندر نفسه رحب بهذا الغزو لأنه رآه في صالحه. غير أنه غير رأيه عندما دفع ألفونسو ملك نابولي له ثلاثين ألف دوقية وأغدق العطايا والهدايا على أولاده. واستشعر الفرنسيون أن جماهير فلورنسا، على وجه التحديد، كانت ترحب بقدومهم للتخلص من حاكمهم البغيض الطاغية بييرو دي مديسيس. وتضامناً مع جماهير فلورنسا المطحونة والراغبة في الإطاحة بملكهم النزق، اعتلى سافونارولا المنبر ليدعو الفرنسيين إلى عبور الألب وغزو إيطاليا. وأراد ملك فرنسا شارل الثاني تأمين جيشه فعمد معاهدة مع إسبانيا حتى لا تهاجمه من الخلف أثناء تحرك جيشه إلى الأمام. ورغبة في كسب ود الإسبان، اضطر إلى تقديم الكثير من التنازلات، الأمر الذي أغضب

الشعب الفرنسي منه. ونظراً لسوء أحوال فرنسا المالية آنذاك، فقد تعهد لودفيكو المغربي بأن يدفع لها مائتي ألف دوق، واعدًا إياها بالمزيد. فضلاً عن اضطرار ملك فرنسا إلى الاقتراض من بنوك جنوة بأسعار فائدة مرتفعة مقابل رهن مجوهراته ومجوهرات النبلاء. وتميز الجيش الفرنسي البالغ تعدادة ما يقرب من ستين ألف محارب شديد المراس على الجيوش الإيطالية بحسن إعداده.

وفي يوم ٢٢ أغسطس عام ١٤٩٤، قرر ملك فرنسا أن يبدأ حملته التي قادها بنفسه، فاخترق الحدود الإيطالية وتوقف عند بلدة أستي حيث استقبله بالترحاب كل من لودوفيكو المغربي وزوجته إلى جانب دوق فيرارا. وتوغلت القوات الفرنسية في الأراضي الإيطالية حتى وصلت إلى فلورنسا التي يحكمها بييرو الذي أسقط في يده فلم يعرف ماذا يفعل أمام هذه القوة الضارية التي لا قبل له بها، وخاصة بعد أن هجره الجميع. وحتى ينقذ هذا الحاكم الواجف نفسه من الموت، طلب من الفرنسيين أن يمنحوه ملاذاً آمناً مقابل تعهده بدفع ألف فلورينة، وهكذا تحققت نبوءة سافونارولا بانتهاء حكم عائلة المديسيس واندحارها المهين نتيجة جبروتها وطغيانها.

## الفرنسيون يطردون عائلة المديسيس الحاكمة من فلورنسا وسافونارولا يزور معسكرات الجيش الفرنسي (نوفمبر ١٤٩٤)

عندما انهارت قلاع فلورنسا في نوفمبر عام ١٤٩٤، سقطت جميع أراضي إقليم توسكانيكا في يد الجيش الفرنسي، الأمر الذي أثار حفيظة أهل فلورنسا على تردى الأوضاع وتخاذل ملكهم بييرو وجبنه أمام الأعداء. وعبر الأهالي عن غضبهم عن طريق التظاهر والتجمهر في الشوارع، وعقدوا العزم على التخلص من نير البطش والاستبداد اللذين عانوا منهما طيلة أكثر من نصف قرن حتى يستشققوا نسيم الحرية. ولم يعرف أفراد الشعب الساخط والمتجمهر في الشوارع والميادين ماذا يفعلون بحريتهم الجديدة بعد أن تخلصوا من استبداد حكم المديسيس، ولمن من القادة والزعماء يسلمون قيادتهم. وشخصت أبصارهم جميعاً إلى الراهب سافونارولا والتفوا حوله لعله يهديهم سواء السبيل. ولا غرو، فقد أصبح هذا الراهب الملاذ الوحيد الذي يحسون معه بالأمان والاطمئنان. وكان بإمكانه بكلمة تحريض واحدة أن يلهب مشاعر الجماهير المتعطشة للانتقام ضد من ظلموهم وسلبوا أموالهم؛ ولكنه حرص على الامتناع عن تهيج خواطرهم رغم عطفه الشديد عليهم. واكتفى بالتبشير بالسلام والإحسان والوحدة وتذكير أهل فلورنسا وجميع سكان إيطاليا بذنوبهم وحثهم على التوبة، وحذرهم من الغضب الإلهي القادم. وسقطت كلمات الراهب على قلب الشعب المطحون برداً وسلاماً وأدخلت فيه الهدوء والسكينة.

وفي الرابع من نوفمبر عام ١٤٩٤، دعا حاكم فلورنسا أشرافها إلى حضور اجتماع يقال له مجلس السبعين، لتدارس خطورة هذا الموقف المتدهور والعواقب الوخيمة



المرتبة عليه. وأخيراً نهض بييرو دي جينو كابوني على قدميه فسكت جميع الحاضرين وكان على رؤوسهم الطير ، وفي كلمات شديدة الإيجاز قال: «إن بييرو دي مديسيس لم يعد صالحاً لحكم الدولة، ومن ثم يجب إقامة نظام جمهوري.» وأعلن الرجل أن حاكمهم هو السبب الحقيقي في كل ما حلّ بفلورنسا من بلاء، وأن أهلها يحملون مشاعر الود نحو الفرنسيين. ثم طلب إرسال سافونارولا للتفاوض مع سلطة الاحتلال؛ نظراً لما يحظى به من احترام ملك فرنسا؛ وخاصة بعد أن ترامت إلى مسامعه نبوءاته عن قرب غزو فرنسا لفلورنسا.

وفي ٥ نوفمبر عام ١٤٩٤، تكون وفد من السفراء من: باندولفو روسيلدي، وجيوفاني كافالكانتى، وبييرو كابوني، وتاباني ويلزلى وسافونارولا لمقابلة ملك فرنسا للتحديث معه عن ضرورة إقامة نظام جمهوري في فلورنسا يحل محل النظام الملكى المتهاوى. وقبل سفره سيراً على الأقدام كعادته للانضمام للوفد، ألقى سافونارولا خطاباً في شعب فلورنسا حثهم فيه على التزام الهدوء والسكينة وعدم القيام بأعمال الشغب حتى يزبح الله عنهم الكرب الجاثم فوق صدورهم، كما أنه عرض في خطابه لغمة الجيروت والتسلط المتمثلة في حكم بييرو دي مديسيس التى أزاحها الله عن كاهلهم وبشرهم بعهد جديد من الحرية. ثم سافر إلى بيزا للحاق بالوفد الذى يزمع التفاوض مع ملك فرنسا. وأحس بييرو حاكم فلورنسا بالخطر الداهم يتهدهه فطلب العون من ملك فرنسا؛ واعدأ إياه بأن يدفع له على الفور مائتى ألف دوقية. واستعداداً للمقاومة أمر بييرو الحاكم أورسينى بحشد قوة تتبعه إلى فلورنسا، حيث توجه برفقة عدد كبير من الحاشية إلى قصره لدعوة برلمان شعبى إلى الانعقاد لاسترداد سيطرته على البلاد . ولكن المعارضين له نصحوه بدخول القصر بصحبة عدد ضئيل من المرافقين، وطلبوا منه تسريح الجنود الذين حشدتهم حتى تتجنب البلاد حمامات الدماء. فتراجع بييرو عن اقتحام القصر وانصرف من المكان . ولكنه لم يهدأ له بال فحاول نفر مدجج بالسلاح أن يدخل القصر عنوة، فقام مناوئوه بإغلاق مداخل القصر فى وجهه وطلبوا منه دخوله بمفرده بعد تجريدة من السلاح. وانصرف بييرو وهو يستشيط غضباً ؛ ولكن أحد الموالين له استوقفه وطلب منه الرجوع ، الأمر الذى أثار غضب الجميع منه. وشجع هذا التصرف المتعاطف بييرو على إعادة محاولة اقتحام القصر بالقوة؛ ولكن حارساً استطاع أن يرده على أعقابيه ويغلق الباب فى وجهه وهو يكيل له الإهانات.

وما إن شاهد شعب فلورنسا هذا، حتى بدأ ينخرط في أعمال الشغب. ووجهت الجماهير إلى بييرو دي مديسيس صيحات الاستهزاء، وألقى عليه الصببة في الشوارع وأبلاً من الحجارة. ودقت أجراس مدينة فلورنسا فهرع أهلها جميعاً إلى الشوارع ليروا في الميدان فرانسيسكو فالورى الذى جاء لتوه من المعسكر ممتطياً ظهر بغل، وقد تعفر وجهه بغبار السفر. كان فالورى في بادئ الأمر صديقاً لبييرو؛ ولكنه ما لبث أن انقلب عليه بسبب سوء حكمه وصار متعاطفاً مع الجماهير التى قاست الأمرين من مظالمه ومفاسده. وتوسم شعب فلورنسا في فالورى زعيماً شعبياً، فأحاطت به الجماهير تسأله عن آخر أنباء الغزو الفرنسى لإقليم توسكانى. وقام فالورى بإلقاء خطبة ملتهبة أثارت حماس الجماهير ضد بييرو، فتبعوه وساروا خلفه للاستيلاء على قصر عائلة المديسيس.

وعبثاً حاول أفراد عائلة المديسيس إيقاف هذا الطوفان الكاسح من المتظاهرين المدججين بالسلاح، فقد حاول أخو بييرو الكاردينال جيوفانى أن يجمع الناس حوله ويستنهضهم لمناصرة عائلة المديسيس. ولكنهم انفضوا من حوله وأظهروا العداء له. ووقعت عيناه على فالورى وهو على رأس مظاهرة حاشدة تلوح بالسلاح فتراجع ليكتشف أن أخاه بييرو أيضاً فر هارباً؛ حتى أتباعه وأنصاره تخلوا عنه. وما إن خرج بييرو من المدينة، حتى أوصد الشعب أبوابها لمنعه من العودة إليها. ووصل بييرو إلى بولونيا حيث استقبله بنتيفوجليو بمزيج من البرود والاحتقار، وعنفه قائلاً:

«إننى أفضل أن تمزق أوصالى من أن أتخلى عن دولتى بهذه الطريقة». وأخيراً استقر بييرو فى البندقية التى أحسنت استقباله. ومن المفارقة أن يكون جبن بييرو السبب الحقيقى فى سقوطه المهين، فلو أنه أظهر شيئاً من الشجاعة والحزم والتصميم لاستطاع أن يستفيد من تعاطف ملك فرنسا شارل الثامن معه، وليس أدل على هذا التعاطف من أن الملك أرسل إليه فى البندقية رسلاً لدعوته إلى العودة؛ ولكنه رفض لأنه لم ينس الإهانات وصيحات الاستكثار التى صمت أذنيه من شعبه.

وأعلن أعداء عائلة المديسيس عن مكافأة قدرها ألفا فلورينة لمن يأتى بجثتى بييرو وأخيه الكاردينال، وخمسة آلاف فلورينة لمن يأتى بهما أحياء. وفى الوقت نفسه، قام الثائرون بتحطيم كل ما يذكرهم بالظلم والاستبداد الذى مارسه هذه العائلة. ووقعت أحداث نهب وسلب لنفائس هذه العائلة وممتلكاتها الثمينة. ولكن

أحداث الشغب وسفك الدماء كانت محدودة بفضل دعوة سافونارولا وأعوانه إلى السلم ونبذ الصراعات وسفك الدماء.

وأخيراً ذهب سافونارولا لزيارة معسكر الجيش الفرنسي، حيث قابل ملك فرنسا وقد أحاط به قواده. فاستقبله الملك وقواده برفق وود شديدين. ومن ناحيته، خاطب سافونارولا الملك قائلاً: «أيها الملك المعروف بتمسكه بالمسيحية، أنت أداة في يد الله أرسلك كي تخفف أوجاع إيطاليا على نحو ما تنبأت به لأعوام عديدة. إن الله أرسلك من أجل إصلاح الكنيسة التي تمرغت في التراب. وإذا عجزت عن أن تظهر الاحترام لنساء مدينة فلورنسا وتعطى أهلها حریتهم، وإذا نسيت الواجب الذي أرسلك الله لأدائه، فإن الله سبحانه وتعالى سوف يختار غيرك لأدائه وسوف ينزل ضرباته عليك ويعاقبك عقاباً شديداً ومروعاً. وإنى باسم الله أقول لك هذه الأشياء.» وبدا على الملك وقواده شدة التأثر من وعيد سافونارولا وتهديده، كما بدا أنهم يؤمنون كل الإيمان بما تفوه به. بل إنه شعر بالرعب من هذا الراهب الذي تحققت نبوءاته؛ ولهذا قرر أن يحسن معاملة أهل فلورنسا.

## ثورة بيزا ودخول ملك فرنسا شارل الثامن

### فلورنسا وجلاؤه عنها (نوفمبر ١٤٩٤)

ساعات أحوال إقليم فلورنسا سوءاً ملحوظاً. ففى نفس اليوم الذى تم فيه طرد عائلة المديسيس من فلورنسا، قام أهل بيزا بثورة مكنتهم من استعادة حريتهم بالقوة من قبضة فلورنسا عليهم. ومن ثم فرح أهل بيزا وهللوا لقدم الفرنسيين وانتعشت آمالهم فى حياة أفضل. وسعى لودفيكو المفربى إلى الصيد فى الماء العكر، فحرض أهل بيزا على الثورة ضد فلورنسا بغية توليه سدة الحكم فى بيزا. وبمجرد دخول الملك الفرنسى شارل الثامن مدينة بيزا ثارت هذه المدينة فى وجه كل الرموز التى تمثل فلورنسا، وقام الثوار بطرد ممثل السلطة الفلورنسية ونهب بيوتهم وسلبها. ورفعت بيزا على الفور ألوية الحرب والاستقلال ضد فلورنسا، الأمر الذى تسبب فى إنهاك المدينتين معاً.

ووقف ملك فرنسا موقف المتفرج من هذا الصراع المحتدم بين الجانبين، وفى بادئ الأمر شجع ملك فرنسا سكان بيزا على الثورة ضد فلورنسا، ولكنه ما لبث أن غير موقفه عندما رأى أهل بيزا يتمادون فى ثورتهم ويصرون على شق عصا الطاعة على سلطة فلورنسا. ولم يفطن ملك فرنسا إلى عاقبة تشجيع أهل بيزا على الثورة، فقد شجع هذا أهل فلورنسا على إعلان عصيانهم على حاكمهم، كما شجع على اندلاع نيران الثورة فى مدن أخرى مثل أريزو ومونتبو لسيانو. واستمر ملك فرنسا فى توغله فى الأراضى الإيطالية وتوقف لبضعة أيام فى سيجنا، ليعطى فرصة للهدوء كى يسود فلورنسا التى كانت تمور بأعنف الاضطرابات منذ أن تم طرد عائلة المديسيس

الحاكمة منها، بينما وقف جيش ملك فرنسا على أبواب هذه المدينة، وفي ذروة هذا الاضطراب بشر سافونارولا بعمل البر والإحسان، ودعا إلى اتحاد الأمة وسلامها. وبسبب الأخطار التي تتهددها أصبحت فلورنسا في حالة تأهب. وأرسلت رسلاً إلى ملك فرنسا لسبر غوره ومعرفة نواياه. وكان الجيش الفرنسي القابع خارج أسوار فلورنسا يرسل بعض جنوده داخل المدينة، ليضعوا علامات بالطباشير على المساكن التي تصلح كثكنات لمعيشة العساكر، وانبهر هؤلاء الفرنسيون بروعة المبانى وفخامة القصور والأبراج التي بدت كالقلاع الحصينة. وسرت. آنذاك. شائعة بأن حاكم فلورنسا البغيض بييرو دى مديسيس عاد أدراجه ليدخل المدينة، وأمام هذا التوجس دقت أجراس فلورنسا واحتشدت جماهيرها في الشوارع وهم مدججون بالسلاح. وهب الشعب التائر للدفاع عن المدينة وأقاموا الحواجز والمتاريس في الشوارع وأوصدت أبواب القصر، حتى لا يتمكن سيده من العودة إليه. وعندما تأكد للشعب الهائج أن الإشاعة ليس لها أساس من الصحة، انصرف بنفس السرعة التي تجمع بها. وتبين للجنود الفرنسيين الذين دخلوا فلورنسا لوضع علامات على البيوت لإقامة الجيش الفرنسي أن غزو فلورنسا لن يكون أمراً سهلاً؛ وخاصة لأن روحاً قتالية شجاعة دبّت في أهلها بعد نجاحهم في الإطاحة بحاكمهم الطاغية بييرو دى مديسيس وتحرروا من ربة استعباده.

وفي الوقت نفسه، أقيمت في قصر المديسيس الاستعدادات لاستقبال الملك الفرنسي شارل الثامن استقبالاً رائعاً وحافلاً، واصطف أشرف ونبلاء فلورنسا للترحيب به. ولكن هطول الأمطار كاد أن يفسد جو الاحتفالات البهيج. ولكن ضابطاً من سلاح فرسان فلورنسا سارع بإنقاذ جو الاحتفال من التعكير، فقد سارع ممتطياً جواده وشق الصفوف التي سادها الاضطراب واقترب من الملك الفرنسي ليلقى على مسامعه خطبة قصيرة ترحب بمقدمه، وهكذا دخل شارل الثامن مدينة فلورنسا مظفراً وفي معيته عدد قليل من القواد، إلى جانب كاردينال سانت بييرو وكاردينال سانت مالو، ومن خلفه تبعه جيشه الفريد في إعداداته وتكوينه وتعدد جنسياته، والذي قدر البعض تعداداه بما يقرب من اثني عشر ألف جندي. والجدير بالذكر، أن الملك شارل الثامن أرسل في الوقت نفسه قوة أخرى من سلاح المدفعية باتجاه روما.

وبعد دخول ملك فرنسا مدينة فلورنسا دخول الغزاة الظافرين وسط الأهالي وزينات الفرح ونغمات الموسيقى الصادرة، تقدم الملك الظافر إلى قصر المديسيس



الفخيم.

أمضى أهل فلورنسا يومين متتاليين فى إقامة الأفراح والليالى الملاح، بعدها أخذ الجميع يفكرون فى نوعية المعاهدة التى يزمعون إبرامها مع ملك فرنسا. واختارت فلورنسا وفداً للتفاوض مع هذا الملك يضم كوكبة من ألمع أشرافها وأكثرهم كفاءة واقتداراً وأرفعهم سمعة، مثل جويد أنتونيو فيسبوكى، ودومينيكو بونسى، وفرانسييسكو فالورى وبييرو كابونى. ووقع عبء المفاوضات الثقيل على كاهل كابونى، ذلك الأرستقراطى الشجاع الذى كان من أشد الناس مناصرة لحكم لورنزو، والذى لم يعجبه حكم ابنه بييرو فتناصب حكم المديسيس مر العداء لما رآه فى بييرو من تخاذل وتردد وجبن. وكان ملك فرنسا يميل إلى استمرار عائلة المديسيس فى الحكم؛ نظراً لما أبدته والدته بييرو وزوجته من الاستعداد لمشاركة الفرنسيين فى حكم فلورنسا، الأمر الذى جعل ملك فرنسا يعامل بخشونة وفضاظة المبعوثين الذين بعثت بهم فلورنسا للتفاوض معه.

وفى تكبر واضح واستعلاء جلى أفهم الملك الغازى الوفد المفاوض بأنه أصبح سيد البلاد وأنه يأمر فيطاع، الأمر الذى أساء إلى مشاعر مواطنى فلورنسا وتسبب فى تعثر المفاوضات. وعندما تفوه ملك فرنسا ببعض الكلمات التى تتم عن مساندته لبييرو حاكم فلورنسا المكروه، تجهمت وجوه أعضاء الوفد الفلورنسى المفاوض وبدأ عليهم الضيق الشديد والرغبة فى التصدى المسلح لملك فرنسا. وتدهورت العلاقة بين الغزاة الفرنسيين وأفراد الشعب الفلورنسى، فكثر بينهم المشاجرات والمشاحنات التى تنتذر بالانفجار.

وبالفعل، وقع هذا الانفجار عندما حدث عراك أدى إلى اشتعال فتيل الأزمة، فقد قام بعض الجنود الفرنسيين بتقييد بعض سجناء الحرب الإيطاليين بالحبال وجرحهم فى الشوارع وإرغامهم على الاستجداء من المارة حتى يتمكنوا من دفع الفدية اللازمة لإطلاق سراحهم، مهددين إياهم بالقتل إذا فشلوا فى جمع الفدية المطلوبة. وأشعل هذا المنظر مراجل الغضب فى عروق الإيطاليين الذين آلمهم أن يستذل الفرنسيون بنى جلدتهم إلى هذا الحد. وتجراً واحداً من الطليان فقطع الحبال وأطلق سراح الأسرى. وهاج الفرنسيون وماجوا وحاولوا بدون جدوى إعادة القبض على الفارين. ونشب عراك بين الأهالى وجيش الاحتلال الفرنسى، واستطاع الأهالى الذين تجمعوا

وتكاثروا الصمود أمام أعدائهم، بل إنهم تمكنوا من ردهم على أعقابهم. ولكن السلطة المسئولة في فلورنسا خشيت من تفاقم الموقف، فأمرت مواطنيها بالكف عن الشجار.

ولقنت هذه الحادثة ملك فرنسا درساً جعل قناته تلين، فوافق على عقد اتفاق مع وفد فلورنسا. ورغم موافقة الطرفين على معظم البنود الواردة في الاتفاقية، إلا أن الخلاف احتدم بينهما حول نقطة بالغة الحيوية. فقد كان ملك فرنسا يطمح في الحصول على قدر هائل من المال أكبر من قدرة أهل فلورنسا على الوفاء به. وعبثاً حاول الوفد حمل الملك على التخفيف من قسوة هذا الشرط. ولكن ملك فرنسا تشبث به، الأمر الذي جعل الدم يغلى في عروق كابوني المفاوض الإيطالي. وأخيراً أمر ملك فرنسا سكرتيه بتوجيه إنذار إلى الجانب الإيطالي الذي عزت عليه كرامته فرفض قبول هذا الإنذار. فهدده شارل الثامن بقرع طبول الحرب. عندئذ احتقن وجه كابوني من الغضب وانتزع الإنذار من يد سكرتير الملك وقام بتمزيقه في وجه الملك نفسه، قائلاً قولته الشهيرة: «ونحن سندق أجراسنا».

ويبدو أن حدة لهجته هي التي حملت ملك فرنسا على تقديم بعض التنازلات لتجنب اندلاع السنة الحرب بالموافقة على معاهدة مقبولة من الطرفين. ونصت هذه الاتفاقية على تأكيد أواصر الصداقة بينهما وتبادل الحماية. وأن يلقب ملك فرنسا بأنه الذي أعاد الحرية إلى فلورنسا ووفر لها الحماية، وعلى أن يدفع أهل فلورنسا إليه ١٢٠ ألف فلورينة على ثلاثة أقساط. وأيضاً نصت الاتفاقية على مناصرة ممتلكات بييرو لحين وفائه بالدين المستحق عليه وأن يظل منفياً على مبعدة مائتى ميل من حدود توسكانيا، ونفى إخوته على مبعدة مائة ميل من هذه الحدود.

وعلى الرغم من توقيع هذه المعاهدة، فإن جو القلاقل والاضطرابات ظل يرفرف على المدينة؛ لأن ملك فرنسا لم يرحل مع جنوده بل ظل مرابطاً في فلورنسا، الأمر الذي جعل اندلاع شرارة القتال ممكنة في أية لحظة. وكثرت جرائم السرقة والقتل في المدينة، وتوجه المسئولون إلى سافونارولا كي يتدخل لحفظ الأمن والنظام. والذي لا شك فيه أن سافونارولا لعب دوراً بارزاً في إقرار الهدوء والسكينة، فقد عاد إلى الحديث مع شعب فلورنسا عن الرخاء العام ونبذ الأحقاد والمطامع والخلافات حرصاً على المصلحة العليا للبلاد ووحدة شعبها. وتركزت وعظاته على الدفاع عن حرية جمهورية فلورنسا التي نالتها مؤخراً، وعلى وحدة الصف الفلورنسى والبعد عن التنازع.

وعندما طلب منه المسئولون أن يذهب إلى ملك فرنسا ليحثه على الرحيل، رحب بهذه المهمة وسارع إلى أدائها. وعندما اقترب الراهب سافونارولا من القصر الذي يعيش فيه ملك فرنسا شارل الثامن فكر حراسه في منعه من الدخول لمقابلة هذا الملك، ولكنهم خشوا من غضبه عليهم لأنهم كانوا يعرفون مدى تبجيل الملك له، واستقبله الملك بكل رقة حاشية. ولم يضع سافونارولا أى وقت في المقدمات، بل خاطب الملك في الموضوع مباشرة قائلاً له: «أيها الأمير المسيحي، إن بقاءك هنا يسبب الأذى الكبير لمدينتنا ولمشروعك الذي تضطلع به. إنك تضيع الوقت ناسياً الواجب الذي أناطته بك العناية الإلهية، الأمر الذي يلحق الضرر بازدهارك الروحي وسمعتك في الدنيا. فلتستمع إلى صوت خادم الرب المائل أمامك. استمر في رحلتك بدون إبطاء، ولا تسع إلى خراب هذه المدينة حتى لا تثير غضب الله عليك».

وبالفعل، استجاب ملك فرنسا إلى مطالب سافونارولا فرحل عن فلورنسا يتبعه جيشه الجرار؛ ولكنه فعل هذا بعد أن نهب وأعوانه نفائس القصر الذي يقيم فيه. وتنافس أهل فلورنسا الصعداء بعد رحيلهم. وبعد رحيل الفرنسيين عن فلورنسا أصبحت الصورة مغايرة تماماً عما كانت عليه، حيث لم يبق لعائلة المديسيس أو أنصارها أى وجود، بل أصبح حزب الشعب يحكمها في حين أصبح سافونارولا زعيم البلاد الروحي بلا منازع، فهو الذي تتبأ بغزو الفرنسيين لفلورنسا وهو الذي أقنع ملك فرنسا بالقصد والاعتدال في معاملة الفلورنسيين، كما أنه أقنعه بالرحيل عن المدينة المحتلة. فلا غرو إذا صار سافونارولا النبي الذي يقول فيفصل، والذي يلتمس الجميع مشورته ويتحركون بتوجيهاته. وهكذا صار دير القديس مرقس مقر سافونارولا واهب الحرية لأهل فلورنسا، بفضل دفاع هذا الراهب المجيد عن هذه الحرية.

## حالة فلورنسا بعد جلاء القوات الفرنسية عنها

### واقترح سافونارولا بإقامة شكل جديد للحكم (ديسمبر ١٤٩٤)

ينحى بعض الدارسين باللائمة على سافونارولا، لأنه تورط أكثر من اللازم فى شئون فلورنسا السياسية. ويتضح من وعظاته أنه آمن إيماناً راسخاً بأنه الرسول الذى أرسلته العناية الإلهية لإنقاذ فلورنسا من الوهدة السياسية التى تردت فيها. أكثر من هذا أنه تتبأ بالمصير البائس الذى ينتظره. يقول سافونارولا فى إحدى وعظاته، إنه سمع الله يقول له إن مصيره سيكون شبيهاً بمصير السيد المسيح الذى صلبه اليهود على الخشبة. وكما سنرى بذل سافونارولا مجهوداً مضنياً كي يتجنب أهل فلورنسا سفك الدماء بعد نجاحهم فى التخلص من بييرو دى مديسيس، حاكمهم الطاغية.

الجدير بالذكر، أن مفهوم المواطن الفلورنسى عن الحرية تلخص فى رغبته فى المساهمة الفعلية بصورة أو أخرى فى إدارة شئون الحكم. هذه الرغبة العارمة من جانب المواطن الفلورنسى فى تداول السلطة، تفسر تغيير القضاة كل بضعة شهور وكثرة عدد اللجان التى تتولى إدارة البلاد. فعلى سبيل المثال، كان أعضاء مجلس المدينة (السيجنورى Signory) يعينون لمدة شهرين، كما كانت هناك لجنة الثمانية التى تمثل صناع فلورنسا وتجارها. بالإضافة إلى لجنة تعرف بلجنة العشرين Accoppiatori يتم تعيينها كل ستة أشهر، وهى اللجنة التى يُنَاط بها إعلان الحرب أو إقرار السلام، وأيضاً هيئة الثمانية التى تختص بالنظر فى الجرائم والجنايات ويعين أعضاؤها كل أربعة شهور. ناهيك عن مجلس المدينة وهيئة أخرى تعرف بالكولييجيو Collegio. وفوق كل هذا وذاك كان هناك البرلمان Parlamento أو المجلس الشعبى الذى يجتمع كلما

مرت المدينة بأزمة ودق ناقوس الخطر، وهو ناقوس كبير يسمع في شتى أرجاء المدينة في وقت المحن. وفي الماضي كانت عائلة دي مديسيس الحاكمة تعمل على استبعاد أعدائها ومناوئتها السياسيين من هذه اللجان والهيئات، بغية الاستئثار بالسلطة.

وبعد طرد بييرو دي مديسيس من فلورنسا طرأت بعض التغييرات على هذه اللجان والهيئات، مثل إلغاء عدد منها بأمر من البرلمان أو المجلس الشعبى الذى حل محل مجلس العشرين، والذي اتخذ الإجراءات الكفيلة بعدم عودة بييرو دي مديسيس إلى فلورنسا، وهو الشيء الذى كان سافونارولا قد دعا إليه فى الوعظة التى ألقاها يوم الاثنين الموافق ٨ ديسمبر ١٤٩٤. والجدير بالذكر، أن سافونارولا دعا جمهور الشعب فى فلورنسا إلى السير فى موكب لتقديم الشكر إلى الله والاحتفال بهذه المناسبة. ويلاحظ الدارسون أن الوعظة التى ألقاها سافونارولا يوم السبت الموافق ٦ ديسمبر ١٤٩٤ شاهدت انتقاله الواضح من الحديث عن الشئون الروحية إلى التركيز على السياسة ولكن فى سياق دينى، وفى إطار الحز على البر بالفقراء والإحسان إليهم وجمع التبرعات من أجلهم. وترجع الأهمية البالغة لوعظته فى ٦ ديسمبر إلى أنه طالب فيها بتغيير الدستور، واستحداث نظام حكم جديد على غرار الحكم فى البندقية. ومن المرجح أن سودرينى Soderini سبق سافونارولا إلى هذه الدعوة التى لم توضع موضع التنفيذ إلا بعد أن دعا إليها سافونارولا من فوق منبره.

ولم يمض أسبوع واحد حتى احتدم النقاش فى فلورنسا حول ضرورة إصدار دستور جديد للبلاد؛ ولكن سافونارولا حسم الجدل الدائر بشأنه فى الوعظة التى ألقاها فى ١٤ ديسمبر ١٤٩٤ وحضرها مجلس المدينة وجميع القضاة وعلية القوم. قال سافونارولا فى وعظته الشهيرة هذه، إن حكم الفرد هو الأفضل إذا كان هذا الفرد ممدوح الخصال. أما إذا كان الحاكم الأوحى سيئاً أو شريراً، فإن حكم الفرد هو الأسوأ بلا منازع. وأردف سافونارولا قائلاً إن حكم الفرد الواحد لا يصلح فى إيطاليا وبالذات فى فلورنسا، حيث نجد فى مواطنيها وفرة فى الحيوية والعقول الراجعة والنفوس القلقة غير المستقرة. فمثل هذا الحكم من شأنه أن يتحول إلى أداة قسر واستبداد. ثم شن سافونارولا هجوماً عاتياً على الفرد الحاكم المستبد؛ لأنه يفتصب حقوق غيره من الناس ويدمر روحه وروح الشعب الخاضع له. ومن ثم فلا بد من التصدى للاستبداد



واستئصال شأفته، ولا بد من التخلص من الأنانية وإيثار مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد. هذا في رأي سافونارولا هو الطريق ليس لإصلاح فلورنسا وحدها، بل لإصلاح العالم بأسره. وبعد أن تحدث سافونارولا عن ضرورة التزام نظام الحكم الجديد بكلمة الله، أضاف أن إيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة يقتضى إنشاء «المجلس الأعظم» واتباع دستور شبيه بالدستور القائم في مدينة البندقية.

وكما أسلفنا، كان سودريني سفير فلورنسا لدى البندقية من أشد الناس تحمساً ودفاعاً في ضرورة الاقتداء بدستورها. ولكن جويد نتونيو فيسبوكي كان من غلاة المعارضين له، بحجة أن كثرة أعضاء المجلس المشار إليه سوف تحول دون ممارسة عمله بالكفاءة المطلوبة. ومن ثم حبذ أن تتولى مقاليد الحكم في البلاد أقلية أرستقراطية. وبطبيعة الحال، وجدت دعوته صدى لدى عائلات فلورنسا المرموقة التي عارضت انضمام شرائح من الناس العاديين إلى هذا المجلس المقترح. وهو الموقف الذي تبناه معظم أعضاء الكوليجيو.

غير أن سافونارولا الذي كان يحبذ توسيع قاعدة المجلس الأعظم، اقترح في الوعظة التي ألقاها في ١٤ ديسمبر ١٤٩٤ أن تطرح طوائف الهيئة القضائية المختلفة نظاماً للحكم، ثم ترفع جميع الآراء المقترحة إلى الكوليجيو لاتخاذ ما يراه مناسباً. وهو ما تم بالفعل في ١٩ ديسمبر ١٤٩٤. واقترحت لجنة العشرة التي كان سودريني أبرز زعمائها إنشاء مجلس موسع. وصادف اقتراحه هوى لدى أغلبية الناس. ولعل أهم ما جاء في الدستور الجديد تعيين «مجلس أعظم» يتكون من ثلاثة آلاف عضو يدعون إلى الاجتماع مرة كل أسبوع، وتعيين مجلس أقل عدداً يتكون من ثمانين عضواً يكونون على أهبة الاستعداد للاجتماع وفقاً لمتطلبات مجلس المدينة. وعند دعوة سافونارولا لهذا المجلس دافع بحرارة عند خطة سودريني، الأمر الذي عجل بالموافقة عليها ووضعها موضع التنفيذ في ٢٣ ديسمبر ١٤٩٤.

غير أنه من الخطأ أن نظن أن «المجلس الأعظم» كان مؤسسة ديموقراطية تماماً، فقد كانت غالبية أعضائه من علية القوم، ولكن عدد أعضاء هذا المجلس في بداية كل عام كان يتزايد بإضافة ستين عضواً منتخباً جديداً. وكان المجلس الأعظم يتمتع بالسلطة التشريعية. وكانت الإجراءات الجديدة تناقش أولاً في مجلس الكوليجيو ثم تحول بعد الموافقة عليها إلى مجلس آخر يعرف بالأوتانتا Ottanta، ثم تحول أخيراً إلى «المجلس الأعظم» للموافقة عليها أو رفضها، وليس لمناقشتها.

أراد سافونارولا أن يضع حداً للشحناء والتابذ السياسى فى فلورنسا، وأن يتجنب انتقام النظام الجمهورى الوليد من عائلة دى مديسيس المخلوعة وأنصارها. ولهذا، لم يكف عن الحديث عن ضرورة التسامح وإعلان العفو العام عن الجرائم السياسية، فضلاً عن أنه اقترح أنه يحق للمحكوم عليهم فى جرائم خطيرة بناء على رأى ثلثى أعضاء مجلس المدينة الاستئناف ضد الحكم الصادر عليهم. ويعرف هذا التشريع الجديد بقانون الاستئناف أو قانون الحبات الست، حيث إن الاقتراع فى فلورنسا كان يتم عن طريق استخدام حبات الفول أو الفاصوليا. وبالنظر إلى أن مجلس المدينة كان يتكون من تسعة أعضاء، فإن أى حكم فى الأمور الجسيمة كان يتطلب موافقة ستة أصوات عليه على الأقل.

ورغم معقولية هذا الاقتراح، إلا أنه قوبل بالمعارضة من جانب بعض الهيئات مثل مجلس المدينة الذى رأى فى تنفيذه انتقاصاً من سلطانه وتقليصاً لصلاحيته. وأيضاً يرجع اعتراض البعض على قانون الاستئناف إلى التخوف من أنه قد يتيح الفرصة لبييرو دى مديسيس للعودة إلى حكم البلاد. والواقع، أن عائلة المديسيس والأرستقراط التابعين لها رحبوا ترحيباً عظيماً بقانون الاستئناف واعتبروه فاتحة خير. وتزعم جبهة المعارضة واعظ فرانسيسكانى هو دا بونزو المعروف بعلمه الغزير وفساده الكبير.

واستدعى مجلس المدينة كلاً من سافونارولا المؤيد لقانون الاستئناف ودومينيكو دا بونزو المعارض له، إلى جانب رئيس دير الدومينيكان سانتا ماريا نوفيللا الراهب توماسو دى ريينى. وطلب مجلس المدينة من سافونارولا أن يثبت أن الله أوحى له بوعظاته التى تتناول الموضوعات السياسية. وبعد أن استمع سافونارولا إلى شهادة الشاهدين الآخرين دار على عقبه، قائلاً إنه يعرف جيداً ما يقول، وإن الوقت قمين بإمالة اللثام عن الحقيقة، ومحدراً من النكبات التى سوف تحل عليهم إذا امتنعوا عن الأخذ بنصيحته. وهى نصيحة من الواضح أنها تتمشى مع روح العدل. وقال سافونارولا، إنه لا يجوز لمجلس المدينة التفكير فى إلغاء الاستئناف أو الإعراض عنه، لأن هذا من شأنه تشجيعه على ممارسة الظلم. ومع ذلك، فقد نجح مجلس المدينة فى تأجيل استئان هذا القانون. ولكن بعد إعادة تشكيل هذا المجلس تغير موقفه، حيث أصبح عدد كبير من أعضائه راغبين فى الأخذ به. وشجع على هذا تلك الحرب التى

دارت رحاها بين كل من فلورنسا وبيزا، لأن خوف فلورنسا من الحرب أنساها خوفها من عودة عائلة دي مديسيس إلى الحكم، كما أن المجتمع الفلورنسي كان بحاجة إلى تماسك طوائفه بغض النظر عن الاختلافات السياسية. وفي هذا الجو المتوتر بسبب اندلاع الحرب مع بيزا، خفت المعارضة ضد استئان قانون الاستئناف. واستمر سافونارولا في الضغط على حكومة فلورنسا لتمرير إعلان العفو العام وإصدار قانون الاستئناف. وبالفعل تم هذا؛ ولكن قانون الاستئناف لم يوافق عليه بنفس الصورة التي اقترحها سافونارولا، حيث إن النظر في الاستئناف أُسند إلى «المجلس الأعظم»، وليس إلى لجنة الثمانين كما كان يريد. ويرجع هذا التغيير إلى المناورات السياسية التي حاكها عدد من شخصيات فلورنسا المرموقة. ويبدو أن سبب التغيير يرجع إلى رغبة الكثيرين في التأكد من عدم عودة عائلة المديسيس إلى سدة الحكم، حيث إن «المجلس الأعظم» في عمومته كان يحمل لها البغضاء والموجدة. وعلى أية حال، لم يثر سافونارولا أي اعتراض على التغيير في اقتراحه الأصلي.

ونتيجة للتغيير الذي طرأ، لم يكن هناك مناص من حل اللجنة المعروفة باسم الأكوبياتوري. وفي بادئ الأمر اعترض بعض أعضائها على فضها؛ غير أن سافونارولا استطاع إقناعهم بالاستقالة من مناصبهم وحل أنفسهم بأنفسهم. وهكذا تم حل هذه الهيئة في ١١ يونيو ١٤٩٥. وحتى يضمن أنصار الدستور الجديد عدم الرجوع فيه، كان لابد من استئان قانون يمنع دعوة البرلمان أو مجلس الشعب للانعقاد؛ نظرًا إلى أن هذا المجلس يتكون من الدهماء المتقلبين الذين يسرون وراء أهوائهم.

إن الفضل كل الفضل في إصدار الدستور الجديد يرجع إلى سافونارولا الذي اعتبر هذا الدستور تجسيداً لمشية الله، وتدل وعظاته في تلك الفترة (١٤٩٥ - ١٤٩٦) على شدة مؤازرته له، كما تدل على هجومه الضار على البرلمان أو مجلس الشعب الذي طالب بإلغائه ووصفه بأنه أداة للدمار. وفي يوم ١٣ أغسطس ١٤٩٥، تم إلغاء أحقية البرلمان أو مجلس الشعب في نظر حالات الاستئناف، كما نص هذا الإلغاء على توقيع عقوبة الإعدام على كل متآمر يدعو البرلمان إلى الانعقاد، وتخصيص مكافأة قدرها ثلاثمائة فلورينة لكل مكتشف لهذا التآمر. لم يكن سافونارولا الذي كرس كل وقته للصلاة والابتهاال لله راغبًا في الانصراف عن صلاته من أجل الانشغال بأمور فلورنسا الدنيوية. ولكن اليأس المحيط به دفعه مرة أخرى إلى الزج بنفسه في خضم السياسة.

صحيح أنه استمر في إلقاء وعظاته التي تدعو القادرين إلى الإحسان والبر بالفقراء؛ ولكنه عندما رأى الوجوه البائسة من حوله تلتمس لديه طوق النجاة من حياتهم السياسية والاجتماعية المضطربة، قرر في ١٢ ديسمبر ١٤٩٤ أن يلقي بنفسه في معترك السياسة. فناصر أي حكم مطلق في فلورنسا العداء؛ لأن أهلها يتميزون بالحجى والحيوية معاً. قال إن فلورنسا تحتاج إلى حكومة حديثة شعبية تلفظ حكم الفرد والطفان؛ لأن الحاكم الطاغية يدمر روحه مثلما يدمر روح الشعب الذي يحكمه. واعتبر سافونارولا أن الحرية مقدسة، وأن القضاء على الحكم القائم على الاستبداد سوف يؤدي بالضرورة إلى إصلاح حال إيطاليا التي يمكن أن تصبح نموذجاً يحتذى به جميع الأمم. وكمادته دائماً، أكد سافونارولا أن الله هو الذي يوحى إليه بهذه الأفكار. قاله يريد من شعبه أن يكون حراً في اختيار حكمه وفي تنفيذ القوانين التي يرى أنها تناسبه. وأضاف سافونارولا ضرورة الاقتداء بنظام الحكم السائد في مدينة البندقية، وهو حكم ديمقراطي يتولى المجلس الأعلى مقاليدته. وأيضاً دعا هذا الراهب إلى تخفيف الضرائب عن كاهل الشعب، كما طالب بأن يكون شغل جميع الوظائف المهمة قائماً على الانتخاب، والجدير بالذكر أن مجلس مدينة فلورنسا دأب على الاسترشاد برأيه واستشارته في شئون الدولة والسياسة. وإلى جانب دعوته إلى إقامة حكومة شعبية، دعا سافونارولا إلى نبذ التناحر والشحناء وتغليب مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد، وإلى التصالح بين حكام فلورنسا الجدد وحكامها القدامى. وجمع المؤرخون على أن دعوة سافونارولا إلى الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعى جنبت فلورنسا كثيراً من ويلات الانشقاق. وهكذا التف شعب فلورنسا حوله واعتبروه زعيمهم الذي يرشد خطاهم نحو تحقيق الحرية وخدمة الله في آن واحد.

ولابد للمؤرخ الذي يريد أن يتتبع الإصلاحات السياسية التي أدخلها سافونارولا على نظام الحكم في فلورنسا أن يطالع الوعظات التي ألهاها هذا الراهب في الفترة من ١٤٩٤ حتى ١٤٩٥. ففي كل مرة أراد أن يسن قانوناً جديداً كان يمهد له في الوعظات التي يلقيها. ويجتمع الساسة ورجال القانون على رأى واحد، مفاده أن الإصلاحات التي أدخلها سافونارولا على نظام الحكم كانت الأفضل من نوعها في كل تاريخ فلورنسا الملىء بالاضطرابات. والجدير بالذكر، أن سافونارولا رأى في إصلاحاته خطوة تمهد لإصلاح الكنيسة الكاثوليكية بأسرها. فلا غرو إذا وجدناه يخطط مقترحاته عن الإصلاح السياسى بالحض على انتهاج الفضيلة والأخلاق الحميدة.

وقرب نهاية شهر ديسمبر عام ١٤٩٤، اقترح سافونارولا استئناف قانون يقضى بإنشاء مجلس عظيم أو «المجلس الأعظم» يحق له تعيين القضاة والمستشارين وكبار رجال الدولة، كما يحق له اعتماد القوانين والموافقة عليها، وبهذا يصبح المجلس الأعظم أكبر سلطة في البلاد. ولم يكن المجلس الأعظم حكراً على طبقة دون الأخرى، بل افترض فيه أن يضم كل مواطن صالح يبلغ سن الرشد ويدفع ما عليه من ضرائب. واتضح في أول انتخابات أجريت في فلورنسا أن عدد الأشخاص المؤهلين لعضوية المجلس الأعظم يصل إلى ثلاثة آلاف ومائتي شخص من مجموع سكانها البالغ عددهم تسعين ألف نسمة. وكان اجتماع هذا المجلس لا يعتبر قانونياً إلا بحضور ثلثي الأعضاء. وتم إدخال تعديل عليه كي يسمح بانضمام العناصر الشابة إليه، وبمقتضى هذا التعديل أصبح المجلس الأعظم ينص على ضم ستين مواطناً وأربعة وعشرين شاباً في سن الرابعة والعشرين يتحلون بالفضيلة والأخلاق الحميدة، حتى تكون الفضيلة نصب عين أهل فلورنسا على الدوام. وابتداء من ١٥ يناير ١٤٩٥ أصبح من حق المجلس الأعظم أن ينتخب ثمانين مواطناً في سن الأربعين، لتشكيل مجلس يقال له مجلس الثمانين يجتمع على الأقل مرة كل أسبوع لتسيير شئون المدينة، مثل ترشيح السفراء وقاد الجيش وتجديد المرتزقة.

وهكذا أصبحت الحكومة الجديدة تتشكل من المجلس الأعظم ومجلس الثمانين. وهذان المجلسان كانا مسئولين أمام مجلس الشعب أو البرلمان. وأنيط بمجلس الثمانين والمجلس الأعظم مهمة اعتماد القوانين حتى تصبح سارية المفعول. ومن الإصلاحات البالغة الأهمية التي أدخلت على نظام الحكم في فلورنسا، تجميع القوانين الجديدة وإصدارها في مجلد منفصل حتى لا تختلط بالقوانين القديمة فيتوه المرء بين قديمها وجديدها.

ومن الإصلاحات الجديدة بالذكر تشكيل لجنة مكونة من عشرة مواطنين مهمتها إصلاح الجهاز الضريبي، وفرض الضرائب على القادرين حتى لو كانوا من رجال الأكليروس وإعفاء غير القادرين. أولى سافونارولا عظيم اهتمامه بمراجعة قوانين الضرائب، وتتضمن وعظاته إشارات مستمرة إلى ضرورة مراجعتها. وأصدر المجلس الأعظم القوانين الخاصة بإصلاح الضرائب في ٥ فبراير ١٤٩٥ بناء على توجيهات هذا الراهب المصلح، واتسمت القوانين الجديدة بالعدل والحكمة. ونص القانون



الجديد على أن يدفع المواطن الفلورنسى ١٠٪ من إيراده الفعلى. وكان تقدير الممتلكات الفعلية للمواطن يتم سنوياً تجنباً لأى ظلم أو إجحاف قد يلحق به.

وبالإضافة إلى هذا، أدخل سافونارولا إصلاحين مهمين، أولهما ينص على العفو العام حتى تتحد عناصر الأمة المختلفة وتتخلى عن أى شحناء أو تنابذ قد تخلفه صراعات الماضى. وقد دعا جميع المشتغلين بالقانون آنذاك إلى المطالبة بإنشاء محكمة استئناف، وهو اقتراح صادف قبولاً لدى سافونارولا الذى اقترح بدوره تشكيل سلطة الاستئناف من مجلس مكون من ثمانين شخصاً يتم اختيارهم من بين أعضاء المجلس الأعظم.

وكذلك هاجم سافونارولا استخدام التعذيب مع المتهمين والمساكين.

اتسمت حركة سافونارولا الإصلاحية بطابع دينى وأخلاقى تمثل فى: محاربة اللواط والتجديف على الله، ولعب الميسر والكتابات والأعمال الفنية الشهوانية والدعارة والأعمال المسرحية البذيئة. وأيضاً، تمثلت هذه الحركة فى الدعوة إلى الإحسان والبر بالفقراء وإقرار العدل بين الناس وزيارة المرضى فى المستشفيات.

ويجدر بالذكر، أن اليهود فى فلورنسا كانوا يشتغلون بالربا الفاحش، لدرجة أنهم دأبوا على الإقراض بفائدة مركبة تصل إلى ٣٢,٥٪، الأمر الذى أثار غضب الأهالى منهم. ورغم هذا، فقد امتنع سافونارولا عن الهجوم عليهم بحجة أنه يسعى إلى ترغيبهم فى اعتناق الدين المسيحى. غير أن فلورنسا استتت فى ٢٨ ديسمبر ١٤٩٥ قانوناً لوضع حد لهذا الاستغلال اليهودى البشع. وفى ١٥ أبريل عام ١٤٩٦، تم إعداد قانون ينص على طرد المرابين اليهود من فلورنسا فى غضون عام من صدوره، وأقام سافونارولا هيئة لإقراض المال للمحتاجين بفائدة سنوية تتراوح بين ٥٪ و ٧,٥٪ بشرط عدم إنفاق القرض فى القمار. بل إنه ذهب إلى أكثر من هذا، فأوصى بالإقراض دون فوائد، ولكن التجارب والأيام أثبتت عدم فاعلية هذه الاقتراحات.

قلنا إن سافونارولا هاجم المرابين اليهود بضراوة؛ ولكنه لم يؤلب مشاعر الجماهير ضدهم مثلما فعل تابعه ماركو دى ماثيو ستروزي، الذى حرص الناس على التجمهر والإتيان بأعمال شغب فى ميدان ويلا سيجنوريا بهدف طرد اليهود من البلاد. علماً بأن المجلس الأعظم استن فى ٢٨ ديسمبر ١٤٩٥. على نحو ما أسلفنا. قانوناً بطرد اليهود من فلورنسا. ولكن هذا القانون لم يوضع موضع التنفيذ بسبب حاجة فلورنسا آنذاك إلى أموال اليهود.

## رجوع ملك فرنسا إلى بلاده وأنصار بييرودى مديسيس يساعدونه على محاولة العودة إلى فلورنسا (١٤٩٥-١٤٩٦)

بعد أن قام ملك فرنسا شارل الثامن بغزو فلورنسا، أحسن معاملة أهلها على نحو ما رأينا. ومضى الجيش الفرنسى يغزو بقية أرجاء إيطاليا. ولكنه سرعان ما رجع عن معاملته الحسنة وصار يبتز الدويلات الإيطالية التى يحتلها ويعدّها بوعود معسولة لا ينفذ منها شيئاً، واستاء أهل نابولى كثيراً من معاملة الغزاة السيئة لهم. ولعل لودفيكو المغربى كان أشد الناس استياءً وندماً على دعوته شارل الثامن لعبور جبال الألب لغزو إيطاليا؛ وخاصة لأن هذا الملك اصطفى ألد أعدائه جيان جياكومو وتريفلزيو وجعلهما من أقرب القواد إليه. وزاد من سخط لودفيكو المغربى أن ملك فرنسا كان قد وعده بدويلة تارانتو ثم حثّ بوعده؛ ولهذا بدأ يناصب هذا الملك العداء وقرر أن يضع نفسه على رأس جيش إيطالى موحد لغزو الفرنسيين الغزاة. ولهذا الغرض أبرمت البندقية فى ٢١ مارس ١٤٩٥ اتفاقاً أو تحالفاً مع البابا وملك إسبانيا لرد الفرنسيين على أعقابهم وطردهم من كل الأراضى الإيطالية. وتذرع الحلفاء بأنهم ييغون الدفاع عن الغرب المسيحى والحفاظ على وحدة الأراضى الإيطالية. واستطاع هؤلاء الحلفاء تكوين جيش قوامه أربعة وثلاثون ألف خيال وعشرون ألفاً من المشاة. ولكن السلطان التركى كان يدرك الهدف الحقيقى من هذا التحالف وهو طرد الجيش الفرنسى من إيطاليا، الأمر الذى جعله يقدم المساعدة إليه، وشعر الفرنسيون بالخطر الداهم يتهددهم فقرروا الانسحاب من إيطاليا والعودة إلى بلادهم.

وكان السفير الفرنسى فيليب دى كوني لدى إيطاليا رجلاً حصيفاً ومحنكاً، فقد أدرك نيات التحالف الحقيقية ضد مليكه شارل الثامن. وهداه تفكيره إلى الاتصال

بسافونارولا الذى بهره بخبرته وحنكته السياسية الواسعة؛ فضلاً عن انبهاره بشخصيته وحميد خصاله.

كانت ثقة السفير الفرنسى كومينيز فى قداسة شخص سافونارولا وقدرته على التنبؤ عظيمة، لدرجة أنه سأل هذا الراهب ما إذا كان مليكه الفرنسى شارل الثامن سوف ينجو من الأخطار المحدقة به. عندئذ تذكر سافونارولا الوعود الكثيرة التى قطعها هذا الملك على نفسه ثم حث بها، كما تذكر عدم اهتمامه بإصلاح أحوال إيطاليا والكنيسة الكاثوليكية.

قال الراهب إن هذه الانتهاكات التى ارتكبها ملك فرنسا تشير إلى العقاب الصارم الذى ينتظره. غير أن سافونارولا تنبأ أن الملك سوف يخرج فى الوقت الحالى منتصراً على جميع أعدائه. وفى نفس الوقت الذى استمع فيه السفير الفرنسى كومينيز إلى هذه النبوءة، كان ملك فرنسا شارل الثامن قد بدأ يرحل عن نابولى فى طريق عودته إلى فرنسا يتبعه عدد كبير من أفراد جيشه بقيادة القائد تريفولزيو. وعندما وصل ملك فرنسا المنسحب إلى روما راوده الأمل فى الالتقاء بالبابا والتحدث معه؛ ولكن البابا كان قد فر منها فى اليوم السابق.

وبعد انسحاب الملك شارل الثامن، أصبح وضع نصيره السابق البابا الكسندر بورجيا شائكاً. فبعد أن شجع هذا البابا الفرنسيين على غزو إيطاليا تلقى رشوة من حاكم أراجون الإسباني فتخلى عن مضافته لملك فرنسا لدرجة أنه قلب له ظهر المجن، وخاصة عندما شاهد نجمه المتألق يأفل. بل إنه انضم إلى المتآمرين عليه والراغبين فى دحره. استمر شارل الثامن فى انسحابه حتى وصل إلى سيينا فى الثالث عشر من يونيو ١٤٩٥، الأمر الذى استقبله أهل فلورنسا بفرح عظيم بعد أن أصبحوا يمهقون الغازى الذى أحبوه ورحبوا به فى الماضى، ولم ينسوا لهذا الملك إساءته إليهم بتأليب أهل بيزا عليهم وحضهم على الثورة ضدهم. وتحركت قوات فلورنسا بقيادة بييرو كابونى لقمع التمرد المندلع فى مدينة بيزا ضدهم. ورغم أن ملك فرنسا وعد بالوقوف بجانب فلورنسا ضد بيزا نظير الأموال التى تلقاها من فلورنسا، فإنه - كالعادة - لم يف بوعده وأمد بيزا بالسلاح إلى جانب التعزيزات التى تلقتها بيزا من كل من جنوة وسيينا وميلانو. وشعرت فلورنسا بالخطر الداهم يتهدها أكثر وأكثر، عندما شاهدت حاكمها المخادع بييرو دى مديسيس فى مؤخرة الجيش الفرنسى ينوى العودة إلى فلورنسا.

لم يكد أهل فلورنسا يعلمون أن حاكمهم الطاغية المخلوع على الأبواب، حتى هبوا شبيبة وشباناً لحمل السلاح والتصدي له. ولم يمضِ وقت كبير حتى حشدت فلورنسا قوة قوامها ١١ ألف محارب بفضل جهود طائفة البياجنوني الموالية لسافونارولا بوجه خاص. ورغم انغماس طائفة البياجنوني في الممارسات الدينية، فإنها لم تتوان لحظة واحدة عن الذود عن البلاد ضد الأخطار المحدقة بها. ومن ناحيته، لعب سافونارولا دوراً بارزاً في إذكاء حمية أهل فلورنسا وغيرتهم على بلادهم. وكالعادة، دعاهم إلى التماسك ووحدتهم حتى يحققوا ما يصبون إليه من نصر. وحقيقة الأمر، أن أهل فلورنسا جن جنونهم عندما أحسوا بأن حاكمهم الطاغية سوف يعود إليهم. وكالعادة في وقت الشدائد والأزمات شخصت أبصارهم من جديد إلى سافونارولا يلتمسون لديه النصيح والإرشاد، فهو الوحيد الذي يستطيع أن يجادل ملك فرنسا دون أن يستثير غضبه. وتقابل الرجلان فناشد الراهب الملك أن يبر بوعوده التي قطعها على نفسه لأهل فلورنسا وأن يرد إليهم ما استولى عليه من قلاع، حتى يتفادى غضب الله المنتقم الجبار ويتفادى سخط شعب فلورنسا عليه.

وفي يونيو ١٤٩٦، واجه سافونارولا ملك فرنسا في بلدة بوجينوسني. وفي هذه المواجهة ذكر الراهب الملك أن قواته تولى الإدبار، كما ذكره بالوعود التي حث بها ويتقاعسه عن إصلاح الكنيسة. وقال له إن الله يعاقبه على أخطائه. ولكن سافونارولا طمأن ملك فرنسا بأنه سوف يخرج من هذه المحنة سليماً معافى. ولكنه حذره بأنه لن يستطيع الإفلات من عذاب الله ونقمته القادمة، إذا لم يعدل عن سياسته العدائية نحو فلورنسا. ولأن الملك كان يؤمن بأن سر الراهب «باتع»، فقد دخل الرعب قلبه وابتهل إلى سافونارولا أن يصحبه إلى بيزا حتى يحس بالاطمئنان والأمان. وفي ٢١ يونيو ١٤٩٦، اعتلى سافونارولا منبر الكنيسة ليطمئن جمهور المصلين أن الخطر على فلورنسا من ملك فرنسا قد زال.

دخل ملك فرنسا شارل الثامن بيزا دخول الظافرين فقدم إليه نبلاؤها ونبيلاتها هداياهم من قصور وجواهر، إرضاء لطمعه ورغبة في كسب وده. غير أن طبيعة هذا الملك التي تعد ولا تقى جعلته يحجم عن مساعدة أهل بيزا في استرداد حريتهم من فلورنسا، كما جعلته يحجم عن مساعدة فلورنسا كما وعد سافونارولا بذلك. وتجمعت قوات إيطالية حليفة للتصدي لملك فرنسا ودارت معركة ضروس يوم ٦ يوليو ١٤٩٦

بينهما . غير أن ملك فرنسا استطاع أن يشق طريقاً للانسحاب والعودة إلى بلاده . وفى اليوم التالى، أى فى ٧ يوليو ١٤٩٦، قام ملك أراجون الإسباني فرديناند الثانى بدخول نابولى . ثم غير الملك شارل الثامن موقفه من الصراع بين بيزا وفلورنسا فأزر الأولى ضد الثانية، الأمر الذى خلق المشاكل لفلورنسا .

وبجلاء الجيش الفرنسى عن إيطاليا تعرضت جمهورية فلورنسا للمخاطر أكثر من ذى قبل . وقد جاء الخطر أساساً من القوات المتحالفة التى اتفقت على تشجيع بييرو دى مديسيس على جمع الأموال والقوات لاسترداد حكم فلورنسا . وكان البابا وجمهورية البندقية على رأس الراغبين فى إعادة هذا الطاغية المخلوع إلى سدة الحكم فى بلاده، وبطبيعة الحال سارع بييرو إلى عمل الاستعدادات وكلف فيرجينيو أورسينى بحشد القوة اللازمة لذلك . ومن أجل تحقيق هذا الهدف، تحالف بييرو مديسيس مع حاكمى إيمولا وفرولى وغيرهما من الحكام . ولكن حملة بييرو العسكرية باءت بالفشل الذريع لنقص الأموال من ناحية، وخذلان أعوانه له من ناحية أخرى . ومن جانبه، لم يسكت سافونارولا على تحرك عدوه القديم بييرو لاستعادة حكم فلورنسا . فقد بذل قصارى جهده لتعبئة الشعب ضده، ودعاهم إلى دق عنق هذا الطاغية وأعوانه . وبمجرد أن ألقى سافونارولا سلسلة من الخطب السياسية الملهبة، رصدت السلطات فى فلورنسا مكافأة قدرها أربعة آلاف فلورينة ذهبية لمن يفتك ببييرو . واستجاب حزبا الأرايباتى والبياجنونى لكلمات سافونارولا النارية، فسارعا إلى حمل السلاح والذود عن البلاد . وحتى تركز فلورنسا كل جهودها لدحر بييرو أوقفت حريها مع بيزا . ورأى بييرو أنه خاسر لا محالة فخف إلى الهرب إلى روما .



## البابا يستدعى سافونارولا إلى روما ويمتنعه من الوعظ وسافونارولا يرفض تعيينه كاردينالاً (١٤٩٥-١٩٤٦)

كانت كراهية الأرابياتي - وهو الحزب المعادي للحكومة الشعبية في فلورنسا - لبييرو دي مديسيس، السبب المباشر الذي أدى إلى هزيمته واندحاره؛ فضلاً عن أن حلفاءه خذلوه على نحو ما ذكرنا. وأيضاً لعب الدوق لودوفيكو الذي لم ينس إهانات بييرو له دوراً مهماً في الحيلولة دون اعتلائه سدة الحكم. وأراد المناوئون لهذا الدوق أن يوغروا صدره ضد سافونارولا، فأفهموه بأن هذا الراهب كان يقصده بالذات عندما هاجم في وعظاته استئثراء الفساد والطغيان في إيطاليا. ومن ثم انخرط في مؤامرات تهدف إلى الإطاحة بسافونارولا. واستطاع هذا الدوق أن يحظى بقدر من تأييد أهل فلورنسا له، عندما تصدى لرجوع بييرو دي مديسيس إلى حكمها. وكان لهذا الدوق عميل مقيم في فلورنسا يدعى باولو سوفتزي يخطب في الناس لتهييج خواطرهم ضد سافونارولا، يساعده في ذلك خطيب مفوه آخر اسمه فرانسيسكو ترانشيدينو. غير أن بعض الدويلات مثل البندقية ودوقية ميلانو ظلتا على ولائهما لبييرو دي مديسيس وتريدان عودته إلى حكم فلورنسا. وكان الشغل الشاغل لبابا روما آنذاك هو الحرص التام على تقليد أبنائه غير الشرعيين أرفع المناصب والطمع في توليهم مقاليد السلطة في فلورنسا. ولهذا كان من السهل على حزب الأرابياتي ودوق ميلانو استمالة بابا روما ألكسندر إلى جانبيهما.

لم يكن البابا يحمل أية ضغينة ضد سافونارولا في بادئ الأمر، ولكن أعداء هذا الراهب نجحوا في تشويه صورته والوشاية به لديه في أوائل ١٤٩٥. فقد أرسلوا إلى

الكرسى البابوى خطابات تبالغ فى وصف هجومه الشرس على الأكليروس والبابا معاً. وأفهموا البابا أن سافونارولا هو المسئول الأول والأخير عن كراهية شعب فلورنسا المشبوبة ضد بييرو دى مديسيس. فاغتاض البابا غيظاً شديداً. وانتهز الكاردينال أسكانيو سفورزا شقيق لودفيكو هذه الفرصة للصيد فى الماء العكر وإشعال فتيل كراهية الكرسى البابوى ضد سافونارولا الذى كان له عدو قوى آخر فى روما، هو غريمه القديم ومنافسه اللدود الراهب ماريانو دا جانزانو. لم ينسَ هذا الرجل أبداً هزيمته النكراء فى الوعظ والتأثير فى الناس أمام سافونارولا الذى خلب كالساحر لب الجماهير. وقد كان ماريانو من أشد الناس مناصرة وتحمساً لبييرو دى مديسيس. هاجم ماريانو سافونارولا بأقذع الألفاظ واصفاً إياه بأنه أداة الشيطان، كما أنه أبرز هجومه الشديد الوطأة على مساوئ رجال الكهنوت. وكان من السهل على هذه الوشاية الرخيصة أن تجد آذاناً صاغية عند بابا روما الفاسد حتى النخاع، والذى أشيع عنه أنه أنجب سبعة أطفال غير شرعيين.

وفى يوم ٢٥ يوليو ١٤٩٥، أرسل البابا خطاباً مائلاً إلى سافونارولا عبر فيه عن عميق احترامه ووده وفرحته بشدة تمسك هذا الراهب بأهداب الدين. ثم أضاف قائلاً إنه ترامى إلى سمعه أن سافونارولا يزعم أن الله يوحى إليه بالوعظات والنبوءات التى يلقىها على شعبه. وقال البابا إن واجبه الرعوى يستدعى منه الحضور إلى روما للتحديث معه. وطلب البابا من سافونارولا سرعة الحضور لمقابلته بكل الحفاوة والتقدير.

ولكن سوء نية البابا لم تخف على أهل فلورنسا، كما أنهم كانوا مدركين المؤامرات التى يحيكها حزب الأرابياتى ضد سافونارولا. وبدا من الواضح أن البابا ينوى اغتيال سافونارولا أثناء سفره إلى روما، أو سجنه فى قلعة سانت أنجلو تمهيداً لإعدامه. ولهذا، توسل الأصدقاء إلى سافونارولا ألا يذهب لمقابلة البابا انفراداً؛ وخاصة لأن الأخطار التى أحافت بفلورنسا بعد رحيل الجيش الفرنسى كانت فى ازدياد. وشعر سافونارولا بأنه أصبح بين المطرقة والسندان، حيث إن واجبه كرجل دين يحتم عليه طاعة رؤسائه، وطاعة رؤسائه معناها أنه يضع حياته تحت رحمة البابا ورحمة حزب الأرابياتى الذى كان شديد السخط عليه بسبب إقامة حكومة شعبية فى فلورنسا، الأمر الذى دفع هذا الحزب المتآمر للتخلص منه. ومن المؤسف أن صحة سافونارولا آنذاك

كانت معتلة أشد الاعتلال، مما جعله يتوقف عن الوعظ، كما أن الطبيب لم ينصحه بالامتناع عن الوعظ فقط، بل عن الدرس أيضاً.

كان سافونارولا مدركاً تمام الإدراك للأخطار المحدقة بفلورنسا بسبب مؤامرات كل من حزب الأرايباتى وبييرو دى مديسيس. وألقى خطبة الوداع وهو يجرجر عليه جرّاً من فرط المرض والهزال والإعياء. قال فى وداعه لشعبه، إنه يعرف أن أعداءه يتريصون به وبفلورنسا الدوائر، وأن فلورنسا لا تزال فى أمس الحاجة إليه. ولم ينس هجومة المعتاد على الرذيلة بكافة أشكالها وفساد الحكام ورجال الدين. واختتم خطبته قائلاً، إنه كرس حياته كي يعلم الشعب مخافة الله وأهمية الاتحاد والسلام وتغليب الصالح العام على الصالح الخاص وإصلاح أداة الحكم عن طريق إنشاء المجلس الأعظم، مؤكداً أن هذه الأهداف لا تزال ماثلة أمام عينيه. وفى الوقت نفسه، دعا سافونارولا إلى إلغاء البرلمان أو مجلس الشعب كما أسلفنا. فضلاً عن أنه أكد لمستمعيه أن الخطر الأعظم على جمهورية فلورنسا يتمثل فى حزب الأرايباتى المناوئ له بوجه عام، وأنصار بييرو دى مديسيس بوجه خاص. واكتست خطبة الوداع بنغمة تقطر حزناً، وعبر عن استعداده للشهادة فى سبيل حبه لفلورنسا.

وبعد خطبة الوداع أرسل سافونارولا إلى البابا خطاباً مفعماً بالتواضع والنبيل والصراحة، إذ قال إنه يعلم أن أعداءه الذين ييغون الإيقاع به كثيرون. ثم قال بصراحة إن الإصلاحات التى أدخلها فى فلورنسا لم ترسخ بعد، وإن روما ليست بحاجة إليه كما تحتاج إليه جمهورية فلورنسا الوليدة، الأمر الذى يجعله يلتمس من البابا عذراً لتأخيرته. ثم أردف قائلاً، إنه إذا كان قداسة البابا يريد أن يعرف آراءه على وجه اليقين بشأن إصلاح الكنيسة فيمكنه الاطلاع عليها فى الكتاب الذى نشره ليقراء الجميع. وأيضاً ذكر سافونارولا أن تنبؤاته تحققت، مما يدل على أنه ليس مدعيًا للنبوة.

ولم يرد البابا على خطاب سافونارولا. ونظراً لإدراك البابا أنه لا جدوى من محاولة تغيير موقف هذا الراهب، فإنه أبلغه بما يفيد أنه قبل اعتذاره عن تأجيل حضوره. وبسبب اعتلال صحته كاد سافونارولا أن يتوقف عن الوعظ والالتقاء بجمهور المصلين. وقد حل محله فى الوعظ راهب آخر اسمه دومينكو بریشيا حاول تقليد أستاذه وحذو حذوه، ولكن شتان الفرق! وفى ٨ سبتمبر (١٤٩٥)، أرسل البابا رسالة وجهها إلى أعداء سافونارولا وشانثيه من رهبان سانت كروتشى، وصف فيها

سافونارولا بأنه ذلك الباحث عن البدع والناشر للمذاهب الزائفة. وتضمنت الرسالة إشارات إلى ادعائه النبوة ومخاطبة الله ورميه بالعجز عن إثبات ذلك. وأضاف البابا أنه صبر على سافونارولا كثيراً على أمل أن يقدم ويرعوى. واختتم البابا رسالته بإحالة موضوع سافونارولا برمته إلى الراهب سبستيانو دي ماديس الراعى العام لشعب لومباردى، أمراً سافونارولا بالخضوع لسلطة هذا الراعى وأن ياتمر بأمره ويفعل كل ما يطلبه منه. فضلاً عن أن البابا أصدر أمراً بإيقاف سافونارولا عن الوعظ العام والخاص على حد سواء. وصرح البابا بضم دير القديس مرقص الذى استقل به سافونارولا إلى كنيسة لومبارديا.

ويثير هذا بالطبع تساؤلاً: ما الذى جعل ثائرة البابا تثور على سافونارولا بعد أن قبل عذره عن عدم الحضور إلى روما؟ ثم لماذا خاطب البابا رهبان كنيسة سانت كروتشى رغم أنهم ألد أعداء رهبان دير القديس مرقص فى أمر يخص سافونارولا ومريديه وحدهم؟ ولعل البابا أراد بذلك نشر ضيقه من الراهب على أوسع نطاق ممكن. والأهم من هذا، ضيقه من تحقق النبوءات التى ساقها سافونارولا فى وعظته الأخيرة.

وتبين أن الهجوم الضارى الذى شنه سافونارولا على الطفافة والمستبدين وعلى البرلمان أو مجلس الشعب كان له ما يبرره، حيث إن الطاغية بييرو دي مديسيس حاول التسلل إلى حكم فلورنسا. وبخبت شديد سعى البابا - كما أسلفنا - إلى ضم دير القديس مرقص الذى يرعاه سافونارولا إلى دير أعدائه من الرهبان حتى يسحب البساط من تحت قدميه وينسف سلطته على الشعب، الأمر الذى يدفعه إلى مفادرة إقليم توسكانيا فيسهل أمر إلقاء القبض عليه.

ولم تغب هذه الخطة اللثيمة عن بال سافونارولا الذى أدرك سوء نية البابا المبيتة منذ البداية. وكان سافونارولا حريصاً كل الحرص على عدم السماح لأية قوة مهما كانت أن تدمر النظام الجمهورى الذى أرسى قواعده فى فلورنسا. وقد عبر عن مشاعره هذه فى خطاب أرسله فى ١٥ سبتمبر من العام نفسه إلى زميل راهب فى روما، قال فيه إن الكل يعرف زيف الاتهامات الموجهة ضده، وإن هذه الاتهامات الباطلة عار وشنار على روما وكرادلتها. وأكد سافونارولا عدم خوفه من الموت ولا من أعدائه الذين يقفون له بالمرصاد، وأن لطف الله وعنايته يقيانه من كل شر. وقال

سافونارولا في خطابه المشار إليه إن السبيل الحقيقي إلى النيل منه هو السعى إلى إعادة الطغيان إلى فلورنسا عن طريق تأمر الكرادلة مع عدد من المواطنين الأشرار. وصرح سافونارولا بأنه لا يستطيع لهذا السبب أن يتحرك خارج فلورنسا دون رفقة حرس مدجج بالسلاح يتولى حمايته.

وفي يوم ٢٩ سبتمبر، أرسل سافونارولا ردًا إلى البابا عبر فيه عن أسفه العميق لأن أعداءه استطاعوا أن يخدعوا قداسته ويشوا به لديه. ثم قال إنه لم يصف نفسه قط بأنه نبي، رغم أن نسبة النبوة إليه لا تعتبر هرطقة أو زندقة، وأكد أنه استطاع دون ريب التنبؤ سلفًا بكثير من الأحداث التي تحققت، وإنه لولاه لما شاع السلام في ربوع فلورنسا. وقال للبابا إنه لم يستقل بدير القديس مرقص بناء على رغبته الشخصية، بل بناء على رغبة جميع زملائه الرهبان في هذا الدير، وأردف أنه ليس من العدل أن يجعل راعي دير لومبارديا المعروف بعداوته له خصمًا وحكمًا في الوقت نفسه، شاكيًا بأن ضم دير القديس مرقص إلى كنيسة لومبارديا سوف يفضي إلى المزيد من التنازع والشحناء. واختتم سافونارولا خطابه طالبًا من البابا تبرئته، ومضيفًا أنه على استعداد لتصحيح أي أخطاء يثبت أنه ارتكبها.

وعندما استيقن بابا روما ألكسندر السادس من أنه أمام خصم عنيد لا تلين له قناة (فهو غير مستعد لحل جمهور المصلين الذين يحضرون وعظاته أو لمغادرة فلورنسا)، نراه يمتنع عن الاسترسال في تهديده، ويلجأ مرة أخرى إلى النفاق والمداهنة. ولهذا، أرسل إلى سافونارولا في ١٦ أكتوبر مذكرة يرد فيها على خطابه ويعبر فيها عن عظيم فرحته بعودة هذا الراهب إلى حضن الكنيسة. وجاء في مذكرة البابا ما يلي:

«لقد عبرنا عن حزننا في الخطابات الأخرى التي أرسلناها بسبب الاضطرابات التي وقعت في فلورنسا نتيجة الوعظ التي تقوم بإلقائها، حيث إنك بدلاً من الوعظ ضد الرذيلة والدفاع عن الاتحاد تتنبأ بالمستقبل، وهو الأمر الذي يبذر بذور الشقاق بين أهل فلورنسا. تلك كانت الأسباب التي دعتنا إلى مطالبتك بالمثول أمامنا. ولكن الآن بعد أن تأكدنا من خلال خطاباتك وشهادة كثير من الكرادلة من أنك على استعداد لإظهار الطاعة لكنيسة روما، امتلأت قلوبنا بالفرح العظيم وشعرنا باليقين من أن الخطأ الذي وقعت فيه يرجع إلى فرط بساطتك، وليس إلى أي شر يسكن قلبك. وبسبب قسمك الطاعة المقدسة (للكنيسة) نأمرك بالامتناع عن إلقاء جميع وعظاتك



العامّة والخاصّة على حد سواء... وسوف تستمر في الامتناع حتى يحين الوقت الذي تطلب فيه مقابلتنا بأمان أكبر وحينئذ نستقبلك بكل شرف بالبهجة والروح الأبوية. وأعلن البابا في ختام رده أنه بذلك يلغى جميع المذكرات السابقة حتى يستطيع سافونارولا أن ينصرف إلى رعاية حياته الروحية بكل هدوء وسكينة.

ولكن رد البابا تلكاً في الطريق إلى سافونارولا، الأمر الذي أتاح له إلقاء وعظاته الثلاث التي حالت دون رجوع عائلة مديسيس إلى حكم فلورنسا. وأحس الراهب بالخرج الشديد عند تسلّمه هذا الأمر البابوي بالتزام الصمت، في وقت تعرضت جمهورية فلورنسا لأشد الأخطار، وزاد من إحساسه بالخطر ما ترامى إلى سمعه من ازدياد الغضب البابوي عليه وتصميم البابا على إلقاء القبض عليه. وبعد أن تأكد سافونارولا من أنه استطاع إلحاق الهزيمة بعائلة المديسيس وإحباط سعيها إلى اعتلاء سدة الحكم في فلورنسا، أثر التزام الصمت والامتناع عن الوعظ.

كان البابا على يقين من براءة سافونارولا من تهمة الهرطقة وغواية الشعب، فهو لم يجد أي غبار على وعظاته. ولكن الأحزاب السياسية المناوئة لسافونارولا لم يهدأ لها بال، وخاصة أنصار حزب الأرابياتي والدوق لودفيكو الذين هاجموه لأسباب سياسية وشخصية محضة. واستطاع أعداؤه بمكر تغليف خصومتهم السياسية مع سافونارولا بخلاف في الرأي حول موضوعات دينية بحتة. وهكذا وجد سافونارولا نفسه بين شقى الرحى؛ فأمامه اختياران: أن يتخلى عن الدفاع عن حرية فلورنسا بالامتنثال لأوامر البابا، أو شق عصا الطاعة على البابا بالدفاع عن حرية فلورنسا. ورغم أنه أراد آنذاك مهادنة البابا، فإنه رفض رفضاً باتاً التفريط في حرية فلورنسا. كما أن شرور البابا ألكسندر السادس ومبازل أبنائه الجنسية ودسهم السم لأعدائهم، أثارت عظيم اشمئزازه.

لقد كان كثير من الكاثوليك مقتنعين ببطلان انتخاب ألكسندر السادس لتولى كرسي البابوية؛ لأنه انتخب يقوم على الغش والتدليس والرشوة، كما كانوا مقتنعين بأن الوسيلة المثلى للتخلص من هذا البابا الفاسد يمكن أن تتحقق من خلال دعوة مجلس الكرادلة للانعقاد لعزله. علمًا بأن الكاردينال المناضل سانت بييرو من فينكولى والذي صار فيما بعد البابا يوليوس الثاني كان على رأس المنادين بهذا الرأي، فقد اعتبر هذا الرجل البابا ألكسندر السادس كافرًا ومهرطقًا.

ومن ثم سعى سافونارولا لدى ملك فرنسا شارل الثاني كي يخلص الكنيسة منه ومن شروره. ولم يكن الكاردينال سانت بييرو الوحيد الذى يسعى إلى الإطاحة بالبابا الفاسد، فقد شاركه فى ذلك ما لا يقل عن ثمانية عشر كاردينالاً التمسوا من ملك فرنسا أن يظهر كنيسة روما من الفساد المستشري فيها. وكاد ملك فرنسا أن يستجيب لالتماسهم ويعزل البابا لولا ما عرف عنه من تردد، ولولا نفوذ ناصحه المرتشى بريسونيه عليه. ووجدت فكرة عزل البابا صدى عميقاً فى نفس سافونارولا فألح عليها وطلب من ملك فرنسا تنفيذها. فضلاً عن أنه كتب إلى الكاردينال سانت بييرو فى فينكولى يطلب منه المؤازرة والتأييد فى هذا الشأن. وأيضاً سطر عدداً من الرسائل يستحثه فيها على عزل البابا. ولكن تردد الملك - كما ذكرنا - منعه من تنفيذ ذلك.

وقد جرت العادة فى فلورنسا فى عهد عائلة المديسيس الحاكمة على إقامة مهرجان أو كارنفال صاخب يعيث المشترون فيه فساداً ويرقصون ويسكرون حتى الثمالة، ويعترضون طريق المارة ويفرضون عليهم الإتاوات للاشتراك فى إقامة هذا الاحتفال المعريد الصاخب.

ودأبت عائلة دى مديسيس على تشجيع هذا النوع من الفسق والمجون. وكان الاحتفال ينتهى عادة بلعبة إلقاء الصبية للحجارة، فهم يقذفون بعضهم البعض بالحجارة فيسقط البعض منهم موتى على الطريق العام. وآلمت هذه الممارسات سافونارولا واستبد به الحزن لحدوثها. فحاول جاهداً إصلاح الشباب وإيجاد بديل لها، واستحدث احتفالاً دينياً تتشد فيه الترانيم والابتهالات الدينية وتجمع فيه الأموال التى تتفق على أوجه البر بدلاً من الفسق والمجون.

وحاول عدد من أنصار سافونارولا ممارسة الضغط على البابا كي يسمح له بالاستمرار فى الوعظ. وكانت فرحة الشعب عظيمة عندما رأوا هذا الراهب يعتلى منبر الدير فى ١١ فبراير ١٩٤٦. حدث هذا إبان فترة مهادنة البابا له. ويذكر المؤرخون أن البابا طلب من أحد الأساقفة الدومينيكان فحص وعظمت سافونارولا المطبوعة، لعله يجد فيها علة. ولكن هذا الأسقف قال بعد الاطلاع عليها: « يا أبانا المقدس، هذا الراهب لا ينطق بغير الحجى والأمانة فهو يهاجم الرشوة والفساد المستشريين بين رجال الكنيسة، ولا مراء فى أنه فساد عظيم، كما أنه يحترم سلطة الكنيسة ومعتقداتها».

وأراد البابا في تلك المرحلة أن يكسبه إلى جانبه فعرض عليه ترقيته إلى منصب كاردينال، شريطة أن يغير لهجة وعظاته. ولكن هذا العرض زاد من اقتناع سافونارولا بفساد البابا وبأنه يعيث بأقدس مقدسات الكنيسة، الأمر الذي زاد من كراهيته للبابا. والتفت سافونارولا غاضبًا إلى حامل هذا العرض إليه ليقول له: «وإذا كنت تبغى معرفة ردى على هذا العرض، فتعال واحضر وعظتى القادمة»، وهى الوعظة التى كان من المزمع أن يلقيها فى خلال الأربعين يومًا السابقة على عيد الفصح وتضمنت رفضًا حاسمًا لهذه الرشوة السافرة.

## سافونارولا يعود إلى التبشير

عام ١٤٩٦

كان يوم ١٧ فبراير ١٤٩٦ على وجه التحديد يوماً مشهوداً في حياة سافونارولا، فقد سمح له البابا على مضض بالعودة إلى التبشير. واتضح لهذا الراهب أن معركته مع البابا لم تنته، بل زادت حدة وتفاقماً بمرور الزمن، كما اتضح له أن البابا لن يدخر جهداً لسفك دمه، فضلاً عن سعيه إلى الإطاحة بالنظام الجمهوري الذي أقامه في فلورنسا. وحيث إن إيمانه بالعقيدة المسيحية الصحيحة كان فوق مستوى الشبهات، فإن البابا لم يجد فيه علة فلجأ إلى تغليف محاولته للوقيعة بسافونارولا بغلاف سياسي في جوهره وديني في مظهره. وبالنظر إلى أن حزب الأرايباتي المعادي له كان يتربص به الدوائر، فقد سعى مجلس مدينة فلورنسا إلى توفير الحماية حتى لا تصل إليه يد الغدر أو الخيانة. ومن المعروف أن عدوه الدوق لودوفيكو استأجر بعض القتل للقبضاء عليه. وحرصاً على حياته عينت فلورنسا عدداً من الحراس المدججين بالسلاح، كي يجوبوا الشوارع لوقايتهم من الأذى. وبمجرد خروج سافونارولا إلى الشعب لإلقاء وعظته في اليوم نفسه، احتشدت حوله الجماهير الغفيرة للاستماع إليه، وقد ران عليهم الصمت كأن على رؤوسهم الطير، لدرجة أنهم سمعوا أنفاس الراهب المتلاحقة. وفي وعظته أكد هذا الراهب على شدة استمساكه بالكنيسة الكاثوليكية. كما قال إنه على استعداد لأن يصحح أية ضلالة يثبت أنه وقع فيها. ثم استطرد قائلاً إن إيمانه بأن الكنيسة الكاثوليكية لا يأتيها الباطل من خلف أو قدام، لا يعني الطاعة العمياء لرؤساء الكنيسة أو حتى البابا نفسه. قال سافونارولا: «إن الرؤساء ليس لهم الحق في إعطائي أوامر تخالف قواعد الطائفة الدينية التي أنتمى إليها، كما أن البابا

ليس له الحق فى إعطائى أية أوامر تخالف الدعوة إلى البر والإحسان أو تخالف الإنجيل. وأعتقد أن البابا لن يحاول مطلقاً أن يفعل هذا. ولو أنه فعل هذا لقلت: أنت لست راعياً ولا تمثل كنيسة روما والذى تقوله خطأ».

وبعدئذ انتقل سافونارولا إلى الحديث عن حاله شخصياً، فقال إنه لا يعتبر نفسه ملزماً بطاعة أى إنسان يريد إبعاده عن فلورنسا، لأن الجميع يعرف أن الدوافع وراء هذا الإبعاد هى الكراهية السياسية، وأن هذا الإبعاد سوف يلحق ضرراً بحرية فلورنسا ودينها معاً. قال هذا رغم أنه كان يدرك أن قوله سوف يساء تفسيره على أنه حض على عصيان السلطة الدينية (الجدير بالذكر، أن آراء سافونارولا هذه تتفق تماماً مع معتقدات القديس توماس الأكويني وآباء الكنيسة). ومضى الراهب يقول فى وعظته إن البابا يصدر إليه أوامر غير سليمة؛ لأنه يبنئها على أساس التقارير المفرضة والكاذبة التى تصل إليه. وأضاف، أنه قرر استئناف الوعظ عندما رأى أن الحماس الدينى لدى أهل فلورنسا بدأ يفتر. ثم ابتهل سافونارولا إلى الله كى يهديه إلى بر الأمان ويعينه على ملاطمة الأمواج العاتية، الأمر الذى يؤكد أنه كان يستشعر الخطر الداهم الذى يهدد حياته. وفى وعظته أولى سافونارولا الشباب عظيم اهتمامه، قائلاً إنهم يمثلون الأمل فى المستقبل.

ويتضح من هذه الوعظة أن سافونارولا تجنب الإشارة إلى فساد البابا وتدليسه وعرضه رشوة عليه بترقيته إلى رتبة كاردينال.

وفى وعظاته الأخرى ظل سافونارولا يشن هجومه الشديد على شرور روما ونفاقها وادعائها الدين. وامتلات هذه الوعظات برؤى مرعبة يشيب لها الولدان وتخلع القلوب من ضلوعها. وبشر بانتشار الأوبئة التى تجتاح روما وكل إيطاليا وتحصد أرواح الآلاف، لدرجة أن الأحياء سوف يعجزون عن دفن موتاهم بسبب كثرة أعدادهم. وأيضاً أشار سافونارولا إلى شعوره القوى بمداهمة الموت له عندما يأذن له الله بذلك.

وأيضاً أشار سافونارولا فى وعظاته عام ١٤٩٦ إلى ضرورة إجراء انتخابات حرة ونظيفة فى فلورنسا. وهو حديث لا يأتى من فراغ، فقد كشف النقاب يوم ٢٧ أبريل عام ١٤٩٦ عن مؤامرة تهدف إلى تزوير انتخابات جمهورية فلورنسا فصدر حكم على ثلاثة من عتاة المتآمرين فيها بالسجن المؤبد.



والذى لا شك فيه أن سافونارولا كان خطيباً يسحر الناس بحماسه وقوة بيانه وعقيدته. وإذا كانت كلماته الساحرة قد خلبت قلوب مريديه وأتباعه، فإنها فى الوقت نفسه أثارت حفيظة أعدائه، وعلى رأسهم بابا روما الذى كانت كلمات الراهب عن الفضيلة تؤرقه كما أرقّت مضجعه مطالبته الجسور بعدم طاعة أوامر البابا إذا جاءت مخالفة لصحيح الدين.

ولعله من المفيد هنا أن نشير إلى بعض الكتابات التى تناولت شخصية سافونارولا حينذاك، أى فى عام ١٤٩٦. كتب البعض يتهم هذا الراهب بأنه استهزأ بالأمر البابوى الخاص بطرده من حظيرة الكنيسة، وبأنه وصف البابا بأنه أسوأ من التركى الكافر وبأن أمراء إيطاليا أكثر سوءاً من الهرطقة. وأيضاً اتهم البعض فى كتاباته سافونارولا بأنه أصبح طاغية فلورنسا الجديد. ويدلنا هذا على أن الهوس والإعجاب بسافونارولا كان يقابلهما فى بعض الأوساط قدر عظيم من الموجدة له. ومن الأصوات الكارهة له صوت رجل تحداه أن يثبت براءته بتعريض نفسه للنار دون أن ينكوى بها. وأيضاً اتهمه آخر بأنه يثير الفضايح فى الكنيسة، ويشق عصا الطاعة على بابا روما وينسب إلى نفسه صفة النبوة. وبطبيعة الحال، لا ينبغى أن ننسى هجوم حزب الأرايباتى القاذع والضارى عليه ورغبة هذا الحزب فى الإطاحة به، لدرجة أنه لم يمر يوم واحد دون أن تكتشف سلطات فلورنسا مؤامرة تحاك للقضاء على حياته. ناهيك عن قصائد الشعر القاذعة التى نظمها شانشوه للحط من شأنه. ولكن هذا لا ينبغى بحال من الأحوال أن ينسينا أن أعداداً غفيرة من الناس عبدته إلى حد الجنون والهوس، واعتبرته مبعوث العناية الإلهية. ومن بين شانشيه يتهمه فرانسيسكو التوفيتى بالطغيان واستئثار الشرائع كما لو كان سيدنا موسى عليه السلام. وعاب عليه إلغاء احتفالات وكرنفالات يوم القديس يوحنا، حيث إن هذه الاحتفالات كانت تدخل البهجة والسرور على قلوب عامة الشعب. والأدهى من هذا كله أن فرانسيسكو التوفيتى اتهمه بالتواطؤ مع بيير دى مديسيس حاكم فلورنسا المستبد المخلوع. والجدير بنا أن نذكر أن حزب البياجنوني المعادى لحزب الأرايباتى خف لنصرة سافونارولا بكل ما أوتى من قوة، والجدير بالذكر أيضاً أن حزب البياجنوني كان يتجرى الأمانة والشرف، فى حين أظهر حزب الأرايباتى المناوئ للراهب الختل والخداع.

وبعيداً عن جو المهاترات، ظهرت بعض الأبحاث القيّمة التى ألقت الضوء على الإصلاحات التى استحدثها سافونارولا فى نظام الحكم فى فلورنسا، وفى نظمها المالية والضريبية.

والغريب، أن فلورنسا سرعان ما نسيت حماسها الديني ومبادئها الأخلاقية عندما غاب سافونارولا عنها أو أمسك عن الوعظ بسبب اعتلال صحته، الأمر الذي يوحى بأن هوس أهل فلورنسا لهذا الراهب كان في الأساس هوسًا سياسيًا بإصلاحاته. أكثر منه هوسًا دينيًا وأخلاقيًا. فقد كانت جذوة مشاعرهم الدينية سهلة الانطفاء، في حين كانت جذوة طموحاتهم السياسية متقدة على الدوام. ومعنى ذلك أن سافونارولا لم ينجح في استئصال التقليد الدنيوي الذي نجحت عائلة المديسيس الحاكمة في غرسه في شعب فلورنسا. ولهذا تمكن البابا في نهاية المطاف من النيل منه والتكيل به، عندما نجح في الفصل بين دعوته إلى الإصلاح الديني ودعوته إلى الإصلاح السياسى. فأهل فلورنسا في حقيقة الأمر لم يضعوا الإصلاح الدينى، بل وضعوا الإصلاح السياسى والحرية نصب أعينهم.

استغل البابا الجانب السياسى فى نزاعه مع سافونارولا، الذى أرسل إليه نيكولو باندولفينى رئيس أساقفة بستويا كى يتوسط لدى البابا حتى يخفف من ثأثرته. غير أن هذا البابا استقبل هذا الوسيط بجفاء وأنحى باللائمة على فلورنسا، لأنها تدين بالولاء لسافونارولا وترفض الانضمام إلى التحالف المقدس الذى أنشئ بهدف طرد الغزاة الفرنسيين البرابرة من الأراضى الإيطالية.

والجدير بالذكر، أن البابا شكل لجنة مكونة من أربعة عشر عالمًا متخصصًا فى اللاهوت المسيحى من طائفة الدومينيكان لفحص آراء سافونارولا الدينية. وانكب أعضاء هذه اللجنة على دراسة وعظاته فخرجوا بنتيجة مفادها أن سافونارولا مسئول عن النكبات التى أصابت حاكم فلورنسا ببيرو دى مديسيس، الأمر الذى يؤكد أن نزاع البابا لم يكن دينيًا على الإطلاق بل سياسيًا أولاً وأخيراً. وعندما لم يجد هؤلاء اللاهوتيون فى آرائه الدينية أية علة، قام سافونارولا بنشر مبحث بعنوان: «حول بساطة الحياة المسيحية»، كرد على اتهامات بابا روما له بالهرطقة والانشقاق. والمبحث منشور باللغة اللاتينية، وقد قام جيرولامو بنيفيتى بترجمته إلى الإيطالية الدارجة، وفى مبحثه أعلن سافونارولا خضوعه الكامل لسلطة البابا، وأضاف أن اللطف الإلهى وليست الأعمال الصالحة هى أساس الخلاص. وهذا رأى سبق للقديس توماس الأكوينى أن عبر عنه.

وفى نفس العام المشار إليه (١٤٩٦)، نشر سافونارولا شرحًا لأحد المزامير ابتهل فيه إلى المولى عز وجل أن يتدخل لإنقاذ البشرية من وهدة الانحطاط الذى تردت فيه. فضلاً عن أنه كرر فى بعض وعظاته الأخرى حديثه عن فساد الأكليروس وبيع

وشراء الوظائف الكنسية، إلى جانب الحديث عن فساد الحكام والأمراء. وفي ٢٠ أغسطس عام ١٤٩٦، ألقى سافونارولا وعظة في قاعة المجلس الأعظم بناء على طلب من مجلس مدينة فلورنسا، قال فيها إن رجال الكنيسة يشكون من هجومه على شرورهم؛ ولكن سافونارولا نبّه إلى أنه لم يذكر أيًا منهم بالاسم فهو يهاجم الشر بوجه عام، كما أضاف إلى أن بعض المواطنين يشكون من تدخله في أمور السياسة وإدارة شئون الدولة، غير أنه أنكر ذلك تمامًا، وأردف أنه اقترح فقط سن بعض القوانين الصالحة من أجل رفاهية الشعب وحرية ونشر السلام والوثام في صفوفه. وتعجب الراهب كيف يعيب عليه أعداؤه دعوته إلى الإصلاح والصالح معًا. وأيضًا ذكر شائتيه بأنه يوجه التبرعات والمال الذي يجمعه إلى أعمال البر والخير، وأنه لو كان يجمع هذا المال لنفسه لما ظل يلبس الثياب المهلهلة حتى الآن. وعلى الصعيد السياسي طالب سافونارولا بحق أعضاء المجلس الأعظم في مناقشة ما يعنّ لهم من شئون الدولة بحرية تامة؛ ولكنه في الوقت نفسه طلب من هذا المجلس استئان قانون لردع مروجي الإشاعات والنميمة؛ لأنهم يبذرون بذور الخلف والشقاق في صفوف الأمة.

## أخطار جديدة أحاقت بفلورنسا

والراهب سافونارولا (١٤٩٦)

تدهورت أحوال فلورنسا الاقتصادية والتجارية نتيجة الظروف الصعبة التي مرت بها، والتي أدت إلى الشلل الذي أصاب صناعاتها وتجارتها، وأيضاً نتيجة الأموال الباهظة التي دفعتها فلورنسا إلى ملك فرنسا. أضف إلى ذلك الخراب والدمار اللذين خلفتهما المجاعة والطاعون. وزاد الطين بلة تلك الحرب التي اشتعلت بينها وبين بيزا المتمردة عليها والتي كان الدوق لودفيكو وجمهورية البندقية يمدانها بالقوة والسلاح، في حين نضبت موارد فلورنسا وانتهى الصراع المسلح بين المدينتين إلى اندحار فلورنسا أمام بيزا. ومما زاد من محنة فلورنسا، وفاة قائدها الشجاع المحنك بييرو كابوني في ٢٥ سبتمبر ١٤٩٦ برصاصة أطلقها عليه جيش بيزا أثناء تحصين مواقعه، الأمر الذي فت في عضد جنوده. ولم تقف محنة فلورنسا عند هذا الحد، فقد مارس الحلفاء ضغوطاً شديدة عليها حتى تنضم إلى تحالفهم المقدس المتعاون مع البابا وتقطع صلتها بفرنسا. ووجدت هذه الضغوط استجابة وترحيباً من جانب حزب الأرايباتي، في حين قاومها شعب فلورنسا عن بكرة أبيه بسبب حرصه على المحافظة على حريته التي نالها على يد سافونارولا.

وشاعت أنباء مفادها أن ملك فرنسا شارل الثامن ينوي غزو إيطاليا مرة أخرى، الأمر الذي جعل فرائص الدوق لودفيكو ترتعد فدعا الإمبراطور ماكسيمليان، الذي ربطته به علاقات جيدة إلى غزو إيطاليا؛ واعداً إياه بأن يدفع له كل شهر مبلغاً قدره ٤ ألف دوقية لمدة ثلاثة شهور، وأن يدفع له أهل البندقية ١٦ ألف دوقية وأن يدفع له

البابا ثمانية آلاف دوق؛ شريطة أن يأتى ماكسيميليان على رأس جيش قوى وعمرمرم.

ولكن ملك فرنسا شارل الثامن تخلى عن فكرة العودة إلى غزو إيطاليا بسبب انشغاله بمولد ولى عهده الذى شاء القدر أن يموت بعد شهر واحد من ولادته، الأمر الذى أصاب الملك بالغم والاكتئاب فلم يعد يفكر فى إيطاليا مرة أخرى. وبزوال خطر الغزو الفرنسى لم يعد التحالف أو الكرسى البابوى يهتم باستقدام الإمبراطور ماكسيميليان إلى إيطاليا، ولكن الدوق لودفيكو ظل حريصاً على استدعائه. وانتهاز بابا روما فرصة هذه البلبلة وقرر أن يخوض غمار الحرب ضد فلورنسا التى تمكنت من صد قواته ودحرها. غير أن فلورنسا، رغم انتصارها، ظلت مهددة فى الشمال بقوات الإمبراطور ماكسيميليان الزاحفة نحو بيزا التى استقبلته بترحاب عظيم وأقامت تمثالاً لتكريمه.

ورغم سوء أحوال فلورنسا، فقد بذلت قصارى جهدها لصد قوات ماكسيميليان الغازية. وفكر مجلس مدينة فلورنسا على الفور فى الالتجاء إلى سافونارولا والاستعانة به، كى يثير الحمية الوطنية فى نفوس جماهير فلورنسا. ولم يبخل سافونارولا بالمساعدة، فقد فعل كل ما يستطيع لاستنهاض همم عليّة القوم فيها. ولكنه لم يكن بمقدوره أن يعتلى منبر ديره كى يخاطب الجماهير كمادته ويبعث فيها روح القتال والنضال، لأن البابا كان قد أصدر آنذاك تعليماته بمنع سافونارولا من التبشير.

كان البابا ألكسندر ألد أعداء جمهورية فلورنسا. فعلى الرغم من عدااء دوق ميلانو لها، فإنه كان على استعداد للاكتفاء بتغليب حزب الأرابياتى ونصرتة على غيره من أحزاب فلورنسا، كما كان يكفى أهل البندقية الحصول على بعض النفوذ فى مدينة بيزا. أما البابا ألكسندر، فقد حزم أمره على تدمير جمهورية فلورنسا تدميراً شاملاً وإعادة عائلة المديسيس إلى سدة الحكم، تمهيداً لتصيب أبنائه غير الشرعيين ملوكاً على عرشها. ولهذا، لم ينتظر البابا قدوم قوات ماكسيميليان كى تسانده، بل أمر قواته بالإسراع بمهاجمة فلورنسا. ولا شك أن كراهيته للشعبية لسافونارولا دفعته للإسراع فى اتخاذ هذا القرار، فقد كان يخشى وعظاته التى تلهب أهلها حماساً وتدفعهم إلى الاستماتة فى صد قوات البابا. ومن جانبيهما، أسهمت البندقية وميلانو فى دفع قواتهما للإطباق على أنفاس فلورنسا. ورغم ذلك، فقد أظهرت هذه المدينة روحاً



قتالية عالية رغم انتشار المجاعة فيها؛ ولكن المجاعة أدت في نهاية الأمر إلى انهزامها. وبانتشار المجاعة في فلورنسا امتلأت مستشفياتها بالمرضى وتساقط عدد كبير من الرجال والنساء على جوانب الطرق. وأثلجت هذه الفاجعة صدر حزب الأرابياتى الموتور، الذى انتهز هذه الفرصة ليغير عن شماتته فى سافونارولا وأتباعه والاستهزاء به ونبوءاته والانقضااض على نظام الحكم الجديد الذى أسسه سافونارولا. وعندما رأى أهل فلورنسا أن راهبهم يلتزم الصمت ازدادوا حزنًا ويأسًا؛ ولهذا ابتهل إليه مجلس المدينة أن يشد من أزهم ويخف لنجدتهم ولا يتخلى عنهم فى محنتهم.

كان هذا الوضع المأساوى فوق طاقة سافونارولا على التحمل. ولم يستطع هذا الراهب أن يرفض توسلات أهل فلورنسا له. فاعتلى منبر كنيسة القديس مرقص فى ٢٨ أكتوبر ١٤٩٦ غير عابئ بالحظر الذى فرضه بابا روما عليه. وكعادته تحدث الراهب عن ضرورة تحلى فلورنسا بالفضيلة وتخليها عن المبادىء، وأيضاً دعا سافونارولا أهل فلورنسا إلى الاتحاد ونبذ الشقاق، مؤكداً لهم أن النصر آت ما فى ذلك ريب إن تمسكوا بأهداب الفضيلة. وسقطت كلماته على الشعب التعس كالبسم الشافى فشعر بالراحة والعزاء. وفى يوم ٣٠ أكتوبر ١٤٩٦، تحرك فى شوارع فلورنسا موكب دينى مهيب يحمل صورة العذراء مريم؛ فران على الجميع خشوع عظيم. وجاءهم فارس يمتطى جواداً فالتفوا حوله وسألوه عن آخر أنباء العدو، فطمأنهم بانكساره فملاً الأمل قلوبهم الواجفة. إذ قال إن العدو عجز عن الاستيلاء على ميناء ليجهورن، وإن معجزة قد حدثت: فقد أرغمت الرياح العاتية السفن الفرنسية المحملة بالقمح على الرسو فى الموانى الإيطالية، رغم أن الأوامر الصادرة إليها كانت على العكس من ذلك. وما إن سَمِعَ شعب فلورنسا هذه الأنباء السارة، حتى تملكتهم فرحة مجنونة واقتنع الشعب أن سافونارولا نبي ما فى ذلك أدنى ريب. صاح الشعب بملء صوته: «لقد أنقذتنا أيها الراهب مرة أخرى». وفى شهر نوفمبر ١٤٩٦، اعتلى سافونارولا المنبر مرة أخرى ليشكر الله على النعم التى أنزلها على شعب فلورنسا. ولكنه فى الوقت نفسه طلب من هذا الشعب أن يتحد وأن يكون دومًا على أهبة الاستعداد لمواجهة العدو. وأيضاً عبر الراهب عن أسفه لاضطراره إلى عدم اتباع الأمر البابوى الخاص بمنعه من التبشير.

والجدير بالذكر، أن عدوه لودوفيكو حاول مداهنته والتظاهر ب صداقته، رغم أنه كان يتآمر فى السر عليه ويضممر له الشر.

وما كاد البابا يسمع عن وعظة سافونارولا في ٢٨ أكتوبر ١٤٩٦، حتى أصدر على الفور مذكرة بتاريخ ٧ نوفمبر من العام نفسه وجهها إلى جميع رهبان طائفة الدومينيكان في توسكانيا. وتدل هذه المذكرة على أن البابا لم يعد يصبر على ضم دير القديس مرقص الذي يسيطر عليه الراهب إلى بعض الأيرة الأخرى في لومبارديا. ولكنه أصر هذه المرة على فصله فصلاً كاملاً عن الأديرة في كل من توسكانيا وروما، بحيث يكون لدير القديس مرقص راع خاص به يتبع مباشرة الراعي العام لكنائس روما. وأسند البابا مهمة تعيين هذا الراعي للراعي العام وكاردينال نابولي. وعلى أية حال، سعى البابا للإيقاع بغريمه بطريقة غاية في اللؤم والمكر، حيث أسند منصب الراعي إلى بادر جياكومو دي سيسيليا، وهو شخص معروف بتعاطفه مع سافونارولا. وكلف البابا الخبيث الراعي الجديد بإصلاح أحوال الكنيسة الكاثوليكية في توسكانيا وسائر الدويلات الإيطالية. وبما أن الراعي الجديد كان خاضعاً لرئيسه في روما، فقد أدى ذلك إلى وضع سافونارولا تحت سيطرة هذا الرئيس بأسلوب ملتو وغير مباشر، وبمعنى آخر أدى هذا الموقف إلى القضاء على أية محاولة من جانب سافونارولا لاستقلال دير القديس مرقص الموالى له، كما أدى إلى انسلاخ هذا الدير وضمه إلى مجموعة أخرى من الأديرة المناوئة لسافونارولا، بحيث أصبح من السهل على بابا روما أن يكسر شوكتة ويخضعه لإرادته.

ولم تقطع هذه الحيلة على سافونارولا، الذي سارع بكتابة «اعتذار إلى شعب دير القديس مرقص» لئلا يرد على الأمر البابوي الصادر بضم دير القديس مرقص إلى أديرة دخيلة. قال سافونارولا إنه وحده لا يستطيع الموافقة على هذا الضم، فهو يحتاج إلى موافقة زملائه الرهبان التابعين لدير القديس مرقص والبالغ عددهم مائتين وخمسين راهباً سبق لهم أن كتبوا إلى البابا برفضهم فكرة الضم. وأضاف سافونارولا أن هذا الضم سوف يجرف في أعقابه مزيداً من الاضطرابات والانقسامات والفوضى. وأشار سافونارولا إلى الشحنة والبغضاء القائمتين بين مختلف الأديرة، الأمر الذي سوف يعود بالضرر إذا تم ضم دير القديس مرقص إلى عدد من الأديرة المتشاحنة. ولهذا أعلن سافونارولا عزمه على عدم الالتزام بالأمر الصادر إليه من البابا؛ لأنه يضر ولا ينفع. واستطرد أن التهديد بطرده من الكنيسة الكاثوليكية لن يخيفه أو يفت في عضده، وأنه على استعداد للموت دفاعاً عما يرى فيه الخير والصالح. فالمسيحي

الحق يحتكم إلى ضميره قبل أن يحتكم إلى رؤسائه. وهكذا اندلعت الحرب صريحة وواضحة بين الراهب العنيد والبابا اللئيم.

وأيضاً ترسخت شعبية سافونارولا أكثر وأكثر عندما تحققت نبوءته بأن النصر سوف يكون حليف فلورنسا وأن الاندحار ينتظر أعداءها، فقد هبت عواصف هوجاء حطمت أسطول ماكسيميليان الذى كاد أن يفرق وعلى منته ماكسيميليان نفسه فى لجج البحر. ودب التعب فى أوصال ماكسيميليان فقرر الانسحاب.

وفى ٢٦ نوفمبر ١٤٩٦، طلب سافونارولا من شعبه أن يتوجه بالشكر والعرفان إلى الله تعالى، لأنه أعز فلورنسا وأذل أعداءها والطامعين فيها. ثم ألقى الراهب ثمانى وعظات تؤكد القطيعة الكاملة التى حدثت بينه وبين البابا. ثم عاد إلى استخدام مقدراته العجيبة على التنبؤ، محذراً أهل فلورنسا من غضب الله إذا هم حادوا عن الطريق القويم. وتعتبر الوعظة السادسة من أهم وعظاته، ففيها أحصى نعم الله التى اختص بها أهل فلورنسا منذ طرد حاكمهم الطاغية بييرو مديسيس حتى هزيمة الإمبراطور ماكسيميليان؛ ولكنه عاب على أهلها أنهم يسمعون كلام الله بأذن ثم ما يلبث هذا الكلام أن يخرج من الأذن الأخرى. ثم أردف قائلاً إن المجلس الأعظم الذى تم إنشاؤه فى فلورنسا إنجاز كبير ولكنه بحاجة إلى وضع القيود والضوابط له، حتى لا يتجبر أو يتكبر أو يحيد عن جادة الطريق. فضلاً عن أنه هاجم بشدة نظام الانتخاب القائم على القرعة. وأنهى هذا الراهب وعظته السادسة بقوله، إنه على استعداد لأن يحارب بمفرده العالم كله إذا كان هذا العالم متآمراً وشريراً وفاسداً.

## تعيين فرانسيسكو فالورى مسئولاً عن إقرار العدل ودفاع سافونارولا عن الشعر (١٤٩٧)

فى عام ١٤٩٧، تم تعيين فرانسيسكو فالورى الذى استبسل فى الدفاع عن فلورنسا مسئولاً عن إدارة العدل فيها لمدة شهرين، هما: يناير وفبراير من العام المذكور. واقترح عليه سافونارولا فرض القيود على المجلس الأعظم أو المجلس الشعبى، بغية استبعاد العناصر التى تتآمر ضد النظام الجمهورى؛ ولكن فالورى رفض الاستجابة لاقتراحه. بل إنه على العكس من ذلك صمم على إصدار قانون جديد يهدف إلى زيادة عدد أعضاء هذا المجلس، وتخفيض سن العضوية من ثلاثين إلى أربعة وعشرين عامًا. وكان يرمى من وراء ذلك إلى دعم النظام الجمهورى عن طريق زيادة عدد المشتركين فى الحكم. ولكن هذه السياسة باءت بالفشل وأتت بعكس النتيجة المرجوة؛ لأن توسيع رقعة عضوية هذا المجلس سمح بدخول عدد من الشبان الفاسدين والمستهزئين فيه من التابعين لطائفة الأرابياتى المناوئة لسافونارولا. وعاث هؤلاء الشبان المنفلتون فساداً فى شوارع فلورنسا وأتوا بأعمال شغب، الأمر الذى ألحق الأذى بالنظام الجمهورى الذى يرجع الفضل فى إقامته إلى جهود سافونارولا. ومن المؤسف، أن فالورى كان غافلاً عن الأخطار المحيطة بالجمهورية. ومن المؤسف أيضاً أن مجلس المدينة كان يصدد سن قانون يفرض أعباء ضريبية على أهل فلورنسا لا قبل للفقراء بها، الأمر الذى أوغر صدر الفقراء ضد الأغنياء. ومن المرجح أن مجلس المدينة أراد تهدئة خواطر الشعب فتراجع عن تنفيذ القانون المقترح.

وفى تلك الآونة انصرف سافونارولا إلى كتابة مؤلفه «انتصار الصليب» وعدد آخر من الكتيبات فى عزلة وصمت كاملين. وحتى يتفرغ للتأليف، كلف مريده الراهب دومينيكو بريشيا بأن يحل محله فى القيام بواجباته الدينية.

وأزف الوقت الذى تقيم فيه فلورنسا الكارنڤالات والاحتفالات السنوية فاستعد حزب الأرايباتى المناوئ لسافونارولا لإحياء حفلات المجون الصاخبة القديمة التى عرفتها فلورنسا فى عهد عائلة دى مديسيس، الأمر الذى أثار حنق الراهب دومينيكو بريشيا وجعله يصمم على استئصال هذا التقليد الماجن، ومارس دومينيكو ضغوطاً على مجلس المدينة حتى نجح فى حمله على إلغاء الحفلات الماجنة. وللقضاء على هذا التقليد الماجن، سار شباب المدينة التابعون لسافونارولا فى موكب مهيب يجوب شوارع فلورنسا، وطرقوا أبواب المنازل ليجمعوا كل ما فيها من تحف وأدوات للزينة ليضعوها فى أربعة أكوام أضرموا فيها النار. ولم يرق هذا فى عيون البعض فأنحوا على سافونارولا باللائمة، واعتبروه رجل دين متعصباً ومغلق الفكر يريد أن يعيد عصر التنوير إلى الوراء.. وإلى القرون الوسطى. وقد ساعدت طائفة البياجنونى الموالية لسافونارولا على إحراق التحف وأدوات الزينة وتحويلها إلى رماد. ومن المؤسف أنهم اعتبروا بعض المجلدات والأعمال الفنية وأدوات الزينة أشياء تستحق التدمير، الأمر الذى جعل أحد تجار البندقية يعرض شراءها مقابل عشرين ألف كرونة. فما كان من منظمى الحريق إلا أن وضعوا صورة المشتري فوق كومة من التحف وأدوات الزينة ثم أضرموا فيها النار. ومن المحتمل أن تكون هذه الصورة القبيحة مبالغاً فيها من قبل أعداء سافونارولا؛ وخاصة لأن الكثير من أهل فلورنسا فى ذاك الزمان أمثال جيرولامو بنيفينى وناردى كانوا يدفعون مبالغ باهظة ويتجشمون عناء الأسفار الشاقة بحثاً عن المخطوطات القديمة والتحف النادرة. ومن المحتمل أن سافونارولا وافق على نشر تحفة بوكاشيو الأدبية المعروفة باسم «ديكاميرون». ويذهب المدافعون عن هذا الراهب إلى أنه على الرغم من ظروف دير الصعبة، فإنه اقترض المال الذى اشترى به مكتبة الحاكم المخلوع بييرو دى مديسيس، حتى يحميها من الاندثار أو الوقوع فى أيدي الأعداء. علماً بأن مكتبة دير القديس مرقص التابع لسافونارولا كانت الوحيدة التى تفتح أبوابها لجمهور القراء والباحثين، والجدير بالذكر أن هذه المكتبة ضمت بين جوانبها نفائس الكتب والمخطوطات القديمة. ولكن الفن الذى حرص هذا الراهب



على ازدهاره هو ذلك الفن القائم على الإيمان بالمسيحية والدعوة لها. فلا غرو إذا رأينا ميكلائجلو يعتبر سافونارولا وأترابه رواداً لظهور فن مسيحي جديد.

وفى وعظاته تحدث سافونارولا عن مفهوم الجمال، قائلاً إن الجمال ليس جمال اللون أو الشكل، بل الجمال القائم على انسجام الأجزاء مع الكل، وكذلك انسجام الألوان. ويستطرد الراهب شارحاً مفهوم الجمال فيقول، إن جمال الأشياء البسيطة يكمن فى نورها مثل الشمس والنجوم التى تستمد بهاءها من الضوء المنبعث منها. والله نفسه هو نور السماوات والأرض، بل هو الجمال نفسه. وكما ذكرنا، يؤكد سافونارولا أن الجمال الحقيقى يكمن فى انسجام الأجزاء وتواؤمها. فجمال المرأة لا يرجع إلى جمال هذا العضو أو ذاك، بل يكمن فى تواؤم الأعضاء وانسجامها. ويربط سافونارولا بين الجمال والفضيلة فيقول: هب أنك أمام امرأتين تتمتعان بنفس القدر من الحسن والجمال إحداهما فاضلة والأخرى عاهرة، فأيهما تفضل؟ لا شك أنك سوف تفضل الجمال الذى تزينه الفضيلة. وأنحى الراهب باللائمة على النساء اللاتى يهتمن بجمال المظهر دون جمال الروح. كما أنه ينحى باللائمة على الرسامين الذين يرسمون العذراء مريم فى ثياب قشبية؛ لأنها كانت فى رأيه تلبس الملابس المهلهلة.

وحتى نستكمل مفهوم سافونارولا عن الجمال، يجدر بنا أن نلتفت الى الأهازيج الشعرية التى نظمها. وأيضاً أدان هذا الراهب شعراء الفحش والمجون، فضلاً عن إدانته للوعاظ الذين يقتبسون فى وعظاتهم الشعر الماجن. واستغل شائثوه تزمته الدينى والأخلاقى لاتهامه بمناصبية العداء للشعر والشعراء، الأمر الذى جعل مريده العالم أوجولينو فيرينو يحثه على توضيح موقفه من الشعر والفنون بوجه عام. واستجاب سافونارولا لمريده فنشر كتيباً بعنوان: «انقسام جميع العلوم وفائدتها»، يتضمن فصلاً بعنوان: «حول الاعتذار عن فن الشعر».

يقول سافونارولا فى هذا الصدد، إنه لم يفكر مطلقاً فى الهجوم على فن الشعر، فهجومه يقتصر على استخدام هذا الفن على نحو سيئ. وأضاف أنه يدرك أن الكثيرين يشنعون عليه فى كتاباتهم وأحاديثهم ويتهمونهم بالتعصب والانغلاق الفكرى. ثم يتناول سافونارولا الفرق بين شكل الشعر ومضمونه. ويضيف أننا نخطئ إذا ظننا أن أهمية الشعر ترجع إلى شكله، حيث إن المضمون الفلسفى والفكرى للشعر له أهميته أيضاً. ويذهب إلى أن هدف الشعر هو التأثير فى الناس عن طريق إقناعهم فى الوقت

نفسه . وهو كما أسلفنا يرى أن الشعر ينبغي أن يهدف إلى حث الناس على التحلى بالفضيلة، والرأى عنده كذلك أن الوزن والقافية ليسا من ضرورات الشعر. ويدلل على ذلك بأن الكتاب المقدس يرقى إلى مرتبة الشعر رغم خلوه من الوزن والقافية، حيث إنه يرمى أولاً وأخيراً إلى تحريك روح الإنسان وحثه على الرغبة فى الوصول إلى الحقيقة. ولا يرى سافونارولا أى جدوى من الوزن أو الإيقاع الذى يداعب الأذن دون الدعوة إلى السموق والقداسة.

وبعد معالجته للشعر بوجه عام تناول سافونارولا فى مبحثه الشعراء الطليان المعاصرين له، فوصفهم بأنهم أدعياء لا هم لهم غير اقتفاء أثر الإغريق والرومان، ليس فى أفكارهم وأساليبهم وحسب، لكن أيضاً فى الأوزان التى يتخذونها. بل إنهم يخاطبون فى أشعارهم نفس آلهتهم الوثنية. هؤلاء الشعراء المزيفون استحقوا من أفلاطون الطرد من جمهوريته. وبسبب هذه الآراء الرجعية سارع أعداؤه وشائثوه إلى الانقضاض عليه، مستغلين تشدده وتزمته ومغالاته. غير أن سافونارولا سعى إلى الاحتفاظ لنفسه بخط الرجعة، فقال إن بعض الشعراء القدامى امتدحوا الفضيلة وذموا الرذيلة فى قصائدهم. فضلاً عن أنه نصح الشباب المسيحي بدراسة الشعر الوثنى القديم بعد أن يتأكدوا من رسوخ عقيدتهم المسيحية، وذلك منعاً للبلبلية أو الاهتزاز. ويعزو بعض الدارسين تزميت الراهب فى هذا الشأن إلى كثرة عدد المثقفين والفلاسفة الساعين - آنذاك - إلى إحياء الفنون الوثنية. والغريب، أن هذا الراهب الذى هاجم الشعراء بكل هذه الضراوة لجأ إلى قرض بعض الأشعار والأهازيج الدينية للتخفيف من كربه وبلواه. ورغم خلو معظم الأشعار التى ألفها فى المناسبات والاحتفالات الدينية من القيمة، فإنها تتم بلا منازع عن روح نبيلة حساسة تتوق إلى الجمال. والجدير بالذكر، أن جانباً من أشعاره لم ير طريقه إلى النور حتى يومنا الراهن؛ ولكننا نعود فنؤكد ضالة قيمتها الفنية.

## موعظة سافونارولا عن النبی حزقیال وفشل فلورنسا

فی الاحتفاظ براهبهم سافونارولا (١٤٩٧)

فی الأربعین يوماً السابقة على عيد الفصح فی عام ١٤٩٧ استمر سافونارولا فیلقاء وعظاته عن النبی حزقیال، وفیها تناول صراعه المریر مع البابا الذی زاد ضراوة عن ذی قبل. ومن النقاط المهمة التی أثارها الراهب فی هذه الوعظات وضع الممتلكات التابعة للكنیسة الرومانية. قال الراهب فی وعظاته المشار إليها إن من حق الكنیسة، بل ومن الضروري والمفید معاً، أن تكون لها ممتلكات دنیویة. ولكن الأيام أوضحت أن حیاة الكنیسة لهذه الممتلكات أصبحت شراً مستطيراً وسبباً رئيسياً فی تدهورها ودمارها. ومن ثم، فقد صار من الأفضل أن تتخلص الكنیسة من ثروتها التی تبعتها عن الله وأن یختار الرهبان حیاة الفقر، لأن الثروة تفضی بهم إلى التهلكة. وأيضاً شن سافونارولا هجوماً عاتياً على رجال الدین الذین یغتصبون أملاك الكنیسة، طالباً منهم إعادتها إليها أو - إذا تعذر ذلك - إنفاق ما اغتصبوه على أوجه البر والإحسان.

ویفسر سافونارولا غضب رجال الكنیسة علیه بأنه اكتشف استثناء الفساد فیهم. وکعاداته تتبأ الراهب فی الوعظات التی ألقاها عام ١٤٩٧ بالکوارث التی سوف تحل بالعالم المسیحی إذا لم یستأصل شأفة الفساد المستشری على الصغیدین: الكنسی والمدنی، وقال إن الثورة سوف تتأجج ضد الكرسی البابوی إذا لم یضع حدّاً لمبازله ومفاسده. كما أعلن أنه لن یتوانی لحظة واحدة فی التصدی للفساد وتطهير الكنیسة مما شابهها من دنس، مثل مضاجعة رجال الدین المسیحی للعاهرات، ومزاولة التجارة فی دور العبادة. فضلاً عن شك بعضهم فی وجود جسد المسیح فی قربان التناول.

حتى الوظائف والمقدسات الدينية أصبحت تُشترى وتباع. وفي الماضي كان الرهبان الذين ينجبون أبناء غير شرعيين يسمونهم أبناء عموماتهم، ولكنهم الآن خلعوا برقع الحياء فلا يستحون من تسميتهم بأولادهم. وهكذا تحولت الكنيسة إلى كنيسة عهر وفسق.

ولكن سافونارولا أضاف، أن المسيح سوف يخف لانتشال كنيسته من الوحل الذي تتمرغ فيه، كما أن القديسين سوف يشفعون لها عند سيدهم يسوع المسيح. ثم ما لبث أن تحدث عن سعى بابا روما إلى طرده من حظيرة الكنيسة، فقال ملمحاً إنه يعرف شخصاً واحداً في روما يسعى بلا كلال أو ملل للنيل منه، وإن هذا الشخص تحركه اهتماماته ودوافعه الدنيوية البعيدة كل البعد عن الدين. ويضيف الراهب، أنه كان سيضمن سلامته من أى أذى إذا لجأ إلى نفاق البابا ومداهنته. ثم أعلن استعداداه لتحمل الاضطهاد والاستشهاد من أجل المسيح، الذي يوقن أنه سوف يحميه ويساعده على التغلب على محنته. وقد ذاعت هذه الوعظات خارج محيط فلورنسا، لدرجة أن دوق فيرارا جاء متخفياً للاستماع إليها.

ويتضح من الوعظات الآتفة الذكر أن صاحبها كان يعد نفسه وشعبه معاً لخوض معركة شرسة مع بابا روما، كما أنه صمم على تحدى الحظر البابوي المفروض عليه. ووضع سافونارولا أمله في اجتياز محنته في سرعة انعقاد مجلس العشرة في فلورنسا. كان الراهب يدرك أن سبباً قوياً في غضب البابا عليه يرجع إلى رفضه الاقتراح البابوي الخاص بضم دير كنيسة القديس مرقص الذي يلقي وعظاته فيه، إلى بعض الأديرة الرومانية الأخرى. وكما أسلفنا، لجأ البابا ألكسندر السادس إلى اللؤم والخديعة للإيقاع بغريمه في الشرك، فأشاع هذا البابا الخبيث بين أهل فلورنسا أنه سوف يساعدهم على أن تستسلم مدينة بيزا لهم في حالة قبولهم الانضمام إلى التحالف المقدس المناوئ لفرنسا والساعي إلى تطهير الأراضي الإيطالية من أى نفوذ لها. وأراد مجلس العشرة أن يهدئ من روع البابا الثائر فأرسل إليه مندوباً عنهم للتفاهم معه هو ألساندرو براكى، غير أن البابا رفض التفاوض معه وأبلغه بإصراره على استئصال نفوذ فرنسا في إيطاليا، ورفضه أية محاولة قد يبذلها الفرنسيون للعودة إلى إيطاليا. وعرض البابا على فلورنسا رشوة تتمثل في وعده بإعادة تبعية بيزا لها، مقابل قبولها الانضمام إلى التحالف المقدس الذي كان البابا أحد المشتركين فيه.

غير أن أهل فلورنسا كانوا يدركون الشرك الذي ينصبه البابا لهم فرفضوا الانسياق وراءه، كما أنهم كانوا يعرفون جيداً أن البندقية تقف بجانب بيزا ضدهم. وقد سعى الساندرو براكى مبعوث فلورنسا لدى الكرسي البابوى إلى الدفاع عن بلده وشرح موقف سافونارولا. عندئذ انتهره البابا، قائلاً إنه يجدر به العودة إلى بلده إذا لم يكن لديه أقوال أخرى أفضل مما تقوّه بها. وأضاف أنه سوف يرغب فلورنسا للرضوخ لمشيئته، وأنها سوف تتقدم على مسلكها.

ثم استبد به الغضب الذي أفقده السيطرة على نفسه، قائلاً: «نحن نعرف جيداً أن كل هذا يحدث بسبب إيمانكم بنبوءات بائع الحكم والأمثال الذي يعيش بين ظهرائكم، وبسبب سماحكم له بإهانتنا وتهديدنا والدوس علينا بالأقدام». وعبثاً حاول المبعوث الفلورنسى تهدئة ثائرة البابا الهائج، فقد استمر في التهديد والتلويح بما سوف يفعله التحالف بفلورنسا العاصية.

وبالإضافة إلى مناوئة حزب الأرابياتى لسافونارولا، لعب حزب آخر يعرف باسم البيجى Bigi دوراً مهماً فى إثارة الاضطرابات ضد نظام الحكم الجديد فى فلورنسا. وساعده على ذلك انتشار المجاعة والطاعون بين أهل فلورنسا. وبطبيعة الحال وفرت هذه الأحوال المفجعة الفرصة لعائلة دى مديسيس كى تتآمر للعودة بمساعدة حزى البيجى والأرابياتى. غير أن بييرو دى مديسيس فشل فى دخول فلورنسا بقوة السلاح، الأمر الذى اضطره إلى الهرب إلى روما ليواصل حياة الفسق والمجون والسهر حتى الفجر. وقد بلغ به السفه مبلغاً جعله يبدد كل ما يملك ويبيع تحفه ومجوهراته وسجاجيده الفاخرة من أجل إرضاء شهواته. وكان شغل بييرو الشاغل أن ينتقم من كل الذين ساهموا فى تنحيته عن الحكم. ويجدر بالذكر، أن نفوذ حزب البيجى زاد نتيجة الصراع المنهك الدائر بين حزب البياجنونى وحزب الأرابياتى. ونجح أحد أعضاء حزب البيجى، وهو برناردو ديل نيرو، من أن يصبح عضواً فى حكومة فلورنسا رغم ما عرف عنه من ولاء لعائلة المديسيس. وما إن علم بييرو فى روما باشتراك برناردو ديل نيرو فى حكم فلورنسا، حتى أخذ ينشط فى جمع المال وحشد الحلفاء، وشجعه على ذلك مساندة البابا وأهل البندقية له. ونجح بييرو فى تجنيد ألف وثلثمائة رجل تحت إمرة ضابط إيطالى كفاء يدعى بارتولوميو دالفيانو. غير أن مدة مجلس المدينة الجديد الذى تمكن برناردو ديل نيرو من الدخول فيه أوشكت على الانتهاء؛ مما دفع



ديل نيرو إلى أن يطلب من بييرو دي مديسيس أن يتمهل في العودة إلى فلورنسا؛ ولكن بييرو ضرب بنصيحته عرض الحائط وقرر العودة إليها.

وفي نحو ٢٠ أبريل ١٤٩٧، وصل بييرو دي مديسيس على رأس جيش صغير إلى مدينة سيينا التي أبدى عاقلها باندولفو بتروشي استعداداً لمساعدته. ثم توجه إلى بلدة فلورنسا في السابع والعشرين من نفس هذا الشهر. وعندما اقترب من فلورنسا، هبت عاصفة أرغمته على التريث. ورأى فلاح في هذه الضاحية الجيش القادم فاستشعر خطراً على فلورنسا، وخمن أن له علاقة بمحاولة بييرو دي مديسيس العودة. واستطاع هذا الفلاح أن يتسلل حتى وصل إلى أبواب هذه المدينة ليحذر حراسها من الخطر الذي يتهددهم. وتبهرت المدينة التي أوصدت أبوابها إلى هجوم بييرو الوشيك عليها، فحمل أهلها السلاح للتصدي للمهاجمين. وبطبيعة الحال، ساد الاضطراب والفرع أرجاءها فأرسل عضو من أعضاء مجلس المدينة وصديق حميم لسافونارولا يدعى ميسر فيليبيو أريجووشي، رسولاً إلى هذا الراهب كي يسأله عما سيحدث للمدينة المهددة. وما إن رأى سافونارولا الرسول قادماً حتى قاله له: «اذهب وأخبر مجلس المدينة بأن بييرو دي مديسيس سوف يصل ممتطياً جواده حتى أبواب فلورنسا ولكنه سيرحل دون أن يحقق أي نجاح» وبالفعل، اقترب بييرو من بوابة المدينة؛ ولكنه وجدها موصدة. وصور له خياله السقيم أن له في المدينة أعواناً سوف يهبون لاستقباله والترحيب برجوعه. غير أنه فوجئ بالحراس يطلقون النار في اتجاهه فاحتوى منها خلف حائط وملاً الخوف قلبه، مؤثراً التقهقر وسط استهزاء الأهالي وسخريتهم. وعقب إجبار جيش بييرو على الفرار تم انتخاب مجالس حكومية جديدة في فلورنسا، في جو تمزقه الخلافات والشكوك وتبادل الاتهامات.

## اندلاع أعمال الشغب فى فلورنسا، وصدور الأمر البابوى بحرمان سافونارولا الكنسى وانحسار الأوبئة (١٤٩٧)

وبفضل بييرو دى مديسيس فى العودة إلى حكم فلورنسا، انحسر نفوذ حزب البيجى وقوى نفوذ أعدائهم من حزب الأرابياتى الذى نجح كثير من أعضائه فى دخول مجلس المدينة، وعلى رأسهم بييرو ديغلى ألبرتو. غير أن الجانب الأكبر من عداء الأرابياتى كان موجهاً ضد الراهب سافونارولا. والجدير بالذكر، أن حزب الأرابياتى أنكر أن له أية علاقة بمحاولة بييرو العودة واشتراكه فى أية مؤامرة، كما وجد تأييداً ومناصرة من الكرسي البابوى ودوق ميلانو. ووعد حزب الأرابياتى البابا بأنه سيبذل قصارى جهده للقضاء على سافونارولا الذى كان قد انسحب من الحياة العامة ولاذ بقلايته فى الدير. ولم يجد أعداؤه وسيلة للتخلص منه فاكتفوا بوضع اللافتات المُهينة له على جدران الدير، وبالانخراط فى أحداث شغب أثناء إقامة سافونارولا القداس فى كنيسة القديس مرقس.

وسنحت لأعداء سافونارولا فرصة ذهبية للانقضاض عليه يوم ٣ مايو ١٤٩٧، عندما أعطى انتشار الأوبئة السلطات العليا عذراً لإلغاء الوعظ الدينى فى الكنائس ابتداء من اليوم الخامس من الشهر المذكور. ولكن سافونارولا صمم بمناسبة عيد صعود السيد المسيح إلى السماء فى الرابع من شهر مايو، على إلقاء وعظة، وذلك فى اليوم السابق مباشرة على تنفيذ الأمر الخاص بحظر الوعظ فى الكنائس. وأعلن حزب الأرابياتى المعادى للراهب أنه لن يسمح له بإلقاء وعظته، فى حين أن حزب البياجنونى المناصر له صرح بضرورة إلقاء سافونارولا لكلمته. وتراهن الطرفان على أى منهما

يربح فى هذا الصراع المحتدم. وتدخل مجلس المدينة ليحسم الأمر فأصدر مرسومًا يقضى بمنع أية محاولة للحيلولة دون إلقاء موعظة يوم الصعود. وقرر حزب الأرايباتى قتل سافونارولا على الفور، أو على أقل تقدير، إلحاق الأذى البدنى الشديد به. واتفق أعداء الراهب مع شخص يدعى بايا على نسف المنبر الذى سوف يعتليه سافونارولا لإلقاء وعظته. ولكن المتآمريين أحجموا عن تنفيذ هذه الخطة خوفًا من الاضطرابات التى ستعم الكنيسة، ولهذا فكروا فى خطة بديلة تتلخص فى تلطيخ المنبر بأقذر القاذورات، ثم لفه بجلد حمار مضى على نفوقه ثلاثة أيام، إلى جانب وضع مسامير أو أسياخ حديدية فى ذلك الجزء من المنبر الذى اعتاد الراهب أن يضربه بقبضة يده أثناء انفعاله الشديد وهو يلقي وعظته. وبطبيعة الحال، كان أعداء الراهب يدركون أن هذا لا يكفى للقضاء على حياته. ولكن سيينى وعصابته المتآمرة كانوا يأملون فى أن يتسبب هذا فى إثارة الشغب حتى يتمكنوا من تنفيذ هدفهم، وهو التخلص من حياة الراهب. وانتشرت الشائعات فى فلورنسا حول المؤامرات الكثيرة التى تحاك ضد حياة الراهب؛ ولهذا زاره فى الدير بعض أصدقائه كى يتوسلوا إليه ألا يخاطر بحياته بالوعظ فى يوم الصعود. ولكنه أجابهم فى غضب نبيل، قائلاً إنه مهما كانت الأخطار المحدقة به فلن تشيه عن إلقاء كلمته فى هذه الاحتفالية الدينية المقدسة. ولما رأى أصدقاءه ومريدوه إصراره على اعتلاء المنبر حشدوا طاقاتهم وحملوا السلاح للدفاع عنه.

وفى فجر عيد الصعود دلف إلى الكنيسة الموالون لسافونارولا من حزب البياجنونى، لتنظيفها من كل الأوساخ التى وضعها أعداؤهم وإعادة النظام والترتيب فى أرجائها. وفى منتصف النهار خرج سافونارولا من قلايته يحرسه عدد من أتباعه الأوفياء، ليشاهدوا عصابة الكومباجناتشى المتآمرة تتجى جانبًا من الكنيسة بمعزل عن المصلين ويظهرون التحدى وبنوون الشر. ثم صعد سافونارولا إلى المنبر فأشار فى وعظته إلى تأمر الأشرار عليه لمنعه من الوعظ، وأكد أنه لا يخشى أية قوة بشرية مهما كانت ولن يسمح لها بإعاقة تأدية واجبه المقدس. ثم ابتهل إلى الله أن يقيه من أذى الأشرار الذين يتريصون به الدوائر. وأضاف أن الكرسي البابوى سوف يصدر أوامره بطرده من الكنيسة، وحث أهل فلورنسا على حمل السلاح والاستشهاد فى سبيل الله. كما حذرهم من أن ضعيفى الإيمان من بنى جلدته سوف يبيعونه كما باع أبناء يعقوب أخاهم يوسف. وسوف ينكرون عليه نبوءاته الهابطة من السماء رغم أنها

تحققت، وأندرسافونارولا أن جحافل البربر سوف يجتاحون إيطاليا ويقومون بتدميرها. ولكنه ذكر أن الأتقياء سوف يلوذون بالله كي يحميهم من الدمار، وطمانهم بأنه لن يبخل عليهم بالعون والمساعدة. وفي حين تعالت الهمهمات في الكنيسة، مضى الراهب يصرخ إلى الله كي يغفر ذنوب المتكررين له ويهديهم سواء السبيل، لأنهم لا يعرفون ما يفعلون.

وما لبثت نبوءاته المشئومة أن تحققت، فسرعان ما اهتزت أركان الكنيسة من جراء حدوث فرقة مروعة وانفتحت أبوابها على مصاريعها، فارتعدت فرائص المصلين ولاذوا بالفرار في فوضى واضطراب عظيمين. وكان فريق المتأمرين على سافونارولا من الكومباجناتشي يضم فرانسيسكو سيبى المتسبب في هذه الفوضى، فقد أمسك بصندوق النذور وقذف به إلى رصيف الشارع. وكانت فعلته هذه الإشارة المتفق عليها بين المتأمرين لبدء الاضطرابات. وصرخ بعضهم بأعلى أصواتهم ودقوا بأيديهم على مقاعد الكنيسة، في حين دق البعض الآخر بكل عنف على أبوابها حتى انفتحت أمامهم. ورغم فرار معظم المصلين من الكنيسة، فقد أحاط بسافونارولا بعض الأوفياء لحمايته من الأذى. كما أسرع البعض الآخر إلى إحضار الأسلحة والذخيرة المخزونة في بيوت ببيرو فرانسيسكو والثرى كامبى. كان عدد الأوفياء للراهب الذين هبوا لحمايته نحو ستين رجلاً مسلحين بالرماح والسيوف. وتقدم المتآمرون في مجلس الثمانية نحو المنبر بغية قتله، ولكنهم وجدوه محاطاً بحماية قوية. وأشهر أحد حراسه، وهو كوربيزو دا كاستروكارو، سلاحه ليطمئن به المتأمر جيوجنى طعنة نجلاء. وفي خضم هذه الاشتباكات، رفع سافونارولا الصليب وحاول إيصال صوته إلى الموجودين دون طائل. عندئذ ركع ليصلى. وبمجرد أن عاد الهدوء غادر المنبر في حماية أصدقائه الذين دلفوا به داخل الدير. وذاعت أخبار المؤامرة لاغتيال سافونارولا في أرجاء إيطاليا، فلم يصبح للإيطاليين شغل شاغل غير الحديث عنها.

وفي ٨ مايو ١٤٩٦، توفّر هذا الراهب على كتابة رسالة بعنوان «إلى كل الذين اختارهم الله من المسيحيين الأوفياء» أكد فيها صدق نبوءاته، وذكر منها مسألة طرده من الكنيسة ومحاولة القضاء على حياته. وأيضاً تنبأ بدنوه من الموت وانتقال روحه إلى العالم نوراً في فصل من دنيا الشرور والظلمات. وقال إنه مستعد لاستقبال الموت بصدر رحب. ثم شكر الله على أنه اختاره للعذاب والاضطهاد.

ورغم فشل محاولة الاغتيال فقد تزايد بصورة عظيمة نفوذ أعدائه الأرابياتي، لدرجة أن المتآمرين سلموا من المساءلة والعقاب. وأصدر مجلس المدينة مرسوماً أرسله إلى كل الكنائس يحظر الوعظ على جميع الرهبان. وحاول أعداء الراهب استصدار مرسوم بنفيه من فلورنسا، ولكنهم خشوا من السخط الشعبي العارم عليهم. ولكن فشل هذه المحاولة لم يثنيهم عن مواصلة إلحاق الأذى بسافونارولا، فأسرعوا بممارسة الضغط على البابا كي يصدر المرسوم الخاص بطرده من الكنيسة. ومن ناحيته، أصيب البابا بخيبة أمل عندما نما إلى علمه فشل المتآمرين في الإجهاز على ضحيتهم. والجدير بالذكر، أن الراهب ماريانو الذي كان يحمل الضغينة المشبوبة لسافونارولا، والذي هرب إلى روما بعد فشل بييرو دي مديسيس في استعادة حكم فلورنسا، لم يدخر وسعاً لتحريض البابا على تدمير سافونارولا. وكما أسلفنا، كان لأعداء سافونارولا من الأرابياتي قوة ضغط كبير مارسوها على البابا كي يسرع بإصدار قراره بطرده من الكنيسة. وكان من الطبيعي للغاية أن يستجيب لهم.

ورغبة منه في تجنب المشاكل الهوجاء مع الكرسي البابوي، أرسل سافونارولا خطاباً إليه في ٢٢ مايو ١٤٩٧ يتساءل فيه عن غضب البابا منه. وشكا الراهب من استماع البابا لما يروجه ضده أعداؤه، وعلى رأسهم الراهب ماريانو، من أكاذيب وافتراءات. وفي الوقت نفسه، كان البابا قد أرسل في ١٣ مايو من العام نفسه المرسوم الخاص بطرد سافونارولا، فضلاً عن أنه أرسل منشوراً دورياً يتضمن هجوماً على الراهب إلى رهبان دير سانتسيما أنوتزياتا، يقول أنبابا في هذا المنشور، إنه ترامي إلى سمعه أن راهباً يدعى جيرولامو سافونارولا راعى كنيسة القديس مرقص في فلورنسا ينفث معتقداته السامة ومذاهبه الضارة، ومن ثم فإنه يأمره بالتوقف عن إلقاء الوعظات وبالحضور إلى روما يطلب المغفرة عما ارتكبه من أخطاء. ولكنه شق عصا الطاعة عليه متعللاً بعلم مختلفة قال البابا، إنه قبلها أملاً في أن يندم ويرعوى. ولكنه ظل سادراً في غيبه، الأمر الذي اضطر الكرسي البابوي أن يرسل مذكرة بتاريخ ٧ نوفمبر ١٤٩٦ تأمره بضم دير القديس مرقص التابع له إلى المجمع التوسكاني. ولكنه مرة أخرى - حسبما يقول البابا - رفض الانصياع لهذا الأمر البابوي الثاني، الذي تضمن تهديداً له بالطرد من الكنيسة. ولهذا أعلن البابا في شتى الاحتفالات الدينية



وفى حضرة الشعب أن جيرولامو سافونارولا أصبح منذ هذه اللحظة مطروداً من الكنيسة بسبب رفضه إطاعة الأوامر البابوية. وأضاف البابا تهديده بفرض عقوبة الطرد من الكنيسة على كل من تسول له نفسه تقديم المساعدة إليه، أو الإتصال به أو الموافقة على آرائه المشتبه فى هرطقتها. وقد حرر البابا هذه المذكرة فى ١٣ مايو عام ١٤٩٧. والغريب، أن بينى البابا الاشتباه فى طريقة سافونارولا على الأقاويل والشائعات، وليس على فحص كتاباته أو تمحيصها.

وأثج الأمر البابوى بطرد سافونارولا من الكنيسة صدر حزب الأرابياتى، فى حين تصدى براكى وبيتشى للدفاع عنه بقولهما، إن السبب الحقيقى فى طرد الراهب من الكنيسة هو إصراره على الاحتفاظ بالعلاقات التى تربط فلورنسا بفرنسا، ورفضه تنفيذ رغبة البابا فى أن تقطع فلورنسا علاقتها بفرنسا وتتضم إلى الحلف المقدس نظير خضوع بيزا لها.

وفى ١٨ يونيو ١٤٩٧، تم إعلان الأمر البابوى الخاص بطرد سافونارولا من الكنيسة بكل وقار ومهابة فى كنائس سانتا كروتشى، وسانتا ماريا نوفيللا وسانتو سبيرينو، والأترزيانا والباديا. وفى يوم ٢٤ يونيو من العام المشار إليه، انتهز حزب الأرابياتى والكومباجناتشى الفرصة للانقضاض عليه. وسرعان ما قلبت له المجالس الحاكمة فى فلورنسا ظهر المجن، فأمعنوا فى التشهير به وتلطيح اسمه وإذاعة الأغاني والأهازيج التى تحط من قدره وقدر معتقداته، إلى جانب إثارة السوق والغوغاء ضده؛ لدرجة أنهم لم يتورعوا عن قذف قلايته بالحجارة. وأيضاً سرعان ما تغيرت أحوال فلورنسا وضربت بالفضيلة التى بشر بها سافونارولا عرض الحائط: فامتألت الحانات بالسكارى، وعادت النساء إلى التزين والعُهر ولبس المجوهرات وارتداء الثياب المبهرجة والفاضحة والتغنى بالأغاني الفاحشة. وهكذا عاد الفسق والمجون إلى ربوع فلورنسا. ولا شك أن هذا الانفلات الأخلاقى حدث نتيجة إدانة الكسندر السادس لسافونارولا.

ورغم إلحاق البابا الأذى بسافونارولا، فقد ظل الراهب المضطهد يحتفظ بهدوئه. وفى ١٩ يونيو عام ١٤٩٧، كتب هذا الراهب «رسالة تعارض الطرد من الكنيسة فى السر موجهة إلى كل المسيحيين الذين يحبون الله» قال فيها: «إن مثل هذا الطرد باطل فى نظر الله والإنسان؛ لأنه قائم على أسباب واتهامات زائفة من صنع أعدائنا». وأكد

سافونارولا فى هذه الرسالة انصياحه الدائم إلى الكنيسة، إلا فى حالة إصدار رؤسائها تعليماتهم بانتهاك أوامر الله ونواهيته؛ لأن مثل هذه التعليمات تخالف تعاليم الله. ثم سطر سافونارولا خطاباً آخر غير مؤرخ يدعو فيه إلى الاستئناف ضد الأوامر البابوية المجحفة التى تضر بصالح الكنيسة، مضيفاً أن المسيح لا يرتكب خطأ إذا التجأ إلى الجهات العلمانية للتظلم من أية أحكام كنسية جائرة، وأنه يحق له مقاومة العنف بالعنف. وذهب سافونارولا فى خطابه غير المؤرخ إلى أنه من الخطأ أن يقاطع المسيحيون المطرود من الكنيسة، إلا إذا صدرت إليهم شخصياً أوامر بذلك .

وحتى يمعن أعداء سافونارولا فى إيفار صدر البابا ضده، سارعوا بإرسال هذه الرسائل إليه. ولكن من حسن الحظ أن الحكومة الجديدة فى فلورنسا ضمت نفراً من أصدقائه الذين دعوا البابا إلى إلغاء حكمه بطرد الراهب من الكنيسة. وكتب أنصار الراهب فى مجاى المدينة رسالة إلى بابا روما يرجونه إلغاء الحظر الكنسى على سافونارولا لما عرف عنه من صلاح وتقوى. وأيضاً هب مجلس العشرة لتصرة الراهب والوقوف بجانبه. ولعب الخطيب المفوه ألساندور براكى دوراً نشيطاً فى إقناع كثير من الكرادلة فى كل من بيروجيا وبنيفينو وكاباشيو ونابولى ببراءة ساحة سافونارولا من التهم التى يوجهها الكرسي البابوى إليه. وفى روما، وجد هذا الراهب من يدافع عنه فى شخص جيورجيو منيجنو وجيوفانى ناسى. وفى تلك الأثناء عرض عليه كاردينال سيينا الحصول على رشوة منه، فقد بعث إليه بكلمة جاء فيها أنه إذا دفع إليه خمسة آلاف كرونة يتعهد له برفع الحظر الكنسى المفروض عليه. ورغم غرابة هذا العرض فإنه كان مألوفاً فى روما آنذاك، حيث كانت صكوك الغفران تشتري وتباع. وأثار هذا المرض غضب سافونارولا، الذى علق عليه بقوله إنه لو استجاب له لكان بالفعل يستحق الطرد من الكنيسة.

وفى ١٤ يونيو ١٤٩٧، وقع حادث؛ فقد وجد دوق جانديا أكبر أبناء البابا غير الشرعيين مقتولاً بخنجر، وقد ألقيت جثته فى نهر التيبر. كان قاتله أخاه سيزار بورجيا كاردينال بنسية. ويقال إن سبب ارتكابه هذه الجريمة النكراء هو تنافس الأخوين على عشق أختهم لوكريزيا.

وعقب هذه الحادثة المروعة شعر البابا شعوراً عميقاً بالألم والندم على كل الذنوب التى اقترفها، الأمر الذى جعله يسلم قياد الكنيسة إلى لجنة مكونة من ستة كاردينالات

لأجراء الإصلاحات فيها. فضلاً عن أن البابا كلف هذه اللجنة بالنظر في قضية سافونارولا، الذي أرسل إليه خطاباً لتعزيتته. ولكن ندم البابا على فسقه وفجوره لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما ارتد إلى حياة الرذيلة بصورة أعنف من ذي قبل، كما أنه اعتبر تعزية سافونارولا له تطاولاً عليه واستهزاء به.

وزاد الطين بلة أن أعداء سافونارولا من حزب الأرابياتى لم يهدأ لهم بال فى سعيهم لدى البابا للفتك به. وهكذا انقسم أهل فلورنسا إلى فريقين متناحرين: فريق يريد أن يورد سافونارولا موارد التهلكة تتمثل فى حزب الأرابياتى، وفريق آخر يزود عنه ويتمثل أساساً فى حزب البياجنونى وفى زملائه الرهبان فى دير القديس مرقص وفى عدد كبير من الأعيان. وجدَّ الفريق المدافع عن الراهب فى جمع التوقيعات الموالية له، ولكن انتشار ولاء الطاعون حال دون إتمام عملهم. ورغم انتشار الطاعون، استمر سافونارولا يخفف عن المصابين ويواسيهم ويمد لهم يد العون فى محنتهم. ورغم أن أشرف فلورنسا عرضوا عليه الاحتماء فى قصورهم الريفية، فإنه أصر على مواجهة أخطار الوباء. وليس أدل على إثارة من أنه أرسل الرهبان المستجدين - ومن بينهم أخوه موريليو - إلى القصور الريفية لتجنيبهم غائلة الطاعون. والجدير بالذكر، أن سافونارولا سطر فى تلك الفترة مبحثاً بعنوان: «المبحث الطبى ضد الطاعون» حدد فيه النصائح التى تساعد المنكوبين على مواجهة محنة الطاعون الذى سرعان - لحسن الحظ - ما انكسرت حدته ليستأنف أهل فلورنسا حياتهم المعتادة.

## سافونارولا يعود إلى الوعظ والبابا يعود

إلى التهديد (١٤٩٧-١٤٩٨)

كلف الكثيرون من أشرف فلورنسا كلاً من ألساندور براكى ودومينيكو بوتسى بالتوسط لدى البابا كي يعفو عن سافونارولا. غير أن كل محاولات الوساطة باءت بالفشل الذريع. وأصر البابا على ضرورة مثول سافونارولا أمامه، وذلك بعد بقائه أكثر من ستة أشهر حبس في دير لا يبرحه انشغل فيها بالكتابة وتدوين أفكاره، ومن بينها كتابته عن بطلان الأمر البابوي بالطرد من الكنيسة إذا كان الأمر صادراً عن بابا فاسد. واستند سافونارولا في ذلك إلى أقوال الآباء وآيات الكتاب المقدس القاضية بأن المسيحى الحق يجب عليه طاعة الخالق وليس المخلوق، إذا كانت الشوائب تشوب أحكامه وأوامره. وانبرى للدفاع عن سافونارولا من هذا المنطلق ج.ف. بيكو ديلا ميراندولا؛ مستنداً أيضاً إلى آراء آباء الكنيسة العظام. بدأ بيكو دفاعه بقوله، إن الاتهام البابوي الموجه إلى الراهب اتهام زائف ومغرض يرجع إلى العداوة الشخصية أو الخطأ في التقدير. وأضاف بيكو، أن البابا أخطأ عندما سمح لنفسه أن يستمع إلى نميعة واغتياب حفنة من الأشرار دون أن يحاول بنفسه التأكد من صحته. ثم أردف بيكو قائلاً، إن اقتراح البابا بضم دير القديس مرقص إلى المجمع الجديد لا يعتمد على موافقة سافونارولا وحده، بل موافقة جميع زملائه الرهبان من الدير موضع الخلاف. ولذا، فإنه من الغرابة أن يخص البابا سافونارولا بالطرد من الكنيسة، في حين أنه لم يتخذ إجراء مماثلاً ضد بقية المعارضين من زملائه الرهبان. وأكد بيكو أن اقتراح البابا بضم دير القديس مرقص إلى غيره من الأديرة سوف يعود بالضرر على هذا الدير، ولهذا يرى أن سافونارولا لم يرتكب أى خطأ يستحق طلب المغفرة.

وكما سبق أن ذكرنا، لم يجرؤ البابا على التشكيك في صحة معتقدات سافونارولا الدينية، كما أن الكرادلة المكلفين بفحصها وتمحيصها لم يجدوا فيها أى عيب أو علة. ومن الواضح أن النزاع بين البابا وسافونارولا كان أولاً وأخيراً صراعاً سياسياً وشخصياً. وأدى هذا الصراع إلى انتشار الفسق والمجون اللذين كان الراهب قد نجح في استئصالهما.

وفي عيد ميلاد السيد المسيح عام ١٩٤٨، ضرب سافونارولا عرض الحائط بالحظر البابوي المفروض عليه، فأقام القداس الرئيسى وناول كل الرهبان وجمعاً غفيراً من الشعب. ثم سار على رأس موكب مهيب من الرهبان وطاق بهم ميدان القديس مرقص. وجاءه عدد من كبار رجالات جمهورية فلورنسا والتمسوا منه أن يلقي عليهم إحدى مواعظه فاستجاب لهم على الفور. وفي يوم ١١ فبراير ١٤٩٨، اعتلى منبر الكنيسة ليلقى فيهم موعظة قبول الإعلان عنها باعتراض راعى الكنيسة ليوناردو دى مديسيس، الذى حرص شعبه وبقية الكهنة على مقاطعتها؛ لأنها تمثل انتهاكاً للأمر البابوي بمنع سافونارولا من الوعظ.. غير أن مجلس مدينة فلورنسا أخرسه وهدده بتوجيه تهمة التمرد إليه. وبزوال هذه العقبة تمكن سافونارولا من إلقاء وعظته فى ميعادها، وهى وعظة كرر فيها شرعية مخالفة أوامر البابا التى تتعارض مع ضمير المؤمن والمخ فيها إلى فساد الكنيسة، وأنهاها بحث المؤمنين على الاستشهاد فى سبيل الله.

وفى ١٥ فبراير من نفس العام (١٤٩٨)، ألقى سافونارولا محاضرة عن خصائص الكاهن، معبراً عن بالغ حزنه حين يرى الوظائف الكنسية تُباع لمن يدفع أعلى سعر، فضلاً عن أنه هاجم بضراوة حياة البذخ التى يعيشها رجال الكنيسة. وذهب سافونارولا فى وعظة ألقاها يوم ١٨ فبراير ١٤٩٨ إلى أن البابا ليس معصوماً من الخطأ، فعدد كبير من البابوات أشرار وبعضهم يصدر مراسيم خاطئة يقوم بإلغائها البابوات الذين يخلفونهم. وأيضاً تناول سافونارولا المؤامرات التى يدبرها بابا روما له، وهاجم إصدار أوامر بابوية بالطرد من الكنيسة نظير مبالغ مالية. ولا شك أن الفساد المستشري فى الكنيسة شجعه على تحدى البابا وأعوانه؛ مؤمناً بأن الله سوف ينصره فى النهاية. وفى آخر مرة أقام سافونارولا القداس ووزع القربان على المصلين، خاطب الله قائلاً إنه يستحق الهلاك على يديه إذا تبين أنه ليس مخلصاً فى كل ما يقول. وبعد أن تقدم



نهار ذلك اليوم أجرى حزب البياجنونى الموالى له الاستعدادات لبدء حملة جديدة لجمع التبرعات من أجل الفقراء، وجمع التحف وأدوات الزينة تمهيداً لتدميرها. ولكن أعداء البياجنونى من الكومباجناتشى وقفوا له بالمرصاد وهاجموا أعضائه ونزعوا عنهم عباءاتهم السوداء، كما ألقوا بالصلبان الحمراء التى يمسون بها وضربوهم بالعصى وقذفوهم بالحجارة. غير أن الموكب الذى نظمه البياجنونى استطاع، بالرغم من ذلك، الوصول إلى ميدان المدينة لإشعال النار فى كومة التحف وأدوات الزينة النادرة التى تفوق فى قيمتها وندرته الكومة التى سبق لأتباع سافونارولا إحراقها. وكالعادة، تمت عملية الحرق هذه وسط الأهاليج والمزامير والترانيم الدينية، ووسط الابتهاج العظيم الذى اجتاح الناظرين.

وبمجرد أن ألقى سافونارولا كلماته المنتقدة للبأا والمتحدية له والملمحة إلى فضائحه والمعلنة عن فضائح الكنيسة، حتى تلقفتها المطابع وقامت على الفور بنشرها وتوزيعها فى جميع أنحاء إيطاليا، بل إنها تجاوزت الحدود الإيطالية ووصلت إلى الأراضى الألمانية، حيث عبر كثير من الألمان عن شديد إعجابهم بها، فكتبوا إلى الراهب معبرين عن هذا الإعجاب. وما إن بلغ هذا مسامع البأا حتى هاج وماج. وهكذا صارت الحرب الصريحة بينه وبين الراهب تلوح فى الأفق. وفى روما، زاد عدد الكارهين لسافونارولا لتجرؤه على تحدى البأا وإنكاره أية سلطة عليه غير سلطة المولى عز وجل. وقد لعب الراهب ماريانو دا جينازانو دوراً بارزاً فى إذكاء العداوة لسافونارولا.

غير أنه كان مبتدلاً فى عداوة سافونارولا، فقد اعتلى المنبر ليحط من شأنه، بدلاً من تفنيد معتقداته بالحجة والبرهان والعقل. وانخرط فى هجوم مبتذل وقاذع على شخص سافونارولا، متهماً إياه بأنه يهودى شرير وسارق للتبرعات يخفى كنوزه عن الأنظار. وأظهر الحاضرون من الكرادلة ورجال الدين استيائهم من استخدام ماريانو لهذه اللغة البذيئة القاذعة.

ولم يفت هذا الهجوم القاذع فى عضد سافونارولا، الذى توفر على إصدار مبحث جديد بعنوان: «مبحث فى نظام الحكم فى مدينة فلورنسا» بدأه بقوله، إن البشر يحتاجون إلى نظام حاكم. وليس هناك ما يمنع من اتسام هذا النظام بالديكتاتورية أو الحكم المطلق بفرض أن يكون الحاكم فى هذه الحالة رجلاً فاضلاً. ولكن مثل هذا

الحكم المطلق لا يناسب مشارب جميع الشعوب، فشعب فلورنسا الطموح والقلق والمتقلب لا ينفع معه هذا الحكم المطلق، بل هو فى حاجة إلى حكومة مدنية، أو بتعبير أدق إلى نظام جمهورى. ويتناول الجزء الثانى من المبحث نظام الحكم القائم على الحكم المطلق واستبداد رجل شرير، موضعاً فساد مثل هذا النوع من الحكم. أما الجزء الثالث والأخير من هذا المبحث، فيعالج ضرورة إقامة نظام حكم حر يقوم على إنشاء مجلس أعظم يحق له تعيين سائر موظفى الدولة ويحمى الأغلبية من طغيان الأقلية، وهو النظام الذى تمكن سافونارولا من إقامته فى فلورنسا بعد طرد حاكمها الفاسد بييرو دى مديسيس.

وبعد نشر هذا الكتاب، عاد سافونارولا لإلقاء وعظاته التى تهاجم الكرسي البابوى، فبلغ السيل الزبى البابا الذى هدد بفرض الحظر الكنسى على جميع أهل فلورنسا وإصدار أمر إلى جميع الدول المسيحية بمصادرة كل ممتلكات تجار فلورنسا، حتى لا تتعرض هى الأخرى ويتعرض أصحابها للطرد من حظيرة الكنيسة. وسعى الكرادلة المعتدلون إلى تهدئة ثائرة البابا، وأفهموه أن تماديه فى عدائه السافر لسافونارولا سوف ينتهى بكارثة وإحداث شرخ هائل فى الكنيسة، وخاصة لأن فرنسا كانت تحرض الكاردينال بييرو فى فينيسولى على شق عصا الطاعة على كنيسة روما. ولكن البابا الهائج أبلغ، فى ٢٦ فبراير ١٩٤٨ كلاً من مندوبى فلورنسا لدى روما: براكى وبونسى، بضرورة منع سافونارولا من الوعظ ولام مجلس المدينة؛ لأنه سمح له بالاستمرار فيه وإهانة الكرسي البابوى، وهدد بفرض الحظر الكنسى على مدينة فلورنسا بأكملها إذا لم تتخذ الإجراءات الكفيلة بمنع سافونارولا من الاسترسال فى الوعظ.

وفى نفس اليوم المشار إليه (٢٦ فبراير ١٤٩٨)، أرسل البابا خطاب تهديد إلى مجلس مدينة فلورنسا، أكد فيه من جديد تحديات سافونارولا المتكررة له برفضه الامتناع عن الوعظ والمثول أمام الحضرة البابوية والاستغفار والتوبة، وكذلك رفضه ضم دير القديس مرقص إلى المجمع التوسكانى الرومانى. وأضاف البابا فى خطابه أنه أمر بفرض الحظر الكنسى على كل من يحضر وعظاته ويتحدث إليه أو يتصل به بأى شكل من الأشكال، ثم أصدر أوامره إلى مجلس المدينة بإرسال الراهب سافونارولا إليه تحت حراسة مشددة، معرياً عن استعدادة للعفو عنه إذا أعلن توبته والتحفظ عليه فى مكان منفرد حتى لا تنتقل عدوى فسادة إلى الآخرين.

غير أن مجلس المدينة لم يكثر بتهديد البابا الذي توقع منه عدم المبالاة؛ ولهذا أرسل البابا في الوقت نفسه رسالة إلى أكليروس الديومو يأمرهم بمنع سافونارولا من التبشير في الكنيسة، ولكن الراهب استمر في الوعظ حتى وقت حل مجلس المدينة الذي كان وشيكاً ولحين انتخاب مجلس مدينة جديد. وقد اتخذ هذا المجلس الجديد موقفاً معادياً لسافونارولا، إذ ناصره ثلاثة من أعضائه، في حين ناصبه العداء الشديد الأعضاء الستة الآخرون، ومن بينهم بييرو بوبولتشي الموالي لعائلة دي مديسيس والمنتسب إلى حزب الأرايباتي، ولهذا كان من الطبيعي أن يساير المجلس الجديد البابا في رغباته. وفي ٢ مارس ١٤٩٨، دعا مجلس المدينة إلى عقد مجلس عام لمناقشة الإجراءات التي ينبغي اتخاذها نحو الراهب المفضوب عليه. وحدثت بطبيعة الحال انقسامات حادة في صفوف حكومة فلورنسا بين ناظم على الراهب ومتحمس له. وبدأ أن المدينة لا تريد اتخاذ أي إجراء ضد سافونارولا، وأخيراً استقر رأيها على رفض تهديدات البابا. قالت المدينة في ردها على البابا إن الراهب ونبوءاته يستحقان التقريظ والثناء، ثم اتهمت أعداءه بالرغبة في بذور بذور الشقاق في الجمهورية. واختتمت فلورنسا ردها على البابا بقولها: «نحن لا نستطيع أن نطيع أوامر قداستكم، ليس فقط لأن طاعتنا سوف تسيء إلى جمهوريتنا وتظلم رجالاً يستحق كل الخير في بلده، ولكن أيضاً لأنه حتى لو أردنا فلن يكون بمقدورنا تنفيذ إرادتنا أو طاعتكم دون إثارة الفرقة والشقاق في صفوف الشعب، ودون تعريض الكثيرين للخطر، نظراً لما اشتهر به الراهب من صدق وأمانة. إن الألم يعتصرنا لأن الأمور تدهورت بحيث أثارت غضب قداستكم علينا، ولأنكم الآن تحرموننا من الأمل الذي أعطيتمونا إياه في الماضي بخصوص عنايتكم برفاهية جمهوريتنا المادية. ورغم ذلك، فسوف نستمر في ولائنا المعتقد للكنيسة والعقيدة الكاثوليكية، على أساس الافتراض بأن مصلحة جمهوريتنا أقرب إلى أفئدتنا من العمل على راحة الآخرين».

ومن الغرابة بمكان أن يصدر هذا الدفاع الحار عن الراهب من مجلس مدينة يناصبه في مجمله العداء. وأغلب الظن أن هذا المجلس أراد أن ينفخ النار في الهشيم ليزداد اشتعالاً ويزداد غيظ البابا من سافونارولا. والجدير بالذكر، أن سافونارولا استمر بعد ذلك في إلقاء وعظاته في دير القديس مرقص على جماهير غفيرة من المصلين، متحدياً بذلك الحظر البابوي المفروض عليه. ومرة أخرى كرس سافونارولا

وعظاته كي يشرح للشعب أن البابا ليس معصوماً من الخطأ، ضارباً المثل بالبابا الخاطئ بونيفاس الثامن (١٢٩٤ - ١٣٠٣).

ومرة أخرى عاب على الكنيسة الكاثوليكية فسادها بسبب ما تتمتع به من ثراء وسلطان زمني، واهتمامها البالغ بعرض الدنيا الزائل.

ولا شك أن سافونارولا شعر بالحبل يلتف حول رقبتة وأن النهاية محتومة؛ ولكنه أبى أن يستسلم وظل يقاوم حتى الرمق الأخير، واستمر في حملته الضارية على فساد الأكليروس ومناداته بضرورة إصلاح الكنيسة.

## منع سافونارولا من التبشير والبابا يستمر

في تهديداته (مارس ١٤٩٨)

وصلت رسالة مجلس المدينة والمدافعة عن سافونارولا إلى روما في السادس من مارس ١٤٩٨، وتسلمها البابا في اليوم التالي لوصولها من اثنين من سفراء فلورنسا وأكد البابا عقب تلاوة الرسالة اتهامه لسافونارولا بالتجروؤ على الكرسي البابوي وشق عصا الطاعة عليه. وشكا البابا من أن مجلس المدينة سمح للراهب بالاستمرار في التبشير ولم يفرض عليه الاحتجاب في الدير، حيث إن الراهب نفسه هو الذي قرر الاحتجاب هناك طواعية واختياراً. وتضمنت أقوال البابا تهديداً بفرض الحظر الكنسي على كل المدينة إذا لم يتوقف سافونارولا عن التبشير. وعبثاً حاول السفيران (أو المندوبان) الفلورنسيان الدفاع عن الراهب وصحة عقيدته، فقد قال لهما البابا إنه لا يعترض على عقيدته أو سلوكه ولكنه يدينه؛ لأنه كشخص فرض عليه الحظر الكنسي يظهر الاحتقار للكرسي البابوي بعدم طلبه الغفران منه أو إبداء الطاعة له.

وكان بييرو دي مديسيس - آنذاك - يقدم الرشاوى بهدف مساعدته في العودة إلى حكم فلورنسا؛ فضلاً عن أن حزب الأرابياتي سعى إلى إعادته إلى الحكم، كما أن السلطات في ميلانو والبندقية أصرت على ضرورة انضمام فلورنسا إلى التحالف المناوئ لفرنسا. ومرة أخرى وعد البابا بالعضو عن سافونارولا إذا أبدى الندم وطلب المغفرة، وكرر البابا تهديده بمعاقبة كل فلورنسا إذا لم يتوقف الراهب العاصي عن التبشير هناك. وعبر البابا عن نفاذ صبره وعدم رغبته في تلقي المزيد من الرسائل عن الراهب، حيث إنه لا شيء سيجعله راضياً عن فلورنسا وأهلها غير الأفعال وليس الأقوال.



ثم أرسل البابا إلى مجلس مدينة فلورنسا مذكرة أخرى أخف حدة في لهجتها من الرسالة الأولى. وأراد البابا بمذكرته هذه أن يكسب إلى جانبه القوى المتعاطفة مع سافونارولا مثل مجلس العشرة وحزب البياجنوني. وامتدح البابا في هذه المذكرة عقيدة الراهب الدينية وأثنى على حياته؛ ولكنه عاب عليه وقاحته.

استخدم البابا أسلوبًا مكرراً ولثيماً في محاربة سافونارولا، فهو لم يلجأ إلى التهديد باستخدام العنف. كما إنه أخفى الوجه السياسي لصراعه مع الراهب، وصور هذا الصراع على أنها مسألة طاعة وشأن كنسي بحت، الأمر الذي جعل مجلس مدينة فلورنسا يفكر في إيجاد مخرج للأزمة عن طريق عقد جلسة لمجلس الشعب في ١٤ مارس ١٤٩٨. والجدير بالذكر، أن المشتركين في هذا المجلس أجمعوا عن بكرة أبيهم على مدح سافونارولا. ولكن مدحه لم يحل دون حدوث انقسامات داخل المجلس، إذ صوت البعض في صالح البابا خوفاً من أن يفرض الحظر على المدينة بأكملها، في حين تهكم البعض الآخر من هذا الحظر ونادوا باستمرار الراهب في الوعظ والتبشير. وكان جيوفاني كنانكي واحداً من أبرز المنادين بضرورة الرضوح للبابا، لأن الحظر البابوي على فلورنسا سوف يضر بتجارتها ضرراً فادحاً. بل إنه ذهب إلى ضرورة تسليم الراهب إلى البابا الذي يحق له توقيع العقاب عليه، غير أن المواطن الواسع النفوذ باولو أنتونيو سودريني انبرى للدفاع عن سافونارولا متهمًا البابا ببذر بذور الشقاق في المدينة، ومؤكداً أن فلورنسا لن تتضم مطلقاً إلى التحالف المناهض لفرنسا والذي يلقي تأييداً ومؤازرة من البابا. ثم وصف الراهب موضوع الخلاف بأنه جوهرة وقرة عين فلورنسا لأنه ليس له مثل في كل أنحاء إيطاليا، وأيضاً هذا مونت لورنزو لانزي حذو سودريني. ولكن جويد أنتونيو فيسبوتشي خالفه في الرأي، ذاهباً إلى أن الحكمة تقتضي تسليم الراهب للبابا من أجل حصول فلورنسا على نصيبها في العشور المفروضة على ممتلكات الكنيسة، ومن أجل استعادة السيطرة على بيزا. ثم أشار إلى ما سوف يصيب تجارة فلورنسا من خراب نتيجة فرض الحظر البابوي على هذه المدينة. وعبثاً حاول إينيا ديلا ستوفا أن يدحض رأيه، فقد استطاع لورنزو لانزي إقناع عدد كبير من الناس بجدوى الامتنال لأوامر البابا. ودافع لانزي عن الرأي المطالب بتوقف سافونارولا عن التبشير. غير أن الملاحاة لم تنته عند هذا الحد، فقد انبرى فرانسيسكو فالوري للدفاع عن سافونارولا ودير القديس مرقص المعروف بطهره وقداسته، ثم أعقبه أنتونيو كاييجياني الذي تحدى الحظر البابوي بكل جسارة موضحاً

أن البابا ليس معصوماً من الخطأ، وأنه تورط في تناقض جلى عندما فرض الحظر الكنسى على راهب مشهود له بصحة عقيدته وسلامة مسلكه . وأضاف، أن الحظر البابوى يمثل انتهاكاً للحرية التى نعمت بها فلورنسا . وشاركه فى الدفاع عن سافونارولا برناردو نازى، الذى اغرورقت عيناه بالدموع من فرط حزنه وتأثره وحبه لهذا الراهب.

كان عدد أعضاء المجلس المنعقد لنظر موضوع سافونارولا اثنين وثلاثين . ستة منهم ناصروا الراهب، فى حين نصح سبعة عشرة منهم بضرورة توقف الراهب عن الموعظة، أما الباقون فكان موقفهم مذبذباً .. وبات من الواضح أن الكفة ضد سافونارولا هى الراجحة، وأن مجلس المدينة المناهض له سوف يتخذ قراراً معادياً له . واحتار أهل فلورنسا فيما عساهم يفعلون، فهم من ناحية لا يرغبون فى إلحاق أى ضرر بمصالحهم المادية والتجارية، كما أنهم من ناحية أخرى لا يريدون التخلّى عن راهبهم المحبوب . وبالنظر إلى أن أعداء الراهب أكدوا على ضرورة الحفاظ على مصالح المدينة المادية وحدها، فقد تغلبت كفتهم على كافة المدافعين عن سافونارولا . ثم إنهم من الناحية الدينية الصرّف جادلوا بأنه يجب على المدينة أن تطيع رئيس الكنيسة . فضلاً عن أن الحظر البابوى سوف يلحق الأذى بالتجارتين الراجحتين فى المدينة، وهما الخمر والصوف .

ورغم أن مجلس المدينة كان يتمتع بتأييد غالبية المجلس الشعبى (الباتريشيا)، فإنه دعا إلى انعقاد اجتماع آخر فى ١٧ مارس ١٤٩٨ يضم أهم تسعة عشر مواطناً من أصحاب النفوذ . ونادى مجلس الشعب بضرورة امتناع الراهب عن التبشير؛ ولكنه فى الوقت نفسه رفض قبول طلبات البابا الأخرى واعتبرها أمراً مهيناً للجمهورية . وحمل السفير بونسى قرار المجلس إلى البابا ومفاده أن يتوقف الراهب عن الوعظ تنفيذاً للأمر البابوى، مقابل العفو عنه والسماح له بالاستمرار فى الاشتراك فى حياة المدينة الروحية، حيث إن البابا نفسه يشهد له بالفضيلة والخلق القويم وسلامة العقيدة، مما يدل على أن الوشاة لعبوا دوراً بارزاً فى دق إسفين بين الراهب والكرسى البابوى .

وطراً على موقف بونسى من الراهب تغير ملحوظ، فقد بدأ يعاديه بصورة واضحة بسبب ضيقه من كثرة الثناء العاطر الذى انهمر عليه من كل جانب . قال بونسى بعد تغير موقفه، إنه لا مفر من الانصياع لأوامر البابا تجنباً لفرض الحظر البابوى على المدينة، كما شكّا من أن حياته الشخصية صارت فى خطر . ولهذا فهو يرغب فى أن

تستدعيه بلاده من روما. وذكر بونسي أن البابا هدد بسجن جميع تجار فلورنسا الموجودين في روما. وفي يوم ٢٢ مارس ١٤٩٨، طلب السفير بونسي مقابلة البابا الذي أرجأ المقابلة حتى يوم الثالث والعشرين من هذا الشهر، أي بعد أن أبقاه منتظراً في الفاتيكان لمدة يوم كامل. وكان البابا على علم كامل بالقرار الذي اتخذته فلورنسا حتى قبل استقباله سفير فلورنسا. ثم أخذ البابا - في وجود هذا السفير - يلوم مجلس مدينة فلورنسا لأنه يسمح للرهبان الآخرين بترديد نفس أقوال ومحاجات سافونارولا من فوق منبر دير كنيسة القديس مرقص. ولكنه ما لبث أن كظم غيظه ليقول لسفير فلورنسا في هدوء إنه سوف يعمل لصالح هذه المدينة ويعفو عن سافونارولا بمجرد أن يطلب هذا الرجل العفو منه، حيث إن ضيق البابا به لا يرجع إلى سوء مسلكه أو عقيدته، بل إلى تشبثه بالوعظ وتحدي الحظر الكنسي المفروض عليه. ولكن هدوء البابا كان مصطنعاً ويخفى في طياته البغضاء والنقمة الشديدة.

وفي ٣١ مارس ١٤٩٨، أرسل بونسي إلى السلطات الفلورنسية يقول إنه عجز عن مقابلة البابا مرة أخرى، وإن كاردينال بيروجيا أخبره أن البابا ينوي إرسال أحد كرادلته إلى فلورنسا لإقناع سافونارولا بالمثول أمامه في روما وتعهد له بأن تكون رحلته ذهاباً وإياباً رحلة آمنة. وعبثاً ضاعت سُدَى النصيحة التي سبق لبونسي أن أسداها للبابا، وفحواها أن أية محاولة لانتزاع الراهب من فلورنسا سوف يكون لها أoxم العواقب.

وفي ١٧ مارس ١٤٩٨، وهو اليوم الذي قرر فيه مجلس مدينة فلورنسا منع سافونارولا من التبشير، كان هذا الراهب يلقي وعظته على جمع من النساء في كنيسة القديس مرقص. كانت وعظته في ذلك اليوم تفيض رقة وحناناً وابتهالاً إلى الله كي يعينه على اجتياز محنته. وفي مساء هذا اليوم تلقى سافونارولا أمراً من مجلس المدينة بالامتناع عن التبشير. وفي اليوم التالي ألقى خطبة الوداع، قال فيها إن المسيح المؤمن ينبغي عليه اللجوء إلى قسيس اعترافه فإن كان فاسداً يلجأ إلى الأسقف، فإن كان فاسداً يلجأ إلى البابا، فإن كان فاسداً فعليه أن يلجأ إلى المسيح نفسه.

وبعد أن تلقى سافونارولا الأمر بالامتناع عن التبشير اعتلى منبر كنيسته لآخر مرة ليخبر شعبه بالحظر المفروض عليه. وحل محله في الوعظ والتبشير راهبان آخران، هما دومينيكو دا برشيا وماريانو أوجي. ولكنهما اضطررا أيضاً إلى التوقف عن الوعظ بسبب اعتراض البابا عليهما.

ورغم أن سافونارولا أدرك المصير المشئوم الذي ينتظره، فإنه حاول المقاومة وسعى إلى عقد مجلس كنسى عام لفضح فسق البابا وفضح جرائمه وتزويره للانتخابات البابوية عن طريق الفساد والرشوة. وأيضاً أراد سافونارولا من هذا المجلس الكنسى أن يثبت هرطقة هذا البابا وعدم استحقاقه لرئاسة الكنيسة.

وأرسل سافونارولا رسائل إلى ملوك فرنسا وإسبانيا وإنجلترا وألمانيا والمجر، يقول فيها بعدم شرعية الانتخابات البابوية التى خاضها البابا ألكسندر السادس؛ لأنه اعتمد على رشوة الكرادلة للحصول على أصواتهم. وأيضاً أضاف فى رسالته، إن البابا ليس مسيحياً ولا يؤمن بالله ويفوق فى شره جميع الكفار. وتوقع سافونارولا من هؤلاء الملوك، وعلى رأسهم ملك فرنسا، التحرك من أجل انتشال الكنيسة من هذتها. غير أن سافونارولا كشف عن مضمون رسائله إلى ملوك أوروبا لنفر من الغادرين وأصدقاء السوء، طالباً منهم مساعدته فى إيصال رسائله إلى هؤلاء الملوك. ولكن أصدقاء الغدر أفضوا سره لدى البابا. وهكذا وقعت رسائل سافونارولا فى يد عدوه اللدود، الذى طاش عقله بسبب تجرؤ الراهب عليه. ومنذ تلك اللحظة بدأت الأحداث تتوالى على نحو سريع يفوق قدرة الراهب على التوقع.

## الكثيرون من أهل فلورنسا يتخلون عن

سافونارولا (٧ أبريل ١٤٩٨)

بين عشية وضحاها تخلى الكثيرون من أهل فلورنسا عن سافونارولا الذى كان فيما مضى معبودهم، وفى غمضة عين انفضَّ عنه أنصاره ومريدوه. واعتلى منبر كنيسة سانت كروتشى راهب فرانسيسكانى يدعى فرانسيسكو دى بوجليا ليشن حملة شعواء على سافونارولا، رامياً إياه بالهرطقة والانشقاق، وواصفاً له بالنبي الكاذب. وتحداه الراهب الفرانسيسكانى أن يتعرض لمحنة النار حتى يثبت صحة معتقده الدينية، وهى دخول النار دون الاحتراق بها. وعز على الراهب دومينيكو أن يرى أستاذه سافونارولا يتعرض للإهانات فاقترح إقامة مناقشة عامة يرد فيها سافونارولا على شائثيه؛ وخاصة فرانسيسكو دى بوجليا الذى تخلف عن الحضور.

ومن ناحيته، تطوع الراهب دومينيكو للدفاع عن أستاذه وأبدى استعداداً لأن ينوب عنه فى اجتياز محنة النار؛ حتى يتسنى لسافونارولا الاضطلاع بالمهام الجسام. عندئذ قال الراهب الفرانسيسكانى، إنه يتحدى سافونارولا ولا يتحدى سواه.

وراق هذا التحدى فى عيون الكومباجناتشى الذين يناصبون سافونارولا العداء ورأوا فى اختبار النار أفضل وسيلة للتخلص منه؛ لأنه إذا قبل التحدى فسوف تلتهمه النار، وإذا تراجع فسوف ينفذ عنه المؤمنون بقداسته. وفى هذه الحالة الأخيرة سوف يحدث هرج ومرج يسمح باغتيااله. وأبدى مجلس المدينة ترحيباً بوضع سافونارولا أمام هذا الاختبار المهلك. وفى يوم ٢٨ مارس ١٤٩٨، تقدم الراهب الفرانسيسكانى إلى مجلس المدينة بورقة جاء فيها أنه على استعداد لمنازلة



سافونارولا في مواجهة محنة النار، رغم إدراكه بأنه يقل عنه في صلاحه وقدرته على فعل الخير. والغريب أن مجلس مدينة فلورنسا لم يجد غضاضة في تعريض راهبها المعبود لخطر النار. ورغم أن بابا روما كان في سريره يرحب بتعريض سافونارولا لمحنة النار، فإنه تظاهر بمعارضتها. والجدير بالذكر، أن سافونارولا لم يَهَب النار أو يخشاه، وكان مقتنعاً في قرارة نفسه بأن معجزة سوف تتقذه من الموت حرقاً. وهو اقتناع شاركه فيه أنصاره ومؤيدوه من حزب البياجنوني. علماً بأن نحو ثلاثمائة راهب من أتباعه أبدوا استعدادهم لخوض اختبار النار تضامناً مع معلمهم ورائدهم.

وفي يوم ٢ أبريل ١٤٩٨، تطوع الراهبان مالاتستا ساكرامورو وروبرتو سالفياتي للتضحية بنفسيهما دفاعاً عن كنيسة القديس مرقص. وأخيراً تحدد يوم ٧ أبريل ١٤٩٨ لإجراء اختبار النار لكل من الراهب دومينيكو والراهب جوليانو روندنيلي، الذي استدعى لمغادرة فلورنسا في آخر لحظة. وأعدت منصة الحرق فجاء سكان فلورنسا ~~زرافات ووحداناً للفرجة على هذا المشهد المثير. وحضر المسئولون عن المدينة~~ برفقة حراس مدججين بالسلاح ~~بمئات منافذ المدينة. باستثناء ثلاثة منها وضعت~~ تحت الحراسة المشددة، وانتشر الجنود في ربوع المدينة. وحتى ~~يضمن مجلس المدينة~~ عدم نشوب أحداث شغب كلف فرانسيسكو جواتلروتى وجيوفاني باتستا رودلف بمراقبة تصرفات رهبان دير القديس مرقص، في حين كلف بييرو وينجلي ألبرتى وتوماس أثتينورى بمراقبة فريق المينورايت Minorites المناهض لسافونارولا والذي طلب من مجلس المدينة اتخاذ بعض الإجراءات الاحترازية حتى يتساوى الطرفان المتحديان في التعرض للخطر. وأعطى سافونارولا تعليمات للموالين له بالاستمرار في الصلاة دون انقطاع حتى ينصر الله أتباعه، كما أنه أمر رهبان، كنيسة القديس مرقص بالسير في موكب يتكون من نحو مائتى راهب، وهم يحملون صليباً للظؤوف في ميدان الخزيق. وتقدم نصير سافونارولا الراهب دومينيكو حاملاً صليباً كبيراً وملتحفاً وشاحاً من الجوخ الأحمر القاني، وسار مرفوع الرأس منتصب القامة نحو المحرقة يصحبه شماس ومساعد شماس، وبدا وجهه هادئاً ساكناً. وتبعه سافونارولا (الذي كان لا يريد تنفيذ اختبار النار أصلاً)، وهو يحمل قربان المناولة وعلى جانبه الراهب فرانسيسكو سالفياتي وعلى الجانب الآخر الراهب مالاتستا ساكرامورو. وسار خلفهم عدد كبير من حملة المشاعل وهم يتغنون بالمزامير. وبمجرد أن اقترب الموكب من الميدان انضم إليه حشد هائل من النظارة، وهم يغنون المزامير ويهزون الأرض هزاً بقرقة أصواتهم.

وبدا وكأن كل فلورنسا قد خرجت عن بكرة أبيها لمشاهدة هذا المنظر الرهيب، واشترابت الأعناق واعتلى البعض التماثيل والأعمدة لمشاهدة هذا المشهد. وظل هذا الجمهور ساهراً في الساحة حتى مطلع الفجر.

وركع الراهب دومينيكو أمام مذبح مقام لهذا الغرض واستغرق بكل حواسه في الصلاة، في حين وقف المرافقون له في صمت رهيب. واحتشد في الميدان ثلاثمائة من أشجع الجنود الموالين لدير القديس مرقص، تحت إمرة ماركوشيو سالفيتي وفي المقابل اجتمع مئات الكومباجناتشي المناوئين لسافونارولا، تحت إمرة دوفو سبينى. وفي الأمام وقرب القصر احتشد خمسمائة جندي تابع لمجلس المدينة، تحت قيادة جيوفانتشينو ديلا فتشيا بهدف حراسة الميدان، وهكذا اجتمع في هذا الميدان نحو ألف رجل على أهبة الاستعداد لمهاجمة سافونارولا بمجرد صدور التعليمات إليهم. وكما كان سافونارولا رابط الجأش ظل مريده دومينيكو كذلك، فهو لم تهتز له خلجة عندما رأى المحرقة المعدة له وقد امتلأت بالخشب والبارود والزيت والقاذورات من أدوات الاشتعال، في حين أن غدره فرانسيسكو دي بوجليا وجيوليان توكا داخل مجلس المدينة يضيعان الوقت في جدل عقيم مع أعضائه.

ورأت طائفة المينورايت المتآمرة مع حزب الأرايباتي على حياة سافونارولا نفسها في موقف لا تحسد عليه. وساعدهما في التهرب من مواجهة النار بييرو ديجلى ألبرتو الذى عين مشرفاً على اختبار النار.

وأشاع هذا الرجل أن سافونارولا بصدد إضفاء قوة سحرية على الوشاح الأحمر الذى اتشح به مريده دومينيكو، ولهذا طالب أعداؤه أن يزرع الوشاح من فوق حسده، وقام دومينيكو بالفعل بخلع وشاحه على مضض. وأيضاً تعلل المينورايت بأن رداء الكهنوتى مسحور، فأبدى الراهب استعداداً لاستبدال رداء أحد زملائه الرهبان به. وتم إدخاله فى القصر ونزع كل ملابسه عنه وإلباسه ملابس الكهنوت التى يرتديها زميله الساندرو ستروزي، ثم اقتادوه إلى الميدان. وطلب أعداء سافونارولا منه الوقوف بعيداً عن مريده حتى لا يتمكن من سحر ملابسه. باختصار، كان دومينيكو على أتم استعداد أن يفعل كل ما أَرَادَهُ أعداؤه منه حتى يسمحوا له بمواجهة النار، أما متحديه فرانسيسكو دا بوجليا فقد ظل يتلصق فى القصر كي يهرب من امتحان النار. وساور القلق سافونارولا، فأخذ يتشكك فى نوايا الطرف الآخر الذى ظل يجادل ويتناقش

داخل القصر. وضاق سافونارولا ذرعاً بهذا التحيز الواضح لصالح مناوئيه. وعبثاً طالب سافونارولا بسرعة خروجهم من القصر.

وبسبب انتظار الجماهير المحتشدة في الميدان لفترة طويلة أمضتها في الصوم والصلاة، بدأ التعب والإعياء يظهر عليها، كما بدت أمارات الغضب ترسم على وجوه الحاضرين. وأخذت صيحات الجماهير ترتفع بالشتائم وصيحات التأفف والاستكثار، عندئذ انتهز حزب الأرايباتي المعادي لسافونارولا هذه الفرصة السانحة ونجح أحد أعوانه، وهو جيوفاني مانتى، في إثارة الشغب والاضطرابات. وساد الميدان هرج ومرج عظيم ساعد عليهما إغلاق معظم منافذ الميدان. وهكذا وجد الجمهور المحتشد نفسه محاصراً فاندفع نحو القصر واقتحمه. ورأى الأرايباتي أنها لحظة مناسبة لإلقاء القبض على سافونارولا والإجهاز عليه على الفور؛ ولكن سالفياتي شهر حسامه ورسم بحده خطأ على الأرض وصاح قائلاً: «من يجرؤ ويتجاوز هذا الخط سيدوق طعم سيف ماركوشيو سالفياتي». قالها بكل حزم وتصميم فخاف أعداء سافونارولا من التقدم. وهكذا فشلت مؤامرة الأرايباتي في التخلص من سافونارولا.

وعاد الهدوء إلى جمهور الحاضرين في الميدان وانتظروا في لهفة لما سوف يحدث، الأمر الذي زاد من حرج وحيرة مجلس المدينة. وشاءت الأقدار في تلك اللحظة أن تهب عاصفة عاتية وتهطل أمطار غزيرة؛ ولكن هذا الجو الذي اكفهر فجأة سرعان ما صفا فجأة وظل الجمهور المحتشد مسمرًا في مكانه يريد أن يرى نهاية لهذا المشهد المثير. ومرة أخرى تعطل أعداء سافونارولا بضرورة انتزاع الصليب من يد دومينيكو الذي وافق على ذلك، قائلاً إنه يكتفى بالإمساك بقريان المناولة فاعترض المينورايت بأنه يريد إفساد القريان المقدس بحرقه. عندئذ نفذ صبر دومينيكو ورفض أن يقدم المزيد من التنازلات، وهكذا ظل أعداء سافونارولا يتفنون في إضاعة الوقت حتى هبط المساء، فأعلن مجلس المدينة أنه لا يمكن تنفيذ اختبار النار تحت جنح الظلام.

واستبد الضيق بالشعب المنتظر وأنحى الكثيرون بالملامة على سافونارولا، قائلين إنه كان يجدر به أن يجتاز محنة النار وحده حتى يثبت للعالم قداسته وقوته الخارقة للطبيعة. حتى البعض من حزب البياجنوني الموالي له ذهب إلى هذا الرأي نفسه. واستغل حزب الأرايباتي ما حدث لتلطيح سمعة سافونارولا واتهامه بأنه دعى ونبى

مزيف بدليل أنه تجنب أن يواجه النار وحده، وكذلك استغلت طائفة المينورايت المعادية هذه الحادثة للحطّ من شأن سافونارولا، الذي أصبح في غمضة عين عدو الشعب الذي لم يتورع عن مهاجمة دير القديس؛ ولكن ماركوشيو سالفياتي وجنوده البواسل دافعوا عن الدير دفاعاً مجيداً.

وعندما دلف سافونارولا إلى الدير وجد النسوة لا زلن يصلين فروى لهن بإيجاز ما حدث، ثم صرفهن ليعود إلى قلايته محزوناً وكسير القلب. أما طائفة المينورايت، فقد غمرتها البهجة. وتعبيراً عن امتنانه لها ولخدماتها، منح مجلس المدينة كل فرد فيها نظير خيانتته معاشاً قدره ستون ليرة لمدة عشرين عاماً تدفع في السابع من أبريل من كل عام احتفالاً بهذه الذكرى.

## النزج بسافونارولا فى السجن

(٨ و ٩ أبريل ١٤٩٨)

نجحت المؤامرة التى دبرها فريق الأرايباتى الخاصة بامتحان سافونارولا بالنار فى تهيج خواطر شعب فلورنسا ضد هذا الراهب ومريديه، فقد كان شعب هذه المدينة يود أن يتعرض سافونارولا وتلميذه دومينيكو للنار دون أن يلحق بهما أذى لإخراص السنة شائثيه ومعارضيه، حتى وإن كان من تحداهما قد تهرب من دخول امتحان النار.

حتى حزب البياجنونى الموالى لسافونارولا بدأ لأول مرة يشك فى امتلاكه لأية قوى خارقة للطبيعة، كما بدأ يصدق وشايات وأراجيف الأرايباتى عنه. ونجم عن ذلك انقراط عقد أنصار سافونارولا الذين أصبحوا الآن يتعرضون للاعتداء عليهم أثناء سيرهم فى الشوارع. ورغم ذلك، فقد فكرت بعض فلول الموالين للراهب فى حمل السلاح للدفاع عنه، ولكن الراهب ونفراً من أتباعه، وعلى رأسهم فرانسيسكو فالورى، عارضوا هذه الفكرة معارضة شديدة؛ رافضين أن يكونوا البادئين بالمعدوان وسفك الدماء.

وفى صبيحة يوم الثامن من أبريل عام ١٤٩٨ الموافق يوم أحد السعف، اعتلى سافونارولا منبر دير كنيسة القديس مرقص ليلقى وعظة فى منتهى الإيجاز ويعلن استعداداه لملاقاة الردى من أجل شعبه وأن يقدم جسده قرباناً لله. ثم بارك الحاضرين واستأذنهم فى الانصراف، وهو يشعر بأنها المرة الأخيرة التى يخاطبهم فيها. وفى وقت متأخر من هذا اليوم، ذهب البعض من حزب البياجنونى إلى كنيسة القديس



مرقص ثم توجهوا بعد ذلك إلى مقر كنيسة الديومو، حيث كان من المقرر أن يلقي الموعظة الراهب ماريانو ديجلى أوجى المتحمس لسافونارولا. وكان برفقة الراهب ماريانو راهبان آخران، هما: مالاتشيا ودومينيكو، غير أن الدهماء قذفوهم بالحجارة أثناء سيرهم فى الطريق، كما أحاطت بهم مجموعة من الأرايباتى الذين غمرتهم الفرحة بانتصارهم على غريمهم. وأيضاً تعرض للقذف بالحجارة مسكن أندريا كامبينى، أحد غلاة المتحمسين لسافونارولا. وعند وصولهم إلى كنيسة الديومو وجدوا حشداً من الشعب يشغل مقاعدها، كما وجدوا فريق الكومباجناتشى المعادى للراهب يحيطون بمدخل الكنيسة ويهينون كل من يدخلها، قائلين إن الموعظة المقرر إلقاؤها قد ألغيت. ولم يرق هذا الافتراء الصارخ فى عيون البياجنونى فاشتبكوا بالكلام مع حزب الكومباجناتشى. وأدى الاشتباك باللفظ إلى الاشتباك بالسلاح. ورغم عدم تعرض أى من الحاضرين للأذى، فإن هذا التهديد باستخدام العنف أثار حمية أتباع الراهب سافونارولا الذين أسرعوا إلى بيوتهم لإحضار سلاحهم استعداداً للمواجهة، فى حين قام أعداؤهم بالتحكم فى نواصى الشوارع، كما ساروا فى الطرق يصرخون بأعلى صوته: «لنذهب إلى كنيسة القديس مرقص حاملين المشاعل» ثم اجتمعوا فى ميدان مجلس المدينة حيث تزايد عددهم فتحركوا فى اتجاه الدير، وهم يلوحون بالسلاح ويطلقون أشرس الصيحات. وفى الطريق لمحوا رجلاً اسمه بيكورى متوجهاً إلى كنيسة سانتسيما أنوتزريانا، وهو يتلو المزامير. فتبعه الجمع الصاخب وقاموا بقطع رقبتة. وخرج على الضوضاء من محله صانع نظارات مسكين يطلب من الجمع التزام الهدوء، فقتلوه بطعنة سيف نجلاء فى رأسه وارتفع عدد القتلى. وما إن اقتربوا من كنيسة القديس مرقص، حتى شاهدوا جمعاً من الناس منصرفاً إلى الصلاة فقذفوهم بالحجارة وحدث هرج ومرج عظيم وأخذت السيدات اللاتى يصلين فى الكنيسة يصرخن وولّى المصلون الإدبار؛ فخلت الكنيسة من المصلين، ولم يبق سوى حفنة قليلة من المصلين صمموا على الدفاع عن الكنيسة حتى الرmq الأخير. وأحكم المهاجمون إغلاق أبواب الكنيسة.

كان عدد المستميتين فى الدفاع عن سافونارولا ثلاثين شخصاً. وحين أيقن هؤلاء الأخطار المحدقة بالكنيسة استعدوا للدفاع عنها بقوة السلاح، على غير علم سافونارولا ومريده دومينيكو اللذين كانا يرفضان استخدام العنف. ولكن اثنين من

الرهبان، هما: سيلفسترو وفرانسيسكو دي مديسيس شجعا المدافعين عن كنيسة القديس مرقص على تهريب الذخيرة والسلاح إلى قلايات هذا الدير. وتولى تهريب السلاح إلى الدير فرانسيسكو دافانزاتي، الذي أشرف على توزيعه على الرهبان القادرين على الدفاع عن الدير. وحمل السلاح داخله ستة عشر راهباً، على رأسهم الراهب لوكا والراهب بنيديتو.

وعبثاً حاول الراهب دومينيكو إقناع زملائه بإلقاء السلاح وبعدم إراقة الدماء، فقد تصاعدت صيحات الجمهور المحمومة خارج الكنيسة وأخذوا يهاجمون أبوابها بعنف أكبر. عندئذ قرر سافونارولا المخاطرة بحياته والخروج بنفسه لمواجهة الحشد الغاضب وهو يحمل الصليب في يده، قائلاً لزملائه إن واجبه يقتضي منه أن يفعل هذا، حيث إنه السبب في هبوب هذه العاصفة. واستبد القلق بالرهبان على حياته فبكوا وابتهلوا إليه ألا يفعل هذا؛ لأن جمهور الفوغاء الغاضب سوف يمزقه إرباً إرباً. وشكا أتباعه من أنهم سوف يكابدون اليتيم من بعده وقاموا بمنعه من الخروج. فلم ير سافونارولا سوى أن يحمل القرين المقدس ويطلب من الرهبان الاستغراق في الصلاة.

حدث هذا قبل الغروب بساعتين. وشجع الجمهور المحتشد على الهجوم على كنيسة القديس مرقص أنهم لم يواجهوا أية مقاومة، فضلاً عن أن حرس مجلس المدينة جاء ليشترك معهم في الهجوم. وفي تلك اللحظة حضر مندوب عن مجلس المدينة لإبلاغ الرهبان الحاضرين بمضمون المرسوم الذي أصدره مجلس المدينة، والقاضي بوضع الرهبان السلاح والحكم على سافونارولا بالنفي وأمره بمغادرة أراضي فلورنسا في مدى ١٢ ساعة، وأضاف المرسوم أنه سوف يوفر ملاذاً آمناً لبقية الرهبان. وفي تلك اللحظة قرر فرانسيسكو فالوري المعروف بولائه الشديد لسافونارولا مبارحة الدير لما رآه من مقاومة واهنة من جانب الرهبان ضد المعتدين، فطلب منهم إنزاله من فوق حائط خلفي للدير ليذهب إلى بيته بقصد حشد قواه والموالين له لمقاتلة المهاجمين على الدير. ولكن الدهماء لم تمهله فحاصرت منزله وهددت بإحراقه فيه. واستدعاه مجلس المدينة للمثول أمامه على الفور فلم يتردد في الخروج من بيته وهو رابط الجأش، يشق طريقه بكل هدوء بين صفوف الفوغاء، ولكن خصومه الشخصيين الموثورين يادروا بالهجوم عليه. وفتكوا به بجد السيف. كما قتلوا زوجته حين أطلت برأسها من النافذة لترى ما حدث لزوجها. ورغم أن الفوغاء اقتحموا منزل فالوري

وعاثوا فيه فسادًا، فإن مجلس المدينة آثر أن يتجاهل هذه الانتهاكات ولم يرفع إصبعًا واحدة لمحاسبة المسؤولين عنها. ثم قام الرعاع بمهاجمة منزل أندريا كامينيني ونهبه.

اشتد هجوم الحشد المتجمع على الدير ونجحوا في اقتحامه أثناء تأدية الرهبان الصلاة. ولما أدرك الرهبان مدى الخطر الداهم عليهم، انبروا للدفاع عن أنفسهم بقوة بمشاعل الكنيسة والصلبان المعدنية وغيرها من الأشياء. ونظرًا لقوة دفاعهم عن أنفسهم، اعتقد المهاجمون أن الرهبان استدعوا الملائكة لحماية الدير فخافوا ولاذوا بالفرار. ولم يقف الرهبان المسلحون الموالون لسافونارولا ساكتين، بل اندفعوا للالتحام بالمهاجمين وحدث اشتباك مسلح بين الرهبان والمهاجمين وسقط ضحايا من الجانبين المتقاتلين. غير أن الرهبان أبلوا بلاء حسنًا في هذه المعركة، الأمر الذي مكنهم من صد أعدائهم والانتصار عليهم. ثم أصدر مجلس المدينة مرسومًا جديدًا يدعو الرهبان المتمردين إلى الخروج من الدير في غضون ساعة واحدة، فطلب عدد منهم توفير الحماية والأمان لهم. وأصبح من الواضح أن مجلس المدينة يضمّر للدير شرًا. ومع ذلك، فقد ظل سافونارولا يصلى مع قلة من الرهبان وسط قرعة السلاح وتأوهات الجرحى وحشرجات الموتى. وهكذا تحولت كنيسة القديس مرقص في فلورنسا إلى ساحة قتال، حتى المنبر الذى اعتلاه سافونارولا كى يدعو إلى السلام تحول إلى نقطة ارتكاز قتالية. وتآلم سافونارولا أن يحدث كل هذا بسببه، وزاد من ألمه عجزه عن وقف حمامات الدم الذى لطخ أرجاء الكنيسة. وكان إطلاق النار كثيفًا، لدرجة أن الرهبان اضطروا إلى فتح نوافذ الكنيسة حتى لا يخنقهم الدخان المتصاعد من الطلقات ورفع سافونارولا القريان المقدس، وطلب من البقية الباقية من الرهبان أن تتبعه واجتاز بهم عنبر النوم حتى وصل إلى مكتبة الدير اليونانية. وهناك رأى تلميذه ومريده الراهب بنيديتو يهبط الدرج عدوًا، وقد جن جنونه وشهر سلاحه للتصدي للمهاجمين وجهًا لوجه. عندئذ وضع سافونارولا يده على مريده ووبخه قائلاً: «أيها الراهب بنيديتو، ألق سلاحك واحمل الصليب. إننى لم أقصد أن تحدث إراقة الدم على أيدي إخوتى؛ فامتثل بنيديتو لأمر سافونارولا.

وأصدر مجلس المدينة مرسومًا نهائيًا يهدد وينذر بالشر المستطير أى راهب يقاوم، كما يأمر الرهبان سافونارولا ودومينيكو وسيلفسترو بالحضور إلى مقر المجلس دون إبطاء، واعدًا إياهم بعدم التعرض لهم بالأذى. وأصر سافونارولا على الاطلاع على

المرسوم بنفسه فاضطر الرسول إلى العودة إلى مجلس المدينة لإحضار المرسوم. وفي الوقت نفسه، وضع سافونارولا القربان المقدس في قاعة المكتبة وجميع الرهبان من حوله، وخاطبهم لآخر مرة قائلاً: «أبنائي الأحباء»، إنني أؤكد صحة مذهبي في حضرة الله وحضرة القربان المقدس وفي وجود أعدائنا داخل الدير. إن كل ما قلت جاءني من لدن الله. وهو يشهد لي في السماء. إنني لا أنطق كذباً. ولم يخطر لي أن المدينة بأكملها سوف تتأصبنى العداء بمثل هذه السرعة، وإنني للمرة الأخيرة أقول لكم: اجعلوا من الإيمان والصلاة والصبر أسلحة تتمسكون بها. إنني أترككم في ألم ممض وحزن عظيم كي أسلم نفسي إلى أيدي الأعداء؛ لأنني لا أعرف ما إذا كانوا سيقتلونني أم لا. ولكن بعد موتى سأتمكن بالتأكيد من تقديم العون إليكم وأنا في السماء على نحو أفضل من المساعدة التي قيض لي تقديمها لكم على الأرض. تعزوا واحتضنوا الصليب، فسوف تجدون السبيل إلى الخلاص عن طريقه».

استطاع المهاجمون السيطرة على الدير سيطرة كاملة. وهدد جيوفاتشينو ديللا فينشيا قائد حرس مجلس المدينة أن يدمر أسوار الدير بالمدافع، إذا امتنع الرهبان عن تنفيذ أوامر مجلس المدينة. وفي محنتهم خذلهم الراهب مالاتستا ساكرامورو، الذي كان إلى وقت قريب شديد الولاء لسافونارولا. ومن ناحيته، استعد سافونارولا للموت فاعترف أمام زميله دومينيكو وأخذ منه القربان المقدس استعداداً لاستسلامهم جميعاً. أما الراهب سيلفستر، فقد اختبأ بحيث لم يعثر له على أثر.

واقترح الرهبان إنزال سافونارولا من فوق حائط الدير حتى لا يقع في أيدي مجلس المدينة العازم على الفتك به. وكاد هذا الراهب أن يوافق على هذا الاقتراح؛ ولكن الراهب مالاتستا التفت إليه متسائلاً: «أليس الراعي يضحى بحياته في سبيل رعيته؟». وتأثر سافونارولا بهذه الكلمات تأثراً عظيماً فقبلهم ثم اصطحب تلميذه دومينيكو ليسلما نفسيهما إلى مندوبي مجلس المدينة، بينما أوصى سافونارولا بقية الرهبان بعدم السماح لبذور الشك أن تتطرق إليهم، مؤكداً أن أعمال الله سوف تستمر بلا انقطاع وأن موته سيعجل بها. واقتيد سافونارولا وتلميذه دومينيكو خارج الدير وسط صيحات الفوغاء المفترسة، وقد انتشوا بنشوة الظفر والانتصار. وشاهد الراهب بنيديتو هذا المشهد فانخرط في البكاء والنشيج وقال إنه يريد أن يرافق سيده إلى السجن؛ ولكن أحداً لم يلتفت إليه. وحملت الجماهير المحتشدة كلا الراهبين

سافونارولا ودومينيكو إلى ميدان كنيسة مرقص. وارتفعت صيحاتهم التي تصم الأذان، لدرجة أن بنيديتو اعتقد أن الدهماء لابد وأنهم قتلوا سافونارولا على الفور.

وفي الساعة الواحدة مساءً، احتشدت الجماهير حوله وهي تلوح بالسيوف والحرايا هازئة به ومسلطة المصابيح الالامعة على عينيه، ساخرة منه بقولها: «انظر لترى النور الحقيقي» ولسعوه بالمشاعل وضربوه وعيروه قائلين: «تتبا من ضريك». وبلغت ضراوة الفوغاء حدًا جعل من العسير جدًا على حراسه حمايته. وظل الشعب يستهزئ به بكل وحشية حتى أدخلوه مبنى مجلس المدينة، وأثناء دخوله ركله أحد الواقفين في عجزه وهو يصيح: «هذا هو المكان الذي يحتفظ فيه بنبوءاته!».

وعندما مثل الراهبان (سافونارولا وبنيديتو) أمام رئيس مجلس المدينة، سألهما ما إذا كانا لا يزالان يعتقدان أن الله هو الذي أوحى لهما بما يقولان فأجابا بالإيجاب. عندئذ أمر رئيس مجلس المدينة بوضع كل منهما في سجن منفرد. وأسرع هذا الرجل بإبلاغ روما وميلانو وكل الأقطار المعنية بما حدث بطرق مختلفة، تتناسب وفقًا لطبيعة موقعهما من سافونارولا. وأرسلت فلورنسا إلى بونسي مندوبها في روما تقريرًا يتضمن أدق التفاصيل بما حدث وتطلب منه أن يحصل من البابا على الصفح عنهم، لأنها سمحت لسافونارولا بإلقاء مواعظه الطويلة ولأنها قامت بإلقاء القبض على رهبان تابعين للكرسى البابوي. وأيضًا دعا مجلس المدينة البابا أن يتولى محاكمة الرهبان المحتجزين. وبطبيعة الحال هل البابا لهذه الأخبار السعيدة وامتدح مجلس المدينة، واصفًا إياه بأبناء الكنيسة المقدسة الصالحين وغفر لهم ما فعلوه ثم باركهم. وانتهاز مجلس المدينة هذه الفرصة السانحة فسأل البابا عن نصيب فلورنسا من عشور الكنيسة فوعدهم البابا خيرًا. وأيضًا قام دوق ميلانو بتهنئة مجلس المدينة على العمل المجيد الذي قام به، واعدًا إياه بتسليمه مدينة بيزا في غضون أيام قليلة. وشاء حظ سافونارولا العاثر أن يتوفى ملك فرنسا شارل الثامن القادر على حمايته، والذي كان يحبه ويؤمن بقدرته على التنبؤ.



## التحقيق مع سافونارولا وعجز المحققين عن إثبات أنه مذنب (٩ - ٢٥ أبريل ١٤٩٨)

إلى جانب سافونارولا ودومينيكو وسيلفستر، ألقى مجلس المدينة فلورنسا القبض على تسعة عشر راهباً ومواطناً علمانياً لدفاعهم عن الدير. وبعد استسلام رهبان كنيسة القديس مرقص نهبها المهاجمون ثم قاموا بتفتيشها بكل دقة، بهدف العثور على أية أوراق من شأنها إثبات ضلوعهم في مؤامرة. وأراد حزب الكومباجناتشي المناوئ لسافونارولا التشنيع عليه وتلطيح سمعته، فقام بجمع كل الأسلحة التي عثروا عليها في الكنيسة ووضعوها في عربة يجرها حصان وطاقوا بها في الشوارع وهم يصيحون: «انظروا إلى معجزات كنيسة القديس مرقص...! انظروا إلى معجزات الرهبان! وهذه دلائل محبته لشعب فلورنسا» وكان لهذا التشنيع أثره السيئ في نفس الجماهير التي رأت أن سافونارولا خدعها وغرر بها عندما أحجم عن اجتياز امتحان النار، وعندما فشل في حماية الدير من الوقوع في يد أعدائه. وانتهز مجلس المدينة هذه الفرصة فدعا إلى اجتماع مجلس الشعب، الأمر الذي يشير إلى نيتهم عدم إطلاق سراحهم كما وعدوا بذلك، وأيضاً نيتهم في الضرب عرض الحائط بقوانين الجمهورية وأعرافها.

وطرح المجتمعون للنقاش موضوع الرهبان الثلاثة المقبوض عليهم: هل يتم التحقيق معهم في فلورنسا أم في روما حسب طلب البابا؟ ثم ماذا يجب عمله إزاء مجلسي العشرة والثمانية اللذين أبديا تعاطفاً واضحاً مع سافونارولا؟ ورأى المجتمعون ضرورة أن يُستبدل بهؤلاء عناصر موالية لهم؛ كي يتمكنوا من اتخاذ ما يشاءون من إجراءات. وقال جويد أنتونيو فيسبوتشي ممثل الهيئة القانونية والمعارض بشدة



لسافونارولا، إنه لا ينبغي إذاعة كل تفاصيل التحقيق على الجمهور وإن الأجدر عدم إرسال سافونارولا إلى البابا للتحقيق معه والاكتفاء بتبليغه بحبسه في فلورنسا، التي سوف تتخذ كافة الإجراءات اللازمة نحوه. ونتيجة استسلام الرهبان أمام أعدائهم تم سحق حزب البياجنوني، الذي كان شديد الولاء لسافونارولا أصبحت سلطة حزب الأرابيات المنافس له كاسحة، كما أصبح مجلس المدينة حراً في اتخاذ الإجراءات التي يراها. وهكذا قام هذا المجلس بانتخاب مجلسين جديدين بدلاً من مجلسي العشرة والثمانية. وفي يوم ١١ أبريل من عام ١٤٩٨، تم تعيين لجنة تحقيق مع الرهبان الثلاثة تتكون من سبعة عشر محققاً خُوِّلوا سلطة تعذيب المتهمين. والجدير بالذكر، أن اللجنة شكلت من قضاة ييغضون سافونارولا وسبق لهم التآمر عليه وعلى حياته، مثل بييرو ويجلي ألبرتي ودوفو سييني. وليس أدل على انتهاك سلطات فلورنسا للقانون من أن المرسوم الخاص بتكوين لجنة التحقيق صدر يوم ١١ أبريل، في حين أن التحقيق الفعلي بدأ قبل ذلك يوم ٩ أبريل، وأن الأمر البابوي الكتابي لم يصل إلا يوم ١٤ أبريل. والثابت أن التحقيق مع سافونارولا بدأ ليلة القبض عليه في منتصف ليلة حد السعف الموافق ٨ أبريل، حتى صبيحة اليوم التالي الموافق ٩ أبريل، وجرى التحقيق معه في قاعة بارجيلو وسط التهديدات والإهانات والتعذيب بربطه بالحبل على آلة رافعة ترفعه من الأرض لتقذف به فجأة من علٍ عليها. (راجع كتابي: محاكم التفتيش، الهلال، ٢٠٠١) دون أدنى اعتبار لمرضه واعتلال صحته. وأثر التعذيب في قواه العقلية فأخذ يهذي. وخلت إجاباته عن أسئلة المحققين من الانسجام. وحتى بعد تعذيبه بالآلة الرافعة أكد سافونارولا صحة معتقداته، وبذلك أخفق جلادوه في الحصول على اعتراف منه بذنبه. وزودوه بأوراق وقلم كي يعترف كتابة فعاد إلى تأكيد سلامة معتقداته. وخشى المحققون معه من الاحتفاظ بهذه الأوراق، فقاموا بتدميرها حتى لا يعرف الناس حقيقة ما ورد فيها. وعندما فشلوا في انتزاع اعتراف منه بجُرمه أرسلوه إلى زنزانته في السجن، حيث ركع على ركبته وصلى من أجل المسيئين إليه قائلاً: «يا أبتاه، إنهم لا يعرفون ماذا يفعلون».

طلب مجلس مدينة فلورنسا من الكرسي البابوي أن يعفو عنه لقيامه بسجن رجال دين والتحقيق معهم وتعذيبهم؛ ولكنه طلب منه في الوقت نفسه أن يسمح له بالاستمرار في اتباع هذه السياسة طالما أن اتباعها ضروري. وأيضاً دعا مجلس المدينة إلى عقد مجلس شعبي للتشاور حول إمكانية إرسال الرهبان الثلاثة المطلوبين إلى روما

لتقديمهم إلى المحاكمة أمام الكرسي البابوي. غير أن معظم أعضاء المجلس الشعبى رفضوا إرسال المتهمين إلى روما لمحاكمتهم؛ ولكنهم رأوا عدم إغضاب البابا فوجهوا إليه معسول الكلمات حتى يقبل أن يمنحهم نصيبهم فى عشور الكنيسة.

وأخيراً تقرر تشكيل لجنة قانونية للنظر فى قضية الرهبان السجناء، الأمر الذى أدى إلى تأجيل عرض قضيتهم حتى العاشر من شهر أبريل ١٤٩٨، مما جعل صبر الجماهير ينقد. ومن ناحيته، وقع مجلس المدينة فى حيص بيص، لأن المحققين مع سافونارولا عجزوا. رغم تعذبه. عن انتزاع أية اعترافات من شأنها أن تثبت إدانته. وخطر لبعض أعضاء مجلس الشعب أن يقوموا بتزييف اعترافاته؛ ولكنهم خشوا من افتضاح أمرهم. عندئذ همس كاتب التحقيقات سير سيكون دى سير بارونى فى أذن أحد المحققين قائلاً: «عندما لا تكون هناك قضية فمن الضرورى اختراع قضية»، ومؤكداً أنه لن يخشى أن يفعل هذا.

والجدير بالذكر، أن سيكون دى سير بارونى كان نصيراً لعائلة المديسيس وشريكاً فى المؤامرة التى دبرها بييرو دى مديسيس، وعندما اكتشف أمرها لجأ إلى الدير طالباً ملاذاً آمناً فيه. وفى الدير، تظاهر بأنه نادم على ما فعل، كما تظاهر بنصرة حزب البياجنوني الموالى لسافونارولا؛ ولكن هذا لم يمنعه من التجسس لحساب الدوق لودفيكو. وبمجرد سقوط سافونارولا ظهر هذا الرجل على حقيقته، وأبدى استعداداً لفبركة أقوال هذا الراهب حتى يسهل على أعدائه مأمورية إدانته. ووعده المسئولون فى فلورنسا بإعطائه مكافأة قدرها أربعمائة دوق فى حالة نجاحه فى مخططة الكاذب والدنىء.

ورغم أن هذا الكاتب، بحكم عمله فى مجلس المدينة، لم يكن له أى حق قانونى فى توجيه الاتهامات إلى سافونارولا فقد قام أعداء هذا الراهب بتجاهل هذا الشكل القانونى تماماً، وبدأت خيوط المحاكمة تتجمع فى ١١ أبريل ١٤٩٨. وفى هذا المناخ المسموم والمغرض انهالت الافتراءات ضد سافونارولا بحيث تعذر التمييز بين الحقيقة والأكاذيب.

ومضى أكثر من شهر فى إعداد القضية تعرض خلالها سافونارولا للتعذيب على نحو متكرر. ويقول شهود عيان، إنه فى يوم واحد تعرض للتعذيب أربع عشرة مرة. ويذكر بيكو ويورلاماتشى إنهم حرقوا باطن قدميه بجمرات الفحم أثناء تعليقه بحبل.

وبعد تعذيبه ادعى المحققون أنه اعترف من تلقاء نفسه ودون ممارسة أية ضغوط بدنية عليه. وتضاربت الأقوال: فمن قائل إنه اعترف بذنبه تحت وطأة التعذيب، ومن قائل إن التعذيب لم يفلح في زحزحته عن معتقداته قيد أنملة.

اندرجت التهم الموجهة إلى سافونارولا إلى ثلاثة رؤوس موضوعات، هي: الدين والسياسية والنبوءات. وقام بتسجيل أقوال سافونارولا أثناء المحاكمة بيكو وبورلاماتشي، ولكن تسجيل فيولى والراهب بنيديتو لها كان أكثر دقة وتفصيلاً. وأغلب الظن أن المحققين معه ركزوا على نبوءاته التي أكد صحتها أحياناً وأنكرها أحياناً أخرى. ورغم أن سافونارولا تأرجح بين تأكيد النبوة وإنكارها، فإنه استمسك بإيمانه بالكنيسة. ورغم ما كابده من تعذيب، فقد أكد بشكل قاطع إيمانه بضرورة استئصال مفسد الكنيسة وضرورة إحيائها وبعث الحياة فيها. فضلاً عن أنه تناول مخازي بابا روما ومبازله، وكرر اقتراحه بضرورة عقد مجلس ديني بهدف مساءلة هذا البابا الفاسد.

وإذا كان سافونارولا قد اهتز إيمانه بنفسه كصاحب نبوءات، فإنه ظل مستمسكاً بإيمانه بشأن الدين والسياسة. قال إن إيمانه بالكنيسة راسخ، وإن إيمانه بحرية فلورنسا السياسية لا يتزعزع فهو يتصدى للاستبداد السياسى بكل قوة. واستمر التحقيق معه وتوقيع التعذيب عليه لمدة أحد عشر يوماً. وعندما أنحى البابا باللائمة على لجنة المحققين بسبب الوقت الطويل الذى استغرقته فى التحقيق مع السجين، ردت بأنها وجدت متاعب فى التعامل معه بسبب قدرته غير العادية على الصمود والتحدى وتحمل التعذيب، وأقرت بأنها - رغم التعذيب - فشلت فى انتزاع أى اعتراف منه بذنبه.

وعلى الرغم من هذيانه تحت وطأة التعذيب، كان سافونارولا بوجه عام منسجماً مع نفسه. صحيح أنه تناقض مع نفسه عند الحديث عن قدرته على التنبؤ التى كان يؤكدُها تارةً وينكرها تارةً أخرى، إلا أن رؤيته كانت شديدة الوضوح والجلاء بشأن موضوعى الدين والسياسة، فهو فيما يتعلق بالدين يرى ضرورة تطهير الكنيسة من أوشابها، كما أنه رأى على الصعيد السياسى ضرورة القضاء على استبداد الحاكم بالمحكوم. ولم تفلح الوعود والتهديدات وتكرار التعذيب فى زحزحته، الأمر الذى أخرج مجلس المدينة الذى عجز عن إثبات إدانته. ولعل الفائدة الوحيدة التى جناها هذا

المجلس من وراء التشهير بسافونارولا وتلطيح سمعته في نظر أنصاره والموالين له هو تسهيل مهمة الافتراء عليه، والضرب عرض الحائط بالقانون وقواعد العدل المعمول بها. كان الهم الشاغل للمحققين الحصول على توقيعه على اعترافات مكذوبة، حيث إنه لم يكتب اعترافاته بخط يده كما ينص القانون على ذلك. ويعتقد المؤرخون أن الكتبة غشوه وغرروا به كي يحملوه على التوقيع على اعترافاته، فقد أعدوا نسختين منها إحداهما سليمة والأخرى مزورة، وقرعوا عليه النسخة السليمة ثم أعطوه النسخة المزورة كي يوقع عليها. حدث هذا يوم ١٩ أبريل ١٤٩٨. وبعد توقيعه التفت إلى جلاديه قائلاً: «مذهبي معروف لكم وللجميع. وإنى فى محنتى أطلب منكم شيئين، هما العناية بالرهبان الجدد، والحفاظ على إيمانهم بالمسيحية... صلوا إلى الله من أجلى لأن روح التنبؤ زايلتنى فى هذه اللحظة، تقوه سافونارولا بهذه الكلمات قبل اقتياده إلى زنزانه فى السجن.

وأخيراً أصدر مجلس المدينة طبعة من اعترافات سافونارولا، على الرغم من معارضة الكتبة ذلك، خوفاً من افتضاح أمرهم واكتشاف ما أضافوه إليها من زور وبهتان. وقوبلت النسخة المطبوعة باستهجان، الأمر الذى دفع مجلس المدينة إلى حظر تداولها، كما دفع الكثيرين إلى الاعتقاد ببراءته. ورأى مجلس المدينة الذى دعا مجلس الشعب إلى الانعقاد عدة مرات ضرورة تقديمه إلى المحاكمة للمرة الثانية. وبدأت هذه المحاكمة الثانية فى ٢١ أبريل ١٤٩٨ واستمرت حتى مساء يوم ٢٢ أبريل. وقام الكاتب كالعادة بتزوير أقواله ثم وقع عليها سافونارولا يوم ٢٥ أبريل فى غيبة شهود بالمخالفة للقانون؛ ولكنه أشار إلى التغييرات التى أجراها سير سيكون على نص الاعترافات، الأمر الذى جعل مجلس المدينة يقرر عدم المضى فى هذه المحاكمة الثانية إلى نهايتها. وعندما تبين لمجلس المدينة أن الكاتب لم يفلح فى التزوير، اكتفى بإعطائه ثلاثين دوقه بدلاً من الأربعمئة دوقه التى وعدوه بها.

## توسيع نطاق المحاكمات وسافونارولا يؤلف كتابه

الأخير في حبسه الانفرادي (من ٢٦ أبريل إلى ١٨ مايو عام ١٤٩٨)

وأيضاً قدم مجلس المدينة إلى المحاكمة رفيق سافونارولا؛ ولكن محاكمتها لم تسفر عن شيء، فقد ظل دومينيكو دا بريشيا رابط الجأش تحت وطأة التعذيب. وعبثاً حاول المحققون إيهامه بأن سافونارولا اعترف على نفسه وتراجع عن كل مبادئه. ولم يفلح التعذيب في التأثير في دومينيكو، فقد ظل محتفظاً بهدوئه كشهيد من شهداء الكنيسة الأوائل. وفكر المحققون في طبع اعترافاته كاملة دون زيادة أو نقصان؛ حتى يقتنع الناس بأمانتهم فيصدقوا الافتراءات المفلوطة والدخيلة على اعترافات سافونارولا. ولكن قلبهم لم يطاوعهم على نشر اعترافات دومينيكو بحذافيرها؛ لأنها تتم عن بطولته واستمسكه ببراءته من التهم الموجهة إليه؛ ولهذا آثروا الامتناع عن نشر هذه الاعترافات. وأكد الراهب دومينيكو في اعترافاته إنه هو وسافونارولا لم يفكرا مطلقاً في اللجوء إلى المقاومة المسلحة أثناء تحصنهم في كنيسة القديس مرقس، واعترف دومينيكو أنه كان عاقد العزم على اجتياز امتحان النار. وعندما طلب إليه المحققون تدوين أفكاره عن سافونارولا أكد عظيم إيمانه بنبوة هذا الراهب، وطلب دومينيكو من جلاديه أن يرحموه من التعذيب الذي تسبب في تحطيمه وخلع ذراعه؛ ولكن توسلاته ذهبت أدراج الرياح فقد أمعنوا في التكيل به.

وعلى العكس من الراهب دومينيكو الصامد انهار الراهب سيلفسترو عند أول محاولة لتعذيبه، وكما أسلفنا اختبأ هذا الراهب في الدير حتى أسلمه الراهب الخائن مالاتستا إلى الحراس. ورغم جبنه وتخادله، فإن شهادته جاءت لصالح سافونارولا.



وفى تلك الفترة قدمت سلطات فلورنسا إلى المحاكمة كل رهبان القديس مرقص وكثيراً من أصدقاء سافونارولا العلمانيين، ممن كانوا فى الدير ساعة الهجوم عليه. وقد تعرض جميعهم للتعذيب والتحقيق الدقيق. واتضح من هذا التحقيق أن سمعة سافونارولا فوق مستوى الشبهات. ولا غرو، فقد شهد نه الجشيع بالروحانية وبعدم ضلوعه فى أية مؤامرات سياسية من أى نوع. غير أنه ثقة بعضهم فيه تآرجحت عندما قدم إليهم المحققون اعترافات سافونارولا المزورة، كدليل على تراجعته عن مبادئه وإنكاره لنبوءاته ورؤاه. وهكذا تزعزعت ثقة الراهب روبرتو دا لاجليانو فى رائده سافونارولا بعد أن كان من أشد الناس تحمساً وحباً له. وبادر كثير من رهبان القديس مرقص يوم ٢١ أبريل ١٤٩٨ بخذلان معلمهم بكتابة خطاب يتضمن إدانة له أرسلوه إلى البابا لطلب الغفران؛ لأنهم سمحوا لسافونارولا أن يضللهم ولأنهم حملوا السلاح دفاعاً عن الدير. والغريب أنهم رغم ذلك حذوا حذو سافونارولا فى موقفه السياسى، فتوصلوا إلى الكرسي البابوى أن يحافظ على استقلال دير القديس مرقص ويعين راعياً له. وهو المطلب الذى جعل البابا يناصب سافونارولا العداء ويقوم بطرده من الكنيسة.

وكلف مجلس المدينة اثنين من الرهبان لحمل هذه الرسالة إلى روما. وقام البابا بالرد عليها فى ١٤ مايو ١٤٩٨، حيث امتدح الرهبان التائبين وسامحهم على السير فى ركاب سافونارولا. وأيضاً حضر جمهور المصلين إلى كنيسة الديومو ليتلو المندوب البابوى على مسامعهم قرار العفو عنهم وعن أية جرائم يكونون قد اقترفوها أثناء مناهضتهم لسافونارولا. وأصر البابا الكسندر على أن يقوم مجلس مدينة فلورنسا بتسليم سافونارولا إليه حياً يرزق، وذلك بعد الانتهاء من التحقيق معه وتعذيبه. ولكن مجلس المدينة رأى فى ذلك اعتداء على استقلال فلورنسا وأمتها نكرامتها الثورية؛ فرفض الاستجابة لطلب البابا دون إثارة غضبه وسخطه. ورغم ذلك، فقد سعى مجلس المدينة إلى الحصول من البابا على حق فلورنسا فى عشور الكنيسة؛ غير أن البابا لجأ إلى الإرجاء والتسويق.

واقترب وقت انتخاب مجلس مدينة جديد فى فلورنسا. وكان مجلس الشعب ينعقد كل يوم تقريباً. وفى يوم ٢٧ / ٢٨ أبريل، طلب مجلس المدينة من مجلس الشعب أن يوافيه بالرد الواجب إرساله إلى البابا فأشار زعيم المجلس الأخير فيسبورى إلى ضرورة الاستمرار فى اتباع سياسة عدم إغضاب البابا وإطالة مدة التحقيق مع سافونارولا وزميليه، بحيث يترك للمجلس القادم المزمع انتخابه أمر إصدار الحكم عليهم. وأيضاً نصح فيسبورى باستخدام الرأفة مع بقية المتهمين فتم ذلك.



وسعى أعداء سافونارولا إلى انتخاب مجلس مدينة يناصب هذا الراهب العداء حتى لا يضيع تعذيبه سدى. ولو أنه قُبِض لحزب البياجنونى أن يستعيد سلطته لدافع عن سافونارولا وانتقم ممن عذبوه ونكلوا به، وفضح الأساليب الملتوية التى استخدمت معه. وبعد انتخاب مجلس المدينة الجديد تشاور مجلس الشعب فى ٥ مايو ١٤٨٩ بضد مصير سافونارولا. قال بعض أعضاء مجلس الشعب إنه من الضرورى إفهام البابا أن الحكم على هذا الراهب ينبغى أن يصدر فى نفس المكان الذى ارتكب فيه الجريمة، وأيد هذا رأى بييرو بوموتشى بوصفه ممثلاً لمجلس العشرة والرئيس السابق لمجلس المدينة والمشرف الدينى على المحاكمة، إذ قال إنه لا ينبغى محاكمة سافونارولا فى روما، وإنه يفضل أن يرسل البابا مندوبين عنه إلى فلورنسا للتحقيق معه. وعارض هذا الرجل إعادة محاكمة سافونارولا لأن زيفها قد يفضح. وفى مساء ٥ أبريل، كتب مجلس المدينة إلى بونسى سفيره فى روما والذى قلب ظهر المجن لسافونارولا، ثم كتب هذا المجلس فى اليوم التالى (٦ أبريل) إلى البابا مكرراً بأنه لن يكون فى مقدوره إرسال الرهبان الثلاثة إلى روما، حيث إنه (أى المجلس) يرغب فى أن يجعل منهم عبرة لمن يعتبر، وأضاف أنه من الأفضل أن يرسل البابا مندوبيه للتحقيق معهم فى فلورنسا.

وعندما أدرك البابا أن سلطات فلورنسا مصممة على عدم تسليم الرهبان الثلاثة إليه وأنها تريد أن تنفذ حكم الإعدام فيهم بنفسها، استسلم للأمر الواقع وأبدى استعداداً للوصول إلى حل وسط؛ ولهذا كتب فى ١١ أبريل إلى الأسقف باجانوتى، ثم كتب فى اليوم التالى (١٢ أبريل) إلى مجلس مدينة فلورنسا معلناً عزمه على إرسال مندوبيه الدومينيكان إلى فلورنسا، وهما ~~جيوفاتشينو تورياتو وفرانيسكو رومولينو~~ للتحقيق فى التجرائم والشُرور التى ارتكبتها «أبناء الهلاك» على حد تعبيره. وإمعاناً فى إذلال سافونارولا، طلب من صديقه الأسقف باجانوتى الحط من شأنه وتسليمه للذراع العلمانى لتنفيذ حكم الإعدام فيه. وحتى يسترضى فلورنسا منحها البابا العشور التى تتحرق شوقاً للحصول عليها. وما إن علم حزب البياجنونى الموالى لسافونارولا زيف محاكمته، حتى أخذوا يصيحون فى الأسواق والشوارع أن فلورنسا تلقت ثمن الخيانة وشملت الفضة التى تسلمها يهوذا الأسخريوطى لقاء خيائته للسيد المسيح. وتولت السلطات فى فلورنسا إبلاغ البلاد والمدائن بنواياها (السيئة) نحو سافونارولا، ولكنها ترددت فى تبليغ فرنسا لأن ملكها الجديد لويس السابع كان معروفاً - مثل والده شارل الثامن - بتعاطفه مع الراهب.

ووضعت سلطات فلورنسا منذ ٢٥ أبريل حتى ١٩ مايو ١٤٨٩ الراهب سافونارولا في زنزانة انفرادية وتركته هناك يعيش في سلام. وفي بادئ الأمر تكسرت ضلوعه لدرجة أنه فقد القدرة على استخدام ذراعيه، ولكن يده اليمنى سرعان ما تحسنت لأن التعذيب الواقع عليها كان مخففاً بحكم القانون الذي حظر تدمير اليد اليمنى حتى يتمكن المتهم من كتابة اعترافاته.

والعجيب أنه عندما استأنف سافونارولا الكتابة لم يخطر في باله أن يسجل صنوف التعذيب الوحشي الذي تعرض له، بل كرس كل وقته لتمجيد الله فكتب شرحاً للمزمور الخمسين الوارد في الكتاب المقدس. ودبت الحياة فيه من جديد، فانكب على كتابة شروح دينية لا تقل في قوتها وعنفوانها عن الوعظ التي درج على إلقائها من فوق المنبر.

ثم ألف سافونارولا في زنزانه كتاباً آخر عن المزمور الثلاثين، يدور حول الصراع بين اليأس والرجاء. وبعد تأليف الكتابين المشار إليهما اضطر إلى التوقف عن الكتابة نتيجة نفاد كمية الورق المتاحة له. وذاعت شهرة هذين الكتابين بين القراء لدرجة أنهما ظهرا في ألمانيا في ثلاث عشرة طبعة، ومما زاد من شهرتهما أن مؤسس المذهب البروتستانتي مارتن لوثر كتب في ستراسبورج عام ١٥٢٤ أنه يعتبر سافونارولا رائد المذهب البروتستانتي وأحد شهداء عصر الإصلاح الديني. قال لوثر: «هذا الرجل تم إعدامه لا لشيء إلا لأنه أراد أن يأتي من يظهر كنيسة روما من أوشابها. لقد كان البابا عدو المسيح يأمل في محو اسم هذا الرجل العظيم تحت ركام التشهير وتلطيف السمعة؛ ولكن اسمه لا يزال نابضاً بالحياة، كما أن ذكره مباركة. إن يسوع المسيح ينصبه قديساً من خلال شفاهنا حتى ولو كانت البابا وأتباعه من الغيظ والكمد. وحتى كتاباته توضح لنا أنه لا قيمة للأعمال بدون إيمان، حيث إن الإيمان هو ما يحتاج إليه الإنسان».

كان لسافونارولا شخصية طاغية لدرجة أن سجنه لم يملك غير أن يعامله بإجلال عظيم، وطلب منه أن يكتب له حكمة عن الحياة الفاضلة فلم يبخل عليه بذلك، وسطر على غلاف أحد الكتب «قواعد الحياة الفاضلة» التي رأت طريقها إلى النشر فيما بعد، والتي بدأها بإبراز «أهمية العناية الإلهية في خلاص المرء من آثامه وعدم اليأس أو القنوط من رحمة الله». «ولهذا فإن المثابرة في حياة الفضيلة وفي القيام بالأعمال الصالحة والاعتراف والتناول من شأنها أن تقربنا من العناية الإلهية، وهي الطريقة الصادقة والأكيدة لزيادة هذه العناية».

## النهاية: العودة إلى تعذيب سافونارولا وتقديمه للمحاكمة للمرة الثالثة وتنفيذ حكم الإعدام فيه رغم براءته (١٩-٢٣ مايو ١٤٩٨)

وصل مندوبا الكرسي البابوي إلى فلورنسا في ١٩ مايو ١٤٩٨ للتحقيق مع سافونارولا ورفيقه الراهبين. وتكون فريق التحقيق من كل من جيوفاتشينو توريانو الدومينيكانى ورئيس الأساقفة الإسباني فرانسيسكو رومولينو اللذين احتشد حولهما الغوغاء وحثالة المجتمع، وهم يصيحون «الموت للراهب»، فطمأنهم رومولينو قائلاً إنه سوف يموت دون إبطاء. والواقع، أن جيرولامو بنيفتى وصلته رسائل من روما تفيد بأن «المندوبين صدرت لهما تعليمات بإعدام سافونارولا حتى ولو كان هذا الرجل يوحنا معمدانى آخر». وهو ما أكدته رومولينو الذى قال: «سوف نشعل ناراً بديعة نضعه فيها».

وفي العشرين من شهر مايو بدأ التحقيق مع سافونارولا للمرة الثالثة، بينما كان جلادوه يتأهبون لتعذيبه. وقد حضر إلى جانب مندوبى البابا عدد من ممثلى الهيئات المختلفة. وبالنظر إلى أن كاتب التحقيق سير سيكونى الذى سبق لنا ذكره فشل فى أداء مهمته فى التزوير، فقد عين بعض معاونين لمساعدته على أداء مهمته فى الافتراء على خير وجه.

وقام المحققان بتوقيع التعذيب على سافونارولا دون أدنى شفقة أو رحمة. وتم سؤاله عن المشتركين معه فى جرائمه ودسائسه فرد بعدم اشتراك أحد معه، ولكنه تحدث مؤخراً من شدة التعذيب فقال إنه أسر بأفكاره إلى راهب أو راهبين من زملائه، مضيفاً أنه لم يجز قط أى اتصال مع أمراء إيطاليا لأنه اعتبرهم أعداءه. ورغم ذلك، فإنه اعترف أنه كان يأمل فى أن يهب ملك إنجلترا الصالح لمؤازرة دعوته إلى انعقاد

مجمع ديني لمحاسبة البابا. وعندما أدرك المحقق رومولينو أنه لن ينجح في انتزاع أية معلومات من الراهب من شأنها أن تدينه، ثارت ثائثرته وهدد بالويل والثبور وأمر بتعذيبه في الحال. عندئذ قال سافونارولا إنه سبق وأن أنكر نبوءاته خوفًا من التعذيب؛ غير أنه الآن على استعداد لأن يتحمل العذاب من أجل الحقيقة، مؤكدًا من جديد أن الله أوحى إليه بأفكاره ومعتقداته. فقام جلادوه بنزع ثيابه وربطه إلى آلة التعذيب المعروفة باسم Rack (انظر : د. رمسيس عوض: محاكم التفتيش، الهلال ٢٠٠١)، الأمر الذي تسبب مرة أخرى في أن يزوغ عقله ويتكلم كلامًا غامضًا ومبهمًا نجح كاتب التحقيق في تزييفه بطريقة أفضل مما فعله في المرة السابقة. ورغم هذا، فقد فشل التعذيب في حمله على قول أى شيء يشكك في سلامة عقيدته وصحة دينه. وأردف أن الأمر البابوي الخاص بطرده من الكنيسة لم يخفه على الإطلاق. وبات من الواضح للعيان أن التزوير في أقواله صار أكثر وقاحة وصفاقة عن ذي قبل. ومُهرت اعترافات سافونارولا بتوقيع لا يقوم دليل على صحته. ولم يكثر المحققون باتباع الإجراءات القانونية في تحقیقاتهم، فأغفلوا توقيع الشهود على صحة هذه الاعترافات كما ينص القانون. وفي أقواله أنكر هذا الراهب أنه يؤمن بناسوت المسيح دون لاهوته، كما أنكر إيمانه بالسحر. ومرة أخرى أثار المندوب البابوي رومولينو مسألة دعوته إلى عقد مجمع ديني (لمحاسبة البابا) وسأله عما إذا كان قد طلب مساعدة مملكة نابولي في ذلك فأقر تحت وطأة التعذيب بذلك، ولكنه عاد وأنكر أن لنابولي أية صلة بهذا الموضوع.

ورغم عدم خروج التحقيق معه بأية نتيجة، فقد لجأت سلطات السجن إلى مباغتته فسمحت بدخول خمسة مواطنين يرافقهم الكاتب في زنزانتته بهدف استغلال إعيائه الشديد وانهياره العقلي والجسدي، وسأله عن بعض الأمور السياسية. فأجاب بأنه ترك لفالورى تدبيرها، مؤكدًا أن هدفه السياسى الوحيد تلخص في إقامة حكومة في فلورنسا تنتخب ممثلها انتخابًا شعبيًا، والدعوة إلى توحيد صفوف أهل هذه المدينة ليس من أجل الاعتداء على الآخرين، بل من أجل الدفاع عن أنفسهم ضد أى عدوان عليهم.

وهكذا انتهت المحاكمة الثالثة بالفشل الذريع في إثبات ذنبه، بل إن براءته سطعت عن ذى قبل؛ ولهذا السبب امتنع المحققون معه عن طبع تحقیقاتهم وتوقيعها وقراءتها أمام الملأ وتركوها ناقصة دون استكمال وأخفوها، وسمحوا فقط بنسخة أو نسختين تتداولها المحاكم الإيطالية.

وعلى الرغم من فشل تحقيقات المندوبين البابويين مع سافونارولا، فقد قررا عقد اجتماع في نفس اليوم (٢٢ مايو) من أجل التشاور حول مصير الرهبان الثلاثة. واتفق المجتمعون على أن موت الراهب سافونارولا وموت الراهب سيلفسترو مسألة مفروغ منها. وحتى يتقبل الجمهور قسوة هذا الحكم اقترح المحقق البابوي رومولينو عدم إعدام الراهب دومينيكو. وعندما قيل لرومولينو إن استمرار دومينيكو في قيد الحياة معناه أن تظل مبادئ سافونارولا حية، رد بقوله إنه من الأفضل إذن أن يموت دومينيكو أيضاً.

وفي تلك الأيام دُعي للانعقاد مجلس شعبي اختير بعناية لمناقشة الحكم الصادر، وكان السواد الأعظم في هذا المجلس يناصب سافونارولا العداء. ولهذا رفض الاستماع إلى صوت عضو يدعى أجنولو نيكولوني ارتفع للدفاع عن سافونارولا؛ لأنه رجل تقى وصالح وعالم جليل قل أن يجود الزمان بمثله. واقترح نيكولوني الاكتفاء بحبسه وتوفير مداد الكتابة له حتى لا يخسر العالم نتاج قريحته الفذة. ورغم تأكيد المحققين من براءة سافونارولا ودومينيكو من التهم الموجهة إليهما، فقد صدر الحكم بإعدامهما كما صدر الحكم بإعدام الراهب البريء الثالث سيلفسترو، رغم أنه في لحظة ضعف وغواية تنكر لسافونارولا. وتمت تلاوة أحكام الإعدام على السجناء الثلاثة حتى يستعدوا لاستقبال الموت، ونزل الحكم على الراهب سيلفسترو نزول الصاعقة، في حين استقبله الراهب دومينيكو بالسرور والحبور. وعندما أفهموه أنه سيُشنق ثم يُحرق، توسل إليهم أن يحرقوه حياً حتى يكابد الشهادة من أجل المسيح، ثم طلب دومينيكو زاداً حتى يتمكن من النوم الهادئ ويقابل الموت بكل ثبات ورياسة جاش. ثم سطر خطاباً لوداع زملائه الرهبان في دير سان دومينيكو في فيوسول، يطلب فيه أن يصلوا من أجله كلما اجتمعوا للصلاة وأن يدفنوه في ركن قصي خارج الكنيسة، وأوصاهم بجمع كتابات سافونارولا وتجليدها ووضع نسخة منها في المكتبة، كما أوصاهم بالاحتفاظ بنسخة أخرى من هذه الأعمال يربطونها بسلسلة لقراءتها حول مائدة الطعام في مطعم الدير. وعندما دخل الرسل إلى زنزانة السجن لتبليغ سافونارولا بالحكم عليه وجدوه راکعاً على ركبتيه يصلي. وعند تلاوة نص الحكم عليه لم يطرأ أدنى تغيير على ملامحه التي ظلت جامدة لا تعبر عن الحزن أو الفرح، واستمر يصلي بحرقة أشد. وبعد وقت قصير قدموا إليه الطعام ولكنه أشاح بوجهه عنه قائلاً إن روحه تحتاج أكثر من جسده إلى التقوية، وإنه يريد أن يحتفظ بصفائه



الروحي وهو مستعد لاستقبال الردى. وجاءه الكاهن جياكومو نيكولوينى متشحاً بالسواد ومخفياً وجهه تحت غطاء الرأس بهدف غوايته فى ساعاته الأخيرة وسأله عما إذا كان يرغب فى شىء قبل موته، فطلب منه تبليغ مجلس المدينة برغبته فى الانتحاء بزميليه الراهبين المحكوم عليهما بالإعدام لفترة وجيزة. ووافق مجلس المدينة على إجابة سافونارولا إلى طلبه فالتقى ثلاثتهم فى قاعة المجلس الأعظم لمدة ساعة، ثم جاء راهب من طائفة القديس بينديكت كى يسمع اعترافه واعتراف الراهبين الآخرين.

كان منظرًا مشحونًا بالعواطف الجياشة، فقد اجتمع الرهبان الثلاثة لأول مرة بعد انقضاء أكثر من أربعين يومًا على حبسهم الانفرادى، وبعد محاولة غواية الراهبين دومينيكو وسلفسترو وتضليلهما بإيهامهما أن رائدهما قد تراجع عن كل أقواله. وما إن رأى الراهبان دومينيكو وسلفسترو سيدهما، حتى عادت إليهما ثقتهما المطلقة فيه. والتفت سافونارولا إلى تلميذه دومينيكو وقال له إنه يعلم أنه يريد أن يكابد الموت حرقاً؛ ولكنه نصحه بعدم اختيار ميته لأن الله وحده هو الذى يحددها، وهو الذى يحيى ويميت وهو وحده المعين. ثم التفت إلى سلفسترو ليقول له بلهجة لا تخلو من القسوة إنه يعرف إنه يزعم أن يعلن براءته أمام الجمهور ونصحه بالامتناع عن فعل هذا، وأن يحذو حذو المسيح الذى لم يحاول قط أن يتحدث عن براءته أثناء صليبه. ولم يحر الراهبان جواباً، بل التزما الصمت فى حضرة رئيسهما الذى باركهما قبل اقتيادهما إلى زنزاتيهما، ويات من الواضح أن الراهبين على أتم استعداد لطاعته.

عاد سافونارولا إلى زنزانه فى الهزيع الأخير من الليل كى يتأهب لاستقبال الموت، وقد غلبه النعاس وأضناه الإنهاك فمال بجسده برهة على حجر أحد الحاضرين فأخذته سِنَّةٌ من النوم صحا منها صافى الذهن وهادئ الوجه كمن رأى رؤيا سعيدة فى منامه. وتعبيراً عن مودته وامتنانه لهذا الشخص قال له إن فلورنسا سوف تشهد أحداثاً جساماً فى عهد بابا يقال له كليمنت، وبالفعل تحققت نبوءته المشؤمة فى عام ١٥٢٩ عند قام أعداء فلورنسا بحصارها.

وأمضى الراهبان الثلاثة بقية الليل فى الصلوات والابتهالات، وتقابلوا فى الصباح من أجل المناولة. وسمح لسافونارولا بالصلاة على القريان المقدس فصلى عليه، وطلب من الله بكل حرقة أن يغفر خطايا وخطايا مدينة فلورنسا. ثم أخذ المناولة

وناول زميليه الراهبين. وأتى الحراس ليقتادوا السجناء الثلاثة إلى ميدان المدينة، حيث أقيمت ثلاث منصات بالقرب من مبنى القصر مقر اجتماع مجلس المدينة، خصصت إحداها لأسقف فاسونا الذى جلس على يمينه المحققان البابويان، فى حين أقيمت المنصة الثالثة لرئيس مجلس المدينة وأعضاء مجلس الثمانية. وفى الميدان أقيمت أيضاً ثلاث مشانق تدلت من عارضة خشبية على شكل صليب، كما أقيمت بجوارها ثلاث حلقات لتعليق جثثهم بعد موتهم وبأسفلها محرقة لإضرام النار فيها كي تلتهم الجثث وتحولها إلى رماد. ووجد الحراس التابعون لمجلس المدينة صعوبة بالغة فى إبعاد الجمهور المحتشد حول الضحايا والذى ران عليه صمت رهيب وحزن عميق، حتى الذين كانوا يتوقون للتشفى والانتقام من سافونارولا ارتسم الوجوم على وجوههم. وفى هذا الحشد الكبير اختلط أنصار هذا الراهب بأعدائه وحضر كتاب كثيرون ليسجلوا تفاصيل هذا المنظر المفجع والمروع؛ ولكن الحزن العظيم الذى اعتري كثيراً من النظارة لم يمنع عدداً منهم من إطلاق صيحات الفرح الوحشية والرغبة فى افتراس ضحاياهم. وكان معظمهم ممن أودعوا السجن بسبب مؤازرتهم للنظام الذى أطاح به سافونارولا، والذين أطلق سراحهم بعد أن قلب أهل فلورنسا لهذا الراهب ظهر المجن.

وقبيل إعدامهم كان الرهبان الثلاثة واقفين على درج القصر عندما أمرهم راهب دومينيكانى من دير سانتا ماريا نوفيللا بخلع ملابسهم الكهنوتية. ثم اقتيدوا حفاة الأقدام ومغلولى الأيدي، وقد غطت أجسامهم عباءات خشنة من الصوف. وأبدى سافونارولا امتعاضه من إرغامه على التخلّى عن ملبسه الكهنوتى، ولكنه امتثل للأمر وهو يقول: «أيها اللباس المقدس الأثير إلى قلبى، لَکَم تَقت إلى ارتدائك!».

وبدأ موكب الرهبان الثلاثة يتحرك فوجدوا أنفسهم عند المنصة الأولى فى حضرة أسقف فاسونا، الذى كان فى يوم من الأيام يعتبر سافونارولا معلمه وسيده قبل أن يأمره البابا بالإشراف على الإجهاز عليه، ولهذا كان من الطبيعى أن يبدو الارتباك على هذا الأسقف وأن يخجل من رفع عينيه إلى عيني معلمه. وبمجرد أن أعلن أسقف فاسونا تجريد الرهبان الثلاثة من صفتهم الدينية، حتى قام بنزع ملابس الرهبنة عنهم. وبعد ذلك غطيت أجسامهم بعباءاتهم قبل تسليمهم إلى الذراع العلمانى لتنفيذ حكم الإعدام فيهم، ثم اقتيدوا أمام المحققين البابويين ليسمعوا الحكم الصادر عليهم بأنهم منشقون وهراطقة. ثم تولى المحقق البابوى رومولينو مسح جميع ذنوبهم

وخطاياهم. وسألهم عما إذا كانوا موافقين على ذلك فأخفضوا رؤوسهم للتعبير عن موافقتهم، ثم مثلوا بحسب القواعد المرعية أمام مجلس الثمانية الذى أدانهم بالإجماع بعد أخذ الأصوات؛ ولكن أحد أعضاء مجلس الثمانية واسمه فرانسيسكو تعمد أن يتغيب حتى لا يشترك فى اقتراح هذا الجرم.

وفى الحال تمت تلاوة الحكم الصادر على المساجين الثلاثة، وفيما يلى نصه : «إن مجلس الثمانية بعد أن تدارس اعترافات الرهبان والحكم الذى أصدره مندوبا الكرسي البابوى اللذان قاما بتسليمهم إلى الذراع العلمانى لتوقيع العقاب عليهم، قرر ما يلى : أن يُشنق كل من الثلاثة ثم تُضرم النار فى جثثهم حتى تفارق أرواحهم أجسادهم تماماً».

وبكل هدوء وثبات صعد الضحايا الثلاثة إلى المشنقة؛ حتى الراهب سيلفسترو نبذ تخاذله وتغلب على فرقه وتردده وأظهر شجاعة عظيمة فى مواجهة الموت. ولم تهتز لسافونارولا خلجة أو تصدر عنه نامة، بل سار ثابت الخطى إلى حتفه وكأنه يحتفظ بين جنباته بقوة هائلة خارقة للطبيعة. وبينما الرهبان الثلاثة سائرين إلى حتفهم اعتدى عليهم الفوغاء بفاحش الفعل والقول. ولكن هذا لم يحرك ساكناً فى سافونارولا، بل ظل محتفظاً بهدوئه وصفائه. وأشفق عليه أحد الواقفين فاقترب منه لتمزيته فأجابه قائلاً: «عندما تحين الساعة الأخيرة فإن الله وحده هو الذى يعزى البشر» وسأله قسيس يدعى نيروتو عن حالته وهو يستشهد فقال : «الرب تعذب كثيراً جداً من أجلى»، ثم قام بتقبيل الصليب وتلاشى صوته إلى الأبد.

ويبدو أن الراهب دومينيكو كان لا يعى الصخب والغليان من حوله فارتفعت عقيرته بالابتهالات. واقترب منه بعض المؤمنين به فقال لهم: «إذن صلوا معى فى همس» وهكذا اشتركوا جميعاً فى صلاة هامسة، ثم التفت إليهم قائلاً: «عوا هذا جيداً، إن كل نبوءات الراهب سافونارولا سوف تتحقق. ونحن نموت أبرياء».

كان الراهب سيلفسترو أول من صعد الدرج المؤدى إلى المشنقة، فوضع الجلاذ حبل المشنقة حول رقبتة وفاضت روحه وتدلّى جسده. ثم انتقل الجلاذ إلى الراهب دومينيكو ليقوم بشنقه بنفس الطريقة. وأسرع هذا الراهب إلى حتفه فى فرح وجزل وكأنه يرى أبواب الجنة تنفتح أمامه . وجاء دور سافونارولا الذى علق على مشنقة تتوسط جثتى زميليه. استغرق سافونارولا استغراقاً كاملاً فى التأمل الروحى العميق

كما لو كان مخلوقاً غير أرضي. ولما صعد إلى المشنقة رأى الجماهير المتلاطمة أسفله، وكذلك رأى رجالاً غلاظاً يحملون المشاعل المتوهجة ويتلهفون لإشعال النار في الكومة المعدة لهذا الغرض. ثم أحنى عنقه بسرعة كي يسهل على الجلاد أداء عمله. وفي وسط الهدوء الرأى ارتفعت صرخة تقول: «أيها النبی، لقد حان الوقت لتحدث معجزة». حقاً لقد كان يوماً مشهوداً لا يمحي من الذاكرة. ويبدو أن الجلاد أراد أن يسلي النظارة بالتباطؤ المتعمد في أداء عمله؛ ولكن المسئولين لأموه على تلكؤهم، فأسرع في إشعال النار حتى تصل السنة اللهب إلى جسد سافونارولا حتى قبل أن تفيض روحه. وهكذا مات الشهيد سافونارولا وهو في الخامسة والأربعين من عمره، في الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٣ مايو ١٤٩٨. وبعد موته انقسم جمهور المتفرجين إلى قسمين: قسم يضم حزب الأرابياتي يتراقص ويطير من الفرحة ويقذف الجثث نصف المحترقة بالحجارة، وحزب آخر يضم حزب البياجنوني يعمه الحزن العميق وانخرط في النشيج والبكاء، وهم يركعون أمام جثة الراهب القديس. وتجرات بعض النسوة المؤمنات بقداسته فصعدن إلى حيث تتدلى الجثث، كي يأخذن كل ما استطعن من بقايا سافونارولا المباركة؛ ولكن الحراس خشوا أن يكون لهذه البقايا مفعول السحر فوضعوا النسوة بما حملن في عرية يجرها حصان، ثم ألقوا بهن في نهر الأرنو؛ ولكن هذا لم يمنع أفراد حزب البياجنوني من جمع بقايا الرهبان الثلاثة المحترقين وحفظها في علب والتوجه إليها بالعبادة لقداستها. ويزعم الفيلسوف والعالم ج. ف. بيكو أنه تمكن من استعادة جزء من قلب سافونارولا وينتشل من نهر الأرنو؛ وأضاف أنه استخدمه لصنع المعجزات وكبسّم شافٍ لعدد كبير من الأمراض. وانتشرت الميديات التي تحمل صورة سافونارولا، رغم كل ما فعله حزب الأرابياتي لمحو اسمه من الوجود.

وفي نفس اليوم الذي نفذ فيه مجلس مدينة فلورنسا حكم الإعدام في الرهبان الثلاثة، أرسل مجلس العشرة رسالة بهذا المضمون لتبليغه بأنهم ماتوا الميته التي تتناسب مع بشاعة أفعالهم، وتلقى مجلس المدينة، خطابات تهنئة من روما وميلانو وبعض الممالك الأخرى، باستثناء فرنسا التي كان ملكها لويس السابع يعارض إعدام سافونارولا. وقامت سلطات فلورنسا التي لم تأبه بهذا الاعتراض بنثر كل ما جمعته من رماد الجثث الثلاث المحترقة فوق صفحة نهر الأرنو.

وجاء وقت تصفية الحسابات القديمة، فقام حزب الأرابياتى بالتنكيل بحزب البياجنونى وأغلق دير القديس مرقص لمدة شهرين، كما استولى على مكتبة الدير التى كان قد اشتراها بحر ماله ودفع فيها ثلاثة آلاف فلورينة إلى حكومة جمهورية فلورنسا. وضاق الأرابياتى ذرعاً بناقوس المدينة الذى ذكرهم رنينه بسافونارولا يوم اندلاع الثورة فى فلورنسا ضد حكم الطاغية بييرو دى مديسيس. وقام الجلاد بجلد الناقوس الأصم أمام الجمهور تشفيًا وانتقامًا قبل نقله على عربة يجرها حصان إلى خارج المدينة، الأمر الذى أدى إلى شعور طائفة الرهبان الدومينيكان بالاستياء الشديد، كما أدى إلى نفى عدد كبير من هؤلاء الرهبان المحتجين، مثل ماريانو ويجلى أوجى، وروبرتو دا جاجليانو، وموريليو سافونارولا شقيق الراهب جيرولامو. وأراد حزب الأرابياتى أن يكرم رومولينو على الدور البارز الذى لعبه فى القضاء على سافونارولا، فكلف فرقة موسيقية أن تعزف له تحت نوافذ مسكنه. واستدعت روما كثيرًا من الفلورنسيين للمثول أمامها؛ ولكنهم تمكنوا عن طريق رشوة رومولينو من إلغاء أوامر الاستدعاء. على أية حال، استمر الغوغاء. دون رادع. فى إهانة حزب البياجنونى والتطاول على أفرادهِ فى الشوارع والطرق.

ومن المؤسف أن بعض الموالين لسافونارولا قلبوا له ظهر المجن مثل فيكينو وفيزينو. ورغم أن الكرسي البابوى أصدر أوامره المشددة بعدم ذكر اسمه فى دير كنيسة القديس مرقص، فإن كثيرًا من أنصار هذا الراهب ظلوا على عظيم ولائهم له، فجمعوا وعظاته وكتاباتهِ لدراستها كما تدارسوا سيرة حياته. وبعد مضى أيام قلائل على حرق جثته شوهدت بعض النسوة فى الميدان عند مطلع الفجر راكعات يصلين على الحجارة التى تم حرق جثة سافونارولا عليها. وفى الثالث والعشرين من شهر مايو كل عام، احتفل الموالون له بنثر الزهور فى مكان الشهادة. وقد استمرت هذه الممارسات التعبدية حتى عام ١٧٠٢، أى لمدة تزيد على قرنين كاملين.





الموت حرقاً

جيوردانو برونو

(١٥٤٨ - ١٦٠٠)



## مقدمة

من العجب أن يكون جيوردانو برونو مشهوراً ومغموراً في الوقت نفسه! فلا أحد في عصرنا الراهن يذكر عنه شيئاً سوى حادثة حرقه حياً في روما، رغم أن كلاً من فيرجيليو سالفستريني Virgilio Salvestrini من بيزا أعد ثبوتاً بيولوجرافياً عنه عام ١٩٢٦ استكملة لويجي فيريو Luigi Firpo عام ١٩٥٠ حتى وصل عدد مداخله إلى ألف مدخل. والجدير بالذكر، أن شهرة برونو في حياته جابت الأفاق لدرجة أنه حظى باهتمام الملوك والبابوات والأمراء. ومع ذلك، فقد أغفل جاليليو ذكره فيما كتب، الأمر الذي جعل العالم الفلكي كبلر يظهر الدهشة. بل إن مارتن هانسديل في خطاب مؤرخ في ١٥ أبريل ١٦١٠ نبه جاليليو لهذا الإغفال؛ غير أن جاليليو أصر عليه: حتى إشارات الفيلسوف الفرنسي ديكارت الذي تأثر به كانت عابرة ولا تلفت النظر.

وعلى الرغم من أن مارتن ميرسين ناصب الفكر الأرسطاطاليسي العداء مثلما فعل برونو ورحب بالتجديد العلمي، فإنه اعتبر برونو «أشد المفكرين والملحدين والمتحررين والمؤمنين بمذهب الحلول خطراً» (\*)، وهو نفس الرأي الذي ذهب إليه الفيلسوف الفرنسي بايل في أول نسخة من قاموسه الصادر عام ١٦٩٦. وظلت صورة برونو على هذا الحال في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وحتى القرن التاسع عشر الذي رسم صورة برونو كشيطان رجيم. وفي أواخر القرن التاسع عشر، بدأ التغيير يطرأ على هذه الصورة القميئة، ثم ما لبثت أن تبددت مع قدوم القرن العشرين

---

(\*) أي حلول الله في الطبيعة Pantheism.

الذى اعتبره شهيد الكنيسة الكاثوليكية. ورغم أن صورة برونو فى جوهرها لم يطرأ عليها أى تغيير يذكر وأنه ظل متهماً بالإلحاد والإيمان بالمذهب المادى، فإن القرن العشرين استخدم هذه الاتهامات لتحسين صورته. ومن دلائل هذا التغيير أن إيطاليا أخذت بعد عام ١٨٧٠ تقيم له التماثيل فى نفس الموقع فى روما الذى أحرق فيه حياً؛ فضلاً عن إقامة التماثيل له فى جامعة نابولى رغم أنه لم يخف كراهيته لعلم الرياضيات، ورفضه إدخال هذا العلم فى بحوث الفيزياء. وبين الحط من شأن برونو وتمجيده، ظهرت أبحاث تاريخية تتسم بالموضوعية فى عقد الأربعينيات من القرن التاسع عشر، مثل البحث الذى نشره كريستيان بارثولوميو بين عامى ١٨٤٦ و ١٨٤٧ فى باريس، ومبحث آخر بالألمانية أجراه مورتيز كارير، وكلا الباحثين لا يخفيان تعاطفهما مع برونو. ومن المفارقة أن مثل هذه الأبحاث المنصفة لبرونو والمتعاطفة معه لم تظهر فى إيطاليا مسقط رأسه، بل ظهرت فى كل من فرنسا وألمانيا.

وفى عام ١٨٨٠، نشر الباحث البارز برتى وثيقته عن برونو. وتعتبر هذه الوثيقة حجر الزاوية فى كل سيرة حياة أجريت عنه. وقد قام فنسنزو سيامانتو بتقيحها وتذييلها وإعادة صياغتها فى كتاب حجة. وفى الفترة بين عامى ١٨٧٩ و ١٨٩١، تولى الباحث فرانسيكو فيورنتينو نشر أعمال برونو المؤلفة باللغة اللاتينية فى ثمانية مجلدات، يتضمن المجلد الثامن منها مخطوطات لم يسبق نشرها تم العثور عليها فى موسكو وبعض البلدان الأخرى. وأيضاً تولى جيوفانى جنتيل إعادة نشر كتبه المؤلفة باللغة اللاتينية الدارجة (أى الإيطالية) مرتين، إحداها فى عام ١٩٠٧ والأخرى فى عام ١٩٢٥.

وتوفر على دراسة مؤلفات برونو عدد من المؤرخين والفلاسفة وفقهاء اللغة، من بينهم : فيليبس توكو، وإيرمنيو ترويلو، وإيملى نامر، وليونارد ألستشيكى، وأوجستو جوزو كورسانو، وردولف موندولف، ولويجى سيكوتينى، وفرانسييس أ. بيتس، ودوروثى دابليو سنجر، وجيوفانى أكويلتشيا، وعلى الأخص ماجر أنجلو ميركاتى الذى نشر ملخصاً لقضية برونو يحتفظ به أرشيف الفاتيكان.

وكما سوف نشاهد فى الصفحات اللاحقة تنقسم سيرة حياة برونو إلى ثلاث مراحل يسهل على الباحث تمييزها، وتشمل المرحلة الأولى - وهى أطول هذه المراحل الثلاث - طفولته فى مدينة نولا وشبابه فى نابولى حتى اعتزاله الرهبنة. وتبدأ هذه الفترة بعام ١٥٤٨ وتنتهى بعام ١٥٧٦. وتشمل المرحلة الثانية التى تبدأ فى عام ١٥٧٦

وتنتهى فى عام ١٥٩١ رحلاته ومغامراته فى أرجاء أوروبا. أما المرحلة الأخيرة، فتبدأ برحلة عودته إلى إيطاليا وتنتهى بحرقه حياً، وهذه المرحلة الأخيرة تبدأ بعام ١٥٩١ حتى إحراقه عام ١٦٠٠.

ويمكننا أن نستشف من بعض كتاباته أنه فى فترة زهيبته فى الدير فى نابولي استبعد من حجرته صور القديسين واكتفى باستثناء الصليب منها. وبعد فراره من إيطاليا توجه - بناء على نصيحة البعض - إلى جينيف بسويسرا باعتبارها ملاذاً آمناً ليتضح له أنها بعيدة كل البعد عن التسامح العقائدى. وفى جينيف التحق بإحدى جامعات سويسرا؛ ولكن سرعان ما اختلف فى رأى مع بعض أساتذته؛ وخاصة أنطوان دى لافاي La Faye وعارضه بشدة فى نبذة مطبوعة. فهددته الجامعة فى أغسطس ١٥٧٩ بتوقيع أقصى عقوبة عليه. وزجت السلطات السويسرية به فى السجن ولم يُطلق سراحه إلا بعد أن تاب واستغفر وقام بتدمير جميع نسخ النبذة التى هاجم فيها لافاي، الأمر الذى دفعه إلى مغادرة جينيف واللجوء فى سبتمبر - أكتوبر ١٥٧٩ إلى مدينة ليون الفرنسية التى راقى له وعاش فيها نحو عشرين شهراً، وهى أطول مدة قضاها فى فرنسا، حتى أرغمته الحرب الأهلية على مغادرتها.

عقدت محاكمة برونو الأولى فى البندقية وخرج منها سليماً معافى؛ لأن المحكمة ترفقت به من ناحية، كما أنه اعترف بخطئه من ناحية أخرى. غير أن الأمور ما لبثت أن تعقدت عندما مارست الضغط على البندقية لطرد الراهب برونو المارق من أراضيها، فاضطرت البندقية - إرضاء للبابا كلمينت الثامن - إلى الرضوخ إلى رغبة روما وإلى تسليمه إلى محكمة التفتيش هناك. ومن المؤسف أن معظم أوراق الملف الخاص بمحاكمة برونو ضاعت فى الفترة من ١٨١٥ إلى ١٨١٧؛ ولكن من حسن الحظ أن أمين مكتبة الفاتيكان اكتشف بين الأوراق مخبئاً لهذه المحاكمة عام ١٩٤٠ فقام بنشره فى عام ١٩٤٢.

وأثناء استجوابه كشف برونو للمحققين عن تاريخ حياته، وقدم لهم ملخصاً لتعاليمه ومعتقداته. وفى بادئ الأمر حاور برونو محققيه وداورهم عندما وجد نفسه فى موقف صعب؛ ولم يجد غضاضة فى مهادنتهم تارة والاعتراف بخطئه وانحرافه عن جادة طريق الكنيسة الكاثوليكية تارة أخرى. وبمرور السنوات عبر عن توبته، لدرجة أن الكنيسة فى ديسمبر ١٥٩٨ فكرت فى استتابته وإعادته إلى حظيرتها؛ ولكنه ما لبث أن



تشبث بآرائه المارقة. وظل مصرًا على تشبثه حتى يوم إصدار الحكم عليه ليقول حكمته الشهيرة: «إنهم ربما يخشون إصدار الحكم على أكثر من خشيتي من سماع هذا الحكم»، وهو قول ينم عن منتهى الشجاعة والتحدى، في حين أنه كان في مقدوره أن يتجنب الموت لو أنه تراجع عن أقواله.

وحين وصل برونو إلى جنيف بسويسرا أثنى عاطر الشتاء على مارتن لوثر مؤسس المذهب البروتستانتي، وكاد أن يتحول إلى المذهب الكالفي.

مات برونو حرقاً وهو في الثانية والخمسين من عمره. وكان طبعه الناري سبباً في عنف عداواته وحدة عواطفه. ورغم خلفيته الكنسية، فإنه لم ينصرف عن ممارسة الحب بمعناه الحسي ولكنه رفض أن يصير عبداً لرغبات الجسد. ويخبرنا برونو في الوثيقة التي حررها ميركاتي أنه مارس الحب مع عدد لا بأس به من النساء كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ويبدو أن المفارقة استهوت، لدرجة أنه استخدمها في كثير من المناسبات وعلى نحو هازل وفكه أحياناً. ومن الواضح أن حب استطلاع ورغبته في الاستزادة من المعرفة كان عظيمًا دون أن يعنى هذا إيمانه بكل ما يقرأ، ويتضح لنا هذا بجلاء من قوله: «لقد قرأت أعمال فيلانشون ولوثر وكالفين وبعض المهرطقين الآخرين من أجل معرفة مذاهبهم وبدافع من حب الاستطلاع وليس بهدف الاقتناع بها، حيث إنني اعتبرهم أكثر جهلاً مني».

#### أثر برونو في الفلسفة

في عام ١٦٠٣، أي بعد وفاته بنحو ثلاثة أعوام، قام الكرسي البابوي في روما بحظر كتابات برونو. غير أن هذا لا يعنى أن الفلاسفة في أوروبا لم يطلعوا عليها، بل يعنى تجاهلهم له كحجة وعدم الاستشهاد بأقواله وكتابات، كما يعنى أن التثنية لها لآبد وأنه وجد مشقة في الحصول عليها لتدرة عدد نسخها المتداولة من ناحية، وارتفاع أسعارها من ناحية أخرى. ونحن نجد بعض الإشارات المبتسرة إلى برونو في نبذتين ألفهما كاتبان إنجليزيان معاصران له عن فن شحذ الذاكرة الذي اهتم به فيلسوفنا اهتماماً عظيماً، وقام بتأليف الكتيب الأول عام ١٥٨٤ باحث مجهول من كيمبريدج مهر كتابه بالحرفين الأولين من اسمه، وهما ج. ب. G. P. ناصب ج. ب. شديد العداء لأحد أصدقاء برونو اسمه ألكسندر ديكسون؛ ومن ثم فإن الكتاب يحمل عنوان: «الاعتراض على ديكسون». والكتاب مهدى إلى طبيب وفيلسوف ذائع الصيت آنذاك. يدعى

موفات معروف بمناهضته لمدرسة ديكسون وأتباعها، وهى المدرسة التى انتمى إليها برونو فى فترة بقاءه فى إنجلترا والتى سوف نذكرها فيما بعد بشيء من التفصيل . ويسخر مؤلف الكتاب من فن التذكر الذى كان برونو يزهو بإتقانه وسعة اطلاعه فيه، علمًا بأن مؤلفه واحد من أتباع راموس Ramus. ويلقى هذا الكتاب الأول الضوء على مدى كراهية برونو لراموس ومدى كراهية أتباع راموس لبرونو، وهى كراهية يصعب فهمها لوجود قسمات مشتركة تجمع بين هذين الفيلسوفين، فقد ناصب كلاهما أرسطو العداء. والهجوم الذى يشنه ج. ب. ينصب على مبحث ألفه ألكسندر ديكسون فى عام ١٥٨٣ وأهداه إلى إيرل ليستر. ولا شك أن الكتاب يتفق فى جوهره مع الأفكار التى أوردها برونو فى مبحث له ألفه عام ١٥٨٢. والجدير بالذكر، أن برونو استخدم شخصية ديكسون فى أحد حواراته؛ ويدل ذلك على أن برونو ترك بعض بصماته الثقافية على الفكر الإنجليزى. ويجدر بنا أن نشير إلى أن كتاب ديكسون محدود القيمة، وأن التاريخ طوى صاحبه فى طياته.

ويتحدث المؤلف الإنجليزى توماس واطسون عن برونو باحترام وشيء من الإعجاب، وذلك فى الإهداء الذى صدر به كتابه عن الذاكرة نحو عام ١٥٨٥ إلى هنرى نويل الذى كان واحداً من بلاط الملكة إليزابيث. ويتضمن كتاب توماس واطسون نفس الآراء عن شحذ الذاكرة التى سبق لبرونو وديكسون أن عبرا عنها.

كان الفيلسوف الإنجليزى فرانسيس بيكون فى لندن فى نفس الوقت الذى تمتع فيه برونو بالحظوة فى بلاط ملكة إنجلترا . كما حظى بعلاقات ودية مع عليّة القوم، أمثال النبيل ليستر والشاعر المعروف السير فيليب سيدنى. ولم يذكر بيكون فى كتاباته برونو سوى مرة واحدة، وذلك فى المقدمة التى صدر بها مبحثه «التاريخ الطبيعى والتجريب» ضمن كوكبة من المفكرين اعتبرهم بيكون من أهل الحداثة. ويبدو أن بيكون الذى كان وطيد الصلة بالأدب الإيطالى تأثر ببرونو؛ فهو يردد نفس فكرة برونو القائلة بأن الأجرام السماوية تتحرك فى أشكال حلزونية وليس فى دوائر كاملة الاستدارة. ويشبه بيكون برونو فى اهتمامهما بالسحر وإعجابهما بسفر أيوب فى الكتاب المقدس، باعتبار أنه كتاب يتضمن الكثير من أسرار الفلسفة الطبيعية. وكلاهما آمن بقول سليمان الحكيم بأنه لا يوجد جديد تحت الشمس، كما أن كليهما يرفض الانصياع للسلطة الفكرية ويعتبرها مجرد ترديد لمقولات قديمة دون إعمال العقل مثلما فعلت

الأجيال المتعاقبة بتوارثها للفكر الأرسطاطاليسى. ولهذا؛ رأى الرجلان ضرورة استبعاد سلطة الدين والإيمان عند إجراء البحوث العلمية أو الفلسفية؛ غير أن هذا لم يفض إلى تشكك بيكون في وجود الله كما هو الحال مع برونو. فضلاً عن أن الاثنين نهلا من فلاسفة الإغريق مثل أنكساموراس ولوسيبيوس وديموقريطس وبارمينيدس وإمبدوكليس وهراقليطس. ونحن نشاهد في كليهما الجمع بين الإيمان بأن الروح تسرى في أوصال الكون والنظرية الذرية في الطبيعة، وأن أفضل سبيل إلى فهم الظواهر الطبيعية هو التعبير عنها بمصطلحات رياضية. وكلاهما يؤمن بأن المادة في حالة تغير دائم؛ ولكن بيكون رفض الاقتناع بفكرة برونو التي أخذها عن لول Lully الخاصة بشحد الذاكرة.

والجدير بالذكر، أن نظريات برونو في الكون لفتت أنظار الأوروبيين إليها؛ ولكن الفكر الأوروبي تجنب إظهار أى تعاطف مع هرطقته. ولكن عالم الفلك المعروف كبلر Kepler (١٥٧١-١٦٣٠) تجرأ وشكا من أن الدييلوماسى الفيلسوف جاليلى تجنب الشاء على برونو. ورغم هذا ، فإن كبلر رفض الاقتناع بأفكار برونو الخاصة بلانهاية الكون؛ فضلاً عن أن كبلر ذهب إلى ثبات النجوم في مكانها داخل نظام المجموعة الشمسية فهي مثل بذر البرتقالة المستقر داخلها، كما أنه رفض فكرة برونو القائلة بأن كل نجم هو شمس في حد ذاته لها نظامها الخاص بها، وإن هناك سسلة لا تنتهى من الشموس في كون بلا نهاية.

وأيضاً آمن بفكرة برونو عن لا نهائية الكون مفكر فرنسى يدعى فانينى لقى مصيراً محتوماً عام ١٦١٩ في مثل قتامة مصير برونو. ويعتبر الفلاسفة ديكارت وجاسندى Gassendi على وجه الخصوص (١٥٩٢ - ١٦٥٥) وسبينوزا وليبنتز، أبرز الفلاسفة الأوروبيين الذين تأثروا بيرونو. سار ديكارت على خطى برونو في رفضه لأية سلطة مسبقة أو تحيزات فكرية قبلية، وضرورة الاحتكام إلى العقل وكسر ما يعوقه من أغلال. ويلمس الدارس في جاسندى الأثر الذى تركته فلسفة برونو التى تجمع بين الإيمان بحلول الله في الطبيعة والكون وبين المذهب الذرى العلمى، وذلك رغم خلو كتابات ديكارت من أية إشارة إلى سلفه الإيطالى.

ويعتبر الفيلسوف جاسندى من أكثر الناس تأثراً بيرونو. ومن المحتمل أن معارضة أرسطو كانت الشئ الذى يجمع بينهما من حيث إيمان كل منهما بالتجربة القائمة على

مدركات الحواس وبالنظرية الذرية. ولكن جاسندى رفض التسليم بصحة أفكار برونو عن واحدة الوجود وحلول الله فى كل شىء فى الكون، حتى ولو كان مجرد حجر.

ولعل أكثر الفلاسفة تأثراً ببرونو هو الفيلسوف سبينوزا. ويؤكد الباحثان سيجوارت وأفيناريوس أن مبحثى برونو «المبادئ» و «اللانهاية» كانا نصب عينى سبينوزا حين ألف مبحثه «الله والإنسان وبركته». ويعتقد البعض أن أستاذ سبينوزا المتحرر الفكر واسمه الدكتور فان دن إند هو الذى قام بتعريف سبينوزا بكتابات برونو. وعلى أية حال، كان سبينوزا يطالع باللغة الإيطالية. وهناك نقاط تشابه والتقاء بين برونو وسبينوزا، أبرزها إيمانها بوحدة جميع الأشياء فى الطبيعة والكون، فهى تتبع من نفس المصدر وتعود إليه. ويتم بحث سبينوزا الباكر عن الله والإنسان أنه فى باكورة حياته اقترب للغاية من الفلسفة الأفلاطونية الجديدة التى اعتتها برونو.

وأيضاً يعتقد أن الفيلسوف ليبنتز Leibniz من أكثر الفلاسفة الأوروبيين قرناً من برونو، فالاثان يريان أن الكون يتكون من منظومة من الحقائق المستقلة التى تختلف عن بعضها البعض؛ ولكنها فى الوقت نفسه تعكسه، أى أن أجزاء الكون المستقلة تحمل فى أحشائها خصائص الكون كله. غير أن فكرة برونو عن حلول الله فى الكون التى راقت لسبينوزا لم ترق فى عين ليبنتز. ويُظن أن التأثير الذى أظهره ليبنتز ببرونو لم يكن مباشراً أو نتيجة الاطلاع بنفسه على أعماله، بل جاء من خلال قراءته لأعمال سبينوزا. والجدير بالذكر، أن الباحث لاكروز اتهم ليبنتز فى خطاب يرجع تاريخه إلى عام ١٧٣٧ بأنه استقى كل فلسفته من كتاب برونو «الحد الأقصى والحد الأدنى».

والجدير بالذكر أيضاً، أن برونو ترك أثراً واضحاً على الأدبين الفرنسى والإنجليزى مثل مسرحيات الأديب الفرنسى موليير. وفى إنجلترا قام الأديب توماس كارو Thomas Caraw عام ١٦٣٤ بتأليف مسرحية أقنعة باللغة الإنجليزية لتقديمها فى بلاط شارل الأول ملك إنجلترا (الذى أطلق به كرومويل). وهذه المسرحية مأخوذة من كتاب برونو عن «الفضاء». ويقال إن الملك شارل الأول اشترك فى تمثيلها ولعب دور «الحقيقة» فيها. وفى المقال الذى كتبه بيير بايل Bayle فى قاموسه التاريخى الصادر عام ١٦٩٧ نراه يلطخ سمعة برونو، الأمر الذى أضر بسمعته قرناً كاملاً من الزمان متهماً إياه بالزندقة والإلحاد.

غير أن موقف جون تولاند Toland من برونو كان متعاطفاً وينم عن الاحترام. وقد ترك تولاند وراءه في مخطوطاته تلخيصاً لبحث برونو عن لا نهائية الكون؛ فضلاً عن أنه ترجم مقدمة هذا المبحث. علماً بأنه ظهرت في إنجلترا عام ١٧١٢ ترجمة إنجليزية لمبحثه عن الفراغ أو الفضاء اضطلع به دابليو مورهد.

ولكن إعادة الاعتبار الحقيقي لبرونو جاءت من ألمانيا. ويروى لنا الباحث بارثولوميو قصة رد هذا الاعتبار، ومن مظاهره أن الباحث هيومان دحض اتهام لاكروز له بالإلحاد وبأنه مهد الطريق أمام إيمان سبينوزا بمذهب حلول الله في الطبيعة، واصفاً إياه بأنه شهيد البروتستانتية اللوثرية. وكذلك أظهر بروكر العطف على برونو واصفاً إياه بالانتقاء في اختيار فلسفته، مضيفاً أنه استقى فلسفته أو انتقاها من كل من ديمقريطس وإبيقور وكوبرنيكوس وفيثاغورث. ودافع عنه قائلاً إنه ليس محتالاً أو نصاباً كما يقول شانتو، بل مفكراً شديداً الحماس لأفكاره.

ثم صدر خلال القرن الثامن عشر عدد من الأبحاث عن برونو سطرها كل من جوردان Jordan وكريستيانى Christiani وكندرفاتر Kindervater ولسمان Lessman ولوكهارد Lauckhard ، إلى جانب أدلونج Adelung الذي أفرد له مكاناً خاصاً في كتابه «تاريخ الحماقة البشرية» (١٧٨٥). وفي العام نفسه، أصدر ف. ه. جاكوبى خطابات عن فلسفة سبينوزا التي أعلى فيها من شأن كل من برونو وسبينوزا كفلاسفة عظام. وبطبيعة الحال وجد جاكوبى في مبحث برونو «المبادئ» ما يربطه بأسبينوزا. وأيضاً امتدح هامان Hamann، وهو صديق جاكوبى، فلسفة برونو وأعلى من قدرها، في حين أنه حط من قدر كانط، وأيضاً عبر جوته عن إعجابه بآراء برونو. واعتبره بوهل Buhle أولاً في كتابه «تعليق على نشأة وتقدم مذهب حلول الله في الطبيعة» (١٧٩٠) ثم في كتابه «تاريخ الفلسفة»، أهم المؤمنين بمذهب وحدانية الوجود (واحدية الوجود). وأيضاً أثنى تيمان Tennemann على فلسفة برونو؛ غير أن الباحث فولبورن Fulle-born انتقده في كتاب ألفه بعنوان: «إسهامات في تاريخ الفلسفة». وكذلك سار شيلنج Schelling على درب برونو فأمن بالمطلق، واعتبر هذا الفيلسوف أثيراً إلى قلبه.

ولم يظهر هيغل تحمساً كبيراً لفلسفة برونو، فهو يرى أنه من المبالغة أن نضع برونو في نفس مكانة سبينوزا. ورغم ذلك، فقد لعبت فلسفة هيغل دوراً مهماً في لفت النظر إلى الفيلسوف الإيطالى القادم من نولا، حيث إنها شجعت كريستيان



بارثولمس Bartholmess على تأليف كتابه «جوردانو برونو»، كما أن موريتز كاريير Mo-ritz Carriere ألف كتاباً آخر بعنوان : «فلسفة عصر الإصلاح الدينى». والذي لاشك فيه أن برونو لم يفلح فى تأسيس مدرسة فلسفية تتسبب إليه بسبب نهايته الفاجعة وحظر مؤلفاته لفترة طويلة، ورغم ذلك فقد أسهم بنصيب وافر فى ترسيخ عصر النهضة وتطوير الفكر وزيادة رفعة الحرية الفكرية.

انصرف الباحثون الإيطاليون فى القرن الخامس عشر إلى التقييب عن النصوص القديمة التى خلفها الإغريق، أمثال أفلاطون وأرسطو، والتى تمت ترجمتها وإعادة ترجمتها، إلى جانب الشعراء والمسرحيين والمؤرخين والخطباء الإغريق؛ بالإضافة إلى حشد من المؤلفين اللاتينيين أمثال لوكريشيوس وتاسيتوس وبلوتوس. حتى البابا نيكولاس الخامس اهتم بالتقييب عن الدراسات الإنسانية المتمثلة فى النحو والبلاغة والتاريخ والشعر والفلسفة الأخلاقية. ويشبه برونو فى دراسته المتعمقة لفلسفة أرسطو فلاسفة عصر النهضة المتخصصين فى مذهب أرسطو، ومن ثم فقد توفر مثل كاردانو Cardano وتليسيو Telesio وكامبانيلا Campanella على دراسة هذه الفلسفة بطريقته المستقلة. ولاشك أن تمرد برونو على سلطة أرسطو بوجه خاص وعلى السلطة بوجه عام، يرجع إلى حد كبير إلى انتشار نفوذ المذهب الإنسانى الذى ظهر قبله بما يقرب من قرن ونصف من الزمان، وهو مذهب أعلى فيما أعلى من شأن العقل وتمجيد حكمة الإغريق والإيطاليين القدامى. وكما قلنا، بلغ برونو حداً من الجرأة الفكرية جعله يثور فى وجه سلطة أرسطو بوجه خاص وأى نوع من السلطة بوجه عام. كان برونو فى الإطار العريض مؤمناً بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية؛ ولكن إيمانه بها كان مشروطاً بتحفظين، أولهما أن سيطرة الكنيسة فى مجال العقيدة والأخلاق تصلح للسوقة العاجزين عن توجيه أنفسهم، وثانيهما أن السلطة الكنسية العليا ينبغى أن تسمح له بحرية البحث والاستقصاء طالما أنه يؤمن فى الأساس بسلامة العقيدة المسيحية. وهو قول يبدو متناقضاً مع تصريحاته المنكرة لألوهية السيدة مريم وعذريتها.

ألف برونو حواراً المهم «جموح العشق» Eroici Furori تناول الباحثون علاقته بالأبحاث التى ألقت عن الحب الأفلاطونى فى نهاية القرن الخامس عشر وخلال القرن السادس عشر؛ فضلاً عن أنهم تحروا تعليقاته النثرية على سوناتاته وقصائده الأخرى. وعن طريق تحليل مبحث برونو عن العشق والغرام يمكننا أن نلمس بوضوح



الأثر العميق الذي تركته فيه مباحث الحب الأفلاطوني السابقة عليه، وهو الأمر الذي يصبغ مبحث برونو بصبغة الحب الأفلاطوني الذي يظهر في هذا المبحث أكثر مما يظهر في مباحثه اللاحقة.

ويؤكد الباحثون أن كتابات برونو تخلو من النظام، فهي عبارة عن شذرات متفرقة، الأمر الذي يدل على نهج صاحبها غير الأكاديمي؛ ولكنه يدل في الوقت نفسه على سعة اطلاعه الهائل. والغريب أن مروق برونو على الكنيسة لم يمنعه من الإشادة بوظيفتها التاريخية وأهميتها في تنظيم حياة الرعاع. وهو يمتدح القديس توماس الأكويني، في حين يهاجم البروتستانتى المتزمت كالفن. ورغم زعمه بأنه يؤمن بالكنيسة الكاثوليكية، فإنه يتخذ مواقف مناهضة لها وللمذهب البروتستانتى والدين اليهودى.

ولاشك أن عناده الهائل وتشبثه المذهل برأيه وبحرية الإنسان في التعبير عن رأيه، جعل منه رمزاً لحرية الاستقصاء والبحث الأكاديمي حتى يومنا الراهن. والجدير بالذكر، أنه تم طرده من الكنيسة ثلاث مرات (وليس مرة واحدة): مرة على يد الكنيسة الرومانية، وأخرى على يد الكنيسة الكالفينية وثالثة على يد الكنيسة اللوثرية. وما من بلد يحط فيه رحاله حتى يثير ضده عداوات ضارية، ففي مدينة جنيف السويسرية كتب نبذة أحصى فيها عدد الأخطاء التي وقع فيها درس واحد يعلمه البروفيسور دى لافاي، كما طرده عام ١٥٨٩ المشرف على الكنيسة اللوثرية في هلموستدت. وفي مدينة أكسفورد بإنجلترا أثار حفيظة أساتذتها بنشر كتابه عن الحمير والحميرية الذي سخر فيه من أسلوب الإنجليز في التعليم. ولعل الجامعة الوحيدة التي راقته وامتحها لتوافر الحرية فيها هي جامعة وتبرج، التي علم فيها الفلسفة من عام ١٥٨٦ حتى ١٥٨٨.

ويذهب بعض الدارسين إلى أن برونو نبذ اعتناقه للأفلاطونية الجديدة، غير أن هذا ليس بالأمر بالمؤكد نظراً لعودته إليها في وقت لاحق من حياته، مثل تعبيره عن الفلسفة الأفلاطونية الجديدة بشكل واضح لا يقبل الشك في كتابه «جموح العشق» الذي ألفه عام ١٥٨٥. وفي الجانب الآخر عبر برونو بجلاء عن عداوته للفلسفة الأفلاطونية في عدد من فقرات كتابه «جماعة الكابالا السرية التصوفية» (١٥٨٥)، كما عبر عن عدم اكتراثه بمذهب الزهد والتقشف في مبحثه «انتصار الوحش» (١٥٨٤). وإذا دل ذلك على شيء، فإنه يدل على عدم اتساق نظرة برونو الفلسفية.

ويشير ليوناردو أولتشكى إلى تناقضات برونو فى الكتاب الذى ألفه عنه، فى حين ذهب جنتايل Gentile إلى أن فلسفته تبشر بمولد عهد جديد. ويتحدث أنتونيو كورسانو عن وقوف برونو فى وجه كل من أفلاطون والمذهب الإنسانى، وهو أمر يثير الجدل.

قد يتساءل المرء عما خلفته أفكار برونو من أثر فى الأجيال المتعاقبة. وللإجابة عن هذا التساؤل نقول، إن الدراسات التقليدية القائمة على مذهب أرسطو الشائع فى القرون الوسطى انهارت بمجىء القرن السابع عشر وحلت محلها مبادئ العلم الحديث. وفى القرن السابع عشر، اقتنعت أحسن العقول بالفلك الذى ينادى بأن الشمس - وليس الأرض - هى فى وضع المركز. ولم يعد علم الفيزياء الحديث يقبل التفرقة أو التمييز بين العالم الأرضى وبقية الأجرام السماوية. وقد تعرضت آراء برونو الفلكية للنقد اللاذع خلال القرن السابع عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر. وفى عام ١٧٠٠، تعرض قسيس فرنسى اسمه أنطوان جويج Guigues بالنقد والتقريع لفرضية برونو القائلة بوجود شمس كثيرة تضىء العوالم الأخرى، وذلك فى مبحث نشره فى روما بعنوان: «مجال جغرافية السماء»، راميةً هذه الفرضية بقلة الأدب والحياء. ومن بين سيل الأصوات المعارضة على آراء برونو الفلكية ارتفع صوت الإيطالى جيوفانى كريفالى Crivelli الذى نشر فى البندقية عام ١٧٢١ مبحثاً بعنوان: «عناصر الفيزياء»، يهاجم فيه مذهب برونو المنادى بلا نهائية الكون وتعدد العوالم.

ولكننا نرى فيما ندر مقابل هذا الهجوم على برونو ثناء عاطراً أمطره عليه مؤرخ العلوم نويل ريجنولت Noel Regnault فى المبحث الذى نشره فى باريس عام ١٧٣٤ بعنوان: «الأصول القديمة للفيزياء الجديدة»، مشيداً بالدور الذى لعبه كل من برونو وديكارت فى تحرير العلم من ربكة التفكير القديم، سواء كان هذا التفكير أرسطاطاليسياً أو أفلاطونياً. غير أن العلم بمفهومه الحديث لم يقبل منهج أرسطو ومنهج برونو نفسه، فجاليلى وديكارت وليوناردو دافنشى ذهبوا إلى أن المعرفة الفيزيائية لابد أن تقوم على أساس الرياضيات.

وتعارض أفكار برونو عن الكون اللانهائى الذى يجسد لانهاية الله مع المذهب الأرسطاطاليسى. ورغم أن هذه الفكرة أقرب ما تكون إلى اللاهوت ولا يمكن للعلم الوضعى أن يقبلها، فإنها تتفق مع ما يذهب إليه علم الفلك الحديث الذى يرفض

الفكرة القديمة المنادية بانحصار الكون في مكان مغلق ومحدود . ورغم مناداة برونو بلانهاية الكون، فقد أوضح أن تجزئة المادة لها حدود وأن المادة لا يمكن تجزئتها إلى ما لا نهاية. فالذرات التي آمن بها برونو لها شكل وحجم معينان، رغم أنها أصغر الجسيمات الموجودة في الطبيعة. وبرونو في ذلك قريب الشبه ببيردى لا رمية de la Ramee في أن كلا منهما فصل فصلاً تاماً بين الرياضيات والفيزياء. فالرياضيات - على حد قول لارمية - تبحث فيما يمكن تجزئته أو تقسيمه إلى ما لا نهاية، في حين أن الفيزياء تبحث فيما له نهاية وفيما يمكن تجزئته أو تقسيمه. والجدير بالذكر، أن برونو كان يعتبر الرياضيات غير مفيدة ونوعاً من الاستغراق في الأحلام.

وحتى نوضح الفرق بين الفيزياء عند برونو والفيزياء عند جاليليو، نسوق أفكار كل منهما الخاصة بالعناصر المكونة للمادة والفراغ المحيط بهذه العناصر. فقد قال جاليليو إن مكونات جميع الأجسام المادية لا يمكن تقسيمها أو تجزئتها إلى ما لا نهاية، وإنها لا تحتل حيزاً كما أنها تشبه النقاط الهندسية ومن ثم فإنها غاية في الصغر، وإن هذه النهاية تمتزج عند الالتصاق ، ولهذا يمكن لعدد منها أن يتجمع دون أن يشغل حيزاً يمكن قياسه. أما برونو، فقد كان على العكس من ذلك يرى أن للعناصر المكونة للجزئيات حيزاً كامناً فيها . ومن ثم، فإن الفراغ المحدود ليس بمقدوره أن يحتوى على عدد لا نهائى من هذه العناصر. ولكن هذه الجزئيات مهما تلاصقت فإنها سوف تصبح كثيرة العدد للغاية بسبب دقة أحجامها وصغرها دون أن تكون كثرة العدد إلى ما لانهاية. وإذا حدث أن اتسعت هذه الكتلة المتلاصقة أو تمددت، فإن العناصر المكونة لها سوف تترك فراغات فيما بينها تزداد اتساعاً بمرور الوقت مثل هذه الفراغات الهائلة التي تظهر في المسافات بين النجوم.

والرأى عند برونو أن المادة، سواء أكانت أشياء أم ذرات أم أجراماً سماوية، تتسم بالسلبية والروح هي السبب في كل تحركاتها. وهو رأى يرفض العلم الحديث، وخاصة علم الميكانيكا، الاقتناع بصحته. فعلم الميكانيكا عند نيوتن يقبل الحركة كحقيقة واقعة، ولا يحاول من جانبه أن يرد الحركة إلى محرك أول أو الله بلغة أرسطو.

والجدير بالذكر، أن القرون المتعاقبة غمطت برونو مكانته وتجاهلت قيمته حتى جاء القرن التاسع عشر فرد إليه شيئاً من اعتباره. ومن دلائل التغيير الذى طرأ على موقف الكنيسة من علم الفلك أنها استمعت إلى نصيحة جاليليو لها بعدم التدخل في

المنازعات الدائرة بين علماء الفلك؛ ولهذا نرى الكنيسة عام ١٨٢٢ ترفع الحظر عن كتاب كوبرنيكوس الشهير عن دوران الأجرام السماوية بعد أن قامت بحظره عام ١٦١٦. ومهما كانت اعتراضات العلم المتقدم على النتائج التي توصل إليها برونو وعلى التناقضات التي شابت آراءه، فإن هذا العلم مدين بالفضل لكتابه «اللامحدود» الرافض لفكرة مركزية الأرض. ونظرًا إلى أن العلم في وقتنا الراهن مقطوع الصلة بمفاهيم برونو غير الدقيقة عن العلم، فإننا نجد الآن من يحصى الأخطاء العلمية التي تورط فيها برونو مثل لاسويتز Lasswitz الذي اتهم نظرة برونو العلمية بالإسراف في الخيال والبعد عن الواقع، وكذلك مثلما فعل مؤرخ علمي آخر هو فيليس توكو Felice Tocco.

ولعل حديث برونو عن لا نهائية الكون هو الشيء المؤكد الذي أضافه برونو إلى عالم المعرفة بمفهومها الحديث. وكذلك يدعم التطور في الميكروفيزياء موقف برونو الرافض لتجزئة المادة إلى ما لا نهاية، على عكس جاليليو الذي نادى بتقسيمها إلى ما لا نهاية. ويتجه العلم المعاصر إلى القول بفكرة وجود حد لتجزئة المادة، فالذرة وهي أصغر التجزئات أصبحت الآن تخضع للحساب والتجربة.

وفي الختام نعرض لرأي برونو القائل بأن روح العالم هي التي تبعث الحياة في مادة الكون، وهو الأمر الذي يمكن تفسيره اليوم بوجود طاقة داخلية كامنة في الذرة نتيجة وجود هذه الروح في كل الأشياء.

نادى برونو بوحدة الكون أو واحديته، وبأن هذه الواحدة تحتل مركز الروح. وبينى برونو نظريته الكونية على الحدس، وتميز بإحساس عميق بالوحدة التي يضعها في قلب الوجود. وظهر إحساسه الكاسح بالوحدة في مبحثه عن «السبب والمبدأ والوحدة»، حيث نرى ثيوفيلوس يدافع عن الوحدة قائلاً بوحدة كل شيء خاص بالمادة وفقاً لمفهوم الفيلسوف بارمنيدس وسلفه إكسنوفانيس وكذلك ميليسوس. ويذهب برونو في مبحثه عن السبب إلى القول: «من يجد الوحدة. وأعنى بذلك سببها. يكون قد حصل على المفتاح الذي يستحيل بدونه التأمل الحقيقي للطبيعة. وهو يصف هذه الوحدة بالبساطة والاستقرار والديمومة فهي وحدة أبدية، مؤكداً أن كل مظهر وكل وجه باطل وقبض الريح. فلا شيء يوجد البتة خارج هذه الوحدة».

وتتصف إشارات برونو إلى الوحدة بالأفلاطونية الجديدة أحياناً وفلسفة الفلاسفة السابقين لسقراط أحياناً أخرى. ومفهوم برونو عن الوحدة يتأرجح بين طريقتين لفهم هذه الوحدة وعلاقة الواحد بالعدد. ويعتبر برونو أن الوحدة هي الله، وأنها الكينونة الحقيقية وسبب الأسباب.

وفيما يتصل بوحدة الجوهر وتعددية الظاهر يرى برونو أن الوحدة لا تستبعد التعدد أو التنوع، بل تخفيهما في طياتها وتقوم بإنتاجها. وكما يقول نيكولاس كوسا، فإن الوحدة تتضمن التعددية وتشرحها. يقول كوسا في هذا الشأن: «إن الله يحتوى بداخله سائر الأشياء فكل الأشياء موجودة فيه وهو التطور لكل الأشياء، لدرجة أن الله نفسه موجود فيها جميعاً». يقول برونو في مبحثه «جموح العشق Eroici Furori»: «وإنه في بساطة الجوهر المقدس الذى يكمن فى كل شيء... حيث تتساوى جميع الخصائص، ومن الأفضل أن نقول إنها نفس الخصائص». وأيضاً يقول برونو في الحوار الخامس من مبحثه «السبب والمبدأ والوحدة»: «إن الوحدة بلا نهاية، وهى تشمل كل شيء». وفيما يتعلق بما نراه من تنوع واختلاف، فهذا مجرد منحى واضح ومختلف لنفس المادة. وإذا كانت الوحدة تشمل كل شيء، فإن التعدد رغم ذلك يظل موضوع التجربة الإنسانية. ومن التعدد الكامن فى الوحدة حتى التعدد الظاهر فى الكون نرى على الأقل تغيراً فى المنحى ينبغى على الفيلسوف أن يضطلع بوصفه.

يقول برونو فى الإهداء الذى صدر به مسرحية المشعل: «الزمن يزيل كل شيء كما أنه يعطى كل شيء»، فكل الأشياء تتغير ولا شيء يفنى. الوحدة فقط هى التى لا تتغير. هى فقط الخالدة». وترجع هذه الفكرة إلى الفلاسفة القدماء المؤمنين بالمذهب الذرى الذين يرون أن غير القابل للتجزئة أو التقسيم هو الأبدى. وأبيقور من أوائل دعاة هذا المذهب، ثم جاء لوكريشيوس ليردد نفس الفكرة التى انتقلت من خلاله إلى عصر النهضة، حيث تبناها برونو فى نظريته عن «الحد الأدنى». وقد عبر برونو عن هذه النظرية فى قصيدة نظمها باللغة اللاتينية. هذا الحد الأدنى فى رأيه هو أصل الوجود. وحين تتحلل الأشياء وينفك عقدها تعود إلى الحد الأدنى الذى يمثل العنصر الأساسى فى بناء الكون. يقول برونو فى هذا الشأن: «كل شيء ينشأ من الحد الأدنى، وكل شيء مهما بلغت ضخامته ينخفض إلى الحد الأدنى. هذا الحد الأدنى يمثل الوحدة؛ فضلاً عن أنه مصدر التعدد والأساس الذى ينبى عليه أى شيء لا نهائى فى ضخامته. وهو الحقيقة الوحيدة الدائمة فى التغير المستمر الذى يطرا على الأشياء؛ ومن ثم فإن الحد الأدنى هو اللبنة الأولى التى يتكون منها الحد الأقصى. ويتحدث برونو عن ثلاثة حدود دنيا فى هذا الكون، هى: الله والروح والذرة، وهى جميعاً حدود لا سبيل إلى الفصل بينها. ففى الكون، الذى يحل فيه الله لا يوجد شكل بلا مادة، كما أنه لا توجد مادة بلا شكل. ورغم ذلك، فإن هذه الحدود الدنيا الثلاثة يمكن تمييزها عن طريق التحليل وعن طريق التجربة المشتركة.



وأخيراً، يجدر بنا أن نؤكد أن برونو أظهر اهتماماً عظيماً بأبحاث رامون لال-Ram-on Lull (ولد نحو عام ١٢٣٢ وتوفي عام ١٣١٦) الخاصة بفن التذكر. وفي فترة إقامته في لندن سعى إلى توحيد فيزياء الأرض بفيزياء السماء، بحيث تشكلان صيرورة كونية واحدة. فضلاً عن أنه اهتم بتقصي أسباب الحروب الدينية والمنازعات اللاهوتية؛ فضلاً عن أن جميع كتاباته الباكورة واللاحقة على حد سواء تتم عن أن نظرته إلى الأشياء تقوم على السحر والاعتقاد بأن الحياة موجودة في كل شيء حتى الجوامد. وفي بحثه «عشاء أربعاء الرماد» La Cena de Le Ceneri المنشور عام ١٥٨٤ / ١٥٨٥، عبر برونو عن إيمانه بمذهب كوبرنيكوس في الأجرام السماوية، كما أنه بحث العلاقة المباشرة بين دورة الأرض السنوية حول الشمس ولا نهائية الكون. علماً بأن كوبرنيكوس نفسه الذي أنكر ثبات الكرة الأرضية ومركزية الشمس في الكون لم يناد بلا نهائية الكون، بل ترك هذا الموضوع معلقاً، في حين أن برونو في هذا المبحث أكد لا نهائية الكون ولا نهائية الأنظمة الشمسية الشبيهة بالنظام الشمسي الخاص بالأرض. وكذلك ألف برونو مبحثاً بعنوان: «حول دوران الأجسام السماوية» De re-volutionibus orbium Celestrium. وقد تأثر بالنظريات الفلكية التي وضعها العالم برناردينو تيليسيو Bernardino Telesio (١٥٠٩ - ١٥٨٨). ويختلف كوبرنيكوس عن برونو في أن اهتمامات الأول انصبّت على الرياضيات، في حين أن الثاني أولى الفلسفة الطبيعية اهتمامه.

ويدلنا مبحث برونو «ظلال الأفكار» De Umbris Idearum الذي ألفه في وقت باكر (١٥٨٢) على شدة اهتمامه باستجلاء فن التذكر وإقامة هذا الفن على أساس من السحر. واستقى برونو الكثير من أفكاره في هذا المبحث من كتاب لأجريبيا Agrippa يحمل عنوان: «حول الفلسفة الغامضة»، ويتم هذا المبحث عن تأثر برونو بالمذهب الذي شرحه مارسيليو فيسينو Marsilio Ficino في كتابه «اللاهوت الأفلاطوني». وهو مذهب يسعى إلى استجلاء «الروح العاقلة»، وهي روح تجمع بين روح العالم والروح الإنسانية. والرأى عند فيسينو أن الروح العاقلة تحتل مركز الوجود باعتبارها الصلة التي تربط بين العالم المحسوس والعالم القابل للفهم. وتمتد سلسلة الوجود بين نقيضين، هما: الفعل والصرف والقوة والصرف، أي بين الله والمادة الأساسية.



## سيرة حياته ومؤلفاته

### ونهايته المأساوية

عاش جيوردانو برونو Giordano Brune (١٥٤٨ - ١٦٠٠) معظم حياته شقياً وبائساً، محتقراً من الناس، يفتقر إلى الفطنة واللباقة الاجتماعية والكياسة الدنيوية. كما أن مسلكه غير العملي أقرب ما يكون إلى اللوثة والجنون. ورغم ذلك، فقد لعب دوراً بالغ الأهمية في إعادة صياغة الفكر الأوروبي إبان عصر النهضة في القرن السادس عشر. وقد وجدت أفكاره استجابة لها على وجه الخصوص، وأسهم الأديب البريطاني وليم جيلبرت (١٨٠٤ - ١٨٨٩) بنصيب وافر في التعريف به وذيوع اسمه في العالمين. ويعتبر توكو Tocco وفيورنتينو Fiorentino وبرتي Berti وبرنهوفر-Brunhho fer وماك إنتاير McIntyre ، من أول الذين تناولوا سيرة حياته. كتب على برونو الترحال والهيام على وجهه في ربوع أوروبا نحو ريع قرن دون أن يمكث في أي منها أكثر من عامين متصلين، عاد بعده إلى بلاده لتزج به محاكم التفتيش في غياهب السجون لمدة ثمانية أعوام بدأت بتقديمه إلى المحاكمة في البندقية وانتهت بإحراقه في روما في زنازنته. ولكن ترحاله المستمر لم يحل دون تأليفه العديد من الكتب والأبحاث. وكان من حسن حظه أنه تمتع بتشجيع بعض الحكام والنبلاء، على رأسهم شارل الثالث ملك فرنسا وإليزابيث الأولى ملكة إنجلترا. ومن المؤسف ضياع الكثير من الوثائق الخاصة بمحاكمته وسجنه. ولكن بعض هذه الوثائق اكتشفت في دار وثائق الفاتيكان في الفترة من ١٨٤٤ إلى ١٨٤٨، أي بعد انقضاء ما يقرب من قرنين ونصف على إعدامه.

وأول من ألف كتاباً عن جيوردانو برونو عام ١٨٦٨ هو الباحث الثقة دومينيكو برتى.

ولد برونو فى قرية نولا فى جنوب إيطاليا القريبة من بركان فوزيفيوس والموغة فى القدم، والتي يرجع تاريخها إلى القرن الثامن قبل الميلاد. ويبدو أن نولا كانت تربطها باليونان القديمة علاقات ودية وطيبة. وهى من أوائل الأسقفيات التى ظهرت فى العالم المسيحى إلى الوجود. ويقال إن القديس بطرس الرسول نفسه بشر بكلمة الله فيها. تمتع برونو منذ نعومة أظفاره بخيال غاية فى الخصوبة، فهو لا يكف عن البحث عن الرموز الكائنة فى أعماق الطبيعة التى آمن على نحو صوفى بوحدة وجودها، وهو أول من تحدث عن وجود حياة ذكية تسكن فى كواكب أخرى غير كوكب الأرض؛ وبذلك يكون قد سبق العلماء المعاصرين بأربعة قرون. كانت نولا مسقط رأسه أقرب ما تكون إلى النجى، فهى لا تحتوى على أكثر من خمسة بيوت شاع الإيمان بالخرعبلات بين سكانها؛ حتى برونو نفسه آمن بوجود الأرواح والعفاريت. ولم يفته أن يسجل بعض تفاصيل حياة أهل قريته بشئ من السخرية فيما سطره فى حوارات ألفها فيما بعد. وراقت له حقول نولا «الذهبية» فعبر عن عميق حبه لها.

تمتع فيلسوفنا منذ نعومة أظفاره بدقة الملاحظة، وكان فى طفولته ينظر من بعيد إلى بركان فيزوفيوس فيراه أجرد قاحلاً ومنفراً يخلو من الخضرة والأشجار. ثم ينظر إلى ما وراء هذا البركان فيرى قرية سيكالا زاهرة بكرومها النضيرة. وذات يوم اصطحبه والده إلى مكان البركان فراعته منظر الخضرة النضيرة والأشجار الوفيرة تكسو منحدرات البركان، فى حين بدت له سيكالا بعيدة مظلمة. وفيما بعد علق برونو على هذه التجربة بقوله: «أصبحت أدرك للمرة الأولى ما تتطوى عليه العين من خداع بصرى». وبذرت هذه التجربة بذور الشك فى نفسه فلم يعد يعرف الأساس الذى يمكن بناء أى يقين عليه.

ويحتمل أن يكون برونو فى شبابه قد عرف الشاعر لويجى تانسيلو Luigi Tansillo (١٥١٠ - ١٥٦٨) عن كثب وتأثر فى شعره بأسلوبه. وقد انحدر تانسيلو من نولا مسقط رأس فيلسوفنا. وتعالج المسرحية التى ألفها برونو بعنوان: «حامل المشعل» شخصية تانسيلو. وكذلك نجد معالجة لهذه الشخصية فى كتابه «جموح العشق»؛ فضلاً عن أنه يقتطف من قصائد تانسيلو بعض الأبيات. ويبدو أن أشعار تانسيلو الغنائية

الجميلة تركت في نفسه أعمق الأثر. وأيضاً من الجائز أن يكون برونو قد تعرف على شعر الشاعر لودوفيكو أريوستو Ludovico Ariosto (١٤٧٤ - ١٥٢٣).

وفي نحو الحادية عشرة من عمره، سافر برونو إلى نابولي حيث توفر على دراسة العلوم الإنسانية والمنطق والديالكتيك. وأغلب الظن أنه عاش في نابولي التي تعلم فيها اللاتينية والفلسفة وشيئاً من الإغريقية في كنف عم يشتغل بصناعة النسيج. وداوم على حضور محاضرات فينسنز كول Vincenze Colle في سارتو، كما أنه تلقى دروساً خصوصية في المنطق على يد راهب أوغسطيني من نابولي يدعى توفيلو دي فيرانو Teofile de Varano.

لم يكن اسم برونو الأول جيوردانو، بل كان اسمه الحقيقي فيليبو Filippo. وفي عام ١٥٦٥، التحق فيليبو وهو في السابعة عشرة من عمره بدير القديس دومينيكو في نابولي. وأطلق عليه الدير اسم جيوردانو. وفي الدير اجتاز برونو فترة الاختبار وأقسم أن يكرس حياته لخدمة المسيح. غير أن حياة الرهبنة لم ترقه، فمسرحته «حامل الشعلة» تعطينا صورة بشعة لها. ويبدو أن قراءاته في الدير كانت مستفيضة وأنه توفر على الدراسات الكنسية المعتادة فدرس أعمال القديس توماس الأكويني الذي ظل يكن له عظيم الاحترام. ولاشك أنه استمد من مكتبة الدير معرفته الوثيقة بمعظم أعمال أرسطو، باستثناء مؤلفاته في علم الحيوان الذي لا نجد له أي صدى فيما سطره يراعه. فضلاً عن اطلاعه على شروح الفلاسفة الأرسطاطاليسية التي كتبها الشراح العرب واليهود، والمترجمة إلى اللغة اللاتينية. وكذلك طالع عدداً من المؤلفات الكلاسيكية مثل مؤلفات فيرجيل والفلسفات السابقة لظهور سقراط، إلى جانب شيشرون ولوسيان وسينيكا وأوفيد. وأغلب الظن أنه وجد على رفوف مكتبة الدير كتب ريموند لال ورياضيات إقليدس وبطلميوس. ورغم تملله من حياة الرهبنة، فقد تم تنصيبه قسيساً عام ١٥٧٢، وهو في الرابعة والعشرين من عمره. ولم يحل تنصيبه في سلك الكهنوت دون تأليف مقطوعة هجائية بعنوان: «فلك نوح». وبلغت به الجرأة أنه أهداها إلى البابا بيوس الخامس، الأمر الذي جعل البابا يستدعيه إلى روما للمثول أمامه. ولا بد أنه قرأ علم الفلك، حيث إنه كان يقوم بتدريس هذا العلم في بلدة تولى عام ١٥٧٦. وكثيراً ما نراه يستشهد في كتاباته بفقرات من كتابات أعلام الفلسفة الأفلاطونية الجديدة، ورغم معرفته الوثيقة بفلسفة أرسطو، فإنه أعلى من شأن

الفلسفة الأفلاطونية (التي ذاعت وانتشرت بين دعاة المذهب الإنساني آنذاك)، واعتبرها نوعاً من الحداثة والتجديد. ولاشك أن عصر النهضة ترك في برونو منذ البداية أثراً واضحاً فكتابات في علم الأخلاق تتم عن تأثره الواضح بالأساطير القديمة وما تحتويه من صور وأخيلة. وتدلنا محاكمته على سعة اطلاعه على كتابات المصلح الديني إيرازموس والتأثر بها. كان برونو إبان فترة رهبنته بالدير متميزاً في قدراته الدراسية. ففي عام ١٥٧١ أو نحو ذلك عندما كان في الثالثة والعشرين من عمره لفت الأنظار إلى نبوغه الدراسي، لدرجة أن البابا بيوس الخامس المتوفى عام ١٥٧٢، وكذلك المحقق في محكمة التفتيش الكاردينال ريبيا (١٥٠٤ - ١٥٧٧) استدعياه للحضور إلى روما لشرح وجهة نظره في بعض المسائل الدينية. وبلغ اهتمام البابا مبلغاً جعله يقبل منه إهداء كتابه «فلك نوح» إليه. غير أن مخطوطة هذا الكتاب آلت إلى الضياع. ولكن مقابله مع بابا الفاتيكان - كشأن كل علاقاته الأخرى - لم تؤت ثمارها بسبب ما شابها من توتر.

وكان من الطبيعي أن يجلب برونو على نفسه المتاعب حتى في فترة رهبنته في نابولي، فقد اعترف أمام محكمة تفتيش البندقية أن الدير هناك اتخذ ضده الإجراءات التأديبية مرتين: مرة لأنه نبذ صور القديسين، الأمر الذي أوحى بأنه يحمل لهذه الصور الاحتقار. ومرة أخرى لأنه نصح راهباً مستجداً أنه يقرأ كتاباً دينياً بالشعر بعنوان: «حياة الآباء القديسين» أن يلقي بهذا الكتاب ويلفظه ويطلع بدلاً منه كتاباً دينياً آخر هو «قصة آن والمتع السبع». والأدهى من هذا كله أن برونو وجهت إليه تهمة الدفاع عن هرطقة أريوس التي تنكر ألوهية المسيح. وبعد أن أمضى برونو أحد عشر عاماً في الدير استدعته الكنيسة إلى المقر الرئيسي للدير في روما، حيث علم أن فرع الدير في نابولي يعد ضده عريضة اتهام تتضمن احتفاظه سراً بكتابات المارق الديني إيرازموس في الدير، فقرر الهرب وخلع لباسه الكهنوتي وقطع كل صلة تربطه بالكنيسة.

والى جانب معرفته الوثيقة بفلسفة أرسطو، أظهر برونو اهتماماً شديداً واحتراماً فائقاً لمؤلفات الفلاسفة العرب في القرون العاشر والحادي عشر والثاني عشر من المشتغلين بالعلم الطبيعي. وكان ابن رشد على رأس اهتماماته إلى جانب ابن سينا والفزالي. وأيضاً توفّر برونو على دراسة أعمال آباء الكنيسة الكاثوليكية. وحمل

احتراماً لكتابات القديس توماس الأكويني على وجه الخصوص، وكذلك عبر عن إعجابه العظيم بالبرتوس ماجنوس الذى اعتبره يفوق أرسطو فى أهميته بسبب الكتاب الذى ألفه البرتوس عن تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب. ورأى فيلسوفنا فى اللغة العبرية التى حذقها هالة من السموق الصوفى.

عكف برونو على مطالعة فلسفة أفلاطون والفلسفة الأفلاطونية الجديدة التى ازدهرت فى الإسكندرية، والتى تولى فيكينو وزملاؤه ترجمتها، كما عكف على قراءة كتابات بلوتينوس المؤمنة بوجود عقل مطلق يتأمل ذاته الواعية بنفسها، والمؤمنة بأن روح العالم انبثق من هذا العقل. وأيضاً آمن برونو أنه رغم وجود أرواح فردية متفرقة، فإنها تجتمع جميعاً فى روح العالم وتسعى إلى العودة إليها والاتحاد بها. وعن طريق دراسة الأفلاطونية الجديدة تأثر برونو بمذهب فيثاغورث المتصوف، كما تأثر بالأفكار الصوفية التى اعتنقها هينريش كورنيليوس أجريبا (١٤٨٦ - ١٥٣٥)؛ وخاصة مبحثه «خواء المعرفة الإنسانية».

وفى مطلع شبابه توفر برونو على دراسة مؤلفات راهب مسيحي يدعى رايموند لول Raymond Lully (١٢٣٥ - ١٣١٥) الذى اعتبره مفعماً بالعبقرية المقدسة، والذى أطلق عليه فيلسوفنا لقب الدكتور المستتير. نبذ رايموند لول حياة المتعة والبذخ وفضل عليها حياة التقشف، ساعياً إلى إقناع المسلمين بالأفكار المسيحية. وقد تعلم برونو من هذا الداعية الصمود والتحدى والقدرة العجيبة على تحمل المكاره. خلف لول وراءه ٣٢١ مبحثاً فى جميع فروع المعرفة، من أبرزها مبحث يحمل عنوان: «الفن العظيم». أدار لول ظهره إلى الفكر المدرسى الذى شاع بين رجال الكنيسة الكاثوليكية فى القرون الوسطى، ودعا إلى أنه يمكن عن طريق استخدام العقل تأصيل الفكر المسيحى، الأمر الذى جعل جامعة باريس تناصبه العداء. وبالنظر إلى أن لول كان ينتمى إلى طائفة الرهبان الفرانسييسكان، فإن طائفة الرهبان المنافسة المعروفة بالدومينيكان استهجن أفكاره. ولهذا أصدر البابا جريجورى الحادى عشر عام ١٣٧٦ مرسوماً يدمغ أبحاثه بالهرطقة. ولكن البابا مارتن الخامس قام بإلغاء هذا المرسوم فيما بعد. غير أن مذهب لول تعرض للهجوم عليه فى وقت لاحق بعد مرور عامين على مغادرة برونو لمدينة نابولى. ويتضمن مبحث لول «الفن العظيم» الذى راق فى عيون أتباع فيثاغورث، الفلسفة الأفلاطونية الجديدة.

ويعترف برونو بالفضل إلى كوسانوس Cusanus أو نيكولاولوس كريفس المولود عام ١٤٠١ والمتوفى عام ١٤٦٤، الذي صار كاردينالاً وصديقاً حميماً للبابا بيوس الثاني. واعتبر برونو كوسانوس أحد أقوى العقول الفلسفية ووصفه بالرجل المقدس والمكتشف العظيم. حاول كوسانوس عقلنة اللاهوت، أى تفسيره على أساس عقلانى، كما سعى إلى تفسير الثالوث على أنه جوانب لله والكون تعتبر شيئاً واحداً. آمن كوسانوس بنسبية جميع المعارف. ولكنه رأى أن الإنسان يستطيع عن طريق الحدس الجمع بين المتناقضات فى كل واحد. وهو ما يفعله الله سبحانه وتعالى فى الكون، الأمر الذى جعل شائيه يتهمون به بالإيمان بوحداية الوجود، أى الإيمان بحلول الله فى جميع مفردات الكون. وهو ما آمن به برونو نفسه الذى أخذ عنه الاعتقاد بأنه يمكن تفسير الكون ولو جزئياً بطريقة علمية، عن طريق تطبيق علم الرياضيات على نتائج التجربة. وأغلب الظن أن كوسانوس هو الذى لفت نظره إلى أن الكون اللانهائى يتكون من عوالم لا يمكن حصرها، ورغم أن الأسلوب العلمى آنذاك لم يكن قد نضج بعد فقد بذل كوسانوس منذ عهد الإغريق أول محاولة لتفسير الكون على أساس علمى، ففى عام ١٤٣٦ صرح بأن الأرض متحركة وليست ثابتة.

وأيضاً تأثر برونو بأبحاث عالم الفلك المعروف نيكولاولوس كوبرنيكوس (١٤٧٣ - ١٥٤٩) الذى ذهب إلى أن الأرض تدور حول الشمس. وأغلب الظن أن الدير الذى كان برونو يعيش فيه كان يحتفظ فى مكتبته بنسخة من كتاب كوبرنيكوس الذى نصحه أصدقائه أن يهديه إلى البابا بولس الثالث، بعد أن كتب قسيس مدينة نورنبرج أوسيانور احتجاجاً على أن الكتاب لا يمثل الحقيقة، ولكنه يقدم إلى قارئه حسابات فلكية أكثر دقة من الحسابات الفلكية الماضية، ويرفض الاعتماد على نتائج علم الفيزياء الأرسطاطاليسى القائم على مدركات الحواس التى تشكك برونو فى صدقها. وقد ناصبت الكنيسة الكاثوليكية العداء نظراً لكوبرنيكوس الفلكية المنادية بأن الأرض تدور حول الشمس، وأنها ليست مركز الكون حسب تقدير الفلك البطلميوسى.

وطالع برونو الكتاب الذى ألفه برناردينو تيليسيو Bernardino Telesio (١٥٠٩ - ١٥٨٨) بعنوان: «طبيعة الأشياء»، ويدعو كاتبه إلى الاعتماد على العقل والحواس معاً فى ملاحظة ما يدور حولنا. كما أنه طالع كتابات جيرولامو كاردانو Girolamo Cardano (١٥٠١ - ١٥٧٦) الذى أعلى من شأن البحث والاستقصاء فى العلوم الطبيعية.



فضلاً عن تأثيره بأوريول ثيوفراست باراسيلسوس Aureol Theophrast Paracelsus (١٤٩٠-١٥٤١) الذى سعى إلى تحليل التكوين الكيميائى للأشياء من منطلق الإيمان بأن سائر المخلوقات تتبثق من روح العالم.

وقد أظهر برونو اهتماماً عظيماً بعلم الرياضيات واستوعبه وأضاف إليه ولكن إضافاته كانت خاطئة، ويبدو أنه اكتسب معظم محصلته العلمية فى الفترة الهادئة من حياته التى قضاهـا فى نابولى قبل أن يضطر إلى التجوال والترحال.

سنوات التجوال الأولى فى حياة برونو (١٥٧٦-١٥٨١)

بعد أن أمضى برونو أحد عشر عاماً كراهب فى الدير، بدأ يتجول من بلد إلى آخر طريداً وشريداً دون مأوى بسبب صراحته التى تغضب وطبعه النارى الذى يؤلب الآخرين ضده. وأمضى فى تجواله ستة عشر عاماً قبل الزج به فى السجن. ألف برونو كتبه الكثيرة وهو بين الثامنة والعشرين والرابعة والأربعين، وهى الفترة التى شهدت تفتحه ذهنى وتوقده العقلى. والجدير بالذكر، أن برونو عاش فى فترة بدأ العلم فيها يستقل عن الفلسفة وينسلخ من عباءتها، بعد أن كانت الفلسفة منذ القدماء تضم تحت جناحيها كافة العلوم.

وفى ترحاله أقام برونو لأول مرة فى مرفأ نولى الصغير الواقع فى أراضى جنوة. ولعل اسم هذا المرفأ راق له؛ لأنه ذكره باسم نولا مسقط رأسه. وهناك أمضى نحو أربعة شهور يعلم الفلك لبعض الدارسين من الطبقات العالية ويعلم علم النحو لعدد من الصبية. ويبدو أنه لم يكن موفقاً فى ممارسة التدريس النمطى والتقليدى بسبب جموح عواطفه ونفاد صبره، وجنوحه إلى الخيال والتجائه إلى استخدام الرمز للتعبير عن نفسه. ولكن الدارسين الذين يتوقون إلى تلقى المعارف الجديدة التى بزغت فى عصر النهضة، وجدوا فيه معلماً ملهماً يتنقل جائلاً من مدينة إلى أخرى.

ثم شد برونو رحاله إلى ساحل سافونا حيث عاش فيها لوقت قصير، توجه بعدها إلى مدينة تورين ليسافر بعد ذلك إلى البندقية، ويبدو أن الكنيسة الكاثوليكية - آنذاك - لم تكن بعد قد طردته من الكنيسة. وفى البندقية حصل من الراهب الدومينيكانى وميجيو نانينى فيورنتينو على إذن بنشر أحد مؤلفاته بعنوان: «علامات الأزمنة» الذى ضاعت أصوله. ونحن لا نعرف عن حياته فى البندقية غير النزر اليسير، فكل ما نعرفه أنه عاش فى ميدان القديس مرقص فى وسط هذه المدينة.

ثم سافر من البندقية إلى مدينة بادوا حيث قابل بعض زملائه من الرهبان الدومينيكان الذين جثوه على العودة إلى ارتداء ملابس الرهبنة. وعلى الرغم من ذلك، فإن أحداً منهم لم يشجعه على المكوث معهم. ولعلمهم كانوا يخشون الاتصال به ويتجنبون خطره. ثم شد رحاله شمالاً إلى مدينة برجامو، حيث عاد إلى ارتداء ملابس الرهبنة التي سبق أن نبذها. وبعد ذلك اجتاز جبال الألب متجهاً إلى أوروبا تاركاً إيطاليا وراءه. وذهب إلى مدينة تشامبرى حيث استقبله الدير الدومينيكانى بالحفاوة. ولكن هذه الحفاوة ما لبثت أن تلاشت فرحل إلى مدينة ليون الفرنسية. وفى عام ١٥٧٩، وطأت قدمه أرض جينيف بسويسرا، حيث رحب به الماركيز فيكو الذى اعتاد تقديم كل ما فى مقدوره من مساعدة إلى الطليان المهاجرين من بلادهم إلى جينيف والمنشقين على الكنيسة الكاثوليكية المعتقدين للمذهب البروتستانتي المتشدد المعروف بالمذهب الكالفينى. وفى أثناء محاكمته فى البندقية بعد ذلك بأكثر من اثني عشر عاماً، ذكر برونو كيف أن الماركيز الذى استضافه ثم غدر به كان يظن أنه قد تحول إلى المذهب البروتستانتي. غير أنه أوضح لهذا الماركيز أنه لا ينوى التحول إلى البروتستانتية، وأضاف أنه يرغب فقط فى أن يعيش فى جو من الحرية والأمان. ومن الواضح أن الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت كان خارجاً عن دائرة اهتماماته الفلسفية. واعترف برونو أثناء محاكمته بأن الماركيز سعى إلى حثه على خلع ملابس الرهبنة. ورغم كل ما قيل عن جنوح برونو إلى المذهب البروتستانتي، فليس هناك دليل على ذلك. ولكن لاشك أنه استراح لأفكار المصلح الدينى إيرازموس الذى توفر على قراءة كتبه المحظورة فى دير نابولى. اعتاد برونو استعداء رجال العلم والدين معاً، وفى مايو عام ١٥٧٩ سجل اسمه فى جامعة جينيف؛ غير أنه بحلول شهر أغسطس من نفس العام نراه يشن هجوماً قاذعاً على صديق حميم لرئيس الجامعة يعمل أستاذ فلسفة مرموقاً فى هذه الجامعة ومترجماً متبحراً للكتاب المقدس يدعى أنطوان دى لافاتى، دون أن يراعى صداقة أنطوان العميقة لرئيس الجامعة. ولم يتورع برونو عن إبراز نحو عشرين خطأ ارتكبه هذا الأستاذ المرموق فى إحدى محاضراته.

وجاءت النتيجة كما كان متوقفاً، فقد تم إلقاء القبض على برونو وعلى المطبعجى الذى نشر نبذته عن الأستاذ الجامعى. ودافع المطبعجى عن نفسه بقوله، إن الراهب الذى كلفه بالعمل ضلله. ومن ثم وقعت عليه غرامة ضئيلة. أما برونو، فقد اعتذر عن انتقاداته للأستاذ ورغم ذلك فقد أحيل إلى هيئة لاهوتية لمحاكمته. فاحتج على هذه

المحاكمة بقوله إن قساوسة الكنيسة في جينيف مجرد مدرسين لا أكثر ولا أقل وإنهم أساءوا فهم كتاباته، الأمر الذي أثار حفيظة رجال هذه الكنيسة عليه. فحكمت عليه بحرمانه من حق إقامة الطقوس والشعائر الدينية، فالتمس من المسؤولين إلغاء هذا الحكم. ورغم أنهم استجابوا إلى طلبه، فقد شعر بأن جينيف لم تعد مكاناً آمناً للعيش فيه.

عندئذ فكر برونو في الرحيل إلى فرنسا حيث جرب العيش في مدينة ليون التي كانت - آنذاك - مركزاً مهماً من مراكز صناعة الكتاب. ولكنه عجز عن أن يجد وسيلة لكسب الرزق هناك. وأخيراً انتهى به المطاف إلى تولوز التي عمل فيها محاضراً في علمي الفلك والفلسفة نحو ثمانية عشر شهراً. وكانت فرنسا - آنذاك - على أعتاب حرب دينية بين الكاثوليك والبروتستانت الذين اتخذوا من تولوز قلعة لهم. وقد بلغ هذا الصراع الديني ذروته عام ١٥٧٢. ولكن الفترة من ١٥٨٠ إلى ١٥٨١ (وهي الفترة التي زار فيها برونو مدينة تولوز) شهدت هدوءاً نسبياً. وعندما خلت وظيفة أستاذ فلسفة في جامعة تولوز تقدم برونو لشغلها. وجرت العادة - آنذاك - أن يختار طلبة جامعة تولوز الأستاذ الذي يتولى تعليمهم. وبعد حصوله السريع على درجة الدكتوراه في اللاهوت، راق برونو في عيون هؤلاء الطلبة فاخثاروه معلماً لهم. وفي جامعة تولوز ألقى برونو سلسلة من المحاضرات عن فلسفة أرسطو التي ألف عنها كتاباً انتهى أمره إلى الضياع. غير أن الحرب الأهلية اندلعت من جديد، الأمر الذي اضطره إلى الرحيل عن تولوز ومواصلة حياة التجوال.

## زيارة برونو الأولى إلى باريس

(١٥٨١ - ١٥٨٣)

عندما قام برونو بأول زيارة له إلى باريس في الفترة من ١٥٨١ إلى ١٥٨٣ - حيث اضطلع بإلقاء ثلاثين محاضرة عن صفات الألوهية الثلاثين التي حدثا عنها القديس توماس الأكويني - أصاب على الفور نجاحاً عظيماً. واشتهر برونو بذاكرته القوية التي ليس لها نظير ووصلت أخبار حافظته الفولاذية إلى مسامع الملك هنري الثالث. وذكر برونو بعد عودته إلى البندقية أن هذا الملك استدعاه للاستفسار عن ذاكرته الرائعة وهل هي شيء طبيعي، أم عمل من أعمال السحر الذي شاع الإيمان به آنذاك. والجدير بالذكر، أن تهمة الاشتغال بالسحر التي وجهت إلى برونو كانت أحد الأسباب في إنهاء حياته على نحو فاجع. وقبل الملك هنري الثالث أن يهديه برونو أول كتبه التي نجت من الاندثار، وهي بعنوان: «حول ظلال الأفكار». ويتضمن هذا الكتاب دعوة إلى الأفكار الأفلاطونية التي تنادى بأن الظواهر المادية ليست سوى ظلال للحقيقة. ولم يكن بالإمكان تعيين برونو في جامعة السوربون، خوفاً من إثارة غضب السلطات الدينية عليه. ولكن الملك تمكن من إلحاقه بإحدى الكليات الأخرى.

ومما لا شك فيه أن الملك ساعده على الاستقرار في باريس وسهل له نشر مؤلفاته الباكرة أثناء إقامته هناك. وفي باريس أصبح النبيل التشيكي جون فوستتر مريداً له. وبعد مرور خمسة عشر عاماً على وفاة برونو، رأت مذكرات هذا المريد عنه طريقها إلى النشر في مدينة برييج في سيلسيا. غير أن هذا الكتاب ضاع؛ ولكن ذكره ورد في كتالوج للكتب يتضمن إشارة إلى تأثير مؤلفه بأفكار رايموند لول.

ثم نشر برونو مجلدًا ثانيًا بعنوان: «أغنية سيركى»، تناول فيه عمل الذاكرة التي يسميها «الذاكرة الفضائية». وقد أهدى برونو كتابه هذا إلى هنرى فالوا دوق أنجوليم. ووقع على الإهداء مستشار الدوق جين ريجنولد الذى قال إن المؤلف عهد إليه باستكمال اللمسات الأخيرة فى الكتاب، كما أضاف أن المؤلف اضطلع بتأليف كتاب آخر عن الذاكرة أهداه إلى الملك. فضلاً عن أن المستشار جين ريجنولد قدم برونو إلى صديق له هو جون مورو (سفير البندقية لدى ملك فرنسا) الذى أهداه برونو مجلدًا آخر بعنوان: «البناء الكامل للفن اللوليانى» (نسبة إلى الفيلسوف لول الذى سبق أن أشرنا إليه). ثم أصدر برونو العمل المسرحى الذى يحمل عنوان: «حامل المشاعل»، تناول فيه أيضاً الذاكرة ومنطق الفيلسوف لول، وكتب عليه أنه من تأليف برونو المولود فى نولان وغير المتخرج فى أية أكاديمية والشهير باسم «المزعج»، وهو اسم يبدو أنه أصبح كنيته. كما أنه أطلق على نفسه «الفرحان فى وقت الحزن والحزين فى وقت الفرح». وتتضمن هذه المسرحية كراهيته المشبوبة للنفاق فى الأخلاق والدجل فى العلم. ومن ثم، فهى تؤذن بيزوغ فلسفته الجديدة ونظرته الأخلاقية الجديدة. وأيضاً تتضمن المسرحية تجربته فى حياة الأديرة وملاحظاته عن الجامعات التى زارها. ورغم أن إقامته فى باريس لم تشهد ظهور أى من أعماله الفلسفية المهمة، فلا بد وأن المذهب الأفلاطونى كان يختمر فى ذهنه. ويبدو أنه كان من المؤكد أنه استمع إلى محاضرات بيتر دى لا رامى الذى هاجم فلسفة أرسطو بشدة، والذى مات فى مذبحة عام ١٥٧٢. ويصفه برونو بأنه ذلك الرجل المتحذلق الذى طبق الفكر المدرسى (أو السكولاستى) الخاص بالعصر الوسيط على الفنون الحرة.

كان لويس لى روى (المتوفى عام ١٥٧٧) الذى تولى رئاسة قسم اللغة اليونانية القديمة فى كولييج دى فرانس، والذى ذاعت تعاليمه أيام إقامة برونو الأولى فى باريس ناقدًا وكاتبًا يشار إليه بالبنان، واشتهر لى روى بالتشبع بأفكار عصر النهضة المدافعة عن التسامح والداعية إلى الأخوة الإنسانية. وتأثر برونو بشكل واضح فى دعوته إلى الأفكار المتحررة والمتسامحة فى الدين والفلسفة بالكتاب الذى نشره لى روى عام ١٥٧٠ والمهدى إلى الملك هنرى الثالث بعنوان: «دعوة إلى العيش فى سلام». وأيضاً ألف روى كتاباً آخر أثار ضجة كبيرة فى وقته بعنوان: «اثنا عشر مبحثاً عن التغير الذى يحدث فى الكون»، وتعطينا المباحث الأحد عشر الأولى من هذا الكتاب عرضاً فلسفياً لحركة التاريخ. وأوصى لى روى فى الكتاب الثانى عشر بضرورة تسجيل منجزات

الحضارة حتى لا تتعرض للانحطاط بسبب الحروب. والرأى عند لى روى أن التقاضيات تخلق فى كل مكان نوعاً من التوازن. وعلى الرغم من أن برونو قبل أفكار أرسطو عن حركة الأفلاك السماوية، فإنه آمن بفكر أفلاطون المتمثل فى أن العالم يفنى نفسه ثم يقوم باستحداث مخلوقات جديدة من المخلوقات القديمة. فضلاً عن أنه يحدثنا عن نسبية المكان عندما نصف الأشياء بأنها أعلى أو أوطأ. ومن المحتمل أن برونو قابل جين بودين (١٥٣٠ - ١٥٩٦) الذى توطدت صداقته بعض الوقت مع هنرى الثالث، الذى تغاضى عن أفكاره الهدامة التى تذهب إلى أن السيادة هى سيادة الشعوب، وليست سيادة الملوك والحكام. ويبدو أن الأوساط الأدبية - آنذاك - اهتمت بمناقشة كتاب مهم ألفه بودين عام ١٥٩٩ بعنوان: «فن الحديث عند سبعة رجال يعتقدون مختلف الأديان».

غير أن إقامة برونو فى باريس لم تدم إما بسبب اللفظ الذى ثار حول مسرحيته «حامل المشعل»، أو بسبب اندلاع الحرب الأهلية فى فرنسا. ويمم برونو شطر إنجلترا التى عرفت سلفاً مدى خطورة أفكاره. وفى ٢٨ مارس عام ١٥٨٢، كتب السفير البريطانى فى باريس يحذر من خطره بقوله: «يعتزم الدكتور جيوردانو برونو النولانى أستاذ الفلسفة الذى لا يمكننى امتداح آرائه فى الدين، الحضور إلى إنجلترا».

#### برونو يذهب إلى إنجلترا فى الفترة من ١٥٨٣ حتى ١٥٨٥

عندما وطأت أقدامه أرض إنجلترا كان برونو يحمل خطابات توصية مرسلة إلى سفير فرنسا فى العاصمة البريطانية، ميتشيل دى كاستلنو ماركيز موفيسيير (١٥٢٠ - ١٥٩٢). ورغم احتدام الصراع فى فرنسا بين الكاثوليك والهييجونوت (أى البروتستانت)؛ فإن هذا الماركيز اشتهر بتجاوزه للصراعات الدينية المتفاقمة. وفى لندن تميزت حياة برونو بالدعوة إلى التسامح الدينى. والجدير بالذكر، أن إنجلترا - آنذاك - كانت ملاذاً آمناً لبرونو وأمثاله من المتحررين والمستيرين. وقد وفرت معيته للسفير الفرنسى فى إنجلترا فرصة الالتقاء بصفوة المجتمع الإنجليزى من الفلاسفة والعلماء الذين دارت مناقشاتهم فى جو من الحرية. وفى تلك الفترة صارت إنجلترا ملاذاً آمناً لكل المضطهدين فى بلادهم لأسباب دينية، فلا غرو إذا رأيناها تكتظ بالمهاجرين القادمين من أرجاء القارة الأوروبية بهدف إنشاء المصانع. وقد بلغ عدد المهاجرين فى تلك الفترة إلى إنجلترا من هولندا وحدها نحو ثلاثة آلاف مهاجر. وأدت الحروب الدينية التى اندلعت فى فرنسا بين الكاثوليك والبروتستانت إلى كثرة



المهاجرين الطليان والقاطنين في فرنسا إلى إنجلترا. وقد نزح إلى لندن وحدها ما لا يقل عن ٦٧٠٤ أجنبي، حيث تمتعوا بحرية العبادة. ومما شجع الطليان على الهجرة إلى إنجلترا أن ملكة إنجلترا رحبت بهم وتحديث بلغتهم أمام حاشيتها.

وقبل أن يستقر برونو في لندن حدثت مشاكل بينه وبين بعض الأساتذة في جامعة أكسفورد، التي كانت - آنذاك - من أشد الجامعات محافظة واتباعاً لمذهب أرسطو. ومن الجائز أن رئيس هذه الجامعة إيرل ليستر احتفى برونو، فقد درج على الحفاوة بالإيطاليين المقيمين في إنجلترا. والجدير بالذكر، أن إيرل ليستر هو عم الأديب الإنجليزي الشهير السير فيليب سيدني، وأنه كان ينتمي إلى نفس الدائرة التي كان برونو يتحرك فيها. وربما كان جون فلوريو سكرتير موفيسيير السبب في تقديم برونو إلى المسؤولين في جامعة أكسفورد العريقة.

كان جون فلوريو صديقاً حميماً لبرونو، وكان أبوه ميشيل أنجلو فلوريو واحداً من اليهود الطليان ممن تحولوا إلى الدين المسيحي. انضم ميشيل إلى طائفة الرهبان الفرنسيين، غير أنه سرعان ما نبذ حياة النسك والرهبنة وفر هارباً من إيطاليا ليجد ملاذاً آمناً في إنجلترا، حيث اعتنق الملة البروتستانتية وحيث اكتسب صداقة اللورد بورجلى. وهناك تم تعيينه واعظاً للإيطاليين المترددين على الكنيسة البروتستانتية. أنجب ميشيل ابنه جون (١٥٥٣ - ١٦٢٥) على أرض إنجلترا، حيث توثقت أواصر الصداقة بينه وبين برونو. وتميز جون فلوريو بالقدرة على التأليف باللغتين الإيطالية والإنجليزية. ورسم في كتاباته صورة لشخصيتي اثنين من الأساتذة في جامعة أكسفورد أطلق عليهما اسمى توركوواتو ونوندينيو، وهما الشخصيتان اللتان سخر منهما برونو سخريه لاذعة في أول مبحث فلسفي قيض له أن ينشره في إنجلترا بعنوان: «عشاء أربعاء الرماد» (١٥٨٤)، ثم ألف في عام ١٥٩٨ قاموساً عظيم الفائدة إيطالياً - إنجليزياً. وأيضاً كان فلوريو صديقاً حميماً لكل من الأدبيين الإنجليزيين المرموقين رالى وسيدنى اللذين تلقيا تعليمهما في جامعة أكسفورد، واللذين ربطتهما الصلة الجيدة بجيوردانو برونو.

وتعتبر ترجمته الإنجليزية لمقالات الفيلسوف الفرنسي الشكاك مونتاني من أهم الأعمال التي اضطلع بها فلوريو. والمعروف أن مونتاني ينحدر من أصل يهودى شأنه في ذلك شأن فلوريو، وأنه زار إيطاليا وعاش فيها في رغد ورفاهية. ولا ريب أن برونو

تأثر تأثراً واضحاً بفلسفة مونتاني ونظريته إلى الطبيعة. ومن المحتمل أن يكون فلوريو هو الذى عرف برونو بمدينة أكسفورد. ويحتمل كذلك أن يكون المهاجر الإيطالى البارز إلى إنجلترا البيريكوس جنتيليس (١٥٥٢ - ١٦٠٨) هو الذى مهد له الطريق لزيارة أكسفورد، حيث إن البيريكوس المتخصص فى القانون الأولى كان قد قرر الاستقرار فى أكسفورد بعد وصوله إلى الأراضى الإنجليزية عام ١٥٨٠. وكان لهذا المهاجر الإيطالى البيريكوس الذى رفض فكرة فرض العقيدة الدينية بالقوة نفوذ كبير على الملكة إليزابيث. فضلاً عن أنه كان صديقاً للأديب المعروف السير فيليب سيدنى والسير توماس والسنجهام إيرل ليستر واللورد بيرجلى. وأيضاً كان ماثيو جوين (١٥٥٨ - ١٦٢٧) صديقاً حميماً لفلوريو. وربما كان جوين هو الذى اقترح دعوة برونو إلى الحفلة التى أقامتها جامعة أكسفورد لتكريم نبيل بولندى راع للعلوم يدعى ألبرت أ. لاسكى. وفى هذه الحفلة قابل برونو أعضاء هيئة التدريس فى جامعة أكسفورد، ولكن انطباعه العام عنهم كان سيئاً، فقد عاب عليهم افتقارهم إلى المستوى العلمى الرفيع رغم اعترافه برقة حاشيتهم وإتقانهم للغة اللاتينية.

احتدمت مناقشات حامية الوطيس بين برونو ونفر من أساتذة اللاهوت فى جامعة أكسفورد فى حضرة النبيل البولندى وبعض الأرستقراط الإنجليز، وأمام قوة المحاجات التى ساقها برونو أسقط فى يد مجادلبيه. ومن المؤسف أن أرشيف جامعة أكسفورد لا يحتفظ بسجل لهذه الملاحاة التى احتدمت حول اللاهوت المسيحى. وبات من الواضح له أن أكسفورد لم تعد المكان المناسب فقرر مغادرتها واتجه إلى لندن، حيث طبع نحو عام ١٥٨٣ رسالة قصيرة موجهة إلى أساتذة جامعة أكسفورد.

ألقى برونو سلسلة من المحاضرات فى جامعة أكسفورد، شرح فيها نظرية كوبرنيكوس إلى الكون، كما هاجم فيها فلسفة أرسطو. وفى أكسفورد اتهم برونو بالسطو على أفكار غيره من الفلاسفة، الأمر الذى اضطره إلى العودة إلى لندن حيث أقام فى مقر السفير الفرنسى هناك ميشيل دى كاستلتو. وفى لندن ألف أشهر كتبه باللغة الإيطالية، ومن بينها: «حول السبب والمبدأ» و«الكون اللانهائى والعالم».

وفى عام ١٥٨٥، قرر برونو العودة إلى باريس حيث اشترك فى مناظرة علنية نظمها كلية دى كامبراى هاجم فيها فلسفة أرسطو، الأمر الذى عرضه للسخرية والاعتداء الجسدى؛ مما اضطره إلى الهرب من فرنسا.

ثم أمضى برونو الأعوام الخمسة التالية في وسط وشرق أوروبا وتوقف لفترات مختلفة في كل من ماريدج وويتبرج وبراغ وهلمستدت وفرانكفورت وزيوريخ. وفي ألمانيا البروتستانتية ألف برونو كثيرًا من أعماله باللغة اللاتينية عن الفلسفة والكون والطبيعة والسحر وفن التذكر.

### برونو يعود إلى البندقية وروما

لو أن برونو بقي في ألمانيا البروتستانتية لعبر عن أفكاره بحرية وهو آمن على حياته ونفسه من الاضطهاد. ولكنه تلقى في عام ١٥٩١ دعوة غير عادية لزيارة البندقية، وجهها إليه وجيه إيطالي يدعى مورسينجو. ولعل الذي أغرى برونو بالعودة إلى البندقية أن هذه الدولة تمتعت باستقلال عن روما وبقيّة أرجاء شبه الجزيرة الإيطالية. ولكن علاقة هذا الوجيه بمعلمه شاهدة تدهورًا؛ إذ يبدو أن مورسينجو ظن أن برونو يخفي عنه بعض المعلومات ويحتفظ بها لنفسه. وعندما قال برونو إنه يزمع السفر إلى فرانكفورت لالانتها من كتابة بعض مؤلفاته، هدد مورسينجو قائلاً إنه إذا لم يمتنع عن السفر طواعية واختيارًا، فسوف يرغمه على البقاء في البندقية وأنسم رد فعل برونو لهذا التهديد بالنزق والطيش المعتادين، فقد هدد بأنه سوف يبلغ عن مورسينجو؛ فقام هذا الأخير باعتقال معلمه في إحدى غرف قصره وسلمه إلى محكمة تفتيش البندقية بناء على قائمة طويلة عريضة من الاتهامات، منها أن برونو قال له: إن النبي موسى ساحر، وليس من المعقول أنه تحدث مع الله. فضلاً عن أنه قال الشيء نفسه عن السيد المسيح وأنكر عذرية مولده من مريم، إلى جانب إنكاره لأهمية الصلاة وآثار القديسين. وهناك خطاب قديم يرجع تاريخه إلى ٢٣ مايو عام ١٥٩٢ أرسله مورسينجو إلى محكمة تفتيش البندقية، جاء فيه:

«السيد الكاهن المحترم،

«أنا جيواني مورسينجو ابن كلارسيمو مسر ماركوانتيو يحتم على ضميري ويأمرني كاهن اعترافي بالتبليغ عن جيوردانو برونو من نولا، الذي سمعته في مناسبات مختلفة أثناء محادثاته معي في منزلي يقول: إن الكاثوليك يجدفون عندما يعتقدون أن الخبز يتحول إلى دم المسيح، وأنه يعارض إقامة القداس وأن كل الأديان عاجزة عن إقناعه بصحتها، وأن المسيح دجال يلجأ إلى استخدام الحيل والألاعيب لغش الناس. وأغلب

الظن أنه كان يعرف سلفاً أنه سوف يموت ميتة المجرمين، وأنه أنكر الثالوث في الذات الإلهية. كما قال بخلود العالم وبوجود عدد لا نهائي من العوالم، وإن الله يصنع هذه العوالم باستمرار لأنه يرغب في خلق الكثير منها وأن المسيح كان ساحراً يصنع معجزات تبدو في ظاهرها طيبة، كما أن الرسل كانوا سحرة أيضاً.

وعندما مثل برونو أمام محكمة التفتيش في البندقية جثا على ركبتيه ونبذ جميع أفكاره وأنكر جميع معتقدهات اللاهوتية دون أن يشعر بأدنى غضاضة، فقد دفعه حبه للاستمرار على قيد الحياة إلى التراجع عن أفكاره، مبدئاً استعداداه للاعتذار وإظهار التوبة. غير أن الكنيسة في روما أرادت وضع حد لتطاوله عليها، فطلب كبير المحققين في روما الكاردينال سانتسفرينا في البندقية ترحيله إلى روما لمحاسبته هناك. وفي بادئ الأمر اعترضت حكومة البندقية على ذلك ورفضت تسليمه؛ غير أنها رضخت لأوامر روما في النهاية.

## كتابات برونو الباكرا

فى عام ١٥٨٢، قام محل جور بن بنشر ثانى مؤلفات برونو تحت عنوان: «ظلال الأفكار» الذى لم يندثر مثلما اندثر كتابه الأول. أهدى برونو «ظلال الأفكار» إلى الملك هنرى. وهو كتاب يهدف إلى شرح فن تنشيط الذاكرة وتحسينها، ويحمل الجزء الثانى من الكتاب عنوان: «فن التذكر». ويصطبغ الجزء الأول منه بالفلسفة الأفلاطونية الجديدة دون موارد. ذهب برونو إلى أن الإنسان ظل للواحد الأحد الذى يعجز المرء عن وصفه، وإلى أن الخير والشر شىء واحد إذا نظرنا إليهما من منظور الأبدية، فكل شىء ينبع من الواحد الأحد. والعلاقة بين الإنسان وجسده تشبه العلاقة بين الملاح والسفينة، فهو بداخلها ولكنه ليس جزءاً منه. ويقول برونو إن أفكارنا مزيج من النور والظلال ولا تمثل الحقيقة المطلقة التى لا سبيل إلى الوصول إليها. ورغم ذلك، فإن العقل يستطيع الارتفاع فوق المدركات الحسية، كما يستطيع تحقيق الوحدة عن طريق التعددية. وظل برونو طوال حياته مؤمناً بهذه التجربة الصوفية التى عبر عنها فى مؤلفاته الباكرا. غير أن مؤلفاته اللاحقة تذهب إلى أن العقل - وليس الحدس كما جاء فى كتاباته الأولى - يمكنه أن يصل الإنسان بالمطلق الذى لا يكف عن السعى إلى الوصول إليه. وتنبه برونو إلى أهمية تداعى الأفكار التى كان أرسطو أول من أشار إليها. والأفكار فى نظره ظلال للحقيقة، وعملية التذكر هى استخدام ظلال هذه الظلال. والجدير بالذكر، أن برونو كان يتمتع بذاكرة فذة ومذهلة. وإلى جانب هذه الكتابات الفلسفية الباكرا، اضطلع برونو بنظم القصائد باللغة اللاتينية. وهى قصائد

اتسمت بالرمزية الصوفية. وقد اعترف برونو بخشونة الشعر الذى نظمه، ويرجع ذلك إلى اهتمامه بالتعبير عن المضمون أكثر من عنايته بجمال الشكل. أضيف إلى ذلك افتقار قصائده إلى النظام.

ثم ألف برونو كتاباً آخر بعنوان: «تعويذة سيرس»، وهى الساحرة التى تحدث عنها هوميروس فى أشعاره. وهذه التعويذة تحول الإنسان إلى وحش. ويذهب برونو إلى أن طبيعة الذاكرة يكتنفها الغموض، الأمر الذى يجعل من عملية التذكر شيئاً شبيهاً بالسحر والتعاويذ. ويشتمل الكتاب على حوار آخر يتناول موضوع فن التذكر بدقة أعظم. والكتاب يعالج باستفاضة أكبر موضوع الذاكرة بطريقة تفوق ما ورد فى كتابه السابق «ظلال الأفكار»، وهو يزخر بالأقوال الغامضة الشبيهة بالطلاسم.

وفى نفس العام الذى صدر فيه الكتاب الآنف الذكر، نشر برونو كتاباً ثالثاً بعنوان: «البناء الموجز لفن لولى واستكمالها». وقد قام جورين بنشر هذا الكتاب الذى اعتبره برونو مفتاحاً لبناء الكون والطريق الذى يمهّد لإنشاء فلسفة متكاملة تتبثق منها جميع المعارف.

حاول لول Lully أن يثبت عن طريق العقل صحة المسلّمات الكنسية. وهو ما ينكره برونو الذى رأى أنه من الخطأ محاولة إثبات صحة هذه المسلّمات باستخدام العقل، فالإيمان والتزليل - وليس العقل - هما اللذان يقبلان هذه المسلّمات. والجدير بالذكر، أن برونو يستفيض فى الاقتطاف من الكتابات الوثنية بقدر استفاضته فى الاقتطاف من المصادر المسيحية.

وفى عام ١٥٩٢، ألف برونو على وجه العَجَل كتاباً باللغة الإيطالية وليس باللغة اللاتينية كما كان الحال. وقام بنشر الكتاب إيطالى من المستقرين فى باريس يدعى جوجليمو جيوليانو. ولم تستغرق كتابته وهو بعنوان: «المشعل» سوى بضعة أيام، وهو مسرحية هجائية تثير الضحك تهاجم الادعاء والتحدلق وسذاجة التصديق السريع. وهو يصور عالماً مليئاً بالأوهام والواهمين والأوغاد والمقفلين ممن يقعون فى شباك السحرة والمشعوذين وأدعياء القدرة على تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب. والمسرحية لم تر طريقها إلى خشبة المسرح، وهى تعج بالمواقف المضحكة والعبارات البذيئة التى راقى كثيرًا للإيطاليين فى عصر النهضة. كما أنها ترمى القساوسة بالنصب والاحتيال. ويبدو أن هذه المسرحية تركت أثرها فى بعض المسرحيين اللاحقين مثل موليير.



## مؤلفات برونو المنشورة في لندن في عصر الملكة إليزابيث الأولى

أصدر برونو في فترة إقامته بإنجلترا سبعة كتب ألف أولها باللغة اللاتينية عام ١٥٨٣. وهو يدور حول الميتافيزيقا وفن التذكر الذي شرح لولى قواعده. ويحمل الكتاب الثاني عنوان: «عشاء أربعاء الرماد» وكان الهدف الأساسي منه دحض قواعد علمي الفيزياء والفلك الأرسطاطاليسي، والدعوة إلى أفكار كوبرنيكوس الفلكية. أما الكتاب الثالث الذي يحمل عنوان: «عن السبب والمبدأ والواحد»، فيتناول عددًا من المشكلات الميتافيزيقية. وكذلك ألف برونو في لندن عام ١٥٨٤ كتابًا رابعًا بعنوان: «الكون اللامحدود وعوالمه». وفي نفس العام أصدر كتابًا آخر بعنوان: «طرد الوحش المنتصر» أهداه إلى الأديب الإنجليزي الكبير السير فيليب سيدنى. ولكن يبدو أن برونو نشر هذا الكتاب الأخير في وقت لاحق، حيث إنه يشير إلى وقوع أحداث شغب وقعت في نابولي في مايو عام ١٥٨٥. ثم أعقبه بكتاب «جمعية الجياد السرية»، بالإضافة إلى «حمار سيلين»، ثم تلاه كتاب آخر أهداه أيضًا إلى فيليب سيدنى وهو يحمل عنوان: «تجليات الأرواح الجسورة».

أعجب برونو بانتشار الخضرة والمراعى الرائعة في ربوع إنجلترا، كما راق له ولع الإنجليز بالرياضة؛ فضلاً عن أنه أحب جو إنجلترا المعتدل. وأعجب برونو - كما أعجب إيرازموس من قبل - بسحر المرأة الإنجليزية ورقتها ورشاقتها وجمالها. وأيضًا أعجب بأصدقائه الإنجليز المتعلمين والطلّيان العاملين في حاشية الملكة إليزابيث. غير أن الغوغاء الإنجليز أثاروا مقتته، كما أنه اعتبر إنجلترا أقل تحضرًا من فرنسا.

وعبر برونو عن إعجابه بالإنتاج الشعري والمسرحي الذي ازدهر في عصر الملكة إليزابيث. وأيضاً عبر عن زرايته للدهماء الإنجليز الذين لا يكادون أن يروا أجنبياً يسير بينهم حتى يتحرشوا به ويعتدوا عليه بالقول والفعل. يقول برونو عن كتابه «عشاء أربعاء الرماد» عندما سأله المحققون في محاكم التفتيش عن الهدف من ورائه: «لقد كتبت كتاباً في خمسة حوارات يعالج دوران الأرض. ولأنى ناقشت هذا الموضوع في إنجلترا أثناء أربعاء الرماد في فترة إقامتي في بيت السفير الفرنسي، فقد سميت هذه الحوارات «عشاء أربعاء الرماد» ويجوز وجود بعض الأخطاء التي تشوب الكتاب؛ ولكني قصدت بكتابته السخرية من آراء وأفكار هؤلاء الأساتذة في هذا الموضوع» وبالنظر إلى عدم معرفة برونو باللغة الإنجليزية، فقد قرر الحاضرون مناقشة مؤلفه باللغة اللاتينية، وشاء مناقشوه أن يعاملوه باستعلاء يفيظ. ورغم ذلك، فإنه كان يذكر إنجلترا بالخير فهي ملاذه الذي أمضى فيه سنوات الهدوء والسكينة. ولكنه لم يقيض لحياته المستقرة في إنجلترا أن تدوم، فقد استدعت فرنسا كاستانو سفيرها إلى بريطانيا فأصبح برونو بلا حماية في بلاط الملكة إليزابيث.. والأدهى أن مواطنيه الطليان لم يستسيغوا كتاباته بسبب ما اتسمت به من أسلوب صعب.

وفي أواخر أكتوبر ١٥٨٩، عادت عائلة كاستانو إلى فرنسا آخذة برونو معها. ومن سوء الحظ أن السفير كاستانو تعرض أثناء رحلته إلى ميناء كاليه لحادث سرقة بالإكراه لم يسلم منها برونو نفسه. وعلى أية حال، استطاع برونو في فترة إقامته في إنجلترا نحو سنتين ونصف أن ينتج عدداً من أهم كتبه. ثم عكف على تأليف كتاب في علم الفلك بعنوان «مظهر الجحيم». ويبدو أن هذا الكتاب لم يجد طريقاً إلى النشر إلا بعد مرور ستة أعوام.

#### مؤلفات برونو المنشورة في لندن

١- الأختام الثلاثون وختم الأختام

٢- عشاء أربعاء الرماد

٣- عن السبب والمبدأ والواحد

٥- الكون اللانهائي وعوالمه

٦- طرد الوحش المنتصر

## ٧ - الجماعة السرية وحمار سيلين

## ٨ - تجليات الأرواح الجسورة.

بعد وصول برونو إلى إنجلترا قام بنشر كتاب بعنوان طويل هو: «شرح الأختام الثلاثين لاكتشاف وترتيب وتذكر جميع العلوم والفنون مضيئاً إليها ختم الأختام للمقارنة بين جميع العمليات الذهنية.. إلخ». ويحتوى كتاب «الأختام الثلاثون» على شرح لعملية التذكر، فى حين أن ختم الأختام الذى يتكون من جزئين يتضمن دفاعاً عن الفلسفة الأفلاطونية الجديدة. وهو من أهم ما كتب برونو الذى لا يدعى أن آراءه تمثل الحقيقة المطلقة، بل محاولة لإثبات تطور العقل البشرى من المدركات الحسية إلى حالات أكثر تعقيداً واكتمالاً. وأضاف أن العقل يتخذ من الحب مرشداً إلى إنتاج الفنون والرياضيات. ويعبر برونو عن مقتله لتمجيد الدين للعذاب.

وتجلت عبقرية برونو فى مبحثه التالى: «عشاء أربعاء الرماد» فى الوصول إلى منهج الاستقراء مستبقاً بذلك الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون.

ذهب برونو إلى أن الوصول إلى الحقيقة يجب أن ينبع من الطبيعة؛ وبذلك يكون برونو من أوائل الذين رفضوا اتباع مناهج الأقدمين. والجدير بالذكر، أنه فى شبابه لم يكن يؤمن بنظرية كوبرنيكوس الفلكية المنادية بدوران الأرض حول الشمس. ولكنه اقتنع بصحة هذه النظرية فيما بعد. نظر برونو إلى الطبيعة والأجرام السماوية وانتهى إلى واحدة الكون، مطبقاً نظرية كوبرنيكوس على سائر الأجرام السماوية يدفعه إلى ذلك خيال علمى خصيب هداه إلى حركة هذه الأجرام السماوية قبل مجيء جاليليو ونيوتن، اللذين أقاما الدليل على حركتها فى الفضاء. ثم وصل برونو إلى نتيجة أخرى مفادها أن العالم الفيزيقي، أى الطبيعى، يشغل كوناً لا نهائياً... كوناً ينبض بالحياة، وليس كوناً جامداً هامداً بلا حراك. وبعض مخلوقات هذا الكون تحتل مرتبة أعلى من البشر، فى حين يحتل البعض الآخر مرتبة أدنى. ويرى أن الكواكب والنجوم تسكنها كائنات أكثر عقلاً من بنى البشر.

ويذهب برونو إلى أن الوجود وسببه لانهائيان ولا شىء فى الكون يفنى رغم أن كل شىء فيه يتغير: «هذه الكرة الأرضية بأكملها... هذا الكوكب الذى لا يتعرض للموت أو التحلل أو الفناء يجدد نفسه من وقت إلى آخر بتغيير وتبديل كافة أجزائه». ويرفض برونو فكرة أرسطو القائلة بوجود مطلقات فى هذا الكون، فليس هناك وضع مطلق فى

الفضاء، بل إن وضع أى جسم نسبى بالقياس إلى وضع غيره من الأجسام. وفى كل مكان فى الكون نرى تغيراً نسبياً دائماً فى وضع كل شئ. والمراقب للأشياء هو الذى يمثل دائماً مركزها. وكل الأجرام السماوية لا يقل ثبات وضعها عن الأرض. هذه الأجرام لا تحتاج إلى ما يدعمها أو يرفعها. وأيضاً يرفض برونو فكرة أرسطو القائلة بوجود ثقل أو خفة فى حد ذاتها فى وزن الأشياء، الأمر الذى سبق قوانين نيوتن (عن الجاذبية). آمن برونو بوجود طبقة أثيرية فى الكون تتحرك فيها الأجرام السماوية بسبب الطاقة التى تنبعث من أرواحها. والشمس فى نظره تتحرك على محورها. وهى مجرد نجم واحد من النجوم التى يزخر بها الكون يتغير وضعه بالنسبة لبقية النجوم. وهو يعتقد فى وجود بقع فى الشمس. وهو يرد لمعان النجوم إلى أنها شمس ينبعث منها الضوء. وكوكب الزهرة لا يلمع لأن الضوء ينعكس عليه. وهو يرى أن الغلاف الأرضى يتحرك بتحريكها. وفى مجال علم الجيولوجيا اهتدى إلى رأى مفاده أن قوى الطبيعة فى حالة نشاط وعمل مستمرين، وأنها تنتج تغيرات بطيئة ولكنها هائلة فى الأرض والبحر. وفى مجال المعرفة البكتريولوجية قال: «يبدو لى فى حكم المؤكد أنه طالما أن كل شئ يشترك فى الحياة، فلا بد من وجود عدد لا يحصى من المخلوقات التى لا تعيش فىنا وحسب، بل تعيش أيضاً فى جميع الأشياء المركبة». ويضيف برونو إلى ذلك قوله: «عندما نلاحظ أن شيئاً يموت كما تقول فينبغى علينا أن نعتقد أن هذا الشئ لم يمت ولكنه يتغير، وأن الذى ينتهى هو مجرد التركيب والانسجام العارضين. ولكن الأشياء التى يتحول إليها هذا الشئ بعد ذلك تبقى خالدة، سواء أكانت روحية أم مادية. والفريزة ليست نشاطاً آلياً نابعاً من خارج الكائن، ولكنه يرجع إلى وجود حاسة سادسة أو عقل أو ذهن يعمل من داخل الكائن الذى يظهر هذه الفريزة».

وبمثل هذه الآراء الجريئة المتفتحة يكون برونو قد فتح الطريق أمام التقدم العلمى الذى حققه علماء ورواد كبار، مثل جاليليو ونيوتن ولييل Lyell.

ولا يعنى اختلاف برونو مع أرسطو أنه أراد التقليل من شأنه، إذ كان يكن له كل التكريم والتقدير. كل ما هناك أنه رفض نظرة أرسطو إلى الكون، معتبراً إياها نظرة رجعية وقفت عقبة كأداء بسبب نفوذ صاحبها الهائل على الأجيال المتعاقبة بما أعاق تحرر العلم من إسهامه، فضلاً عن أن الكنيسة فى القرون الوسطى اتبعت نظرياته على نحو خانع متبنية ما راق لها فى محاجاته المنادية بوجود الله أو المحرك الأول حسب

تعبيره. ولهذا شن برونو هجوماً من هذا المنطلق على فلسفة أرسطو، ليحرر الفكر الإنسانى من ربة تبعيته لأرسطو والكتاب المقدس.

وتعلم برونو من الفيلسوف العربى المعروف الغزالى أن للأديان هدفاً عملياً بغض النظر عن صحة جوانبها النظرية. ويتلخص هذا الهدف فى تهذيب الأخلاق والسلوك والعمل على خير البشرية ورفاهيتها. وآمن برونو أن للأديان تفسيرات مختلفة، وليس لها تفسير واحد أو تفسير مطلق. فهناك تفسيرات مختلف لها بقدر ما هناك من أديان. ونحن نجد، على أية حال، أن بعض آباء الكنيسة الأوائل أمثال تورتيلىان وأغسطين لا يرون أية غضاضة فى تفسير المسيحية على نحو رمزى خالص. ولا شك أن برونو عبر بقوة عن الفكر المتحرر عندما ذهب إلى أهمية الجانب العملى من الدين، دون أن يعنى هذا أن الدين يستند إلى أساس نظرى سليم. وبهذا يكون برونو قد سار على نفس الدرب الذى سار عليه كل من وليام أوكهام Ockham ودونس سكوتس Duns Scotus اللذين قالاً إنه مهما تعارضت أحكام العقل مع التعاليم الكنسية، فإن الجانبين العملى والنظرى من الدين يتمتعان بنفس القدر من الصواب. وتبأ برونو بحدوث صراع محتدم بين العلم والدين. ولكنه رأى أنه بالإمكان تقادى هذا الصراع إذا تم تفسير الأناجيل فى ضوء العلم. ولكن هيهات أن يتحقق له رآب الصدع بينهما، فقد نسى أن قوله بوجود سكان أكثر ذكاء أو أقل ذكاء من الإنسان على الكواكب الأخرى من شأنه أن ينسف العقيدة المسيحية من أساسها، فهذه العقيدة تقوم على الإيمان بسقوط آدم وطرده من الجنة وبخلاص البشر. وعلى أية حال، حفز برونو الإنسان السجين القابع فى ظلمة زناناته الخائقة إلى التطلع من خلال قضبانها إلى السحاب لاستجلاء ما وراءه.

## عن السبب والمبدأ والواحد

يهاجم برونو في هذا المبحث المهم للغاية النظرة المدرسية إلى الكون -Scho lasticism الشائعة في العصور الوسطى. ويتكون هذا المبحث من خمسة حوارات، يضم الحوار الأول منها ثلاثة متحدثين. وهو حوار يهدف إلى إيجاد عذر لشن هجوم على إنجلترا. ويقوم ثيوفيلو في الحوارات الأربعة التالية بشرح وجهة نظر برونو إلى ثلاثة أشخاص، هم: جيرفيس وديكسون وبولينيو. ونجد في مقدمة أربعة حوارات خطاباً موجهاً إلى كاستلنو سفير فرنسا إلى إنجلترا، كما نجد في هذه الحوارات خمس قصائد قصيرة: ثلاث منها منظومة باللغة اللاتينية واثنان باللغة الإيطالية. ورغم أن برونو في هذه الأشعار يحلق في عنان السماء، فإنه يعود في تحليله إلى الالتصاق بالأرض.

ويتضمن مبحثه عن «السبب والمبدأ والواحد» عرضاً لمذهب أفلاطون والأفلاطونية الجديدة. ورغم أن برونو يستخدم المصطلحات الفلسفية التي درج أرسطو والمدرسيون على استخدامها، فإنه يشعر بأن هذه المصطلحات تعرقل تفكيره وتمنعه عن التعبير عن نفسه بوضوح. يقول برونو إن أرسطو يخطئ حين يرسم حدوداً للكون. وهو يفترض وجود المادة والشكل ووجود المحرك الأول (أى الله) وراء طبقة الأثير. والرأى عند برونو أن مثل هذه المجردات تعجز عن تفسير الكون، في حين أن الكون والله شئ واحد، كما أنه يرى أن الطبيعة تجسد المطلق، أى الله، وهو ما يسميه روح الكون.



يبدأ برونو بالتمييز بين المبدأ والسبب. والمبدأ في نظره هو الذي يدخل في تركيب الشيء ويكون ضروريًا لكيونته، في حين أن السبب خارج عن هذا الشيء، حتى وإن كان يتفق معه كضرورة لكيونته. آمن برونو كما قلنا بحلول المطلق في الكون (أو الطبيعة)، وأطلق عليه روح الكون الذي يجعل منه وحدة واحدة.

## الكون اللانهائى وعوالمه

بدأ برونو هذا المبحث بخطاب أهداه إلى كاستلتو، ويرى هذا الفيلسوف أن اعتبار الكون تجسيداً للذات الإلهية من شأنه أن يحرر الروح الإنسانية من إسارها. هذه هي الفلسفة التي تجعل الحواس تتفتح وترضى الروح وتوسع آفاق العقل وتجلب النعمة والبركة للإنسان. وإذا نحن نظرنا بعمق إلى الكينونة والمادة، فسوف نستخلص عدم وجود أى شيء اسمه الموت الذى يظن الناس إنه يدرك البشر والمادة، فهذه المادة لا تتلاشى بل تتغير. وتغيرها يحدث فى جميع أنحاء الفضاء. ويحدثنا برونو عن ترابط أجزاء الكون قائلاً:

«إن الجمال الذى يتحلى به أى مبنى لا يمكن الحكم عليه من خلال أجزائه الصغيرة؛ ولكنه يتضح بجلاء لكل من رأى المبنى بأكمله والعلاقة التى تربط بين أجزائه. ومن ثم، فإن الخير والشر متناقضات تتسجم وتتألف أبدياً فى صميم الكينونة التى لا تعرف المتناقضات؛ بل إنهما يتألفان فى وحدة منسجمة ومتسقة. فالله أكبر من كل من الخير والشر. والله المقدس لا يظهر مجده وعظمته فى شمس واحدة، بل فى عدد لا يحصى من الشمس. ليس فى كوكب الأرض وحده، بل فى عوالم أخرى بلا نهاية.

وبعد الخطاب المهدى إلى كاستلتو يورد برونو ثلاث سونيتات من نظمه، تعقبها خمسة حوارات تتضمن شرحاً ودفاعاً عن الأسلوب العلمى.

ويقوم شخص يطلق عليه المؤلف اسمه فيلوتيو بشرح فلسفة برونو لرجل يدعو إلى المذهب الإنسانى يدعى جيرولامو فرانكاستور، ولشخصين آخرين. وفى الحوار

الخامس يرسم برونو صورة لفقيه قانونى يدعى ألبريكو جنتايل كان قد قابله فى إنجلترا . ورغم تلقائية الحوارات الخمسة، فإنها تتسم بطابع تعليمى. وفى نظمه يستمد برونو بعض الفقرات من شعر لوكريشيوس، ذلك الشاعر اللاتينى الكبير الذى ترك فيه أعمق الأثر بدفاعه عن المذهب الذرى ولا نهائية الفضاء الكونى. لقد توصل بعض فلاسفة الإغريق إلى وجود عوالم أخرى إلى جانب كوكب الأرض. ولكن الكنيسة التى تبنت فلسفة أرسطو قامت بقمع هذه الأفكار وعدم السماح لها بالانتشار.

بدأ برونو كلامه فى هذا المبحث بالتمييز بين وظائف المعرفة المختلفة. قال: «إن وظيفة الحواس تتلخص فى حث الذهن reason على العمل وتوجيهه». غير أن الشيء المحسوس ليس سوى جزء صغير من الحقيقة. والفكر الجائل هو الذى يخلع الانسجام على تقارير الحواس. هذا الفكر الجائل الذى نادى به برونو أشبه ما يكون بالـ understanding الذى قال به الفيلسوف الألمانى اللاحق كانط. والرأى عند برونو أن الفهم أعلى درجة من الذهن، فهو الذى يوجه المبادئ ويستنتج النتائج. والسمة الرابعة وهى العقل intellect تحتل أسمى الدرجات وأرفعها جميعاً، فالعقل هو الذى يدرك الألوهية ويصل بصاحبه إلى مدارج الصوفية وتجارب بلوتينوس.

يقول برونو إن قوة الله لا نهائية، ومن ثم فإن أعماله لا نهائية كذلك. كما يذهب إلى أن المدركات الحسية محدودة وتطراً عليها التغيرات بتغير موقعها. ويمكننا أيضاً الرجوع إلى العقل الذى يبين أن كل الملاحظات الحسية هى مجرد ملاحظات نسبية تماماً، كما أن أية تركيبات تقام عليها نسبية تماماً.

ووضع أى شئ وحركته فى الزمان والمكان نسبياً تحددتهما النقطة التى يتخذها الإنسان ليبدأ منها المقارنة. يقول برونو فى هذا الشأن: «ليس فى الكون مركز أو مسطح، حيث إن المركز موجود فى كل مكان» وهذه الكلمات التى أطلقها برونو منذ عدة قرون كانت بمثابة ثورة تبشر بمذهب النسبية، وكان الخطوة الأولى على طريق مبدأ النسبية الذى تحدث عنه لورنتز وآخرون. رأى برونو أنه يستطيع - رغم أنه محدود بالمكان والزمان - أن يرتفع فوق المدركات الحسية وتفسيراتها ويفهم الظروف الحقيقية التى يستطيع فيها روح العالم أن يجرب ما يطرأ عليه من تغيرات. يقول برونو إن كل الأوضاع وكل الأشكال يحتويها ويحدها الفضاء. وإذا كان الحاوى - وهو الفضاء - ليست له حدود، فإن المحتوى يجب أن يكون كذلك. أو بمعنى آخر إذا كان

الفضاء بلا نهاية، فإن المادة نفسها - أيضاً - بلا نهاية - غير أن العالمين المعاصرين له جاليليو وكبلر لم يشاركاه الاعتقاد بلا نهائية الكون، حيث إن الأسباب الدينية دفعت كبلر إلى الاقتناع بأن الكون محدود، في حين قال جاليليو: «إن العقل وقدراتي الذهنية لا تستطيع أن تمكنني من الاقتناع بنهائية الكون أو لا نهائيته. فلا أحد أثبت لنا أن الكون محدود وله نهاية، ولا أحد أثبت أنه بلا حدود وليست له نهاية».

نادى برونو بنسبية المعرفة الإنسانية القائمة على الإدراك الحسى. وهو في مبحثه عن الفضاء يوضح نسبية الأخلاق. كما أنه في مبحث آخر يبين عدم وجود أية معايير مطلقة لقياس الزمان والمكان. فإذا نحن نظرنا من قرص القمر إلى الأرض، لوجدناها مثل القمر تماماً. وجميع الأجرام السماوية تسرى فيها الطاقة التي تحركها. والكون يسكنه روح العالم الشبيه بحيوان هائل يتولى تغذية وإقامة كل العوالم. والكواكب اللا نهائية تدور حول شمس تماماً مثلما تدور الأرض حول الشمس. وهي تحتوى على معادن شبيهة بالمعادن الموجودة في الأرض أو مختلفة عنها. وقال برونو إن الشهب تدور في مدارات منتظمة، وإنها أجسام لا تختلف عن بقية الكواكب. وهو اكتشف علمي مذهل لأنه جاء مبكراً. إن بعض اكتشافات برونو مذهلة في مواكبتها للعلم الحديث، مثل قوله إن الحرارة المنبعثة من الشمس لها نفس الأسباب المؤدية إلى انبعاث الحرارة على الأرض. وأضاف برونو أن الضوء ينبعث في الفلاف الجوى الذى يجيط بالشمس مباشرة. وأيضاً ذهب برونو إلى أن بعض الشمس نفسها تدور حول شمس أخرى، تماماً مثلما تدور الكواكب السبعة حول الشمس. ولكن هناك شمساً أخرى في الكون لا يمكن رؤيتها بسبب بعدها الهائل عن الأرض.

وأغلب الظن في رايه أن الأجسام السماوية تضمحل بمرور الوقت وتتحول إلى تشكيلات جديدة. أى أن أجزاءها في حالة حركة مستمرة. حتى الشمس التي تبدو ثابتة هي في واقع الأمر في حالة حركة. وقد تبنى برونو نظرية الذرات التي لا تتحلل أو الجسيمات الأولية التي تتكون منها كل عوالم الكون. هذه الجسيمات لا تكف عن الانتقال من جسم إلى جسم ومن عالم إلى عالم آخر. فهي من تلقاء نفسها لا تكف عن الدخول في تركيبات جديدة وتركيباتها القديمة. وقد سعى برونو، ما وسعه السعى إلى تفنيد أخطاء أرسطو وتصحيحها، مثل قول هذا الفيلسوف الإغريقى إن غلافاً مكوناً من الماء والهواء والنار يحيط بالأرض. باختصار، لقد كان برونو سابقاً لعصره

وزمانه عندما أكد الحاجة إلى الملاحظة والتجربة والمقارنة. ومن المثير أن نعرف أن برونو ذهب إلى حاجة الدهماء إلى الدين لتنظيم شئونهم وكبح جماحهم، بعكس الطبقة المستتيرة التي يمكنها الاستغناء عنه.

**كتاب طرد الوحش المنتصر الذى اقترحه جوف وحققه المجلس وأماط ميركيورى اللثام عنه ورواه صوفيا وسمعه صولينو ودونه النولانى. والكتاب ينقسم الى ثلاثة حوارات، كل حوار منها يتكون من ثلاثة أجزاء**

قال برونو للأديب الإنجليزى الكبير السير فيليب سيدنى، إن هذا البحث مقدمة لبحث آخر يتناول فلسفة الأخلاق. ويحتمل أن يكون برونو قد تأثر فى هذا البحث بكتاب لوسيان «برلمان الآلهة»، وبالكتاب الذى ألفه نيكولو فرانكو. ويدل مبحث «طرد الوحش المنتصر» على قوة ذاكرة مؤلفه. ويسوق برونو مقتطفات من كل من أريوستو وتاسو وتانسو، كما أنه من الواضح أنه كان يعرف كتابات دانتي معرفة جيدة. والحوار فى هذا الكتاب يدور أساساً بين صوفيا التى تمثل الحكمة وقريب لوالدته يدعى صولينو. وتمثل شخصية جوف كل إنسان، وهى تجسد روح الفرد الحى التى تتجاوز شهوات الشباب ليرقى بعقله إلى مدارج السمو الفلسفى. وبالإضافة إلى ذلك، يمثل جوف التغييرات الجماعية التى تطرأ على الجنس البشرى. ويقسم جوف بأنه سوف يجعل الفضيلة تسود السماء فيدعو الآلهة إلى الاجتماع. وتجسد هذه الإلهة المترعبة فوق جبل الأولمب صفات الخير والشر معاً. ويجلس جوبيتر على عرش السماء ويعلن عن تصميمه على تطهيرها من كل رجس ودنس. وتمثل بعض المجرات الشرور الوحشية التى يسعى إلى استبدال الفضائل بها. وتقرر الآلهة المجتمة بالفعل تنفيذ قرار جوف بتطهير السماء من الوحوش التى تسكنها والتخلص منها الوحش تلو الآخر. ونتيجة لعمليات التطهير التى حلت فى الأفلاك والمجرات تختفى من المجتمع الإنسانى سائر الشرور مثل المعتقدات الجامدة والمتزمتة، وكل ما يعوق حرية العقل



كالخزعبلات والجهل والعنف والتآمر والقسوة.. إلخ؛ ليحل محلها الحجى والشجاعة وسيادة القانون والاجتهاد.. إلخ.

ويصف برونو الله بأنه الطبيعة، بل إنه طبيعة الطبيعة ويأنه روح العالم، إن لم يكن الروح ذاته. وهو يسعى أبداً إلى الحقيقة التي يراها متمثلة في اكتمال الحياة. ولأن الله يسكن الطبيعة، فإن الإنسان يصبح على سجيته إذا عاش طبقاً لها. والرأى عنده أن الجانب العملى أو التطبيقي من الدين (وليس الجانب النظرى) هو الذى يهم، فالعالم لا يمكنه أن يبقى بدون القانون والدين. ولأن البعض وجدوا أنهم لا يجنون ثمار جهدهم وحميد خصالهم فى هذه الحياة، فقد استحدثوا فكرة العقاب والثواب فى العالم الآخر. ورغم عدم إيمانه إيماناً حرفياً بالمسيحية، فإنه أعلى من قدرها كدين يفوق الأديان الأخرى لأنها تقوم على المحبة. ومع ذلك، فإنه وجد أن الوثنية تتفوق على الدين المسيحى فى بعض النواحي، فهي أكثر تسامحاً وأقرب إلى الطبيعة من الدين المسيحى. ويستطرد برونو قائلاً إنه من الخطأ أن نعتقد أن قدماء المصريين كانوا يعبدون التماسيح والديوك.. بل إنهم كانوا يعبدون الله الحال فى هذه الأشياء. ويحذر برونو من احتقار مثل هذه العبادة، حيث إن الحيوانات والنباتات هى الآثار الحية للطبيعة. وليست الطبيعة فى نظره سوى تجسد لله الكائن فى الأشياء. ويقول برونو الشئ نفسه عن عبادة الإغريق لكوكب المشتري، فيقول إنهم عبدوا الله الموجود فيه. ويبدو أن مذهب الكنيسة الكاثوليكية ترك فيه أثراً واضحاً رغم اختلافه مع لاهوت هذه الكنيسة. وكان يهاجم بالذات هؤلاء الكاثوليك المنادين بأن الخلاص ليس رهناً بما يفعله الإنسان من أعمال صالحة، ولكنه رهن بقوة الإيمان. وأيضاً دعا برونو إلى التسامح ورأى فى التعصب الأعمى واعتقاد المرء بأنه يملك الحقيقة المطلقة شراً مستطيراً يهدد المجتمع.

والى جانب احتقاره للطوائف البروتستانتية، نراه يهاجم بقوة عيوب الكنيسة الكاثوليكية ومثالبها، وهو يعترض على إنشاء سلطة كهنوتية تقوم على العقائد الجامدة والمتزمته. وهو يرى أن الهدف الذى يسعى أى دين لتحقيقه لا يكمن فى معتقداته اللاهوتية العديمة الجدوى، ولكنه يكمن فى فائدته العملية. حرص برونو على الحقيقة مهما كبدهته من مخاطر أو أدت إلى تدمير مصالحه، مثل استخفافه بثائية اللاهوت والناسوت «حيث نرى شخصاً واحداً يتكون من طبيعتين ومن مادتين تندمجان فى

وحدة غير مادية». وكان برونو شديد التمسك بالحياة؛ ولهذا نراه لا يكف عن ازدراء الجانب القاتم والمتشائم من المسيحية، وازدراء دعوتها إلى التقشف وامتهان النفس وتمجيد الموت والألم والعذاب.

وطالب برونو الكنيسة الكاثوليكية بالتخلي عما فى عقائدها الجامدة من تناقض، كما طالب بالاستمساك بقانون الحب المترعرع فى قلب المسيحية التى ينبغى تطهيرها من الخزعبلات. وأيضاً عبر عن شكوكه حول صحة قضية الخليفة كما وردت فى قصة آدم وحواء، ووجد إنها قصة غير معقولة ومثيرة للضحك والاستهزاء. وهاجم برونو المعجزات كما عبر عن احتقاره للمذابح والتماثيل. والرأى عنده أن سائر الأديان، رغم فائدتها العملية، تتطوى على أكاذيب وأضاليل وتشويه للحقيقة وأن جنة عدن نوع من الهراء والتخريف! ثم إن الإنسان الأول (آدم وحواء) - الذى لا يعقل أنهما السبب فى الخليفة - لم يتحل بالفضيلة أو الذكاء، بل كان وحشاً كاسراً يفتقر إلى العقل والحجى. وقد استقى برونو هذا الرأى من الفيلسوف الشاعر لوكريشيوس، كما أنه أخذ عنه النظرية الذرية التى استمدتها لوكريشيوس بدوره من خلال أبيقور، ومن كل من الفيلسوفين الإغريقين ليوسيبيوس وديموقريطس.

كان برونو يتقن استخدام اللغة الرمزية الغامضة والملفوفة والملتوية التى لا يسهل استنباط آرائه منها. ويبدو من الخطاب الذى أرسله إلى السير فيليب سيدنى أنه كان يقف أثر فيثاغورث فى إيمانه بتناسخ الأرواح، لأن مثل هذا الإيمان كان يتفق مع إيمانه بواحدية الكون أو واحدية الطاقة المقدسة التى تبعث الحياة فى اللا محدود. ويبقى التساؤل مطروحاً: هل كان برونو يؤمن بخلود أرواح الأفراد؟ وعندما طرح عليه فيما بعد القضية هذا السؤال عن إيمانه بتناسخ الأرواح، أجابهم قائلاً: «إنى أومن بالأرواح الخالدة باعتبار أنها أرواح مفكرة» ثم مضى يتحدث ككاثوليكي قائلاً: «إن هذه الأرواح لا تنتقل من جسد إلى جسد؛ ولكنها تذهب إلى الجنة أو المطهر أو الجحيم». ولكنه لا يلبث أن يقول: «لقد فكرت ملياً فى هذا الموضوع، وإنى عندما أتحدث كفيلسوف أقول إن الروح ليس لها وجود خارج الجسد رغم أنها ليست الجسد، ومن ثم فإنه من الجائز أن تكون فى جسد أحد أو فى جسد غيره وأن تنتقل من جسد إلى جسد. وحتى إذا لم يكن هذا صحيحاً، فإنه يبدو على الأقل أمراً جائزاً من وجهة نظر الفيلسوف فيثاغورث». مثل هذا القول يتسم بالغموض والمراوغة وأبعد ما يكون عن الموضوع؛ غير أن طبع برونو الصريح ما لبث أن تغلب على مراوغته.

آمن برونو بأهمية ما يطرأ على العالم أو الكون من تغيرات. وهو يقول في هذا الشأن: «إذا لم يطرأ تغيير على الأجساد وإذا لم تتنوع المادة وتتغير الكائنات، فلن يكون هناك شيء مستساغ أو طيب أو بهيج. فالعمل المضنى يدخل علينا المسرة فقط إذا جاء بعد حالة من الراحة لوقت قصير.. ونحن لا نجد لذة في الراحة إلا إذا جاءت لمدة دقائق بعد حالة من النَّصَب والتعب».

والجدير بالذكر ، أن هذا المبحث الذي أهده برونو إلى السير فيليب سيدنى والمنشور في إنجلترا لم ينجح في إثارة اهتمام الإنجليز به، شأنه في ذلك شأن الأبحاث الأخرى المنشورة في لندن، ومع ذلك، فقد تم في عام ١٦٣٣ تقديم مسرحية مستمدة من مبحثه هذا أمام الملك شارل الأول وهنرييتا ماريا، كما أنه يبدو أن الشاعر الإنجليزي سبنسر تأثر بمبحث الوحش المنتصر عندما نظم قصيدته عن المتغيرات التي تصيب الأشياء. ورغم عدم اهتمام الإنجليز بآراء برونو إبان فترة بقائه في إنجلترا، فقد أظهر الاهتمام به في بداية القرن الثامن عشر عدد من الإنجليز التآليهيين ممن يؤمنون بأن الطبيعة تتم عن وجود الله دون إيمانهم بالتنزيل، مثل و. مورهد الذي ترجم إلى الإنجليزية بعض حواراته. ويذهب بعض الفلاسفة، وعلى رأسهم الفيلسوف ليبنتز، أن برونو كان يقصد بابا روما ويقصد تشبيهه بالوحش المطرود.

## جمعية الخيول السرية مثل بيجاسوس

### مع إضافة حمار سيلين

يعتبر هذا البحث ملحقاتاً لكتاب «الزمان». وكلا الكتابين بينيان ثمار حرية الفكر والتعبير في إنجلترا. لقد سبق أن رسم المؤلف لوسيان للأقدمين صورة لمغامرات حمار، كما أن أبوليوس سبق أن كتب روايته الرومانسية الغريبة بعنوان: «الحمار الذهبي». ونحن نشاهد في عصر النهضة ميكيا فيلي ينظم قصيدة بنفس هذا العنوان. فليس بالمستغرب إذن أن نرى برونو في شبابه يخصص للحمار مركزاً مميزاً ومرموقاً ينفرد به عن سائر المخلوقات. كرس برونو مبحثه لمناقشة «الحمارية» على المستويين: النظري والعمل، أو المجرد والملموس.

والفرس الوارد ذكره في الأدب الكلاسيكي القديم المسمى بيجاسوس طار راکضاً إلى السماء، وقدم خدمة لزيوس كبير الآلهة بأن فجّر له نافورة بحافره. ويبحث برونو عن الحمير هو بحث عن الحقيقة وكيفية الوصول إليها بأي ثمن بحيث يكون مقروناً بروح النقد، ومبيناً استحالة الوصول إلى أية حقائق مطلقة. ويحتمل أن يكون برونو قد تأثر بقراءة مبحث المصلح الديني إيرازموس «في مدح الحماقة»، علماً بأن برونو استقى جانباً من عنوانه من جماعة سرية يهودية مزجت بين الأفلاطونية الجديدة وتصوف فيثاغورث. ومبحث برونو مهدي إلى شخصية من وحي الخيال. وهو يبدأ بخطاب ينطوي على السخرية تعقبه سوناتة منظلومة في مدح حمار. ويخلع برونو القداسة على الحمار، ويبحث قراءه على أن يصبحوا حميراً وأن يزهاوا بذلك. ثم يسوق لنا سوناتة شديدة التقوى والورع بعنوان: «الحمار ودواجنه».

ويخلط برونو في مبحثه عن الحمارية الجد بالهزل، هادفاً إلى القضاء على الجهل والخزعبلات المرتبطتين بالدين. وأيضاً رفض برونو إقامة الإيمان بالدين على أساس الدعوة القائمة على الغباوة والمقترنة بالبلاهة، والتي تجعل من الدين شيئاً مبهماً يكتنفه الغموض ويستفلق على الأفهام. وهو يوضح لنا أن المسيحيين استخدموا الإنجيل أسوأ استخدام عندما سخروه لتمجيد الجهل؛ فضلاً عن أنه يلهب المنافقين بالسياط. وكذلك يرمى برونو بالجهل بعض الفلاسفة الذين يعتنقون الفلسفة الأرسطاطالسية. وخلاصة القول، أن برونو وجد الحمارية في كل مكان.. في الكنيسة والدين وساحات القضاء والمدارس. وهو يرى أن الدين الحقيقي يجب أن يتخلص من الجهل والخزعبلات. ويحتوى بحث برونو في الحمار على ثلاثة حوارات قصيرة. ويحدثنا المؤلف عن حمار يدعى أنورو تتاسخت روحه في عدة حمير حتى صار جواداً مثل بيجاسوس يعمل في خدمة آلهة السماء. بل إن هذا الحمار الذي تتاسخت روحه تحول إلى جسد الفيلسوف أرسطو .

ومن بين أفكار برونو العلمية الرائدة إبرازه للدور الوظيفي المهم الذي تؤديه أعضاء الجسم. فضلاً عن أهمية الدور الذي تلعبه يد الإنسان في تمييزه عن سائر الحيوانات.

يقول هوفدنج: إن برونو اعتنق المذهب الفلسفي المثالي؛ ولكن مثاليته امتزجت بمفهوم علمي عن سير العالم. ويحدثنا برونو عن موقف الحمار سيلين من نظرية فيثاغورث المنادية بتناسخ الأرواح. فهذا الحمار يرغب في الالتحاق بأكاديمية تؤمن بهذه النظرية. ولكن الحمار يصطدم بنص في لائحة الأكاديمية يصعب عليه تنفيذه يتلخص في التزام الصمت عامين كاملين. ويترفق كوكب المشتري بالحمار فيعطيه زلاقة اللسان وبلاغة القول لدرجة تقريه من البشر.

ولكن الحمار لا يفوته أن يسأل المشتري قائلاً: «قل لى يا سيدى وساعدنى قليلاً، من يجرى في المرتبة الأولى: الإنسان الذى يتناسخ فيصبح حماراً، أم الحمار الذى يتناسخ فيصبح إنساناً؟». ويبدو أن هذا الكتاب عن الحمير أغضب الدهماء والحكماء على حد سواء فأثر صاحبه حظره.

## جموح العشق

رغم أن برونو عبر عن زرايته بتصنع بترارك وافتعاله في تمجيد العشق الفكري، فإن عشقه للأفكار دفعه في نهاية المطاف إلى الوصول إلى رؤية شاملة للطبيعة التي تحل فيها روح الله. ويعتبر مبحثه «جموح العشق» ترنيمة تشع شعراً ونثراً بالجمال الفكري.

وذهب برونو إلى رأى في منتهى الخطورة فحواه أن ديانة أى شعب ينبغى اتباعها والالتزام بها باعتبارها جزءاً من دستوره وقانونه السياسى، دون أن يمنع ذلك ذوى الألباب من إخضاع هذه الديانة لأحكام العقل. وتتضح أهمية هذا الرأى عند تقديم برونو إلى محاكم التفتيش. فقد ذكر أمامها أنه يقبل الكنيسة باعتبارها مؤسسة عملية. ويؤكد برونو معتقداتها الراسخة باعتبارها ظلاً للحقيقة، لكنه فى نفس الوقت أصر على حرية الفلاسفة فى تفسير المعتقدات الكنسية تفسيراً مستقلاً. وأيضاً ذهب برونو إلى أن صاحب العقل والحجى يرفض الاستمسك بعالم المحسوسات الفانى أو العائز؛ بل يحرص على استخدام العقل الذى يمكن الإنسان من الالتحام الصوفى بالله الكائن فى الطبيعة.

ويقع هذا البحث فى جزعين كل منهما يحتوى على خمسة حوارات جاءت فيها العبارة التالية: «اللا نهائى حالة كونه لا نهائياً يجب اتباعه على نحو لا نهائى». ويستطرد برونو قائلاً: «وإن متابعة المعرفة الطبيعية وسيلة أكثر ما تكون روعة كملء الروح الإنسانية بجموح الحب». وهناك مراحل فى تأمل الحب المقدس والحكمة



المقدسة. ولكن لأن هذه الروح تسكن الجسد الذى يكبلها ويعوق حركتها، فإنها لا تتقدم على الدوام إلى الأمام. ومن ثم يتعين عليها أن توقف نفسها كي تبذل محاولة جديدة شجاعة: أولاً عن طريق الرغبة، ثانياً عن طريق الاهتمام.. ثم عن طريق الدراسة وأخيراً عن طريق الامتلاء بحماس الحب. ورغم أننا لا نستطيع أبداً أن نصل إلى اللانهائية المقدسة عن طريق القوة والحب والمعرفة، فإننا نستطيع أن نتمتع بانبعاثاتها المباركة. هذا هو طريق العقل لفهم الله الكائن فى الطبيعة.

ومن أقوال برونو التى تتضح بالتصوف قوله: «ولكن الحكيم هو الذى يعتبر جميع الأشياء المتغيرة وكأنها غير موجودة ويتأكد من أنها باطل الأباطيل». والرأى عنده أن الحواس تعيش طبقاً للأشياء المحسوسة. غير أن هناك قوانين أخرى. فاكتمال المعرفة يجب أن يتحد بالمشاعر المتأججة إزاء الحب والحقيقة. إن الرغبة فى الفهم تتمثل فى الروح السقيم الذى يتوق إلى العودة إلى داره، مما يحفزه على الانطلاق إلى عنان الحكمة الحقيقية والفرحة الحقيقية. وهو لا يتجنب الألم، بل يسعى إلى مكابדתه بإرادته لأن هذا قمين بأن يفضى به إلى الجمال الحقيقى المتمثل فى انسجام وتناسق جميع الأشياء فى نهاية المطاف.

ويحدثنا برونو فى هذا المبحث عن نوعين من جموح العشق: عشق الجهلاء الأجوف، وعشق العقل البناء. وهكذا تصبح الروح عن طريق إعمال العقل أشبه بالذات الإلهية المتصلة بهدفها المقدس.

والفرق بين هذين النوعين كالتالى: النوع الأول كالحمار الذى يحمل فوق ظهره أشياء ثمينة مقدسة، فى حين أن النوع الثانى هو القداسة بعينها. وإذا كان الجمال الحسى يموت فإن جمال الفكر والعقل حى لا يموت. والإنسان يصير إلهاً عن طريق الاتصال الفكرى بما يتجاوز الحس.. وهو من خلال حبه لكل ما هو مقدس يحتقر جميع المتع الأخرى ولا يفكر فى الحياة. بل يرى ضرورة لاقتفاء أثر اللا نهائية، رغم أنه يعلم سلفاً أنه لا سبيل للوصول إليها. فيكفى الناقص أن يحلق فى سماء اللانهائية دون الوصول إليها.

كان برونو على يقين من أن الذات الإلهية تسكن فى قلب الطبيعة، كما أنها تجسدت فى روح الطبيعة وفى أجرام السماوات اللا نهائية كما هى موجودة فى عقل الإنسان

وأكثر الزهور تواضعاً. وقد عبر عن ذلك في عدد من قصائده التي ضمنها مبحثه «جموح العشق».

ويؤكد برونو أنه لا يتوجه بكلامه إلى عامة الناس لأنهم لن يفهموه، بل إلى خاصتهم فعامة الناس لا تطلع عن فعل الشر إلا بشق الأنفس نتيجة الخوف من جهنم وعقاب الله الأبدى.

إن برونو في سعيه وتشوقه إلى اللانهائية سبق عدداً من الفلاسفة المحدثين العظام، أمثال كانط وفيخته. ومن أقواله الماثورة عن الشعر أنه لا يسير وفق قواعد، وقواعد الشعر متنوعة بتنوع الشعر. وإذا كان للشعر قواعد فهي مستمدة من القريض نفسه. ورداً على هذا السؤال: «ولكن كيف يمكن تمييز الشعراء الحقيقيين؟» قال تانسلو أحد الشخصيات الواردة في المبحث: «بما يشدونه من غناء».

## الكتب الجديدة التي أصدرها برونو أثناء زيارته

### الثانية لباريس

عندما زار برونو باريس للمرة الثانية عاش فيها شريداً فقيراً لا يجد مأوى يلوذ به أو شخصاً يحميه من غوائل الدهر. ولا يعرف أحد كيف كان فيلسوفنا يقتات هناك. وأثناء محاكمته ذكر برونو للقضاة الذين حاكموه أنه استغاث بالمندوب الفرنسى للكرسى البابوى أسقف برجامو الذى كان مندوزا قد عرفه إليه. وعبثاً حاول برونو الاستتجاد برجال الكنيسة، فى استصدار عفو عنه من البابا سكستوس الخامس كى يقبل عودته إلى أحضان الكنيسة، دون أن يضطر من جانبه إلى العودة إلى الرهينة. غير أن رجال الكنيسة اشترطوا عليه العودة إلى الدير إذا أراد الحصول على عفو من بابا روما الذى كان قد طرده من الكنيسة، وحذره الأب الجيزويتى ألونزو سباجنولو من أنه لم يعد له الحق بعد طرده من الكنيسة فى حضور القداس، بيد أن له الحق فى حضور الوعظات وتلاوة الصلوات فى الكنيسة.

وفى باريس عرض برونو نفسه للمخاطر بسبب صراحته وعدم توخيه الحذر عند التعبير عن بعض آرائه. وهناك التقى به فى ديسمبر عام ١٥٨٥ رجل هولندى اسمه أرنولد فان توتشل ، الذى وصف برونو بأنه فيلسوف معقد فى تفكيره لدرجة تعرضه للخطر. وكذلك اكتشف المسيو أوفراى فى دار الوثائق والكتب القومية فى باريس مخطوطة يومية، يعتقد أن جيولوم كوتن أمين مكتبة دير سانت فكتور سطرها. وتتضمن هذه المخطوطة وصفاً لزيارات برونو العديدة له فى الفترة من ٦ ديسمبر ١٥٨٥ إلى فبراير ١٥٨٦. وبدأت آراء برونو لكوتن صلفة ومتجاوزة الحدود، الأمر الذى

جعله يمتع من زيارات برونو له. وجاء على لسان كوتن في هذه اليوميات أن برونو كان بصدد تأليف كتاب بعنوان: «شجرة الفلاسفة»، وهو مبحث لم ير طريقه إلى النشر إبان حياة مؤلفه. وتخبرنا اليوميات أن والد برونو كان آنذاك حياً يرزق ويعيش في قرية نولا. وأيضاً حدث برونو مضيفه عن أشعار لوكريشيوس.

وفي اليوم التالي الموافق ٧ ديسمبر، زار برونو كوتن ليشرح له عمل الذاكرة الاصطناعية التي ضمتها كتبه. والجدير بالذكر، أن برونو كان لا يتقن الفرنسية ويفضل عليها الكتابة باللاتينية. فضلاً عن أن إتقانه للعلوم الطبيعية كان واضحاً، فقد اعترف له كاتب اليوميات باتساع معرفته في علم الجغرافيا.

ويصف كاتب اليوميات بتاريخ ١٢ ديسمبر أن برونو عرض عليه مؤلفاته عن فن التذكر. وفي الصراع المحتدم بين البابا سكتوس ونبلأ إيطاليا المتمردين عليه اتخذ برونو جانب النبلاء ضد البابا. وفي زيارة أخرى أجراها برونو لضيفه أوضح للبابا نجاحه في تنشيط الذاكرة الصناعية. وكان لبرونو مريد من عائلة عريقة يدعى جون هينكوين دافع ببسالة عن إضافات أستاذه الجديدة إلى علمي الفلك والرياضيات. والعجيب أن إنجلترا المتحررة لم تكثر بمستحدثات العلم الحديث، كما أن چينيف (سويسرا) الكالفينية المتزمتة اضطهدت في القرن السادس عشر المنادين بالتحديث. وكذلك رفضت فرنسا الكاثوليكية الاقتناع بنتائج العلم الحديث، بل كانت على استعداد لاستخدام العنف مع العلماء المجددين، الأمر الذي اضطر برونو إلى الرحيل من فرنسا. وهكذا كتب على برونو، بسبب استمساكه بمبادئه ودفاعه عنها، أن يتحول إلى جائل في أرض الله هائم على وجهه، يعرض نفسه للمخاطر والتهلكة والفدر والخيانة والأوبئة المتفشية والأمراض والطاعون والفاقة المدقعة أينما ذهب.

## الأعمال التي ألفها برونو ونشرها

### في مدينة ويتنبرج الألمانية

قال برونو أثناء محاكمته أمام محاكم التفتيش، إنه لم يجد ما يسد به رمقه لبضعة أيام عندما ذهب إلى مدينة مينز الألمانية فقرر الرحيل إلى ويتنبرج في ساكسونيا ، ولكن برونو أغفل ذكر ذهابه إلى جامعة مدينة ماربورج الجميلة المطلّة على نهر يقال له لاهن. وقد قام فيليب لاندجريف المعروف باهتمامه بعلم الفلك بإنشاء هذه الجامعة عام ١٥٢٧. والمثير أن هذه الجامعة الألمانية تمتعت باستقلالها عن بابا روما. وقد كتب رئيس هذه الجامعة بيترو ميچيدبوس يقول: «إن جيوردانو النولاني الحاصل على درجة الدكتوراه في اللاهوت الروماني تقدم بطلب إلى الجامعة لتدريس الفلسفة. ولكنني لأسباب قوية رفضت تعيينه في هذه الوظيفة. ووافقتني على ذلك كلية الفلسفة فتميز برونو غيظاً وأهانني في عقر داري، كما لو كنت بهذا قد انتهكت القوانين وأعراف الجامعات الألمانية. ولهذا أرسل خطاباً إلى جامعة ويتنبرج يعترض فيه على منعه من التدريس في جامعة مارنبورج. ويبدو أن ألبيريكو أحد معارفه، هو الذي نصحه بالتدريس في جامعة ماريبورج التي حاضرها عن أرسطو . وكانت هذه الجامعة تنعم عن غيرها بقدر أعظم من حرية النقاش في الأمور الفلسفية، الأمر الذي جذب إليها كثيراً من الطلبة من جميع أرجاء أوروبا. واستقبله الأساتذة في جامعة ويتنبرج بترحاب، وسمحت له إدارة الجامعة بإعطاء بعض الدروس الخصوصية للطلبة مراعاة لفاقته. وبسبب ترحاب هذه الجامعة به شعر بالامتنان نحوها. وفي عام ١٥٨٧، نشر نسخة مزيدة ومنقحة من كتابه «الشامل في علم العمارة». والجدير بالذكر، أن

المصلح الدينى البروتستانتى المعروف مارتن لوثر باشر التدريس فى هذه الجامعة. كما أن أفكار لول بخصوص تنشيط الذاكرة كانت شائعة هناك، مما شجع برونو على المضى قُدماً فى اتباع وتطوير مذهب لول فى شحذ الذاكرة لاستيعاب أكبر قدر من المعرفة.

وبعدئذ نشر برونو كتاباً بعنوان: «التقدم ومصباح هنتر للمسائل المنطقية» أهداه إلى رئيس الجامعة. والكتاب يتناول جانباً من المحاضرات التى ألقاها برونو فى جامعة ويتنبرج. ويدل الكتاب على مدى اقتناعه باستحالة الوصول إلى المعرفة الكاملة.

وفى الوقت نفسه، أصدر برونو كتاباً شديد الأهمية هاجم فيه آراء أرسطو المتعلقة بالكون. ويؤكد لنا برونو فى هذا المبحث أن المحرك الأول (أى الله بلغة أرسطو) ليس خارج الطبيعة، ولكنه كامن فيها يحركها ويعطيها الحياة.

اعتاد برونو أن يكلف بعض الناسخين بنسخ مؤلفاته، مما ساعد على نشرها فيما بعد. ووجد برونو نفسه فى جو تتنازع الأفكار اللوثرية المتحررة والأفكار الكالفينية المتزمته دون أن يعنى إعجابه بمارتن لوثر أن المذهب البروتستانتى اللوثرى راق له.

ورغم هجوم برونو على ما ينطوى عليه المذهب الكاثولىكى من خزعبلات، فإنه كان يعتبر نفسه واحداً من أتباع الكنيسة الكاثوليكية. إن إعجابه بالمصلح الدينى مارتن لوثر يرجع إلى أن لوثر حطم أغلال اللاهوت الكاثولىكى، وهذا ما كان يصبو إليه.

ومن الغريب أن برونو آثر الرحيل عن ويتنبرج البروتستانتية ليستقر فى مدينة براغ المستمسكة بالذهب الكاثولىكى.



## برونو فى كل من براغ وهلمستدت، ومؤلفاته

فى الفترة من ١٥٨٨ إلى ١٥٩٠

كانت جامعة براغ فى خلال فترة عملها لمدة قرنين من الزمان تتمتع بقدر وافر من الحرية والتقاليد الليبرالية. واعتق أهل بوهيميا البروتستانتية بشكل أو آخر! لأن طائفة الجيزويت الكاثوليكية لم تكن بعد قد سيطرت عليهم. وشاهدت براغ فى تلك الآونة شقاقاً بين الكاثوليك والبروتستانت لم يُفقد هذه المدينة كثيراً من سماحتها الدينية. وشجع برونو على الذهاب إلى براغ أن إمبراطورها فردريك رودولف الثانى اشتهر بمستواه الثقافى الرفيع وبرعايته لكل ضروب المعرفة. وبسبب حبه للمعرفة أنفق هذا الحاكم كثيراً من وقته فى قراءة الطالع والأبراج السماوية وفى البحث عن حجر الفيلسوف الذى يحول المعادن غير النفيسة إلى أصفر رنان، الأمر الذى مهد السبيل أمام اهتمامه اللاحق بمنجزات كبلر وغيره من علماء الفلك. وتعثّم برونو أن يكون دفاعه عن آراء لولى فى مجال شحذ الذاكرة سبباً فى رضا الإمبراطور رودولف عليه. وأيضاً شجعه على الذهاب إلى براغ تعيين فابريزيو موردنت - الذى تعرف عليه فى باريس وحظى بإعجابه - فى وظيفة فلكى البلاط الإمبراطورى. فضلاً عن وجود أحد معارفه وليم سانت كليمنت، الذى قابله فى فرنسا أثناء شغله وظيفه سفير إسبانيا هناك. علماً بأن هذا السفير كان من المقربين إلى الإمبراطور رودولف، ومن المهتمين بأبحاث لوف زميله فى المواطنة الإسبانية فى مجال تنشيط الذاكرة.

وصل برونو إلى بوهيميا نحو عام ١٥٨٨، حيث أهدى فى العاشر من يونيو من هذا العام كتابين صغيرين أضاف إليهما النثر اليسير، وسبق أن نشرهما فى ويتنبرج

مُطلقاً عليهما عنوان. «فحص الأشكال ومصباح ريموند لول المشترك: سيد المعارف الذى يصل الى مرتبة القداسة».

ثم أصدر برونو كتاباً أهداه إلى الإمبراطور بعنوان: «مائة وستون مقالاً موجهاً ضد فلاسفة وعلماء الرياضيات فى يومنا الراهن». ويتطلع المؤلف فى هذا الكتاب إلى انتشار ديانة مسيحية تقوم على الحب وتتأى بنفسها عن الفرقة والصراع والتعصب . ومعنى هذا أن برونو يريد أن يظهر المسيحية الكاثوليكية من أية أدران أو شوائب، وأن يجعل منها ديناً تقدمياً. وهاجم برونو فى هذا الكتاب الإيمان الدينى القائم على العادة والتقاليد مبرزاً أهمية أعمال العقل فى أمور الدين، وبذلك يكون برونو قد مهد السبيل إلى ظهور فلسفة كانط وأتباعه، كما مهد السبيل إلى ظهور الشك الديكارتى، حيث إنه يقول : «وإن كل شيء مهما بدا مؤكداً وواضحاً أمام المرء يتضح عند مناقشته أنه قابل للشك ويتسم بالمبالغة والمعتقدات المثيرة للضحك».

ويحتوى الكتاب على مائة وستين مقالاً ومائة وثمانين قطعة تعالج بإيجاز ما سوف يتناوله المؤلف برونو فيما بعد فى كتابيه «عن الذاكرة» و«عن الجوهر الفرد Nomad . والجدير بالذكر، أن الإمبراطور لم يصدق عليه أو ينفضحه مالا كثيراً. يقول برونو فى هذا الصدد: «بقيت ستة أشهر فى براغ حيث طبعت كتاباً فى الجبر أهديت نسخة منه إلى الإمبراطور فنفضنى ثلاثمائة دولار أخذتها ثم غادرت هذه المدينة».

وفى عام ١٥٧٦، أقام الدوق جوليوس فى دوقية هلمستدت جامعة صارت من أهم المراكز التعليمية فى ألمانيا ، ورغم أن هذا الدوق كان يؤمن بالمذهب البروتستانتى، فقد سمح لابنه وولى عهده هنرى جوليوس أن يتولى منصب أسقف هالبرستادت، وهو فى الرابعة عشرة من عمره. ورغم أن هذا الدوق ألغى الأديرة الموجودة فى دوقيته، فإنه لم يحاول الاستيلاء على ممتلكاتها وضمها إليه. ومن الواضح أن برونو كان سعيداً بالعمل فى هذه الجامعة، حيث إنه قال: «إن العناية الإلهية وليست الصدفة هى التى قادتني إلى هذا المكان». وليس أدل على سعادته بالعيش فى هذه الدوقية من قوله: «إن الذئب الرومانى الكاسر غرز أنيابه فى لحمى. ولكننى الآن أتمتع بالحرية الكاملة». واللافت للنظر أن برونو وصف نفسه فى تلك الفترة بأنه يعيش فى المنفى بسبب بحثه عن الحقيقة. غير أن برونو تهور فوصف الكنيسة الكاثوليكية بذلك الوحش الأسطورى الذى تطل من رأسه الشعابين النافثة للسموم والجهل والشر، الأمر الذى جعل تصالحه مع الكنيسة أكثر صعوبة.

وأمام محاكم التفتيش اعترف برونو بأنه ألقى خطاب تأبين بمناسبة وفاة الدوق البروتستانتي جوليوس، فنفضه ابن المتوفى هنري ثمانين سكوذة مكافأة له.

والجدير بالذكر، أن برونو سطر تعليقاً على هامش خطاب التأبين فحواه إنه (أي المتوفى) كان مهرطقاً. وبسبب العطية التي تلقاها برونو من هنري ابن الدوق المتوفى نراه يعبر عن شديد الامتنان له، ويهديه عام ١٥٩١ اثنين من أعماله. وساء الكنيسة الكاثوليكية ذلك الشاء العاطر الذي أمطره برونو على الدوق البروتستانتي.

كانت براغ - آنذاك - مركزاً من مراكز التنجيم والسحر وقراءة الطالع، الأمر الذي راق في عين برونو الذي جذبته إليه تلك الممارسات. وكان مؤلفنا تواقاً لمعرفة القوانين التي تحكم عالم السحر والسحرة. والجدير بالذكر، أن برونو أهدى أحد كتبه عن السحر إلى أحد تلاميذه وهو شاب من نورنبرج يدعى بيسلر، الذي رافق معلمه عند رحيله إلى بادوا وأصبح ناسخاً لمؤلفاته. وفي عام ١٨٦٦، ظهرت في أسواق باريس تسع مخطوطات من تأليفه كان بيسلر قد نسخها له. وتحتفظ مكتبة موسكو بنسخة من مبحثه عن السحر، وهو مبحث يرجع تاريخه إلى عام ١٥٩٠.

ويمالج مبحثه «عن السحر» الرياضيات كعمليات خبيثة أو غامضة تعمل داخل العقل والطبيعة، والمبحث يشرح الأفعال وردود الأفعال على أساس مبادئ المذهب الأفلاطوني الجديد وعلى أساس وجود حياة في كل الجوامد. ويرى برونو أن كثيراً من المعجزات ترجع إلى عمليات طبيعية لم نكتشف بعد ماهيتها. ويذهب مؤلفنا إلى أن هناك روحاً لا نهائياً في الكون يضم في طياته كل الأرواح المحدودة أو النهائية.

ويظهر كتاب برونو المعروف «المبادئ والعناصر وأسباب الأشياء» (\*) المنشور في ١٦ مارس ١٥٩٠ احتراماً شديداً وقبولاً عظيماً للتقاليد.

والرأي عنده أن ممارسة الساحر لسحره تجيء عن طريق روحه ، وأن الذي يساعده في نجاح عمله هو إيمان الناس بسحره. فالمسيح لم يكن بمقدوره عمل المعجزات لو أن الناس شكوا في قدرته على الإتيان بها. ويعتقد برونو أن الأجرام السماوية لها تأثيرها على البشر. فضلاً عن قبوله للمذهب الذري عند الإغريق.

وكذلك نشر برونو في تلك الفترة الكتاب الذي ألفه بعنوان: «الطب المنسوب إلى لول والمأخوذ جزئياً من الرياضيات وجزئياً من المبادئ الطبيعية». وقد قام برونو (\*) الذي يترجم أحياناً بعنوان: «السبب والمبدأ والوحدة».

بإملاء هذا الكتاب على الناسخين عقب كتابه «المبادئ والعناصر وأسباب الأشياء» مباشرة؛ علماً بأن برونو استقى كتابه عن الطب ومن مؤلفات لول الطبية. وبسبب خروج برونو عن المألوف وجنوحه عن المتبع مراراً وتكراراً نراه يواجه المشاكل المرة تلو الأخرى، كما نستدل على ذلك من الخطاب الذى سطره بخط يده. وقد وجه برونو هذا الخطاب إلى هوفمان رئيس الجامعة، وجاء فيه ما يلى: «سيدي الموقر الجليل للغاية مدير الجامعة، أنا جيوردانو برونو القادم من نولان والمحروم من الكنيسة بأمر بيوثيوس رئيس رعاتها والمشرف عليها فى هلمستدت الذى نصب نفسه قاضياً وجلاًداً دون السماح لى بالدفاع عن نفسى أمام الجمهور.. أرفع بكل تواضع إلى فخامتكم وأعضاء مجلس الشيوخ الموقرين شكواى من المرسوم الشخصى والشرير للغاية الذى أصدره سيادته ضدى.. بأننى أطلب سماع رأى حتى يعلم سيادته ما إذا كان الهجوم على تصرفى والنيل من سمعتى يقومان على الحق أم لا. لأنه كما قال الفيلسوف سينيكا: «الذى يصدر حكماً بعد سماع جانب واحد ليس عادلاً حتى لو جاء حكمه عادلاً». ولهذا أتوسل إلى فخامتكم استدعاء راعى الكنيسة الموقر حتى يظهر البيئة ضدى ويثبت صلاح دعواه على، وأن ما اتخذه من إجراء ضدى ليس نتيجة الضغينة الشخصية». وأغلب الظن أن هذا الالتماس وقع على آذان صماء وأن مدير الجامعة لم يستجب له. وبطبيعة الحال، ساعد طرده من الكنيسة على انفضاض مريديه من حوله، الأمر الذى عجل برحيله من هلمستدت والسفر إلى فرانكفورت. وهكذا غادر مدينة هلمستدت فى منتصف عام ١٥٩٠.

## برونو فى فرانكفورت وزيوريخ

كانت مدينة فرانكفورت من أهم المدن والمراكز الثقافية والعلمية فى ألمانيا. فضلاً عن أهميتها كمركز تجارى تقام فيه المعارض الذائعة الصيت، وراجت تجارة الكتب هناك رواجاً عظيماً. ورغم أن السلطة فى فرانكفورت دانت لطائفة البروتستانت، فإنها رأت أن مصلحة المدينة تقتضى منها انتهاج سياسة التسامح نحو الكاثوليك الرومان والمتمردين على الكرسي البابوى على حد سواء. ويبدو أن سمعة برونو السيئة سبقتة إلى فرانكفورت، حيث إننا نعرف من سجل المدينة المؤرخ فى ٢ يوليو عام ١٥٩٠ أنه تقرر رفض طلبه بالسكن فى بيت المطبعى ويتشيل، وطلب المسئولون عن المدينة إليه البحث عن مسكن آخر. ويجدر بالذكر، أن المطبعية هناك كانوا على درجة كبيرة من الاطلاع. فلا غرو إذا رأينا الساسة وكبار رجال الدولة يجتمعون فى مطابعهم لمناقشة أحدث الكتب. ودرج المطبعية فى ذلك العهد على توفير السكن للعلماء والباحثين المسافرين أثناء قيامهم بطباعة مؤلفاتهم. ولكن معظمهم فضلوا العيش فى بيوت مستقلة طلباً للهدوء المطلوب لإجراء أبحاثهم. ومما يذكر أن الأديب الإنجليزى المعروف السير فيليب سيدنى نزل ضيفاً على المطبعى ويتشيل. ورغم أن السلطة المدنية منعت برونو من العيش مع المطبعى ويتشيل، فقد تمكن هذا المطبعى من مقابله فى دير طائفة الكارملايت ووفر له لقمة العيش. يقول جاكوبوس بريكتانوس المولود فى أنتويرب بهولندا والذى اشتغل بتجارة الكتب فى البندقية، إنه أبلغ محاكم التفتيش أنه قابل برونو وتحدث معه فى فرانكفورت وفى بعض الأماكن الأخرى.

يقول رئيس دير الكارميا لايث إنه لاحظ أن برونو فى فترة بقائه فى هذا الدير انصرف إلى الكتابة واستحداث الجديد، مضيفاً أن الباحثين المهرطقين خالطوه، حيث إن الباحثين فى مدينة فرانكفورت كانوا فى مجملهم من الهراطقة.

وعندما سأل جاكوبوس بريكتانوس رئيس الدير عن رأيه فى شخصية برونو أجاب بقوله: «إنه رجل يتمتع بعقلية وتعليم بديعين... رجل عالمى... ولكنه (أى رئيس الدير) يعتقد أنه يخلو من كل أثر من الإيمان بالدين، مضيفاً أنه ادعى بأنه يعرف أكثر مما يعرفه الرسل وأنه لو أراد لاستطاع أنه يجعل العالم كله يدين بدين واحد». وعندما سألت محاكم التفتيش بريكتانوس عن أصدقاء برونو الحميمين عجز عن الإرشاد إلى أى واحد منهم. وأيضاً اعترف جيامباتيستا جيوتو - وهو شاب من سينا فى السابعة والعشرين من عمره يمتلك مكتبة فى أهم شوارع البندقية اسمها مكتبة مينرفا - بأنه التقى برونو كثيراً خلال معارض الكتب. ورغم أن كثيراً من الشر والأذى لحق برونو فيما بعد بسبب هذا الرجل، فإنه اعترف بكثرة تردد برونو على مكتبته فى البندقية؛ ولكنه أكد أنه لم يسمعه قط يقول أى شىء يشير الشكوك حول صحة عقيدته الكاثوليكية.

ونلاحظ أن أول عمل طبعه له ويتشيل بالاشتراك مع ناشر آخر هو مبحث أهداه إلى الدوق هنرى جوليوس. ولم يقم برونو نفسه بإهدائه هذا الكتاب، بل قام الطابعون من تلقاء أنفسهم بفعل ذلك. ويرجع تاريخ الإهداء إلى الثالث عشر من فبراير عام ١٥٩١. ويذكر لنا الطابعون فى إهداءهم «أن برونو أرغمه حدث غير متوقع على مغادرة المدينة بحيث تعذر عليه الانتهاء من آخر صفحة فى كتابه. وبالنظر إلى أنه لم يستطع تصحيح هذه الصفحة الأخيرة مثلما فعل مع بقية الكتاب، فإنه كتب إلينا يطلب استكمال ما حال القدر دون إتمامه». ولا يعرف الدارسون ما حدث على وجه التحديد: هل كان آباء الكنيسة الكاثوليكية فى فرانكفورت يلاحقونه؟ أم أنه تلقى دعوة عاجلة من الوجيه السويسرى جون هنرى هاينزىل، الذى كان يمتلك ضيعة بالقرب من زيوريخ للحضور إليه. توفر هاينزىل على دراسة تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب، وكان ميالاً إلى دراسة العلوم الغامضة. وألف برونو من أجل هاينزىل كتاباً عن المذهب اللوليانى (نسبة إلى لول الذى اشتهر بأبحاثه عن الذاكرة) طرح فى معرض الكتاب بفرانكفورت. وأيضاً مارس برونو التدريس فى زيوريخ، ذلك المركز التجارى المتألق



والمزدهر الذى زاده تألقاً وازدهاراً النساجون الطليان المنفيون من إيطاليا بسبب اعتناقهم للبروتستانتية. وعلى الرغم من خلو زيوريخ من وجود جامعة فيها، فإنها كانت قلب سويسرا الفكرى. ووجد برونو مسكناً لدى رجل سويسرى متحرر الفكر يدعى رفائيل إيجلين، الذى أصبح تلميذه ومريده. وثق برونو بتلميذه إيجلين فسلمه مخطوطات محاضراته التى لم تر طريقها إلى النشر حتى عام ١٥٩٥؛ وذلك من خلال مطبعة جون وولف. غير أن المجلد الأول لم يحتو إلا على عدد محدود من المحاضرات. وفيما بعد عُين إيجلين عام ١٦٠٩ أستاذاً لللاهوت فى جامعة ماربورج (تلك الجامعة التى سبق أن رفضت تعيين برونو فيها). وأعاد هذا التلميذ طبع أحد كتب معلمه القديمة ونقحها وأضاف إليها. مكث برونو فى بيت مريده نحو أربعة شهور عاد بعدها إلى فرانكفورت، فى ٧ مارس ١٥٩١، عندما تمكن من الحصول على إذن بإعادة طبع أحد مؤلفاته. وفى فرانكفورت مكث برونو أثناء زيارته الثانية لها نحو ستة شهور داخل مقره القديم فى دير الكارملايت. وعندما مثل برونو أمام محكمة التفتيش لم يشر بالمرة إلى زيارته الأولى لفرانكفورت وإقامته بمعبة الوجيه إيج، ولكنه ذكر زيارته الثانية إلى هذه المدينة. ويجدر بالذكر، أن زيارته الأولى إلى فرانكفورت كانت حافلة بالأحداث الجسام رغم قصرها، ويبدو أن ذكره لزيارته الأولى لهذه المدينة كان قميناً بتوريطه أمام المحكمة؛ لأنه قبل بمحض إرادته العيش تحت سقف واحد مع شخص متهم فى عقيدته الدينية. وإذا دلت رغبته فى إخفاء زيارته الأولى إلى فرانكفورت عن محاكم التفتيش على شىء، فإنها تدل على ما تتطوى عليه شخصيته من متناقضات. فهو طوراً يتهور فى كلامه ويطيش، وطوراً آخر يلتزم الحذر ويتوخى الفطنة درءاً لما قد تجره عليه الصراحة من مشاكل.

ويسجل «كتاب البندقية الذهبى» على القوم ووجهاءهم ممن قطنوا فيها، ومن بينهم عائلة النبيل موسينجو المرموقة. يقول بائع الكتب فى البندقية جيامباتيستا جيوتو: «سألنى وجيه من وجهاء البندقية هو السيد جيوفانى موسينجو الذى جاء إلى مكتبتى لشراء كتاب حديث من تأليف جيوردانو برونو ما إذا كنت أعرف هذا المؤلف شخصياً وما إذا كنت أعرف عنوانه، فأخبرته أننى قابلته فى فرانكفورت وأننى أظن أنه لا يزال يعيش هناك. عندئذ أردف السنيور موسينجو: «أريد منه المجيء إلى البندقية ليعلمنى أسرار التذكر والأشياء الأخرى التى ينسبها إلى نفسه كما قد ترى فى هذا الكتاب» عندئذ أجبته قائلاً: «أعتقد أنه سيحضر لو طلب أحد منه ذلك».

وبعد مضي بعض الأيام أحضر لى السنيور موسينجو خطاباً موجهًا إلى جيوردانو، راجيًا منى تسليمه إليه قائلًا إنه كتب إليه هذه الرسالة كي يعرف ما إذا كان بإمكانه الحضور إلى البندقية.

ومن جانبه، روى برونو الحكاية على النحو التالى: «أثناء وجودى فى فرانكفورت فى العام الماضى تلقيت خطابين من السنيور جيوفانى موسينجو يدعونى فيهما إلى الذهاب إلى البندقية لتعليمه فن التذكر والقدرة على الاكتشاف، ووعدنى بحسن المقابلة وبأنه سيعمل كل ما فى وسعه لإرضائى».

وبالنظر إلى أن البندقية كانت مركزًا تجاريًا حيويًا، فإنها أظهرت تسامحًا مع كثير من الهرطقات (راجع: د. رمسيس عوض «محاكم التفتيش فى إيطاليا»). وظن برونو أن البندقية سوف تكون ملاذًا آمنًا له بعد أن جرب الاضطهاد فى جنيف وماربورج وهلمستدت. وإلى جانب تحررها الفكرى تميزت البندقية بعشقتها للفكر والفن والطباعة الفاخرة. ولعل برونو رأى فى ذهابه إلى البندقية فرصة للرزق الموفور. وكان مضيفه جيوفانى موسينجو فى الرابعة والثلاثين ومساعدًا لمحاكم التفتيش عندما دعا برونو إلى الحضور إلى البندقية. ولأن برونو - آنذاك - كان يعتبر نفسه منتميًا إلى الكنيسة الكاثوليكية، فإنه لم يخطر على باله أن هذه الكنيسة سوف تقلب له ظهر المجن. ولعله ذهب إلى البندقية تمهيدًا لتحقيق حلمه بالعودة إلى نولا، مسقط رأسه الذى استبد به الحنين إليه.

## كتب برونو الأخيرة وقصيدته المنظومة باللغة اللاتينية

كان برونو شاعراً بقدر ما كان فيلسوفاً ومفكراً. وسعى إلى مزج الشعر بالعلم والفلسفة. فقد كان حلم حياته أن يصيغ أسرار الكون والطبيعة في قالب شعري بديع وجميل. وبذلك يكون قد حاول التوفيق بين المتناقضات، حيث إن الشعر يقوم على العاطفة، في حين أن البحث العلمي والاستقصاء الميتافيزيقي يخلوان منها.

وفي عام ١٥٩١، نشر برونو مجلدين يحتويان على ثلاث قصائد متشابكة ومترابطة. وقد طرح المجلد الأول للبيع في معرض الربيع في فرانكفورت بعنوان: «المقادير الثلاثية ومعياري العلوم التأملية الثلاثة ومبدأ الفنون العملية الكثيرة». ويقع هذا العمل في خمسة أجزاء تنقسم إلى فصول، يبدأ كل فصل منها بأشعار تعقبها شروح نثرية، ويتضمن جانب من هذا العمل تعاليمه التي سبق أن ضمنها كتابه الشهير «السبب والمبدأ»، في حين تناول بعض أجزائه علم الرياضيات أساساً. ويعالج الكتاب فكرة وحدة العلوم التأملية وروح الفرد المتوحدة وذرات المادة كوحدة فيزيقية. ويتضح لنا أن تطوراً طرأ على فكر برونو الفلسفي، حيث إنه لم يعد مجرد فيلسوف يردد الفلسفة الأفلاطونية الجديدة أو يبدي إعجابه بقدرة الله على تجاوز العالم المادي، بل اهتم اهتماماً بالغاً وأكثر عمقاً بحلول الله في الطبيعة.

وتعني بعض قصائد المجلد بتصوير فاعلية الكون الحي. وكما سبق أن ذكرنا، عبر برونو عن فلسفة الشك قبل مولد الفيلسوف الشكاك المعروف ديكارت بخمسة أعوام. فقد قال: «من يتوق إلى الفلسفة يجب أن يبدأ عمله بالشك في كل الأشياء». ودفع

التأمل برونو إلى البحث عن الثابت وراء المتغير، فوجد في الذات الإلهية اللانهائية وحدة الوحدات والأصل في جميع الأشياء والواحد المطلق غير القابل للتجزئة. كتب برونو يقول في هذا الصدد: «إن الأشياء في حد ذاتها تتغير وتصبح في العالم المادى نتائج يشوبها النقص. وهى أقرب ما تكون إلى اللاموجودات منها إلى الموجودات لأنها تتبعث من الخواء. ولأنها أبعد ما تكون عن الموجودات الحقيقية، فهى تذهب إلى الخواء أيضاً. ووجودها الحقيقى يجب أن يكون حيث لا تستطيع إلا أن توجد فى ذلك السبب الأول والمبدأ الكامل.. إن جميع الأشياء هى فى حقيقة الأمر شىء واحد بلا تمييز أو تشتت أو عدد. غير أنها مسألة تفوق قدرة البشر على الوصف».

ويضيف برونو إلى هذا قوله: «إن الروح حد أدنى خالد يحتمل التغير .. هناك أرواح كحدود دنيا لا يمكن تجزئتها إلى أبعد من هذا. ويتجلى الروح المطلق نفسه فى هذه الحدود الدنيا. والعلاقة بين هذه الأرواح ذات الحدود الدنيا وبين الروح المطلق غير واضحة ولا يمكن توضيحها؛ لأن أحد شروط هذه العلاقة يبقى على الأقل غير قابل للوصف على الإطلاق». وفى موضع آخر يقول برونو، إنه لا يمكن اعتبار هذه الحدود الدنيا مجرد أجزاء فى الروح المطلق.

نعود فنقرر أن برونو آمن أن العالم المادى أو الفيزيقي يتكون من ذرات لا تقبل التجزئة إلى ما لا نهاية؛ لأن المادة سوف تتلاشى كمادة إذا حدث لها ذلك. ومعنى هذا أنه ينبغى أن يكون لتجزئة المادة حد أدنى يستحيل تجاوزه أو الهبوط عن مقداره. ولو حدث هذا لتحولت المادة إلى شىء يمكن اختراقه، ولما استطاع جسم مقاومة غيره من الأجسام. إن مكونات المادة تتغير ولكن الحد الأدنى من المادة خالد لا يتغير. وكل حد أدنى يمثل مركز طاقة خارجة عنه يمكن أن يمتد إلى ما لانهاية. وهو غير قابل للفناء، كما أنه فى حالة حركة لا تتوقف. وهو يستمد هذا النشاط من فاعلية الأسباب النهائية المنبعثة من الروح المفردة أو من روح العالم. وكل حد أدنى يتضمن فى الوقت نفسه إمكانية تحوله إلى الحد الأقصى عن طريق جذب الحدود الدنيا الأخرى وضمها له. وهذا ينطبق على وحدة الوحدات التى تضم فى طياتها الحد الأدنى والحد الأقصى وسائر الخصائص التى تتحد فى كينونة واحدة أو فى مطلق واحد. هذا المطلق عبارة عن روح يدرك ذاته أو نفسه، عارفاً بكل ما يحتويه. ويحذرنا برونو من الخلط بين المعرفة القائمة على الحدس الرياضى والوجود الفيزيقي. والرأى عنده أن الذرة

المادية تحتل المركز الدائم لعمل الله المسئول عما نراه فى الطبيعة من تعقيد. ويذهب برونو إلى أننا نعرف المعلومات عن طريق الحواس ثم يقوم العقل بتصحيحها. وهو يرى أن الإنسان لا يستطيع قياس أى شئ بدون وجود الوحدة القياسية أو الحد الأدنى. ولكن العقل هو الذى يمكّننا من الوصول إلى مفهوم لهذه الوحدة القياسية. وهو يضيف أن لكل فرع من فروع المعرفة الوحدة القياسية الخاصة به.

ويؤكد برونو أن الحد الأدنى خالد سواء أكان روحاً أم ذرة مادية، الأمر الذى حدا ببعض المفسرين إلى الاعتقاد بأنه آمن بخلود الروح الفردية وأنه نبذ نظريته عن حلول الله فى الطبيعة التى دافع عنها فى كتابه «السبب والمبدأ». ولكن يبدو أن هذا التعبير عن رأيه فى وجود أرواح خالدة للأفراد لا يمثل حقيقة موقفه من هذا الموضوع، حيث إنه لا يمل من تكرار القول بوجود روح واحدة فى العالم تظهر نفسها فى أشكال متعددة. والبروفيسور ماك إنتاير أحد الدارسين الذين يذهبون إلى أن برونو خلص إلى الإيمان بخلود الروح الفرد. وهذا أيضاً ما ارتآه الباحث توكو الذى ما لبث أن نبذ هذا رأى قائلاً إن برونو أقام فلسفته على أساس أن المادة تتكون من ذرات لا تحس ولا تشعر وغير قابلة للتجزئة، فى حين أن الروح التى لا تعرف التجزئة تبقى دوماً متوحدة على ذاتها فى الخصائص والمادة. غير أن توكو يتهمة بالتضارب والثائية فى تطبيق معيارين متباينين على المادة والعقل. والجدير بالذكر، أن تقسيم برونو الكون إلى عنصرين متميزين هما المادة والروح لا ينبغى أن ينسبنا توحيدهما. فبرونو لا يفصل المادة عن الروح، حتى وإن قام بتقسيمهما. ويبدو أنه اعتبر الذرات نفوساً نشطة تقوم أرواح الأفراد بتوجيهها. ويفسر البعض حديث برونو عن خلود أرواح الأفراد بأنه يرجع إلى رغبته فى توخى الحذر وتجنب الاصطدام بالتقاليد الدينية. ورغم هذا، فإنه يستخدم لغة فيثاغورث التصوفية التى راقت له. وقد كان على يقين من أن مركز التجربة الفردية ليس سوى صدى للتجربة الكونية بأسرها. كما أنه يقول: «إن الموت هو القفز إلى الحياة». فضلاً عن قوله: «إن الموت العنصرى الراهن ليست له أية علاقة بالأشكال التى لا تعد ولا تحصى التى تتخذها الحياة الدائمة. ولو كانت الروح تدرك هذا لما هابت الموت. والحكماء لا يخافون الموت، بل قد يرغبون فيه ويتقدمون نحوه لاحتضانه. إن جميع المواد سوف تدوم إلى الأبد وسوف تسكن اللانهائية. وهى من أجل تحقيق ذاتها تتجلى فى كافة الأشياء». ويعتقد بعض الدارسين أن الفيلسوف ليبنتز تأثر بفلسفة برونو، ولكن بعضهم الآخر ينكرون هذا.

وفى معرض الكتاب المنعقد فى فرانكفورت فى فصل الخريف قام ويتشيل وشريكه فيشر بنشر بقية القصيدة العظيمة تحت عنوان: «عن الوحدة القياسية والكم والشكل». فضلاً عن قيامهما بنشر ثمانية كتب عن الذى لا يمكن إحصاؤه أو قياسه أو رسمه فى هيئة أشكال. ويتضمن كتابه عن «الوحدة القياسية» أبياتاً من الشعر تكيل الثناء على الدوق هنرى جولويس حاكم مقاطعة برونزويك، كما تتضمن مقارنة بين الذين يبذلون الجهد والعرق فى الحياة والأثرياء الكسالى المتراخين المتكالبين على اللذة.

وعلى الرغم من أن الاضطهاد والمعاناة تركا فى نفسه أسوأ الأثر، فإنه كتب يقول: «مهما يكن القدر القاسى الذى ينتظرنى، فقد بدأت الكفاح منذ طفولتى. ويشهد الله على أنى أقتفى أثر الحقيقة دون أن أنهزم. حتى الموت نفسه لا يخيفنى أو يثير فىّ الفزع، كما أننى لا أجثو أمام العنف الذى يمارسه أى مخلوق ضدى». وقد رد برونو فى أشعاره النغمة نفسها، فهو يتغنى بقوله: «لقد ناضلت كثيراً؛ غير أن القدر يعطى النصر لمن يشاء. ومهما حدث لى ومهما كنت مهزوماً أم منتصراً، فإن الأجيال القادمة لن تتكر أننى لم أخش الردى، وأننى كنت فى إخلاصى بلا منازع وأنى أفضل أن أموت ميتة الشجعان من أن أعيش عيشة الذل والانكسار».

وعلى الرغم من الإبداع الذى اتسم به كثير من شعر برونو، فإن لغته الشعرية واستخدامه النشاز للعروض منع الكثيرين من استساغة شعره. واللافت للنظر أكثر من غيره فى هذه الأشعار أنها تميزت باهتمامها بالجوانب الصوفية الغامضة وغير المنظورة فى الحياة. ولم يكن هذا الاهتمام مقصوراً على برونو وحده، فقد شاركه فيه كثير من شخصيات عصر النهضة فى أوروبا. وتتم هذه الأشعار عن تأثر صاحبها العميق بكورنيليوس أجريبا. ويقول برونو فى هذا الصدد إنه هنا يهتم بالوحى والتزليل والإيمان والتتجيم، وأنه لا يُعنى بالمعرفة القائمة على أعمال العقل وعلى التجربة. وهو يغتتم الفرصة كي يهاجم الأفكار الجامدة المتزمتة التى تعكر صفو الهدوء الإنسانى كما تعكر صفو السلام خلال العصور والحقب. فضلاً عن أنها تطفئ نور العقل ولا تفيد فى تحسين الأخلاق. وتكسو هذه الأشعار نزعة تصوفية وفلسفية تتم عن تأثر صاحبها بعالم الرياضيات المتصوف المعروف فيثاغورث. وكذلك نرى أن برونو فى أشعاره يحدثنا عن لانهائية العوالم المنبثقة من مادة واحدة، وأن ما نراه من تنوع فى الكون وجميع المخلوقات يرجع إلى اتحاد الواحد بالمتعدد.



## «عن اللامحدود»

ألف برونو هذا الكتاب العظيم الذى لا يقل فى عظمته عن كتابه «الأسباب والعناصر». ورغم ما فيه من دفاع عن الفلسفة المثالية، فإنه يسعى إلى مزجها وتوحيدها بالمفاهيم العلمية للكون. وهذا الكتاب شأن بعض كتبه الأخرى مثل «الحد الأدنى» يشتمل على شعر مكتوب باللغة اللاتينية، تذيله بعض الشروح النثرية. وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أنه يتضمن آراء برونو فى شكلها النهائى.

يذهب المؤلف فى هذا الكتاب إلى أن الطبيعة لا تتوقف عن الكشف عن نفسها فى حركات لا تكرر نفسها. ويقوم بتصحيح الوهم عن طريق مقارنة مدركات إحدى الحواس بمدركات بقية الحواس. ويدل المجلد الذى ألفه برونو باسم Cena على أن معرفته بالرياضيات والفلك أقل كثيراً فى مستواها عن مستوى العالم البولندى كوبرنيكوس. ونحن نراه فى كتاب «عن الضخامة» يصحح ما وقع فيه من أخطاء فلكية ورياضية. ويسوق برونو فصلاً كاملاً من أبحاث كوبرنيكوس ثم يتولى تصويبها، لدرجة أنه استطاع أن يخلص إلى نفس النتائج التى توصل إليها جاليليو، وفحواه أن المحور فى الحركة الدائرية يكون متوازياً مع نفسه. وكذلك توصل برونو إلى أن الكواكب التى تدور حول الشمس تستمد حياتها مما تبعثه الشمس الواقعة فى مركز المجموعة من ضوء وحرارة، كما أن الكواكب (مثل الأرض) عبارة عن أجسام باردة ومعتمدة. وبسبب بصيرته الثاقبة استطاع برونو أن يسبق كبلر وجاليليو ونيوتن فى القول إن الأرض ليست أكثر الكواكب ثقلًا فى الطبيعة، حيث إن الكواكب فى الفضاء تسبح بأمان بدافع

من طاقتها الداخلية. وليست هناك في رأيه أية فوارق جوهرية بين أجرام السماء وكوكب الأرض كما كان أرسطو يظن، كما أنه لا توجد فروق جوهرية بين الشمس وكوكب الأرض. ويذكر برونو أن هناك كواكب خفية وغير منظورة تدور حول النجوم، كما أن هناك كواكب لم تكتشف حتى حينئذ تدور حول الشمس التي يصفها بأنها جسم صلب يحتوى على مادة سائلة محترقة خالقة بذلك غلافاً جويًا مضيئاً. لقد سبق لبرونو عام ١٥٨٤ أن قال إن الشمس جسم معدنى صلب؛ غير أنه الآن يقول إن ضوء الشمس وحرارتها ناجمان عن التغيرات الكيميائية التي تعترى الأجزاء السائلة في هذا الجسم. ويرى برونو أن هذا الفوران أو الغليان الدائم داخل الشمس والراجع إلى التغيرات الكيميائية هو السبب في دوران الشمس، وأيضاً ترجع لمعة الشمس والنجوم إلى سرعة دورانها. ولكن الكواكب تخلو من هذه الظاهرة، حيث إنها لا تبعث الضوء ولكنها تقوم بعكسه فقط.

أظهر برونو اهتماماً بالغاً بالشهب، رافضاً تفسير الفلكيين القدامى منذ أرسطو بأنها أبخرة تحترق ببطء تضرم حركة النجوم فيها النار. وأكد أن الشهب جزء لا يتجزأ من النظام الكونى تنطبق عليه نفس قوانينه. وهو يرى أن هذه الشهب السابحة في الفضاء تنبض بالحياة. غير أن فكرته عن المسافات الفاصلة بين النجوم والكواكب كانت خاطئة، فهو يرى أن المسافة بين الأرض والشمس لا تختلف كثيراً عن المسافة بين الشمس وكل من المشتري وزحل. كما أنه اعتقد خاطئاً أن قدرة دوران هذين الكوكبين الأخيرين حول الشمس لا تزيد على عام واحد، وهى المدة التي يستغرقها دوران كوكب الأرض حول الشمس.

وطراً على فكر برونو شيء من التغير. فقبل ذلك بسبعة أعوام نادى بخلود النجوم والكواكب، قائلاً إن بعض التغيرات تطرأ عليها. أما الآن فهو يقول إن الكون برمته هو الخالد، وإن العوالم فيه تضمحل وتتلاشى وتدخل أجزاءها الفانية في تكوينات جديدة. وأيضاً هاجم برونو الخزعبلات المتصلة بالأديان، مثل تأليه الكاثوليك لبابا روما.

## «ترتيب الصور والإشارات والأفكار»

ظهر هذا الكتاب - وهو آخر الكتب التي ألفها برونو - في نفس معرض الربيع المقام في فراتكفورت. وتدل قائمة الكتب الخاصة بهذا المعرض أن تاريخ نشر هذا الكتاب يرجع إلى عام ١٥٩٢، وقد صدر المؤلف كتابه بخطاب إهداء موجه إلى لورد إليج هنريتش هاينزل، أكثر الرجال سموًا وكرمًا. ويذكر المؤلف للنبييل هاينزل أنه يعتبر هذا الكتاب من أهم أعماله؛ لأنه يهدف فيه توضيح كيف أن الصور والإشارات والأفكار يمكن ترتيبها في العقل من أجل إقامة مشروع عام لاكتشاف وتنظيم الحقائق وتثبيتها في الذاكرة. ومعظم هذا المبحث مكتوب بالثر؛ ولكن جانبًا منه مكتوب بالشعر. ورغم أن برونو في هذا المبحث يتبنى الأفلاطونية الجديدة، فإنه يبتعد عنها هنا ويعتق المذهب المثالي الألماني. ويبدأ المبحث بالتعرف على الأفكار والأشياء والعقل والمادة والذاكرة والطبيعة والمعرفة والحقائق. فضلاً عن أنه يتضمن إيمانه بالحدس الصوفي. ويلاحظ الدارسون تورط برونو في خطأ سبق لفيثاغورث أن ارتكبه، وهو إيمانه بأن الأرقام تمثل تركيبة الكون وتحظى بوجود موضوعي طالما أنها واضحة وضوح الشمس. وفي هذا المبحث عبر برونو أيضاً عن إدراكه للوحدة التي تربط بين جميع الفنون.

ولا يفوتنا أن نذكر مؤلفات برونو الأخيرة بدون الإشارة إلى «قائمة المصطلحات الميتافيزيقية لدراسة المنطق والفلسفة» المنشورة في زيوريخ. فضلاً عن مبحث آخر بعنوان: «اقتراح من أجل الكينونة واكتشافها».

ويجدر بالذكر أن نكرر أن برونو في هذا المبحث الأخير يؤكد أن الله موجود في الأشياء والطبيعة، وهو مذهب الواحدية Pantheism.

وفي زيارته الثانية لفرانكفورت ألف برونو وسطراً بخط يده مبحثه «تثبيت النوع»، ولكنه تركه دون أن ينتهي منه. وقد اكتشفت مخطوطته في باريس في القرن التاسع عشر وتحتفظ به الآن مكتبة موسكو. وتعالج هذه المخطوطة موضوع العلوم الأخلاقية من وجهة نظر موضوعية ومحيدة تماماً. فهو يشرح الصنوف المختلفة من الحب والجاذبية الجنسية وعلاقة الحب بالكراهة بطريقة أشد ما تكون جرأة ووضوحاً. ويستطرد برونو ليعبر عن اعتقاده بأن خوف الإنسان المروع من الجحيم أكثر بشاعة من الجحيم نفسه، وأن هذا الخوف وليد التخيلات ويمثل أغلالاً تكبل العقل البشري.

## عودة برونو إلى البندقية وبادوا

إن الاضطهاد الذي لقيه برونو في نابولي وچينيف وباريس وألمانيا لم يفت في عضده أو يبدد تفاؤله وثقته بأن الكنيسة الكاثوليكية سوف تقبل عودته إلى حظيرتها، كما أنه لم يزعزع إيمانه الراسخ بأن الحقيقة سوف تسطع في نهاية الأمر. ومن ناحيته، أرسل النبيل الإيطالي موسينجو إليه أكثر من دعوة تلح عليه بالحضور، واعدة بتوفير الحماية له؛ ولعل شوقه إلى العودة إلى وطنه هو الذي حدا به إلى تلبية رغبة موسينجو؛ ولهذا قرر العودة المشثومة إلى البندقية في خريف عام ١٥٩١. وأيضاً استجاب برونو إلى رجاء مضيفه بالعيش معه تحت سقف واحد في قصره. ولم يكن برونو يتوقع أنه سيقع في براثن إنسان غادر ولثيم. وأثارت عودته إلى إيطاليا دهشة الكثيرين من فرط جسارتها. والجدير بالذكر، أنه اصطحب معه تلميذه بيسار الناسخ لمؤلفاته. وبعد عودته إلى البندقية في باريس ١٥٩٢، قبل برونو أن يعيش في قصر موسينجو الواقع في أرض كامبو س. صامويل في الجراندي كانال.

وهي بادئ الأمر لم تكن هناك أمام برونو أية عقبات أو مشاكل، فقد دأب على التردد على المكتبات والتحدث إلى المترددين عليها من أهل العلم. واعترف ناشره الإيطالي كيوتو بأنه لم يسمعه يتفوه بأية هرطقات. وذاع أمر برونو في البندقية فأحاطه الجميع بالتوقير والإجلال. ثم بدأ يزور المؤرخ الإيطالي الكريم المضيف أندريا موروسيني، حيث التقى بوجهاء الدولة المعنيين بالثقافة. كان موروسيني

كاثوليكيًا واسع الأفق. وعندما أدلى هذا المؤرخ بشهادته عند محاكمة برونو توخى الحذر والتحفظ، فقد قال: «على مدى بعض الشهور الماضية تم طرح عدد من الكتب الفلسفية في مكاتب البندقية من تأليف جيوردانو برونو. وهو رجل اشتهر بتعدد جوانب علمه. وفهمت مما سمعته في البندقية ومما قاله بائع الكتب جيو باسيتا (كيوتو).. أن هذا الرجل (برونو) موجود هنا وأنا قد نرغب في استضافته في منازلنا، حيث يمكن لبعض الوجهاء ورجال الدين مناقشته في الأدب والفلسفة بوجه خاص. عندئذ طلبت دعوته إلى منزلي. وحضر إليه عدة مرات لمناقشة المعارف المتنوعة. غير أني لم أتمكن قط من أن أستنتج من مداخلاته أنه يدين بأية آراء تناقض صحيح الدين. وفيما يتعلق بشخصي، كنت أعتبره على الدوام مؤمنًا بالكاثوليكية. ولو كنت أشك في ذلك لحظة واحدة لما سمحت له بدخول عتبة بيتي. أما برونو فقال: «إن كثيرًا من عليّة القوم والمهتمين بالأدب اجتمعوا هناك، حيث دخلت في مناقشات مع بعض أمناء المكتبات. ولكني لم أتذكر منهم أي أحد لأنني لم أكن أعرفهم». وأكد برونو لمحققيه أنه في فترة وجوده في البندقية لم يقوم قط بتعليم أية مذاهب مهرطقة؛ ولكنه أضاف أنه ناقش أمور الفلسفة مع كثير من الوجهاء.

وفي إيطاليا، سعى برونو جاهدًا إلى التقرب من الكنيسة الكاثوليكية وخطر له أن يعرض أمره على بابا روما الجديد أبوليتو ألدو برانديني (كليمنت الخامس)، الذي اشتهر باعتداله وتسامحه الذي تبخر أمام خطر الزحف البروتستانتى تحت ضغط الكاردينال س. سفيرينو. وفي أثناء محاكمته عبر برونو مرارًا وتكرارًا عن رغبته في العودة إلى الكنيسة بشرط إعفائه من حياة الرهبنة. وكتب الأب دومينيكو حول هذا الموضوع يقول: «في شهر مايو بالذات، يوم عيد العنصرة المقدس (الذي نزل فيه الروح القدس على تلاميذ السيد المسيح على هيئة ألسنة لهب) عندما كنت خارجًا من كنيسة القديسين يوحنا وبولس، لاحظت رجالاً في ثياب غير كهنوتية ينحنى أمامي. ولم أعرفه في بادئ الأمر. ولكن عندما تحدث إليّ قائلاً (تعال معي إلى مكان منفرد) تذكرت أنه أحد الرهبان في إحدى مناطق المملكة، وهو أديب يدعى الراهب جيوردانو النولاني. وانسحبت معه إلى مكان هادئ في الكنيسة المشار إليها، حيث أخبرني بالسبب الذي دعاه إلى مفادرة منطقته وسبب نزع الرداء الكهنوتي عنه نتيجة طرده من الكنيسة على يد الراهب دومينيكو فينتا. وأخبرني أيضًا عن إقامته في عدة ممالك وفي بلوط الملوك وإلقاء المحاضرات. ولكنه قال إنه عاش دومًا ككاثوليكي. وعندما



سألته عما يفعل في البندقية وكيف يكسب قوته، أجاب بأن مدة إقامته في البندقية قصيرة للغاية، وأنه يملك ما يكفيه من المال وأنه يرغب في أن يعيش عيشة هادئة، وأنه بصدد تأليف كتاب يشغل باله وأن يقدم هذا الكتاب بواسطة شخصية كبيرة إلى قداسة البابا ويحصل على مغفرته. وعبر عن أمله في أن يعيش في روما وأن يكرس حياته للأدب، وربما لإلقاء بعض المحاضرات. وأضاف دومينيكو أن برونو دأب على التردد كثيراً على كنيسة القديسين يوحنا وبولس في البندقية، إلى جانب تردده على كنيسة سانت ستيفانو القريبة من مسكنه والتي أقيمت في العصور الوسطى.

ويبدو أن برونو رأى بنفسه أن كل البلاد الأوروبية تضيق ذرعاً بأصالته الفكرية وبالأفكار الجديدة، فقد تعرض فيها للعنف والاضطهاد بدرجات متفاوتة. ودعاه هذا إلى الرغبة في الالتجاء إلى حضن الكنيسة الكاثوليكية التي لم يخبُ حبه لها أبداً. فضلاً عن أنه أراد العودة إلى موطنه الأصلي الذي استبد به الشوق إليه.

وذكر برونو أنه أسر برغبته في العودة إلى الكنيسة لكل من تلميذه موسينجو والراهب دومينيكو. ويبدو أن أن نقاوة شخصية برونو جعلته يحسن الظن بكل من يظهر الود نحوه، حتى لو كان وداً زائفاً يخفى الغدر في طياته، ولعل تعصب موسينجو الديني الأعمى هو الذي جعله يرمى شباكه لاصطياد ضحيته بإغرائه بمغادرة ألمانيا والعودة إلى إيطاليا كي يتمكن من تسليمه إلى جلاديه. ويحتمل أن تكون محاكم التفتيش هي التي حرضته على الوقعة بالفيلسوف الساذج البريء الذي يحسن الظن بالبشر. ولعب كاهن اعتراف موسينجو دوراً مهماً بإقناع هذا النبيل الخسيس بالوقعة برونو، فقد اعترف موسينجو لمحاكم التفتيش إن ضميره والأمر الذي أصدره بارليه كاهن الاعتراف اضطراره إلى فعل ما فعل، ولاشك أن عمل موسينجو كمساعد لمحاكم التفتيش ساعده كثيراً في الإيقاع بضحيته. ومن الجائز أن موسينجو تطلع إلى أن يتعلم السحر على يد برونو الذي خيب ظنه؛ لأن هذا الفيلسوف كان يكن الاحتقار الشديد للتعاويد ولا يرى فيها أية جدوى رغم شدة ولعه بدراسة السحر. وفي بادئ الأمر سارت المحاكمة على غير هوى موسينجو ومحرضيه. ولكن برونو اعترف أمام قضااته أنه أسر إلى موسينجو وبعض القساوسة أنه ينبغي العودة إلى حضن الكنيسة الكاثوليكية الدافئ، وأن موسينجو وعد بمساعدته في تحقيق رغبته.

قال برونو للقضاة الذين قاموا باستجوابه إن موسينجو اتهمه بالتقصير في تعليمه، مؤكداً أنه بذل كل ما في وسعه لتعليمه، ثم استطرد برونو قائلاً، إنه قرر العودة إلى

فرانكفورت للإشراف على طبع مؤلفاته. واستأذن من مضيفه موسينجو للسفر إلى فرانكفورت، فاتهمه الرجل بأنه يرغب في الذهاب إلى هناك لممارسة التدريس وأصر على استبقائه. واستطرد برونو قائلاً عن مضيفه: «فبدأ يشكو من أنني لم أعلمه كل ما وعدته به، ثم أخذ يتوعد ويهدد قائلاً إنني إذا لم أبق طواعية واختياراً فإنه سوف يجد الوسيلة لإرغامى على ذلك. وفى الليلة التالية عندما رأى أنني مصمم على الرحيل وأننى انتهيت من ترتيب كل أمورى كما عملت الترتيبات الخاصة بنقل متعلقاتى إلى فرانكفورت، دخل على غرفة نومي بعد أن أويت إلى الفراش بزعم أنه يريد التحدث معى وتبعه خادمه بارتولمو برفقة خمسة أو ستة أشخاص آخرين أعتقد أنهم يعملون فى تسيير الجندولات إذا لم أكن مخطئاً، وأيقظونى من النوم واقتادونى إلى حجرة فوق سطح السراى وأغلقوها على بالضبة والمفتاح. وقال (موسينجو) لى إننى إذا بقيت وعلمته المصطلحات الخاصة بتذكر الكلمات وعلم الهندسة من البداية فسوف يطلق سراحي، وإذا لم أفعل هذا فسوف يكون لرفضى نتائج وخيمة. وأجبت بقولى إننى أعتقد دوماً أنني همت بتعليمه بما فيه الكفاية وبأكثر مما اتفقنا عليه، وإننى لا أستحق منه هذه المعاملة. وتركنى هناك حتى اليوم التالى عندما دخل ضابط بصحبة الرجال الذين لا أعرفهم وأمرهم بأخذى إلى قبو تحت الأرض حيث تركونى حتى هبوط ظلام الليل، ثم جاء ضابط آخر بصحبته فرقته واقتادنى إلى المكتب المقدس. وفيما بعد صرح برونو قائلاً: «لم يكتف موسينجو بالتعبير عن رغبته فى تعلم كل ما أعرف، بل أيضاً بتعليمه ما ليس باستطاعته أن أعلمه لأحد. وهددنى باستمرار فى شرفى وحياتى إذا امتنعت عن تعليمه كل ما أعرف».

ثم قام موسينجو بالاستيلاء على كل نقود برونو وملابسه ومخطوطاته وكتبه قبل أن يسلمه إلى محاكم التفتيش. وقام الضابط ماتيوا أفاتا العامل تحت إمرة مجلس العشرة، بإلقاء القبض عليه ونقله إلى سجن محاكم التفتيش الواقع إلى الغرب من جسر التهديات والمواجه لقصر الدوق فى البندقية. واختلطت الحقائق بالأكاذيب، إذ قال موسينجو فى أولى الشهادات التى أدلى بها: «قال (برونو) أثناء حديثه معى فى بيتى إنه ينحى باللائمة الشديدة على الكاثوليك لأنهم يعتقدون فى تحول خبز القربان إلى جسد المسيح، وأنه عدو للمناولة، وأن جميع الأديان لا ترضيه وأن المسيح إنسان تعس كان يتعين عليه أن يتوقع الشنق لما ارتكبه من شر وغواية للناس». ويستطرد موسينجو قائلاً إن برونو أنكر الثالوث، وقال إن الكون سرمدى وخالد وإن العوالم فيه بلا نهاية.

فضلاً عن قوله إن المسيح كان ساحراً يأتي بالمعجزات الظاهرية وإن نفس الشيء ينطبق على الرسل، ثم أضاف أن المسيح لم يكن يرغب في الموت وأنه أرجأ مكابדתه للموت قدر استطاعته، والرأى عنده أن الخطايا لا تعاقب وأن الأرواح تتناسخ كما أنه ليس بمقدور العذراء مريم أن تلد، وأن المذهب الكاثوليكي ملء بالتجديف على الله جل جلاله. وطالب برونو بتجريد الرهبان من النقود؛ واصفاً إياهم بأنهم مجرد حمير يؤمنون بالأفكار الحميرية. بل إنه اتهم القديس توماس الأكويني وغيره من آباء الكنيسة بالجهل. ومضى موسينجو يقول، إن برونو ذكر أمامه أن عدواً له وجه إليه ١٣٠ تهمة استطاع الإفلات منها جميعاً بأن ألقى عدوه في نهر التبر وأغرقه. ثم استطرد قائلاً، إن شيطاناً يسكنه.

وفي شهادة أخرى أدلى بها موسينجو أمام محكمة التفتيش قال إن برونو أخبره أنه لا يخشى المحاكمة أو حتى تبليغه عنه، حيث إنه لا يملك الدليل على صحة دعواه ولا يمكنه الاستناد إلى شهادة أحد. ومضى برونو - على حد قول موسينجو - في تحديه للكنيسة بأن قال إنها لن تستطيع إلحاق الأذى به.

#### مثول برونو أمام محكمة تفتيش البندقية

قبل الدخول في تفاصيل محاكمة برونو أمام محكمة تفتيش البندقية، يجدر بنا أن نذكر أن كتاباته تشير بوضوح إلى أنه لم يكن غافلاً عن المصير الأسود الذي ينتظره، فهو يخاطب قضاة قائلًا: «لو كنت أيها السادة المرموقون أعمل بفلاحة الأرض وحرثها ورعى الغنم وزراعة البساتين أو حياكة الملابس، لما التفت إلى نشاطى أحد ولراقبني عدد قليل من الناس، ولما قرعني وأنحى على بالملامة سوى قلة ولا استطعت أن أَرْضى الجميع. ولكن نظراً لأنى أصور بالطبيعة وأسعى جاهداً لرعاية الأرواح وأعشق تربية العقول وتغذيتها؛ فإن الجميع يراقبوننى ويهددوننى ويهاجموننى وينهشون جسدى ويلقون القبض علىّ لفتك بى. والذي يفعل بى هذا ليس واحداً أو فئة قليلة، بل الكثرة وربما كان الجميع».

بدأت محاكمة برونو في البندقية يوم ٢٦ مايو ١٥٩٢ في قصر البطريركية الواقع أمام سجن ريو دي بلازو. وكانت محكمة تفتيش البندقية تختلف عن محكمة تفتيش روما، في أن الأولى كانت مسئولة أمام الحكومة وترسل أحد موظفى الدولة لحضور الجلسات وتبليغ الحكومة أولاً بأول بكل ما يحدث في قاعة المحكمة. وكان يحضر

المحاكمات فى البندقية ثلاثة قضاة يصحبهم موظف الدولة، الذى كان له حق إيقاف إجراءات المحاكمة إذا رآها تحيد عن نص القانون.

ورغم ذلك، فإن محكمة البندقية لم تسمح لبرونو باستخدام محام للدفاع عنه، ولم تمنحه الوقت الكافى للاستعداد للدفاع عن نفسه، فضلاً عن أنها لم تسمح له بإقامة أى اتصال مع العالم الخارجى، كما أن المحكمة - تنفيذاً للمراسيم التى أصدرها البابا إنوسنت الرابع فى عام ١٢٥٠ - أخفت اسم المدعى عنه واكتفت بإطلاعه على بنود الاتهام. وأيضاً أجريت المحاكمة فى سرية تامة، كما أن المشتركين فيها تعهدوا أمامها بالتزام الصمت وعدم إفشاء ما يدور فيها. أضف إلى ذلك أن قضاة برونو تميزوا بالحنكة والمراس والقدرة على استجواب المتهمين وانتزاع المعلومات التى يخفونها فى صدورهم.

تكونت هيئة محكمة البندقية من ثلاثة أشخاص، هم: البطريرك لورنشيو بريولى الذى كان فيما مضى يشغل وظيفة سفير البندقية فى باريس، والحبر الرسولى لودوفيكو تابرينا، والأب المبجل جيوفانى جابرييل سالوزو. ويضاف إلى ثلاثتهم ممثل دولة البندقية ألونسيو فوسكارى، وفى خلوة خاصة توفرت هيئة المحكمة خلال الأيام السابقة على المحاكمة على قراءة التقارير الخاصة التى سطرها المدعى جيوفانى موسينجو.

وفى التقرير الذى سطره موسينجو فى ٢٤ مايو ١٥٩٢ - أى قبل القبض على برونو بيوم واحد - برر هذا الرجل غدره ببرونو قائلاً، إنه فعل ذلك بدافع من ضميره وكاهن اعترافه على نحو ما ذكرنا.

ثم مضى يقول: «بما أنكم تفضلتم علىّ فى صبر عظيم بالعفو عما ارتكبت من خطأ وتأخرى فى توجيه الاتهام، فأتوسل إليكم أن تعذرونى لهذا التأخير أمام هيئة القضاة الموقرة، حيث إننى كنت حسن النية لأنى لم يكن فى مقدورى أن أنتزع منه كل المعلومات دفعة واحدة، كما أنى لم أعرف شرور هذا الرجل على حقيقتها إلا بعد أن قمت بحبسه فى منزلى نحو شهرين. عندئذ رغبت فى التمكن منه وأن أتأكد بنفسى عن طريق معاملاتى معه أنه لن يهرب من منزلى من وراء ظهري. فقد كنت أؤكد لنفسى دوماً أننى قادر على إخضاعه لملازمة المكتب المقدس. وقد نجحت فى ذلك».

وبعد أن وجه موسينجو اتهاماته ضد برونو نرى محكمة تفتيش البندقية تسوق ضد ضحيتها ما لا يقل عن مائة وثلاثين تهمة. قال موسينجو إن الشيطان يلبسه، وإن

شهودًا أمثال الناشر جيوفاني باتستا (كيوتو) والناشر أندريا موروسيني على استعداد للشهادة على صحة هذا. وكما أسلفنا، قام موسينجو بالسطو على مخطوط سطره برونو إلى جانب سطوه على مقتنياته من الكتب التي ألفها فلاسفة آخرون. ويبدو أن موسينجو تعمد أن يذكر أن برونو حط من شأن القديس توماسي الأكويني بسبب شيوع أفكاره اللاهوتية وتعلق الكنيسة الكاثوليكية بها.

ولعل أخطر اتهام وجهه موسينجو إليه هو ادعاؤه بأن برونو أراد الإطاحة بالكنيسة الكاثوليكية، وسعى إلى إقامة طائفة دينية جديدة (وهو ما نجح مارتن لوثر وكالفن في فعله).

ويبدو أن محكمة التفتيش في البندقية لم تكن تثق تمامًا في صحة اتهامات موسينجو؛ مما حدا بها إلى تأجيل المحاكمة حتى ينتهي المدعى من كتابة مذكرة تتضمن ما يملكه من أدلة وبراهين .

## خاتمة

وفي كتاب صدر عام ٢٠٠٢ بعنوان: «البابا والمهرطق» يقول لنا مؤلفه مايكل هوايت، إن جيوردانو برونو استدعى في ٨ فبراير عام ١٦٠٠ في يوم شتوى قارص البرودة؛ للمثول أمام المحقق العام في محاكم التفتيش، الكاردينال سانتورو دي سانتا سفيرينا. ولم تمهل هذه المحاكمة الأخيرة ضحيتها سوى أحد عشر يوماً لقي بعدها مصيره المشئوم. ومثّل برونو أمام المحققين في قاعة جمهور المصلين في الفاتيكان. وكان حاضراً فيها ثمانية كرادلة وسبعة معاونين وكتبه جلسوا على مقاعد وثيرة، وقد أحاطوا بالمتهم. وتدلّت ثيابهم الكهنوتية المصنوعة من الحرير اللامع في نعومة ورقة على مقاعدهم المصنوعة من القطيفة. وكان الكاردينال سفيرينا جالساً على أريكة فخمة مرتفعة يتوسط الجالسين. وأسند الكاردينال أصابعه العظمية الطويلة المختلجة في صبر نافذ على ذراعي مقعده. وقد وضع هذا الرجل في إحدى أصابعه خاتماً لامعاً يعكس الضوء المنساب من أبواب القاعة العالية.

وبين الحاضرين برزت شخصيتان مهمتان، هما الكاردينال سفيرينا نفسه الذي كان الساعد الأيمن للبابا كليمنت الثامن، وهو رجل لم تقارقه المرارة بسبب إخفاقه في اعتلاء كرسي البابوية. أما الرجل الآخر الذي يخشى جانبه والذي تمنى أن يرى كل الهراطقة والبروتستانت، بل سائر المنشقين على الكنيسة الكاثوليكية يحرقون، فهو الكاردينال روبرت بيلارمين . كان بيلارمين أستاذ اللاهوت يحظى بشغل وظيفه



المستشار البابوي في شئون اللاهوت والعقيدة. وبعد انقضاء خمسة عشر عاماً على دفن برونو المحروق في قبره، قام هذا الكاردينال بتحريض رجال الكنيسة على إلقاء القبض على جاليليو وتقديمه إلى المحاكمة. والجدير بالذكر، أن الكنيسة الكاثوليكية اعتبرت بيلارمين عام ١٩٢٠ واحداً من القديسين.

وقف برونو صامتاً أمام قضاة الخمسة عشر، وقام الكاردينال سفيرينا بتلاوة التهم التي تدينه، والتي يبلغ عددها ثمانية اتهامات، منها قوله إن تحويل الخبز إلى جسد المسيح والخمر إلى دمه مجرد زيف وهراء وأنه يستحيل على العذراء أن تلد ولدًا. ثم قوله إننا نعيش في عالم لا نهائي، وكذلك قوله بوجود عدد لا يحصى من الكواكب تعيش عليها مخلوقات مثلنا تعبد آلهتها الخاصة بها.

ومن جانبه، رفض برونو التعليق على هذه الاتهامات واكتفى بالقول إنه سوف يخاطب البابا شخصياً. وتقدم برونو ببيان موجه إلى البابا كليمنت قام الكاردينال سفيرينا بفضه دون أن يسلمه إلى البابا.

وفي صبر نافذ وادعاء للتقوى سأل الكاردينال سفيرينا ما إذا كان برونو على استعداد للرجوع عن هرطقته. ولم يجر برونو جواباً، بل حملق في الحائط وراء الكرادلة الجالسين وقد التزم الصمت، ومال سفيرينا على مقعده إلى الخلف وندت عنه آهة عميقة ووضع راحتيه على مساند أريكته الوثيرة. وحانت منه التفاتة سريعة إلى الكاردينال بيلارمين الجالس إلى يساره.

وران على القاعة صمت عميق دام لحظة، ثم مال سفيرينا ببطء إلى الأمام وقرأ بياناً كان البابا كليمنت الثامن قد أعده، جاء فيه «أعلن وأحبذ أنه يجب النظر إلى هذه القضية باتخاذ الإجراءات المشددة (واتخاذ جميع الشكليات المناسبة)، كما أعلن النطق بالحكم بتسليم المدعو الراهب جيوردانو إلى المحكمة العلمانية».

وبعدئذ اقتيد برونو خارج القاعة لمواجهة المزيد من التعذيب.

وفي وقت لاحق من اليوم نفسه، وقف جيوردانو برونو كي يواجه قضاة للمرة الثانية. وفي هذه المرة استدعى برونو أمام لجنة علمانية يرأسها حاكم روما في قاعة محكمة التفتيش الواقعة في دير منيرفا. وبهذا تكون السلطة الدينية المتمثلة في بابا روما قد سلمت المتهم إلى السلطة المدنية. ثم أصدر المكتب المقدس بياناً إلى حاكم روما، جاء فيه:

«خذوا (المهرطق) لمحاسبته أمام سلطتكم القضائية وفقاً للحكم الذى تصدرونه عليه لتوقيع العقاب المناسب عليه، راجين منكم .. تخفيف قسوة حكمكم عليه فيما يتعلق بجسده لتجنب خطر موته أو إراقة دمه».

ورغم ما يبدو على هذا الخطاب من رحمة زائفة، فإنه كان فى واقع الأمر يعنى تسليم المتهم إلى الذراع العلمانى لحرقه حياً.

أصدر حاكم روما الحكم على برونو الجائى على ركبتيه أمام قضاته . وتقدم أسقف سيدونيا الذى تلقى مبلغ سبعة وعشرين سكودى نظير أداء مهمته بخطى إلى الأمام، كى ينزع عن ظهر برونو ثيابه الكنسية وعن جسده الشارة الكهنوتية. ونطق بإحراقه ثم إحراق مؤلفاته. وترددت أصداء كلمات الأسقف المشئومة فى أرجاء الحجرة. وعقب إصدار الحكم عليه بالحرق سأله حاكم روما ما إذا كان يرغب فى أن يقول شيئاً.

التزم برونو الصمت طويلاً وران السكون على الغرفة. وحملق القضاة ورجال الكنيسة فى المحكوم عليه الذى بدا عليه الانكسار. ورفع برونو رأسه وأجال بصره فى أرجاء الغرفة ثم قال بصوت جهورى: «ربما كان خوفكم من إصدار هذا الحكم أعظم من خوفى من قبوله». واقتيد السجين إلى زنزانه ضيقة معتمة مثل الليل المدلهم، وكبلوا قدميه فى حلقة مثبتة فى أرضية الزنزانة الحجرية.

ظل جيوردانو برونو أمداً طويلاً يعتقد أنه يدين بالمذهب الكاثولىكى وأن آراءه لا تعتبر خروجاً على الكنيسة، كما أنه ظل يعتقد أن بإمكانه إقناع بابا روما بصحة أفكاره. كان ذلك أيام تجواله فى أرجاء أوروبا وممارسته التدريس بجامعةاتها. وفى أوروبا تعرف على المذهب اللوثرى والمذهب البروتستانتى المتطرف المعروف بالمذهب الكالفينى. وأيضاً توفّر برونو على دراسة كتابات الأقدمين وتأثر بها. وراقت له أفكار كوبرنيكوس الفلكية، وذهب إلى ما هو أبعد مما ذهب كوبرنيكوس. ذهب إلى لانهاية الكون وعدم وجود إله شخصى، أى إله تربطه صلات شخصية بالإنسان، وهو الأمر الذى أصبح بعد مرور نصف قرن حجر الزاوية فى فلسفة سبينوزا القائلة بحلول الله فى الكون والطبيعة. وكما أسلفنا، أغضب برونو رؤساء الدير منه فى فترة انخراطه فى حياة الرهبنة بسبب دأبه على مناقشة زملائه الرهبان ودحضه الكثير من فلسفة أرسطو. فضلاً عن تشككه فى الثالوث . ولم يكتف برونو بذلك، بل ألف قصة هجائية سبق أن أشرنا إليها بعنوان: «فلك نوح»، سخر فيها من المؤمنين الأغبياء الذين

يقبلون الديانة المسيحية على عواهنها. وأيضاً راقّت له أفكار المهرطق أريوس المنكر للاهوت المسيح. وزاد من كراهية زملائه الرهبان له أنه لم يتورع عن قراءة الكتب المحظورة التي تعالج السحر والتصوف والظواهر الغامضة، وتلك التي تعالج تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب. وقد وشى به أحد الرهبان وضبط وهو يقرأ أعمال للمصلح الدينى إيرازموس المحظورة، الأمر الذى جعل رئيس الدير أمبروجيو باسك يبلغ الكاهن المحلى عنه وعن مروه، فقام هذا الكاهن بطرده من حظيرة الكنيسة. فجال بعدها فى ربوع أوروبا طريداً شريداً بلا مأوى أو مستقر؛ لأنه حاول عقلنة الدين المسيحى إلى جانب دراسته للتصوف والسحر.

ونذكر فى هذا الصدد أن مدينة فلورنسا الإيطالية كانت قبل ظهور برونو منارة للعلم، حيث اهتمت بعض العائلات الحاكمة والأرستقراطية . وعلى رأسها عائلة مديسيس الشهيرة . بالتقريب عن المخطوطات العربية واقتنائها . وأيضاً نقب الباحثون والعلماء الطليان، أمثال جيوفانى بوكاشيو وجولوشيو سالوتاتى وجيوفانى كونفرسينى، عن كنوز النصوص اللاتينية القديمة مثل مؤلفات تاسيتوس التاريخية ومؤلفات ماتيليوس الفلكية وأعمال شيشيرون. وتجمعت كل هذه المقتنيات النفيسة فى فلورنسا التى شهدت زخماً حضارياً وثقافياً وعلمياً ليس له نظير. وبحلول عقد العشرينيات من القرن الخامس عشر. أى قبل ظهور برونو. توفر المترجمون على ترجمة هذه المقتنيات الثمينة إلى اللغة الإيطالية. وهكذا استطاع الدارسون فى عصر النهضة الإيطالية الوقوف على أفكار الأقدمين، أمثال أرسطو وأفلاطون وفيثاغورث وإقليدس وأبقراط وجالين التى بشرت بانبلاج فجر جديد فى العلوم والطب والفلسفة. فضلاً عن أن جوتنبرج كان قد استحدث الطباعة قبل مولد برونو بقرن كامل. ثم انتقلت إلى روما عام ١٤٨٠. وبنهاية القرن الخامس عشر وصل عدد الطابعين فى مدينة البندقية وحدها إلى مائة مطبعجى. وحتى نتبين الطفرة الكبيرة التى حدثت فى عالم الكتابة فى عصر النهضة نقول، إن عدد المخطوطات الموجودة فى أوروبا قبل الطباعة كان أقل بقليل من الثلاثين ألف كتاب، فى حين بلغ عدد الكتب المطبوعة فى أواخر القرن السادس عشر. أى أثناء حياة برونو. ما يقرب من خمسين مليون كتاب.

## كتب وأبحاث أخرى للمؤلف

١. كتب باللغة العربية
١. برتراند راسل الإنسان، الدار القومية، القاهرة ١٩٦١.
٢. برتراند راسل الإنسان، الدار القومية، القاهرة ١٩٦٦.
٣. دراسات تمهيدية في الرواية الإنجليزية المعاصرة، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٦.
٤. توفيق الحكيم الذي لا نعرفه، مطبعة وهدان، ١٩٧٤.
٥. اتجاهات سياسية في المسرح قبل ثورة ١٩١٩، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٩.
٦. برتراند راسل، تأليف آلان وود (ترجمة)، الأندلس، بيروت ١٩٨١.
٧. س. ب. سنو والثورة العلبية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨١.
٨. موسوعة المسرح المصري البليوجرافية (١٩٠٠ - ١٩٣٠)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢.
٩. موقف ماركس وأنجلز من الآداب العالمية، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٨٤.
١٠. شكسبير في مصر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦.
١١. ماذا قالوا عن أهل الكهف، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٦.
١٢. جورج أورويل (حياته وأدبه)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٧.

- ١٢ . الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها، الألف كتاب الثانى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩ .
- ١٤ . وول سوينكا (ترجمة)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩ .
- ١٥ . أدباء روس منشقون فى عهد جوزيف ستالين، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩١ .
- ١٦ . الأدب الروسى والبريسترويكا، دار الهلال، القاهرة ١٩٩١ .
- ١٧ . الأدب والجنس، دار أخبار اليوم، القاهرة ١٩٩٣ .
- ١٨ . الثالث المحرم، دار الهلال، القاهرة ١٩٩٤ .
- ١٩ . الشذوذ والإبداع، دار الهلال، القاهرة ١٩٩٥ .
- ٢٠ . دراسات فى الأدبين الإنجليزى والأمريكى، كلية الآلسن - جامعة عين شمس، ١٩٩٥ .
- ٢١ . من ستالين إلى جورباتشوف، مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٩٦ .
- ٢٢ . الإلحاد فى الغرب، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى، القاهرة وبيروت ١٩٩٧ .
- ٢٣ . الهرطقة فى الغرب، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى، القاهرة وبيروت ١٩٩٧ .
- ٢٤ . العلم والدين، تأليف برتراند راسل (ترجمة)، دار الهلال ١٩٩٧ .
- ٢٥ . الرجل الذى مات، تأليف د. هـ - لورانس (ترجمة)، دار الهلال .
- ٢٦ . ملحدون محدثون ومعاصرون، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى ١٩٩٨ .
- ٢٧ . رباعيات الشذوذ والإبداع، سينا للنشر ومؤسسة الانتشار العربى ١٩٩٨ .
- ٢٨ . اليهود والأدب الأمريكى المعاصر، دار الهلال ١٩٩٨ .
- ٢٩ . موسوعة الرقابة والأعمال المصادرة فى العالم، مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، القاهرة ١٩٩٨ .
- ٣٠ . فى مدح الكسل ومقالات أخرى، تأليف برتراند راسل (ترجمة)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨ .
- ٣١ . سيرة حياة برتراند راسل، تأليف آلان وود (ترجمة)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٨ .

- ٢٢ - اليهود والأدب الأمريكي المعاصر، دار الهلال، نوفمبر ١٩٩٨.
  - ٢٣ - صورة اليهودى فى الأدب الانجليزى، دار الهلال، مارس ١٩٩٩.
  - ٢٤ - الهولوكست بين الإنكار والتأكيد، دار الهلال، ديسمبر ٢٠٠٠.
  - ٢٥ - اليهود فى الأدب الأمريكى فى أربعة قرون، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠١.
  - ٢٦ - الهولوكست فى الأدب الأمريكى، مكتبة الأنجلو المصرية ٢٠٠١.
  - ٢٧ - الهولوكست فى الأدب الفرنسى، دار نهضة الشرق، يناير ٢٠٠٢.
  - ٢٨ - اليهود فى الأدب الروسى، دار نهضة الشرق، يناير ٢٠٠٢.
  - ٢٩ - محاكم التفتيش، دار الهلال ٢٠٠٢.
  - ٤٠ - محاكم التفتيش فى إسبانيا: مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، القاهرة ٢٠٠٢.
  - ٤١ - محاكم التفتيش فى إيطاليا، دار الهلال، ٢٠٠٣.
  - ٤٢ - أبرز ضحايا محاكم التفتيش (الهيئة العامة للكتاب).
  - ٤٣ - محاكم التفتيش فى فرنسا (تحت الطبع).
  - ٤٤ - ألبرت أينشتاين: سيرة حياته. (تحت الطبع).
  - ٤٥ - ترجمة إنجليزية لكتاب «شكسبير فى مصر» - مكتبة الإسكندرية (٢٠٠٣).
٢. مقال باللغة العربية:
- نقد رواية العنقاء، تأليف لويس عوض، فبراير ١٩٧٠.

### ٣. كتب باللغة الإنجليزية:

- 1- Naguib Mahfouz. **The Beginning and the End** (Translation), The American Univ. in Cairo, 1975.
- 2- George Orwell as an Ambivalevt Writer, National Bookshop, Cairo, 1978.
- 3- **Animal Farm**, National Bookshop, Cairo, 1978.
- 4- **Nineteen Eighty Four**, National Bookshop, Cairo, 1978.
- 5- **Hardy's Tragic and Ironic Vision in Tess**, National Bookshop, Cairo, 1978.



- 6- **Shakespear in Egypt**, Rapack, Cairo, 1980.
- 7- **English Literary Criticism**, Univ. Book, Tanta, 1985.
- 8- **Macbeth**, Anglo - Egyptian, Cairo, 1989.
- 9- **The Mayor of Casterbridge**, Anglo - Egyptian, Cairo.
- 10- **Sons and Lovers**, Anglo - Egyptian, Cairo, 1989.
- 11- **Joseph Andrews**, Anglo - Egyptian, Cairo, 1989.
- 12- **King Lear**, Anglo - Egyptian, Cairo, 1989.
- 13- **Merchant of Venice**, Anglo - Egyptian, Cairo, 1989.
- 14- **Jane Eyre**, Anglo - Egyptian, Cairo, 1989.
- 15- **A Passage to India**, Anglo - Egyptian, Cairo, 1994.
- 16- **Robinson Crusoe**, Anglo - Egyptian, Cairo, 1994.
- 17- **Animal Farm**, Anglo - Egyptian, Cairo, 1995.
- 18- **Forthcoming: Egypt in the Modern British Novel: A Collection of Articles on Newby, Ghali, Enright, Forster, Liddell and Olivia Manning**, Published in Al - Ahram Weekly in the following issues, 4 July, 5 September, 10, 24 October (1991) and 23, 30 January, 1, 23 April (1992).

#### ٤ . مقالات باللغة الإنجليزية:

- 1- John Wain's "Young Visitors", Faculty of Alsun Journal, 1975.
- 2- "King Lear as a Religious Play", Faculty of Alsun Journal, 1976.
- 3- "Orwell as a Literary Critic", Faculty of Alsun Journal, 1976.
- 4- "The Development of Liberal Culture in Modern Egypt", a series of articles published in the Egyptian Gazette in the following issues, 23. 30 March, 6. 13. 20. 27. 28 April, 4. 11 May, 1983.

## صدر من هذه السلسلة

### أولاً: الموسوعات والمعاجم

ليونارد كوتريل، الموسوعة الأثرية العالمية

ويليام بيتر، معجم التكنولوجيا الحيوية

ج.كارفيل، تبسيط المفاهيم الهندسية

ب. كوملان، الأساطير الإغريقية والرومانية

و. د. هاملتون وآخرون، المعجم الجيولوجي

المصور في المعادن والصخور والحفريات

حسام الدين زكريا، المعجم الشامل للموسيقى

العالمية (ج ١)

خيرية البشلاوي، معجم المصطلحات السينمائية

دونالد نيكول، معجم التراجم البيزنطية

### ثانياً: الدراسات الاستراتيجية وقضايا العصر

د. محمد نعمان جلال، حركة عدم الانحياز في

عالم متغير

إريك موريس، آلان هو، الإرهاب

ممدوح عطية، البرنامج النووي الإسرائيلي

د. لينوار تشامبرز رايت، سياسة الولايات المتحدة

الأمريكية إزاء مصر

إزرا. ف. فوجل، المعجزة اليابانية

د. السيد نصر السيد، إطلاقات على الزمن الآتي

بول هاريسون، العالم الثالث غداً

مجموعة من العلماء، مبادرة الدفاع

الاستراتيجي: حرب الفضاء

و. مونتجمري وات، الإسلام والمسيحية في العالم

المعاصر

بادي أونيمود، أفريقيا الطريق الآخر

فانس بكارد ، إبتهم يصنعون البشر ( ج ٢ )

مارتن فان كريفلد، حرب المستقبل

ألفين توفلز ، تحول السلطة (ج ٢)

ممدوح حامد عطية ، إنهم يقتلون البيئة

د. السيد أمين شلبي، جورج كينان

يوسف شرارة ، مشكلات القرن الحادي

والعشرين والعلاقات الدولية

د. السيد عليوة، إدارة الصراعات الدولية

د. السيد عليوة، صنع القرار السياسي

جرج كاشمان، لماذا تنشب الحروب (ج ٢)

ايمانويل هيمن، الأصولية اليهودية

أنجيلو كودفيللا، المخابرات وفن الحكم

آلان أنترمان، اليهود (عقائدهم الدينية

وعباداتهم)

### ثالثاً: العلوم والتكنولوجيا

ميكائيل ألبى، الانقراض الكبير

فيرنر هيزنبرج، الجزء والكل: محاورات في

مضمار الفيزياء الذرية

فريد هويل، البذور الكونية

ويليام بينز، الهندسة الوراثية للجميع

د. جوهان دورشنر، الحياة في الكون كيف نشأت

وأين توجد

إسحق عظيموف، الشموس المتفجرة (أسرار

السوبرنوفا)

روبرت لافور، البرمجة بلغة ألسى باستخدام

تيربوسى (ج ٢)

إدوارد إيه فايجينباوم، الجيل الخامس للحاسوب

د. محمود سرى طه، الكمبيوتر فى مجالات الحياة

د. مصطفى عنانى، الميكروكمبيوتر

ى. راندو نساكايى، الإلكترونيات والحياة الحديثة

جلال عبد الفتاح، الكون ذلك المجهول

إيفرى شاتزمان، كوننا المتمدد

فرد س. هيس، تبسيط الكيمياء

كاتى ثير، تربية الدواجن

د. محمد زينهم، تكنولوجيا فن الزجاج

لارى جونيك ومارك هوبليس، الوراثة والهندسة

الوراثية بالكاريكاتير

جينا كولاتا، الطريق إلى دوالى

دور كلس ماكلينتوك، صور أفريقية: نظرة

على حيوانات أفريقيا

إسحق عظيموف، أفكار العلم العظيمة

د. مصطفى محمود سليمان، الزلازل

بول دافيز، الدقائق الثلاث الأخيرة

ويليام هـ... ماثيوز، ما هى الجيولوجيا؟

إسحق عظيموف، العلم وآفاق المستقبل

ب. س. ديفيز، المفهوم الحديث للمكان

والزمن

د. محمود سرى طه، الاتجاهات المعاصرة فى

عالم الطاقة

بانش هوفمان، آينشتين

زافيلسكى ف. س.، الزمن وقياسه

ر. ج. فوربس، تاريخ العلم والتكنولوجيا

(ج٢)

د. فاضل أحمد الطائى، أعلام العرب فى

الكيمياء

رولاند جاكسون، الكيمياء فى خدمة الإنسان

إبراهيم القرضاوى، أجهزة تكييف الهواء

ديفيد ألدرتون، تربية أسماك الزينة

أندريه سكوت، جوهر الطبيعة

إيجور إكيوموشكين، الإيثولوجي

يارى باركر، السفر فى الزمان الكونى

ديمتري ترايفونوف، ظلال الكيمياء

بول ديفز، جونز جريبين، أسطورة المادة

جيفرى ماوساييف ماسون، حين تبكى الأفيال

ليونارد أ. كول، السلاح الحادى عشر

و. جراهام ريتشاردز، أسرار الكيمياء

د. زين العابدين متولى، وبالفج هم يهتدون

#### رابعاً: الاقتصاد

ديفيد وليام ماكنوال، مجموعات النقود (صياتتها،

تصنيفها، عرضها)

د. نورمان كلارك، الاقتصاد السياسى للعلم

والتكنولوجيا

سامى عبد المعطى، التخطيط السياسى فى مصر

جابر الجزار، ماستريخت والاقتصاد المصرى

ولت ويتمان روستو، حوار حول التنمية

الاقتصادية

فيكتور مورجان، تاريخ النقود

د. تشارلز سى ماتز، إدارة الأعمال بلا مديرين

#### خامساً: مصر عبر العصور

محرم كمال، الحكم والأمثال والنصائح عند

المصريين القدماء

فرانسوا ديماس، آلهة مصر

سيريل الدريد، إخناتون

موريس بيرايير، صناعات الخلود

بكنت أ. كتشن، رمسيس الثاني: فرعون المجد  
والانتصار

ألن شورتر، الحياة اليومية في مصر القديمة  
ونفرد هولمز، كانت ملكة على مصر

جاك كرابس جونيور، كتابة التاريخ في مصر  
نفتالي لويس، مصر الرومانية

عبد مباحث، البحرية المصرية من محمد علي  
للسادات (١٨٠٥ - ١٩٧٣)

د. السيد طه أبو سديرة، الحرف والصناعات في  
مصر الإسلامية

جابريل باير، تاريخ ملكية الأراضي في مصر  
الحديثة

عاصم محمد رزق، مراكز الصناعة في مصر  
الإسلامية

ت. ج. هـ. جيمز، كنوز الفراعنة

حسن كمال، الطب المصري القديم

أ. أ. س. إدواردز، أهرام مصر

سومرز كلارك، الآثار القبطية في وادي النيل

كريستيان ديروش نوبلكور، المرأة الفرعونية

بيل شول وأدبنت، القوة النفسية للأهرام

جيمس هنري برستد، تاريخ مصر

د. بيارد دودج، الأهرام في ألف عام

أ. سينسر، الموتى وعالمهم في مصر القديمة

ألفريد ج. بتلر، الكنائس القبطية القديمة في

مصر (ج ٢)

روز أليندم؛ الطفل المصري القديم

ج. و. مكفرسون، الموالد في مصر

جون لويس بوركهارت، العادات والتقاليد

المصرية من الأمثال الشعبية

سوزان راتيه، حتشبسوت

مرجريت مري، مصر ومجدها الغابر

أولج فولكف، القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة

د. محمد أنور شكرى، الفن المصري القديم

ت. ج. جيمز، الحياة أيام الفراعنة

إيفان كونج، السحر والسحرة عند الفراعنة

تشارلز نيمس، طبية (آثار الأقصر)

رندل كلارك، الرمز والأسطورة في مصر القديمة

ديمتري ميكس، الحياة اليومية للآلهة الفرعونية

محمد عبد الحميد بسيونى، بانوراما فرعونية

حمدي عثمان، هؤلاء حكموا مصر

جوزيف دلي، العمارة العربية في مصر

ميكل ونتر، المجتمع المصري تحت الحكم العثماني

بربارة واترسون، أقباط مصر

إيريك هورنونج، فكرة في صورة

بيير جراندبيه، رمسيس الثالث

محسن لطفى السيد، أساطير معبد إدفو

سادساً: الكلاسيكيات

جاليليو جاليليه، حوار حول النظامين الرئيسيين

للكون (ج ٣)

وليم مارسدن، رحلات ماركو بولو (ج ٣)

أبو القاسم الفردوسى، الشاهنامة (ج ٢)

إدوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية

وسقوطها (ج ٣)

ناصر خسرو علوى، سفر نامه

فيليب عطية، تراثيم زرادشت

جورج جاموف، بداية بلا نهاية

محمد كرد على، بين المدنية العربية والأوربية

سابعاً: الفن التشكيلي والموسيقى

عزيز الشوان، الموسيقى تعبير نغمي ومنطق

جوزيف نيدهام، تاريخ العلم والحضارة في الصين  
ستيفن رانسيمان، الحضارة البيزنطية  
سيتينو موسكاتي، الحضارات السامية

### تاسعاً: التاريخ

جوزيف داموس، سبع معارك فاصلة في العصور  
الوسطى

هنري بيرين، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى  
أرنولد توينبي، الفكر التاريخي عند الإغريق  
بول كولز، العثمانيون في أوروبا  
جوناثان ريلي سميث، الحملة الصليبية الأولى  
وفكرة الحروب الصليبية  
د. بركات أحمد، محمد واليهود

ستيفن أوزمنت، التاريخ من شتى جوانبه (ج٣)  
و. بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى  
فلاديمير تيسمانيانو، تاريخ أوروبا الشرقية  
د. ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية (ج٢)  
نويل مالكوم، البوسنة

جاري. ب. ناش، الأحمر والبيض والأسود  
أحمد فريد رفاعي، عصر المأمون (ج٢)  
آرثر كيستر، القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم  
ناجاي متشيو، الثورة الإصلاحية في اليابان  
محمد فزاد كوبريلي، قيام الدولة العثمانية  
د. إيرار كريم الله، من هم التتار؟  
ستيفن رانسيمان، الحملات الصليبية  
آلبان ويندجري، التاريخ وكيف يفسرونه (ج٢)  
جوسيبي دي لونا، موسولينى

جوردون تشيلد، تقدم الإنسانية  
هـ. ج. ولز، معالم تاريخ الإنسانية (ج٤)  
هـ. سانت موس، ميلاد العصور الوسطى

ألويز جرايتر، موتسارت  
شوكت الربيعة، الفن التشكيلي المعاصر في  
الوطن العربي

ليوناردو دافنتشي، نظرية التصوير  
د. غبريال وهيه، أثر الكوميديا الإلهية لدانتى في  
الفن التشكيلي

روبين جورج كولنجود، مبادئ الفن  
مارتن جك، يوهان سباستيان باخ  
ميخائيل ستيجمان، فيفالدي

ميربرت ريد، التربية عن طريق الفن  
أدامز فيليب، دليل تنظيم المتاحف  
حسام الدين زكريا، أنطون بروكنر  
جيمس جينز، العلم والموسيقى

هوجولا يختنتريت، الموسيقى والحضارة  
محمد كمال إسماعيل، التحليل والتوزيع  
الأوركستراالى

د. صالح رضا، ملامح وقضايا في الفن التشكيلي  
المعاصر

إدموندو سولمي، ليوناردو  
سيونيد ميرى روبرتسون، الأشغال الفنية والثقافة  
المعاصرة

### ثامناً: حضارات عالمية

جاكوب برونوفسكى، التطور الحضارى للإنسان  
س. م. بورا، التجربة اليونانية  
جوستاف جرونباوم، حضارة الإسلام  
أ. د. جرنى، الحيثيون

ل. ديلاپورت، بلاد ما بين النهرين  
ج. كوننتو، الحضارة الفينيقية  
آدم متز، الحضارة الإسلامية (ج٢)



يوهان هويزنجا، اضمحلال العصور الوسطى  
هـ. ج. ويلز، موجز تاريخ العالم  
لورد كرومر، الثورة العربية  
و. مونتجرى وات، محمد فى مكة

### عاشراً: الجغرافيا والرحلات

ت. و. فريمان، الجغرافيا فى مائة عام  
ليسترديل راي، الأرض الغامضة  
رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف)  
إميليا إواردز، رحلة الألف ميل  
رحلات فارتينا (الحاج يونس المصرى)  
رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز (ج٣)  
رحلة عبد اللطيف البغدادي فى مصر  
رحلة الأمير رودلف إلى الشرق (ج٣)  
يوميات رحلة فاسكو داجاما

س. هوارد، أشهر الرحلات إلى غرب أفريقيا  
إريك أكسيلون، أشهر الرحلات فى جنوب أفريقيا  
وليم مارسدن، رحلات ماركو بولو (ج٣)

### حادى عشر: الفلسفة وعلم النفس

جون بورر، الفلسفة وقضايا العصر (ج٣)  
سوندراي، الفلسفة الجوهرية  
جون لويس، الإنسان ذلك الكائن الفريد  
سندى هوك، التراث الغامض: ماركس  
والماركسيون

إدوارد دو بونو، التفكير المتجدد

رونالد دافيد لانج، الحكمة والجنون والحماسة  
د. توماس أ. هاريس، التوافق النفسى: تحليل  
المعاملات الإنسانية

د. أنور عبد الملك، الشارع المصرى والفكر

نيكولاس ماير، شارلوك هولمز يقابل فرويد  
أنطونى دى كرسبني، أعلام الفلسفة المعاصرة  
جين وروبرت ماندلى، كيف تتخلصين من  
القلق؟

هـ. ج. كريل، الفكر الصينى

د. السيد نصر السيد، الحقيقة الرمادية

برتراند راسل، السلطة والفرد

مارجريت روز، ما بعد الحداثة

كارل بوبر، بحثا عن عالم أفضل

ريتشارد شاخز، رواد الفلسفة الحديثة

جوزيف داموس، سبعة مؤرخين فى العصور

الوسطى

د. روجر ستروجان، هل نستطيع تعليم الأخلاق

للأطفال؟

إريك برن، الطب النفسى والتحليل النفسى

بيرتون بورتز، الحياة الكريمة (ج٢)

فرانكلين ل. باومر، الفكر الأوربي الحديث (ج٤)

هنرى برجسون، الضحك

أرنست كاسيرر، فى المعرفة التاريخية

و. مونتجرى وات، القضاء والقدر

إدوارد دو بونو، التفكير العلى

### ثانى عشر: العلوم الاجتماعية

د. محيى الدين أحمد حسين، التنشلة الأسرية

والأبناء الصغار

م. و ثرنج، ضمير المهندس

رايموند وليامز، الثقافة والمجتمع

روى روبرتسون، الهيروين والإيدز

بيتر لورى، المخدرات حقائق نفسية

د. ليو بوسكاليا، الحطب



برنسلو مالتوفسكى، السحر والعلم والدين  
بيتر ر. داي، الخدمة الاجتماعية والانضباط  
الاجتماعي

بول جير هارت، تعليم المعوقين  
لوتولد جزل، الطفل من الخامسة إلى العاشرة  
رونالد د. سميسون، العلم والطلاب والمدارس

### ثالث عشر: المسرح

لويس فارجاس، المرشد إلى فن المسرح  
برونو ياشينسكى، حفلة ماتيكان  
جلال العشرى، فكرة المسرح  
جان بول سارتر، جورج برناردشو، جان أنوى  
مختارات من المسرح العالمى  
د. عبد المعطى شعراوى، المسرح المصرى  
المعاصر: أصله وبدايته  
توماس ليبهارت، فن الماييم والباتتومايم  
زيجمونت هينتر، جماليات فن الإخراج  
أوجين يونسكو، الأعمال الكاملة (٢ ج)  
آلان ماك دونالد، مسرح الشارع  
نك كاي، ما بعد الحداثية والفنون الأدائية  
بيتر بروك، التفسير والتفكيك والإيديولوجية  
أندريه فيلييه، الممثل الكوميدي  
لى ستراسبيرج، تدريب الممثل  
جلال جميل محمد، مفهوم الضوء والظلام فى  
العرض المسرحي

### رابع عشر: الطب والصحة

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف، وظائف الأعضاء  
من الأنف إلى الياء \*  
د. جون شندلر، كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة

د. ناعوم بيتروفيتش، النحل والطب  
م. هـ. كنج، التغذية فى البلدان النامية

### خامس عشر: الآداب واللغة

برتراند رسل، أحلام الأعلام وقصص أخرى  
ألس هكسلى، نقطة مقابل نقطة  
جول ويست، الرواية الحديثة : الإنجليزية  
والفرنسية  
أنور المنعداوى، على محمود طه: الشاعر والإنسان  
جوزيف كونراد، مختارات من الأدب القصصى  
تاجور شين ين بنج وآخرون، مختارات من الآداب  
الآسيوية  
محمود قاسم، الأدب العربى المكتوب بالفرنسية  
جابريل جارسيا ماركيز، الجنرال فى متاهة  
سوريال عبد الملك، حديث النهر  
د. رمسيس عوض، الأدب الروسى قبل الثورة  
الباشفية وبعدها  
مختارات من الأدب اليابانى: الشعر، الدراما،  
الحكاية، القصة القصيرة  
ديفيد بشندر، نظرية الأدب المعاصر  
نادين جورديمر وآخرون، سقوط المطر وقصص  
أخرى  
رالف ثى ماتلو، تولستوى  
والتر آلن، الرواية الإنجليزية  
هادى نعمان الهيتى، أدب الأطفال  
مالكوم برادبرى، الرواية اليوم  
لوريتو تود، مدخل إلى علم اللغة  
د. جابريل جارسيا ماركيز، سيمون بوليفار  
ديلاسى أوليرى، الفكر العربى ومكانه فى التاريخ  
د. على عبد الرؤوف البمبى، مختارات من الشعر

الإسباني في العصور الوسطى (ج ١)

ب. إفور إيفانز، موجز تاريخ الدراما الإنجليزية

ج. س. فريزر، الكاتب الحديث وعالمه . (٢ ج)

جورج ستاينر، بين تولستوى ودستور سكي (٢ ج)

ديلان توماس، مجموعة مقالات نقدية

فيكتور برومير، ستندال

فيكتور هوجو، رسائل وأحاديث من المنفى

يانكو لافرين، الرومانتيكية وثواقفية

د.نعمة رحيم الغزاوي، أحمد حسن الزيات كاتباً

وناقداً

ف. برملوف، دستوفسكي

لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، الدليل

الببليوجرافي: روائع الآداب العالمية (ج ١)

محسن جاسم الموسوي، عصر الرواية : مقال من

النوع الأدبي

هنري باربوس، الجحيم

ميجيل دي ليبس، القنران

روبرت سكولز وآخرون، آفاق أدب الخيال العلمي

يانيس ريتسوس، اليعبد (مختارات شعرية)

ب. إفور إيفانز، مجمل تاريخ الأدب الإنجليزي

فخرى أبو السعود، في الأدب المقارن

سليمان مظهر، أساطير من الشرق

ف.ع. أدينكوف، فن الأدب الروائي عند تولستوى

د. صفاء خلوصي، فن الترجمة

بلدوميرو ليلو وآخرون، قصص من أمريكا

اللاتينية

موريس إدجار كواندرو، نظرات في الأدب

الأمريكي

سادس عشر: الإعلام

فرانيس ج. برجين، الإعلام التطبيقي

بيير ألبير، الصحافة

هربرت ثيلر، الاتصال والهيمنة الثقافية

سابع عشر: السينما

هاشم النحاس، الهوية القومية في السينما العربية

ج.دادلي أندرو، نظريات الفيلم الكبرى

روى آرمر ، لغة الصورة في السينما المعاصرة

هاشم النحاس، صلاح أبو سيف (محاورات)

جان لويس بوري وآخرون ، في النقد السينمائي

الفرنسي .

محمود سامي عطا الله، الفيلم التسجيلي

ستانلي جيه سولومون ، أنواع الفيلم الأمريكي

جوزيف وهاري فيلدمان، دينامية الفيلم

قنري حنفي، الإنسان المصري على الشاشة

موني براح، السينما العربية من الخليج إلى

المحيط

حسين حلمي المهندس، دراما الشاشة: بين النظرية

والتطبيق للسينما والتلفزيون (٢ ج)

إدوارد مري، عن النقد السينمائي الأمريكي

جوزيف م. يوجز، فن الفرجة على الأفلام

سعيد شيمي، التصوير السينمائي تحت الماء

دوايت سوين ، كتابة السيناريو للسينما

هاشم النحاس، نجيب محفوظ على الشاشة

يوجين فال، فن كتابة السيناريو

دانييل أريخون، قواعد اللغة السينمائية

كريستيان ساليه ، السيناريو في السينما الفرنسية

آلان كاسبيار، التذوق السينمائي

توني بار، التمثيل، للسينما والتلفزيون

بيتر نيكولز، السينما الخيالية

بول وارن؛ خلفاء نظم النجم الأمريكى

دافيد كوك، تاريخ السينما الروائية

لويس هيرمان، الأسس العملية لكتابة

السيناريو للسينما والتلفزيون

د. مصطفى طه بنر، محنة الإسلام الكبرى

ت. كرويلر ينج، الشرق الأدنى

جيمس نيومان؛ ميشيل ويلسون، رجال عاشوا للعلم

ابن زابل الرمال، آخرة الممالك

د. محمد عوض محمد، نهر النيل

آرثر كريستن، إيران فى عهد الساسانيين

أوجست ديس، أفلاطون

يعقوب، قام، البراجماتية

روبرت ديبو جراند وآخرون، مدخل إلى علم لغة

النص

بلوهرخوس، العظماء

تشارلز ديكنز، مذكرات بكويك (٣ ج)

ثامن عشر: كتب غيبرت الفكر الإنسانى

سلسلة للتخصص التراث الفكرى الإنسانى فى صورة

عروض موجزة لأهم الكتب التى ساهمت فى

تشكيل الفكر الإنسانى وتطوره مصحوبة بتراجم

لمؤلفيه وقد صدر منها ٩ أجزاء.

تاسع عشر: الأعمال المختارة

يوهان هيرزجا، أعلام والفكر

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢١٩١٧ / ٢٠٠٤

1 - 9430 - 01 - 977 - I.S.B.N.



لا شك أن الدكتور رمسيس عوض حقق إنجازاً علمياً رائداً بأبحاثه المتعددة عن محاكم التفتيش، فقد ألف ما لا يقل عن خمسة كتب في هذا الموضوع. والكتاب الذي بين أيدينا يتناول ثلاثة هم أبرز ضحايا محاكم التفتيش في إيطاليا، وهو ينقسم إلى ثلاثة أجزاء. الجزء الأول يتناول حياة جاليليو العالم الفلكي الكبير الذي حاكمته محاكم التفتيش؛ لأنه نادى بأن الأرض كروية وأنها تدور حول الشمس، وأما الجزء الثاني من الكتاب، فهو يتناول حياة رجل دين معروف بالتقوى اضطهدته محاكم التفتيش وأحرقت جثته؛ لأنه كان يفضح عيوبها ويهاجم فساد البابوات. أما الجزء الثالث والأخير في هذا الكتاب، فهو يتناول حياة وفلسفة برونو الذي ناصب الكنيسة الكاثوليكية العداء واتهمها بالجهل والفساد؛ فكان مصيره الحرق حياً.